وجدانيات الشاعر : محمد عبد الرحمن صان الدين دراسة أدبية تحليلية

إعداد الدكتور:

مصطفى عبد اللطيف أحمد أبو طه

المدرس بقسم الأدب والنقد

فى كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث :

الحمد لله المُنعم الوهاب ، اختص سبحانه من بين خَلقه نفـراً وهـبهم قلوبـاً شاعرة ، وأحاسيس مرهفة ، ومشاعر فيَّاضة ، وأقلاماً مُبدعة ، ويراعات معبِّـرة .. والصلاة والسلام على النبي العربي الذى كانت تستهويه الكلمـة الشـاعرة ، وتأخـذ بمجامعه اللفظة الرائقة ، لاسيما تلك التى تنبع من القلب ، وتصدر مـن الوجـدان ، وتنشد الحقّ والصدق ، وتتغياً السّمّو والطهر ، حيث تنطلق- مـن خـلال تصـور الإسلام الراشد الحكيم ، وهدي الدِّين الزكـي القويم .. صلى الله عليه ، وعلى آلـه أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم ، ورضى الله عن صـحبه الكـريم ، ومـن اهتـدى بهديهم، وسار على نهجهم ، واقتفى أثرهم إلى يوم الدِّين !.

وبعد

فقد انتابتنى سعادة غامرة ، وهزَّنى سرور كبير فى أثنـاء مطـالعتى لنتـاج واحد من شعراء الأزهر الأصلاء الجادين الملتزمين بمنهج الدِّين القويم ، المنطلقـين –فى إبداعهم- من خلال تصور الإسلام الراشد الحكيم .. قد كان الفضل فـى ذلـك لمولده ونشأته أوفر حظ وأعظم نصيب ، حيث ولد ودرج على أرض الصعيد ، وفى ظل أسرة متدينة .. حيث النخوة ، والمروءة ، والرجولة والمحافظة علـى الثوابـت والعادات والتقاليد .. ثم كان له شرف التعلم فى رحاب الجامع الأزهر الشريف فنهل من ينابيعه الثّرّة ، ومتح من روافده الهتانة ، واغترف من بحـور علمـه ومعارفـه الغزيرة العميقة ، واختلف إلى علمائه النجباء الأكـرمين ، وتشـرَّب مـن فكـرهم المستنير ، النابع من هدي الدِّين الحكيم ، وسيرة سيد المرسلين سيدنا محمـد عليـه الصلوات والتسليم .. حيث لا يخفى ما لتعلم الشاعر فى رحـاب الجـامع الأزهـر

الشريف من أثر كبير فى صقل موهبته ، ودعم ملكته ، وبناء شاعريته ، وتزويد تقافته ، وتأكيد هويته ، وتقوية تديُّنه .. إنه الشاعر الإسلامى الملتزم –حتى النخاع – محمد عبد الرحمن صان الدِّين .. ذلك الذى منحه الوهاب –سبحانه– موهبة شعرية ثـرة ، وملكة أدبية طيِّعة ، وذوقاً رفيعاً ، وحساً رهيفاً ، وتديناً صادقاً ، والتزاماً أكيداً .. حيث رأيناه يتغنى – فى واحدة من وجدانياته– منبئاً عن فلسفته فى الشعر ، ومنهجه فى الإبداع – مؤكداً إيمانه بما للكلمة من مسئولية والتزام أخلاقي ، مُعلياً من قدر الفنِّ الراقى ، والشعر السامى ، الذى يسمو بالمشاعر ، ويرقى بالأحاسيس ، ويُحلِّق بهما بعيداً عن أدران الماديات ، ودَرَك السخافات ، وهوة النزوات .. حيث يقول :

أيا شعر ، إن لم تنتصر لعقيدتى ... وتجهر بها فى الناس كُنَت عقيما
وإن أنت بالأنغام لم تُعلِ عندهم ... عواطف دُنيا كنت منك سقيما
رأيتك عند القانتين لربهم ... ملاكاً وعند الغافلين رجيما
ونظّام هُجر القول ليس بشاعر ... وإن هز أعطافاً وصاغ نجوما
سمو المعانى فى القريض منابع ... تفيض بجدباء النفوس نعيما
وتضفى على الدنيا بهاءً ورونقاً ... يضيئان من قدس الجلال حلوما
لهذا جعلت الشعر نايـاً أبثـه ... ترانيم قلب لايزال صميما
تزاويق شيطان الهوى لم تَمِل به ... وهل يستميل الغي قط سليما؟!
يرى أن قول المرء فى كل حالة ... يصير بديوان السماء رقيما
ومن يحظ بالذوق الرفيع فإن ... نه يكون لسفساف القريض خصيما
فلا كان فن بالمجون مزخرفاً ... ولا كان شعر يستبيح حريما!!(١)

(١) ديوان : أعاصير وأنسام –شعر محمد عبد الرحمن صان الدين –صـ ٢٢– ط– الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨م ، والهُجر : الهذيان ، وحريماً: الحريم : المصان الممنوع.

ويقول مُناجياً قريضه ، مُهيباً به أن يكون مصدر نـور وإشـعاع ، ومنبـع هدايـة وضياء:

يا قريضى كن ضـياء	ورياضاً وظـــلالا
وامنح الدنيا عبيـــراً	وســــلاماً وجمالاً
واسـر فى الأفــــها	م والوجدان سلسالاً زُلالا
واجعل المنظـوم فـــى	ترنيمه سحراً حـــلالا
هل يكون النظم شـعراً	إن عن الأخلاق مالا؟!
يا قريضى كن لوجدانى	وفكرى مستجيـــباً
واجعل الإيمان لحـــناً	يطرب الكون الرّحيبا (١)

وقد أتيح للشاعر أن يواكب –فى أيام شبابه الأولى ، وسني عمره المبكرة – ذلك الاتجاه الشعري– الذى يُعرف : "بالرومانسي " ، فعكف شاعرنا على الاطـلاع على تجاربه ، لاسيما بعد أن تُرجمت العديد من قصائده إلى العربيـة – ممَّـا أتـاح لشاعرنا ، وللكثير من الشباب فى عصره – الاطلاع على تلك القصائد – بما تحملـه من سمات الرومانسية .

وقد صادف هذا الاطلاع هوىً وحباً فى نفس شاعرنا ، ولقـى قبـولاً لديـه وترحيباً .. حيث كان لديه استعداد فطري لتقبُّل هذا الاتجاه ، لاسيما بعـد أن امـتلأ صدره به ، فى أيام شبابه الأولى ، وسني عمره المتقدمة ، فرأينا لهذا الاتجاه أعنـى – الوجداني " الرومانسي " أثراً ملحوظاً ، وصدى ملموساً فى شعره .. حيـث بـدا متحققاً فى تجارب ليست بالقليلة فى شعره ، مما جعله واحداً من الشعراء الوجدانيين الذين تغنوا بما تغنى به شعراء ذلك الاتجاه .. بجانب توجُّهـه الإسـلامى الملحـوظ

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان : خماسيات شعرية – شعر محمد عبد الرحمن صان الدين –صـ ٨٥ – ط دار المعلمي للنشر – الرياض ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م .

والذائع فى شعره ، فرأيناه من ثم شاعراً إسلامياً وجدانياً : "رومانسياً " فى آنٍ واحد .. على نحو ما ستقف عليه تلكم الدراسة- بإذن الله سبحانه ، وبتوفيقه .

وإذا كان لى أن أُبدي هنا دواعي ودوافع اختياري لهذا الموضوع للبحث والدراسة ، فإنه يمكن لى أن أورد فى هذا الصدد سبباً وداعياً "عاماً" ، وبعد ذلك تأتى دواعٍ ودوافع خاصة بطبيعة الموضوع هنا ..

يتمثل السبب والدافع العام فى حُبِّى الجمَّ الشديد للأزهر الشريف - ذلكم الجامع والجامعة - مصدر النور ، ومنبع الضياء للكون بأسره ، ومن ثم حُبي وإعزازى وتقديرى وتبجيلى لشعرائه الأفذاذ- أولئك الذين يجمعون - فى أكثر الأحيان -بين الأصالة والمعاصرة ، ويحرصون على الإتقان والرصانة ، وصفاء الديباجة ، وسلامة اللغة ، والمحافظة على الثوابت والتقاليد الفنية الموروثة للشعر العربي الأصيل ، كما يحرصون على أن يؤدي شعرهم رسالة إيجابية فاعلة تؤتى ثماراً إيمانية يانعة ؛ بما تتضمنه من قيم عليا ، ومثل سامية ، وأخلاقيات نبيلة ، وفوائد جمة كثيرة تنطلق جميعاً - من خلال تصور الإسلام الراشد الحكيم للإنسان والكون والحياة ، مما يرقى وينهض ويسمو ويعلو بأذواق المتلقين ، ويأخذ بأيديهم نحو النهضة والبناء والإصلاح .. ولاشك فى أن شاعرنا صان الدِّين هو واحد من هؤلاء الشعراء الأزاهرة الملتزمين الإيجابيين الإصلاحيين - على نحو ما بدا فى قوله ينبئ عن فلسفته فى الفن ، وطبيعة نظرته إلى الشعراء- من خلال تجربتيه المذكورتين آنفا ، وكما سيبدو جلياً- فيما بعد من صفحات تلكم الدراسة- بإذن الله، وبتوفيقه -سبحانه.

أما عن الدواعى والدوافع الخاصة بطبيعة الموضوع هنا فيتمثل بعضها فيما يلي: رأيت أنه من باب تتمة الفائدة ، واستيفاء جزئيات الصورة ، وإتمام المشهد -

أن أخُصَّ هذا الجانب الإبداعي – أعنى الجانب الوجداني فى شعر صان الدِّين بالبحث والدراسة هنا – حتى تكتمل زوايا دراسة شعره .. حيث نما إلى علمى أن الجانب الإسلامي فى شعره قد حظي بدراسات عديدة ، فأردت أن آتى على ذلك الجانب الوجداني الذى ربما يكون قد غفل عنه الكثير من الباحثين والدراسين .. ؛ لما اشتهر واستقر فى الأذهان غالباً عن شعراء الأزهر – أنهم يُبدعون شعراً إسلامياً يُعنى فقط بالعقيدة والتوحيد ، ونبي الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم ، وشعائر الدِّين ، وذكريات المسلمين .. فى حين أنَّ لهؤلاء الشعراء الأزاهرة جوانب إبداعية أخرى قد يغفل عنها الدارسون والباحثون .. تلك الجوانب قد تبدو مهمة ، وتمثِّل ظاهرة فى شعرهم تستأهل الوقوف عندها – مثلما هو الحال عند شاعرنا صان الدِّين– خلال تجاربه الوجدانية – موضوع الدراسة هنا .. مما قد يُعطى لتلك الدراسة بعض القيمة والتميز ، وما قد يُرجى من ورائها من فائدة .

ولعل الدافع الذى بعد ذلك يتمثل فى : ما تتسم به تجارب صان الدِّين الوجدانية من سمات الجودة والقوة والتميُّز والبراعة ، وما تحمله من قيم ومعانٍ ومُثُل ومضامين إنسانية نبيلة ، لاسيما ما قام منها على الغوص والتأمل فى حقائق النفس والكون .. تهدف إلى غايات تهذيبية ، وسلوكيات تربوية تسمو بذوق المتلقين ، وترقى بهم إلى عوالم من السموِّ والرقي والطُّهر والنُّبل ، مما يجعل تجاربه الوجدانية :" الرومانسية " مفعمة ، وممتلئة بالمضمون الإسلامي الحكيم ، ويضعه فى مصاف أولئك الشعراء الذين جمعوا بين المضمون الإسلامي ، وبين المضمون الوجداني: " الرومانسي" ، فهو أي شاعرنا – كما قال الدكتور / مختار الوكيل : " شاعر إسلامي رومانسي فى آنٍ واحد"(١) .

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام : للشاعر محمد عبد الرحمن صان الدين ، مقال بعنوان : جولة فى الديوان المذكور : للدكتور مختار الوكيل – المقدمة – صـ ١٨ .

هذا ويمكننى – بفضل الله سبحانه – وبتوفيقه – أن أقسم تلك الدراسة بعد المقدمة التى نحن بصددها الآن – إلى تمهيد ، وفصلين ، وخاتمة ، وقائمة بمصادر الدراسة ، ومراجعها .

جاء التمهيد بعنوان : الشاعر محمد عبد الرحمن صان الدِّين سيرة حياة ، ورحلة إبداع – بينما حمل الفصل الأول من تلكم الدراسة عنوان: **الأبعاد الفكرية للتجارب الوجدانية فى شعر صان الدِّين** ،ويتضمن أربعة مباحث :

المبحث الأول : التأمل فى شعر صان الدِّين .

المبحث الثانى: الشكوى والألم فى شعره.

المبحث الثالث: الغربة والحنين فى شعره .

المبحث الرابع: الطبيعة وتشكيل الإحساس الوجداني: "الرومانسي" فى شعره.

فى حين جاء الفصل الثانى بعنوان: **السمات الفنية للتجارب الوجدانية فى شعر صان الدِّين** .. ويحتوى على سبعة مباحث :

المبحث الأول: بناء القصيدة الوجدانية فى شعر صان الدِّين .

المبحث الثانى: المعجم الشعري –فى القصيدة الوجدانية لدى صان الدِّين .

المبحث الثالث:من خصائص التراكيب–فى أساليب الشاعر– خلال تجاربه الوجدانية.

المبحث الرابع : من الظواهر البديعية فى الأسلوب – خلال تجارب الشاعر الوجدانية .

المبحث الخامس : الصورة الفنية – خلال تجارب الشاعر الوجدانية .

المبحث السادس : عاطفة الشاعر –خلال تجاربه الوجدانية .

المبحث السابع : الموسيقى الشعرية – خلال تجارب الشاعر الوجدانية .

وتأتى بعد ذلك خاتمة الدراسة ، وتقع أعيننا أخيراً على ذلك الثبت بمصادر ، ومراجع الدراسة.

وإننى إذ أشرع فى معالجة تلك الدراسة ، وتحليل أفكارها وسماتها ، وتفصيل القول فى جزئياتها ، أتوجه إلى ربِّى سبحانه راجياً منه وضارعاً مُلحاً ومُلحفاً فى الرجاء والضراعة أن يمنَّ علي بالتوفيق والسَّداد ، وأن يلهمنى الحكمة والصواب ، وأن يُذلِّل بحوله – ما فى هذه السبيل من صعوبات ، وأن يُقيل بِطَوله ما فيه من من عثرات ، فتؤتى تلك الدراسة – بإذن ربها ما يُرجى ويؤملُ لها من فوائد وثمار .. فتغدو– من ثم – خطوة إيجابية فى طريق البحث العلمي الجاد ، ولبنة فى بنيان أدب الإنسانية الخالد .. إنه سبحانه أرجى مأمول ، وأكرم مسئول ..

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .)

الباحث

التمهيد

الشاعر محمد عبد الرحمن صان الدِّين سيرة حياة ، ورحلة إبداع (١)

ويتضمَّن النقاط التالية:

أولاً: مولد الشاعر ، ونشأته ، وثقافته :

شاعرنا هو محمد عبد الرحمن صان الدِّين ابن الصعيد .. تلك الأرض الطيبة .. حيث ولد فى بلدة : "برديس" – إحدى قرى مركز البلينا– محافظة سوهاج ، وذلك فى اليوم الثالث من شهر يناير عام ألف وتسعمائة وثلاثة وعشرين من الميلاد– فى ظلِّ أسرة صيِّنة مُتدينة .. وقد نال من الرعاية والاعتناء من قِبل والديه النصيب الأوفى ، والحظ الوفير ، حيث لم يُرزقا بمولود ذكر غيره .. ومن ثم كانا حريصين على تعليمه، وتزويده بالقدر الكبير من التعليم النظامي الموجود فى أيامه آنئذٍ .

وقد أتاح ثراء الوالد للفتى محمد أن يحيا حياة رغدة وادعة يتسنى له معها أن يتفرغ لتعليمه .. ليلتحق بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم بالمدرسة الأولية .. وقد من الله سبحانه على الفتى محمد فيسَّر له الالتحاق بالدراسة، والتتلمذ بالأزهر الشريف – الجامع والجامعة ؛ ليعبّ من علومه ومعارفه الغزيرة ، ويرتشف من رحيق فكر

(١) أفدت فى إعداد هذه السيرة الحياتية ، والرحلة الإبداعية للشاعر محمد عبد الرحمن صان الدين من كتاب : شعراء ودواوين أ/أحمد مصطفى حافظ صـ ٢٢١-٢٣٧ ط – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م ، ومقدمة ديوان: أعاصير وأنسام: للشاعر ، والتى أعدها د/مختار الوكيل صـ ٥-١٨ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م .. وغير ذلك – مما سيردُ هنا من مصادر ومراجع أفدت منها فى إعداد سيرة حياة ، ورحلة إبداع الشاعر.

علمائه ومشايخه المستنير النابع من هدي شريعة الإسلام الراشدة ، ومنهج الدِّين السمح القويم .. حيث التحق ذلك الفتى اليافع فى البداية بالقسم العام فى رحاب ذلك الجامع والجامعة ، ليلتحق بعد ذلك بمعهد قنا الديني ، ثم بمعهد القاهرة الديني ، ليتخرج منه فيعود إلى بلدته " برديس " ، حيث يعمل مأذوناً شرعياً بها قرابة ثلاث سنوات ، وخطيباً بمسجدها الكبير قرابة العشر سنوات ، ولم تقف طموحات هذا الفتى عند هذا الحدِّ من التعليم دون الترقى فى درجاته ، فقد حصل على الشهادة الأهلية الأزهرية القديمة عام ١٩٥١م فى أثناء عمله : بالمأذونية ، والإمامة " .. ثم حصل على ما يُعرف وقتها بدبلوم الدراسة التكميلية التربوية .. هذا الذى فتح له باب التدريس لمادتي : اللغة العربية ، والتربية الدِّينية فى المدارس الابتدائية ، والإعدادية ببلدته .. وقد حدت طموحات الفتى محمد، ودفعته تطلعاته نحو الأفضل إلى أن ينتقل إلى القاهرة – حاضرة البلاد فيستقر مقامة بها عام ١٩٧١م ؛ ليكون قريباً من المحافل الأدبية ، والمهرجانات الشعرية ، والمنتديات الثقافية ، والمكتبات الضخمة الشهيرة .. وقد عمل فى هذه الأثناء وكيلاً لمدرسة محمد فريد بعابدين .. ليعار خارج مصر ، حيث ليبيا قرابة الأربعة أعوام، حيث كان يعمل فى إحدى حواضرها : الكفرة " مُدرساً بمدرسة الكسائي القرآنية، ومدرسة المعلمات .

وقد تملكته وسيطرت عليه فى هذه الفترة من الغربة مشاعر الحب والشوق واللهفة والحنين ، واستبدت به أحاسيس الألم والحزن والأسى إزاء وطنه ، وبخاصة بعد ما نمى إليه نبأ رحيل والدته – ذلك الذى آلمه ، وأحزنه كثيراً .. ثم يئوب شاعرنا إلى وطنه ليعمل بإدارة التخطيط والتنسيق بديوان عام وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ، ليترقى بعد ذلك إلى وظيفة ناظر بذلك الديوان ، ثم رُشح إلى وظيفة موجه .. لكنه لم ينتظر دوره فى مباشرتها فآثر أن يُحال إلى المعاش قبل بلوغه بعامٍ ، بإرادته واختياره عام ١٩٨١م ؛ ليضع عن كاهله أعباء الوظيفة ، وليتخفف من

قيودها ؛ كي يتفرغ إلى شدوه وتغريده ، ويخلو إلى إبداعه وترنيمه ، حيث الشعر – ذلك الخل الوفي الذى أخذ بمجامعه ، وتغلغل فى روحه ، وسرى فى كيانه .

ثانياً :صفاته وأخلاقه :

وقد اتسم شاعرنا محمد عبد الرحمن صان الدِّين بسمات- هي فى مجملها- سمات المؤمن الصادق العفِّ المتدين الذى تزيًّا بالتقوى والمراقبة ، وتزين بالحياء والورع ، حيث تمتلأ نفسه – فى شعره- بقيم وأخلاقيات دين الإسلام الراشد ، ويسرى فى كيانه روح شريعته الغرّاء .. فهو من أكثر الشعراء فى عصره تحقيقاً لمنهج الدِّين الحنيف الذى استمده منذ حداثة سنِّه – مما درسه فى رحاب الجامع الأزهر الشريف ، وهو من أقرب الشعراء تعبيراً عن منهج الأزهر السمح المُعتدل .. وللقارئ الكريم ، أن يقرأ ما قالته الشاعرة جليلة رضا عن أخلاق وطباعه :" وإذا أحببنا أن نعرف شيئاً عن أخلاق شاعرنا صان الدِّين يكفى أن نقرأ له هذين البيتين من قصيدة له طويلة تسمى : الحارس اليقظان :

رقيب ضمن ذاتى لا يحور وقاضٍ لا يميل ولا يجور
وسلطان تحكَّم فى كيانى بقسطاس يُقال له الضمير(١)

ففى داخل وكيان الشاعر ضمير يقظ – هو بمثابة ظلِّه الذى يصاحبه ، ولا يفارقه قط ، بل يملك عليه كيانه ، ويأخذ بمجامعه نحو التقوى ، والمراقبة لله عز وجل.

---

(١) مجلة الأزهر – عدد جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ – فبراير ومارس ١٩٨٦- مقال للدكتور: مختار الوكيل صـ ٨٧٩ .. وينظر هذان البيتان المذكوران ، وغيرهما فى ديوان : أعاصير وأنسام صـ ٢٥ ، ومعنى لا يحور : لا يتحول ويهلك .

وشاعرنا يعتد بكرامته ، ويعتز بنفسه .. ولعل ذلك هو ما جعله يعزف فى بداية عمره عن نشر شعره ؛ لخوفه وإشفاقه من عدم تقدير دور النشر إياه ، وألا تستقبله بالقبول والترحيب ، حيث إنه – أي الشاعر يعتقد اعتقاداً راسخاً :" بأن الشعر تعبير أدبي ممتاز ، عارض غير مستديم ، وهو بالنسبة لمنهج الحياة الواقعية مثل شذوذ القاعدة والقانون ؛ لأنه تعبير سام غير مضطرد ، ومن ثم فهو أسمى ضروب فن القول فى لحظات الأفهام والتجلِّى ، ويتعين صيانته من الابتذال ؛ لأنه تعبير خالص من الشوائب عن أعمق وأرقّ المشاعر الإنسانية التى يصوغها الشاعر من عمق وجدانه ، ورؤاه ، وليس كتكليف بعملٍ ، أو وظيفة تُؤدَّى " (١).

وشاعرنا كان متسماً بأهداب الدِّين والفضيلة ؛ ولعل ذلك هو ما جعله يعزف عزوفاً تاماً عن الهجاء ، والتغزل فى المرأة ، والتفنن فى إبراز محاسنها ، وإبداء مفاتنها وغير ذلك مما يؤاخذ به ، ويحاسب عليه من غواية وضلال ، وإنما هو يريد لها أن تكون دائماً مصونة مُهابة الجانب ، آمنة من عبث العابثين ، وتعدى الآثمين .. سالمة من التخرُّصات والأقاويل ، والتهويمات والأباطيل .

وقد رُزق شاعرنا نفساً رقيقة ، وحساً رهيفاً ، يميل بطبعه وتكوينه إلى العزلة والانزواء ، والانقباض عن أترابه ولداته وبنى مجتمعه ، حيث يصطدم مع عالمه المليء بالمفاسد والمتناقضات ، ويفرّ منه لائذاً بأحضان الطبيعة ، آنساً بربوعها ، واجداً فيها الحنو والحنان ، والدفء والوئام ، حيث يفتقد كل تلك المشاعر– وهو يحيا دنيا الناس ، وبين أهله وذويه ، فيشعر بأنه غريب فى دنياه ، على نحو ما يبدو فى قوله :

صرت أمشى فى طريق   موحش فرداً شجيا

---

(١) شعراء ودواوين :أ/أحمد مصطفى حافظ – صـ ٢٢٢ .

كالــذى يمشـــى بقفــر لا يرى فيها نجــيًّا
غير ذؤبـــــان ورقـــط تبتغى لحماً طريا[١]

كما تتجلى تلك المعانى والمضامين لدى الشاعر فـــى قولـــه مـــن قصيدته ذات العنوان الدال المُعبِّر : " حائر " :

يا أولى الألبــاب ، إنـــى حـــــائر قــد نَدَّ حلمـــى!
واختفى عنـــى طريقـــــى فـــى غيـــابات الخضـــم!
أين شرقـــى ، أين غربـــى والسوافى الهُـــوجُ تعمى؟!
خبــرونى كيــف أخطـــو فى ضبــاب تحت غيـــم؟!
فــوق شـــوك وصخــر فى طريــق العيــش تدمى؟!
ضـــاع أمنـــى وائتنـــاسى بيــــن غيـــــلان ورُقم!
إننــــى أحيــــا غــريباً وسط أقــــرانى وقــومى![٢]

ثالثاً: ثقافة الشاعر ، وشاعريته :

تضافرت لشاعرنا عدّة روافد أمدت ثقافتــه بــالري والنمــاء ، والخصــب والثراء، حيث عملت على غزارة وتنوع ثقافته ، وأسهمت فى بناء وتكوين ثقافتــه ، حتى يمكنه مواكبة متغيرات عصره ومستجداته ، لاسيما ما طرأ ، على الاتجاهــات الأدبية ، والمدارس الشعرية آنئذ من تجديد ظهر علــى إثــره الاتجــاه الوجــداني:" الرومانسي" ، كصدى من أصداء المدرسة الرومانسية الغربية آنئذٍ .. حيث يمكــن أن نعزو ثقافة شاعرنا إلى عدّة روافد يأتى فى مقدمتها : حفظه للقرآن الكريم ، ثم تعلمه فى رحاب الجامع الأزهر الشريف ، وانتهاله من موارده المعرفية ، وارتشــافه مــن

---

(١) ديوان أعاصير وأنسام – صـــ ٤٩ ، والرَّقم: الحيات المنقطة الشرسة .
(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٤٨، ٤٩ . والرُّقم : الحيّات المنقطة المرقشة الشرسة .

ينابيعه الفياضة الثرية ، مما كوَّن لديه ثقافة دينية مستتيرة ، قوامها الـدِّين الحنيـف الصحيح .. وقد انعكس أثرها بعد ذلك سواء فى فكر الشاعر المعتدل المسـتنير ، أم فى صياغته الرصينة ، ومُحافظته على الثوابت والتقاليد العربية الموروثـة للشـعر العربي .

يأتى بعد ذلك : إطلاع الشاعر على أمهات كتب الأدب العربي فـى القـديم والحديث ، وإفادته مما ترجم من أعمال ابداعية إلى اللغة العربية ، وانتهاله ممـا تحويه من معارف وكنوز .. وتأثره برواد النهضة الأدبية فى عصره .

ولنترك المجال فى ذلك الشأن للأستاذ أحمد مصطفى حافظ ، حيـث يحـدثنا عن بداية ، وكيفية بناء ، وتكوين الشاعر لثقافته وشاعريته فيقول : " وإذا أردنـا أن نزداد تعمّقاً فى سبر أغوار الشاعر ، واستكناه مراحل تكوينه الأدبي ، والوصول إلى الجذور الأولى لروافد ومنابع تثقيفه الذاتي ، يتعين علينا أن نتابع التنقيب فـى رحلـة حياته فى مراحلها الأولى ، لنجده يعكف فـى صـباه البـاكر علـى : (نظـرات) المنفلوطي (وعبراته) ، و(مجدولينه) ، و(وحي قلم) الرافعى ، وسائر نفثاته فـى: (إعجاز القرآن) ، و(أوراق الورد) ، و(حديث القمر) ، و(السحاب الأحمر) .. كما يصاحب محمد السباعي فى ترجمته لرباعيات الخيام ، والزيات فـى نفثـات قلبـه ، وترجماته لعيون الشعر والقصص الفرنسي إلى العربية .. كما يطيل الوقـوف لـدى المتنبى فى حِكمه وروائعه ، والمعرى فى فلسفته وتطيُّره ، وابن الرومي وبشار فـى صورهما البيانية وبراعتهما الفكرية ، وتظل هذه الآثار الأدبية تعمل عملها السـحري فى تعميق ثقافته ، وتكوين أدواته التعبيرية ، وصقل موهبته الشعرية .. " [1] .

---

(١) شعراء ودواوين: أ/ أحمد مصطفى حافظ صـ ٢٢٦ .

فلم تعُق دراسة الشاعر الأزهرية الخالصة من إفادته من المدارس الثقافية المتنوعة بطريقة مباشرة وغير مباشرة ، شأنه فى ذلك شأن الكثير من الألباء الأذكياء ، ممن سبقونا إلى الانتهال من موارد المعرفة والثقافة فى شتى أرجاء الدنيا .. " لقد كان الاتجاه الرومانسي فى أيام شباب الشاعر الأولى هو الاتجاه الظاهر البارز فى شتى مرافق الحياة الأدبية فى مصر ، فقد كان كثير من الشباب يعكفون على دراسة أدب الرومانسيين ، وشعرهم فى الغرب فى تلك الحقبة ، واهتمت جماعة " أبوللو" بتقديم كثير من شعراء الرومانسية وأدبائها فى الغرب إلى جمهور المثقفين فى مصر ، ففى العشرينيات والثلاثينيات وما قبلها من هذا القرن كثرت الدراسات ، والأبحاث عن شعراء الرومانسية وأدبائها عندنا فى مصر ، وفى عدد من الأقطار العربية الأخرى .. ومن ثم سمع أدباء العربية بأسماء : " فيكتور هوجو" ، "لامرتين " ، "شيلى " وغيرهما .. ومن هذه الكوكبة اللامعة من شعراء الرومانسية الأفذاذ فى أوربا تولى كثير من الشعراء والأدباء المُجدِّدين نقل طائفة من أشعار أولئك الشعراء الرومانسيين إلى اللغة العربية .. فأضافوا بذلك ثروة ثمينة إلى الشعر العربي الحديث كان لها أثرها العظيم فى تنقيح هذا الشعر العربي الحديث بالصور والأخيلة التى ابتدعها أولئك الشعراء الرومانسيون فى الغرب ، وكان أعظم المستفيدين من هذه الترجمات هم أولئك الذين لم يقفوا على تلك الأشعار فى لغاتها الأصلية .. وبالفعل ظهرت طائفة من الشعراء الذين لم يعرفوا إلا اللغة العربية بإنتاج رومانسي رائع ، وأعتقد أن هذا الاستنتاج ليس بحاجة إلى دليل ، ويستطيع متتبع النهضة الأدبية – عندنا أن يستخرج الأمثلة العديدة المؤيدة لهذا ، ولا يعنى هذا أن شاعرنا صان الدِّين كان مجرد مستفيد ، مما ترجم إلى العربية ، إذ الواقع يؤكد أن صدره كان ممتلئاً بالاتجاه الرومانسي ، وأنه تقابل مع هذا اللون الجديد من الشعر حينذاك ؛ لاستعداده الفطري ، ولأن هذا الاتجاه الشعري كان سائداً فترة شبابه الأولى .. وهذا التقابل بينه وبين الرومانسية قد أنجب لنا شعراً نسعد به ، ومن أهم قصائد الشاعر ، وأجملها (

فى هذا الصدد) قصيدة : " حلم شاعر" ، وفيها يتجلَّى هذا الميل الشديد إلى العُزلة ، وإلى العيش فى أحضان الطبيعة ، فهي خير أنيس ، وأصدق صديق للنفس الشاعرة ، انظر إليه يقول :

يا حبذا العيش الوديع بواحة … شجراء قد ناءت عن العمران !!
فى عزلة ما شاهدتها أعين … أبداً ولا خطرت بها قدمان
يُضفى عليها الطهر روعة حسنه … فتخالها من جنة الرضوان
وهناك فى حضن السكون أُعِدُّ من … عف النخيل ويابس الأغصان:

كوخاً تحف به الزهور ويكتسى … بقشيب ظل الدَّوح والأغصان

وهذا الاتجاه إلى اعتزال الناس ،والنزوع إلى العيش فى رحاب الطبيعة ، بعيداً عن الحياة والأحياء من البشر هو اتجاه رومانسي صادق(١) .

وهكذا قُدّر للشاعر أن يطّلع على أمهات كتب الأدب العربي منها وغير العربي .. حيث قام بالاطلاع على الأدبين الفارسي والفرنسي وبخاصة : أشعار هذين الأدبين : للفردوسي ، وجلال الرومي ، وهيجو، ولامرتين.. وكذلك أشعار جوته الألماني الشهير فى الديوان الشرقي الذى تحدث فيه عن أمجاد الإسلام ، وأشاد بحضارته العظيمة .. ولا شك فى أن اطلاع الشاعر على هذه الذخائر والكنوز من شأنه أن يكسب ثقافته صفات العمق والغزارة والتنوع والثراء والتجديد .

كما كان لرواد النهضة الأدبية فى مصر، وأعلام الأدب والفكر فيها وافر الحظ ، وبالغ الأثر فى بناء وتكوين وتعميق ثقافة الشاعر ، ها هو ذا الدكتور / محمد

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – مقال د/ مختار الوكيل : جولة فى ديوان :أعاصير وأنسام – المقدمة – صـ ٦ ، ٧ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨م .

عبد المنعم خفاجى – رحمه الله– يشير إلى ذلك بقوله :" عاصر صـــان الــدِّين رواد النهضة فى مصر ، وأعلام الأدب والفكر والفن فيها ، وقرأ روائع آدابهم ، وخوالــد أفكارهم ، وتزوَّد بقسط وافر من ثقافات عصره ، ومنحه الله موهبة غنيــة ، وذوقــاً رفيعاً، وملكة طيِّعة ، وحساً مرهفاً ، مما حبَّب إليه الأدب والشعر ، ووصله بينــابيع البلاغة العربية الأصيلة– مُنذ نعومة أظفاره ، وكانت حياته فى الأزهر بادئ ذى بدء عاملاً كبيراً فى صقل مواهبه ، ودعم ملكاته ، وتأكيد هواية الأدب فى نفســه ، كمــا كانت قراءاته الواسعة الواعية لأعلام النثر الفني القدماء والمحدثين عاملاً كبيراً فــى تأكيد أصالته، ونضج ثمار براعته ، وامتلاء ذهن أديبنا بروائع التــراث ، وشــوامخ الأفكار الأدبية فى مختلف عصورها جعل منه شخصية أدبية ذات طــابع خــاص ، ومنحى متميز فى الفكر والحياة"(١) .

ثم يأتى بعد ذلك رافد : تفاعل الشاعر مع أحداث عصره وإفادته منها فــى حياته وإبداعه ، حيث لا يعدم – عصر الشاعر – مثل غيره من بقية العصور مــن الأحداث التى حفل بها – على المستويين : مستوى وطنه مصر ، ومســتوى وطنــه الإسلامى الكبير ، وما كان لتلك الأحداث من حضور ملحوظ فى إبــداع الشــاعر ، حيث لا تغيب قضايا بنى وطنه عن مخيلته قط ، بل تظل ماثلة فى كيانه ، حاضــره فى وجدانه .. فهو القائل يجهر فى أمة الإسلام ، ويصرخ فى أقطارها قاطبة ، مهيباً بها أن تنهض من كبوتها ، وتستيقظ من رقدتها ، وتفيق من سكرتها ، فتعود من ثــم لسابق مجدها ، وسالف عزها :

أمة القرآن والإيمــا ن والفصحى أفيقى

---

(١) كتاب : شوارد وسوانح: بقلم :محمد عبد الرحمن صان الدين – تصدير د/ محمد عبد المنعم خفاجى – صــ ٤ ، ٥ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٨٩م .

وادرئى فى عزم حُرٍ هجمة الشر المحيق
واجمعى أشتات شمل حول ميثـــاق وثيق
وارجعى من غير إبطا ء إلى قصد الطريق
أمة من غيـــــر لون تتوارى فى سحيق [١]

رابعاً: شعره وشاعريته :

كانت بداية رحلة شاعرنا مع الإبداع مبكرة ، إلا أن رحلته مع نشــر شعره جاءت متأخرة .. حيث لم يشرع فى نشره إلا بعد أن أحيل للمعاش قبل بلوغه سن التقاعد آنئذٍ ، وبعد أن شعر بأنه طائر غريد يُحلق فى جو الســماء الفسيح فيملؤها شدواً وتغريداً ، بعد أن تخلص من أعباء الوظيفــة ، وتحــرر من قيد العمل الحكومي فراح ساعتها يشدو، ويتــرنم بشــعره ، وقــد أحجــم الشاعر عن نشر شعره كل تلك الفترة ؛ خوفاً من أن يعرض شعره على مــن لا يقدره ، ولا يرحب به .. وهو أى شاعرنا وُهب نفساً كريمة أبية لا تُحــب النفاق ، ولا تجيد التزلّف:" والأمر الأعجب ، أنه لم يمض قدماً على الــدرب فى نظم الشعر ، فقد مزق كل ما تجمع لديه من شــعر فــي لحظــة يــأس ، وانقطع تماماً عن نظمه لفترة طويلة تقرب من العشرين كانت كفيلة بانضــاب ينابيع الشعر فى مخيلته بعد ما لاقى من المثبطات ، ومن عنت الحياة ، ومــا لاقى من إنكار وجحود وإحباط يتمثل فى الحط من قدر الشعر ، ممن ليســوا أهلاً للحكم على شعره ، وتذوقه ، إلا أن شاعرنا – على الرغم مــن ذلــك – اندفع مترنماً ثانية فجأة بعد طول الصمت والاحتباس ، وكأنــه النهــر الــذى

---

(١) ديوان الإنسان فى الميزان – خماسيات شعرية : للشاعر محمد عبد الرحمن صان الدين – صــ ٧٩ .

يتدفق مُزبداً ليكتسح ما قد يعترض طريقه من صخور وجنادل .. "[١] فأنى للشاعر التوقف عن الشدو، والتغريد بالشعر ؟! وفيه الحياة بالنسبة له ، حيث يقول :

أأفصح أم أموت بما أُعانى وأمضى بين تيار الزمان؟!
وفى قلبى أناشيد عِذابٌ وفى الوجدان أبكار المعانى؟![٢]

إلى أن يقول واصفاً نفسه ، مؤكداً مدى أهمية التغريد بالشعر بالنسبة له ، حيث يجد فى ذلك حياته ، وهناءته ، ودعته ، وانطلاقه:

أنا فى دوحة الدنيا هزار وهل يحيا الهزار بلا أغان؟![٣]

وكانت بداية نشر الشاعر لشعره فى العديد من المجلاَّت الإسلامية والثقافية فى مصر والعالم العربي من مثل مجلات : الأزهر ، منبر الإسلام ، الوعي الإسلامي الكويتية ، منار الإسلام الإماراتية ، الأمة القطرية ، الهلال ، الجديد ...

خامساً: نتاج الشاعر الأدبى :

أبدع الشاعر نتاجاً أدبياً يتمثل – تقريبا– فى ثلاثة دواوين شعرية ، وعمل نثري .. طبع ديوانان من هذه الثلاثة ، وظل الثالث " قيد الطبع" .. أول هذين الديوانين المطبوعين : ديوان " أعاصير وأنسام" – وقد صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨م ، وقد كان هذا الديوان موضع إشادةٍ وتقدير من قِبل الأدباء

(١) دواوين وشعراء – احمد مصطفى حافظ صـ ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣١ .
(٣) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٤ .

والشعراء والنقاد .. حيث يشيد به الدكتور / مصطفى حسين فى قوله عنه : " إنه إضافة خصبة لعالم الشعر بعامة ، وللأدب الإسلامي بخاصة " (١) .

وها هي ذى الأستاذة الشاعرة جليلة رضا تشير إلى ذلك الديوان ، وتقف على طبيعته حيث تقول : " فمن جذور الإيمان تغذَّى هذا الديوان ، ومن رحيقه الشهي نمت أشعاره وتفتحت" (٢) .

ولنا أن نطالع هذا الكلام الذى يكشف عن حال وطبيعة تجارب الشاعر- خلال ذلك الديوان ، مُشيداً فى الوقت ذاته بشاعرية صاحبه الكبيرة .. " وهو [أي هذا الديوان] يحمل فى طياته الأعاصير الغاضبة فى نفس الوقت الذى يسير فيه الإيمان كأنسام ملائ بالدفء والأمن والسلام .. يحمل من اسمه المعنى الكبير ، ففيه الثورة ، وفيه اللِّين ، وفيه العنف وفيه التسامح ، وفيه صدق التجربة ، إنه ديوان لشاعر لا يعرف التهريج ، ولا الالتواء ، يكتب عن فن ودراية وعلم ومعرفة ، شاعر يجمع بين براءة الطفل ، وقلب الفنان ، وعقل الفيلسوف ، شاعر يحملنا على التغلغل فى أعماق أنفسنا فى سماحة ، وحبٍ ، وصفاء " (٣) .

والناظر فى هذا الديوان يجد قصائده :" تجاربه" لا تخرج عن تلك المضامين : " الوجدانيات" ، "السبحات" ، "الأقباس" ، "الاجتماعيات" .

والديوان الثانى :" الإنسان فى الميزان" - والذى صدر عن دار المعلمي- الرياض - السعودية - ١٩٩٣م ، وقد ضمّنه الشاعر خماسيات شعرية ، كل خماسية على قافية مختلفة عن الأخرى ، تحرَّى فيها البساطة ، وعدم التعقيد ، وباعد عن

---

(١) مجلة عالم الكتاب – صـ ١٠٦ – عدد : يناير – ١٩٨٩ م.
(٢) مجلة القافلة – صـ ٤٦ – عدد : إبريل- ١٩٨٨م.
(٣) مجلة الأزهر عدد : صفر ١٤٠٨هـ – اكتوبر ١٩٨٧م – صـ ١٩٣-٢٠٠ .

الإغراب والغموض ؛ ليسهل على المتلقى فهمها ، والوقوف على مضمونها ، حيث يرصد صان الدِّين آراءه وفلسفته ، ويُودع خبرته وتجاربه فى أفكار واضحة وجلية ، تدور حول الطبيعة والإنسان فى ذاته وكيانه ، وفى تقلّبه فى حياته بين الكائنات من حوله ، وما يتعاوره من نزعات ، وتيارات ، وسمو ، أو ارتكاس " (١) .

وقد كان هذا الديوان – هو الآخر – موضع إشادة وتقدير الأدباء والنقاد فى عصره .. حيث تشيد به الأستاذة الشاعرة جليلة رضا بقولها : " إنه (أي ذلك الديوان) زاخر بالفرائد والكنوز ، وهو عمل ضخم لا نظير له فى شعرنا المعاصر، وخاصة فى طول نفس الشاعر الذى تجاوز فى هذا الديوان ألفاً وخمسمائة بيت من الشعر الطريف"(٢) .

والأستاذ الشاعر محمد عبد الوهاب – ينبئنا عن طبيعة تجارب هذا الديوان، ويوقفنا على شكل البناء الموسيقي لقصائده ، مُشيداً به –هو الآخر– حيث يقول : " هو سفر قيم وضع فيه الشاعر خلاصة تجاربه فى الحياة على هيئة خماسيات شعرية من مجزوء بحر الرمل ، جاعلاً لكل خماسية قافية مختلفة عن الأخرى ، مُتحرياً السهولة وعدم التعقيد ، وقد قسّم الشاعر ديوانه إلى أقسام وضع لها عناوينها من حيث الرابطة الموضوعية التى تربطها وهي على الترتيب : الإنسان والحياة ، لواذع ، بنت حواء ، العرب والإسلام ، الشعر والشعراء – مصر – سبحات وابتهالات– الجمال فى فطرة الخلاّق ، عبر الأحداث ، مناجاة " (٣) .

---

(١) يُنظر مقدمة الديوان : " الإنسان فى الميزان : للشاعر صان الدين – بتصرف .
(٢) مجلة الأزهر – عدد ذى القعدة ١٤١٤هـ – إبريل ١٩٩٤م – صـ ١٥٧١.
(٣) مجلة الأزهر – عدد شوال ١٤١٤هـ – مارس ١٩٩٤م صـ ١٥٧١.

أما الديوان المخطوط الـــذى ما زال قيد الطبع فهو بعنوان : فى بحار الكون " ، وهذا هو الأستاذ أحمد مصطفى حافظ يطلعنا بدوره على طبيعة ذلك الديوان ، وعدد قصائده ، وما تدور حوله تجاربه من أفكار ومضامين .. حيث يقول : " أودعــه : (يقصد ذلك الديوان) الشاعر منذ ست سنوات بالإدارة العامة للنشر بالهيئة المصـــرية العامة للكتاب ، ولم ير النور بعد ، وعدد قصائده : أربع وستون قصـــيدة ، تتغلغـل فيها الـــروح الإيمانية التى يسيح الشاعر بها فى بحار الكون ؛ ليكشف عـــن إعجـــاز الخالق في الخلق ، والإبداع ، والتصوير " (١) .

كما ارتاد أديبنا عالم النثر ، وأبدع فيه وأجاد .. حيث يوجد له كتـــاب بعنـــوان : "شوارد وسوانح " – ذلك الذى :" يضم بين دفتيه طائفة من الخواطر والأفكار التـــى تسنح بين الحين والحين ، وتُوحى بها الوقائع والأحداث فى حينها ، وهي أشـــبه مـــا تكون بنفثات شاعر يُودعها خوالج نفسه ، وخطرات فكره فـــى كلمـــات معـــدودة ، وعبارات موجزة أشبه بعملية التقطير التى تستخلص من ركام الزهـــور ، وقطـــرات العطر العبقة .. " وقد أودعتُ (الكلام على لسان المؤلف) فى شواردى وسوانحى هذه مقالات فى كلمات تغُنى عن المطولات ، وتؤدى المعنى المنشود بجرعـــة واحـــدة ، وزمن قصير .. ، إلا أنها تحتاج فى كثير منها إلى تركيز الفكر ، وتصويب البصيرة لتتبع الإيماءات والإشارات التى تقود القارئ إلى المعنى الكبير خلف اللفظ الصـــغير .. وهذه الشوارد والسوانح قد جاءت فى خريف العُمر ، وأصيل الأجل من تجـــارب الحياة كومضات أخيرة لذبالة المصباح الذى يوشك أن ينضب زيته ، وينطفئ " (٢) .

وهو (أي هذا السفر) النثري الماتع المُفيد : "صـــدى قـــراءة صـــان الـــدِّين للمعرِّي فى القديم ، ومصطفى صادق الرافعي فى الحديث .. بجانب ما تُـــرجم مـــن

(١) مجلة الأزهر – عدد شوال ١٤٢٣هـ – ديسمبر ٢٠٠٢ م – صـ ١٦٤٣.
(٢) شوارد وسوانح – تأليف أ/محمد عبد الرحمن صان الدين – صـ ١٤ ، ١٥ المقدمة .

الآداب والفلسفة الشرقية والغربية إلى ثقافته الأصيلة العربية والإسلامية ، وامتزجت تلك الثقافات، وتفاعلت فأطلعت لنا شـاعراً ناثراً اسمه محمد عبد الـرحمن صـان الدِّين .."(١).

وهو – أي هذا السفر البليغ – عبارة عن لمحات استخلصت من واقع الحياة، مرَّت على وجدان الشاعر ، فانصبغت بأجمل الألوان ، وتعطرت من عبيره الفوّاح ، وظهرت بين دفتي كتابه كجوهرة فريدة يموج بها الضياء " (٢) .

وقد قـدَّم لهذا السفر الدكتور: / محمد عبد المـنعم خفـاجى بمقدمـة دالـة ضافية، يقول منها : "بين يدي هذا الكتاب المُمتع ، والسفر البليغ : "شوارد وسوانح " يتراءى لنا صان الدِّين فى صورة الحكيم الحائر ، والفليسوف السـاخر ، والشـاعر المالك لزمام الكلمة ، والمُتذوق لسحرها ، وبلاغتها ، وموسيقاها " (٣) .

وقد أبدع شاعرنا شوارده وسوانحه تلك قبل إبداعه لديوان : "الإنسـان فـى الميزان" .. حيث كان ذلك السفر النثري إرهاصاً له ، ومُبشراً بـه ، .. " وقـد بـث [صان الدِّين] فى شوارده وسـوانحه آراءه وحكمه فى سـطور نثريـة رائقـة بليغة " (٤) .

والناظر فى تلك الشوارد والسوانح يجد مُبدعها قد قسَّمها أقسـاماً متنوعـة ، وقد جاءت فى هذا السفر على النحو التالى : حقـائق سـافرة ، اللـواذع ، العلـم ، والعلماء ، الوعظ ، والوعاظ ، مع المرأة ، ومض الإيمـان ، تسـاؤلات مُوحيـة ..

(١)شوارد وسوانح – تأليف أ/محمد عبد الرحمن صان الدين – صـ ٥ المقدمة .
(٢) مجلة الأزهر عدد شوال ١٤١٤هـ – مارس ١٩٩٤ م – صـ ١٥٧٠ .
(٣) شوارد وسوانح : تأليف محمد عبد الرحمن صان الدين– صـ ٥ .
(٤) مجلة الأزهر – عدد محرم ١٤١٩هـ – مايو ١٩٩٨م – صـ ١١٥٠ .

نصائح حانية .. ومن ذلك ما جاء فى قوله تحت باب : العلم والعلماء : "علم بلا عمل كتاب فى خزانة موصدة "، وقوله : "علم بلا فقه هو عين الجهل، فما قيمة الدر إذا لم يثقب ؟!".. وغير ذلك من شوارد صان الدِّين ، وسوانحه الوامضة الخاطفة الماتعة المفيدة .

وتجدر الإشارة إلى أن أديبنا صان الدِّين قد طرق عالم القصة القصيرة ، وأبدع فيه أعمالاً :" يُعبِّر من خلالها عن أفكاره وخواطره التى يريد التعبير عنها ، ولا يستطيع من وجهة نظره أن يُعبر الشاعر عنها ، فألف قصصاً تحمل عناوين : (المرأة والعقيدة) و (خنس الأحوال) و (فى البرزخ) .. وغيرها من القصص التى نُشرت فى مجلات أدبية وإسلامية فى مصر والعالم العربي- كمجلة الوعي الإسلامي ، ومجلة منار الإسلام [(١)] .

ولصان الدِّين طائفة من المقالات الأدبية والنقدية .. منها مقاله الذى أودع فيه آراءه فى كتاب: وحي القلم للرافعي .. حيث يشيد فيه بذلك السفر الأدبي الرائق الماتع ، مُنوِّهاً بما بين أفكاره ومضامينه من انسجام وتآزر ، واقفاً على طبيعة معالجة الرافعي لموضوعاته- خلال سفره هذا : حيث يقول : " وهو :(يقصد وحي القلم) حديقته (أي حديقة مُبدعه) الغنّاء ، وروضته الفحياء ، وهو عقد بيانه ، وسمط جُمانه الذى هو كلما قلبت فى فرائده ناظريك بهرتك بألوانها المنبعثة من جوانبها ، وسحرتك بمعانيها المتدفقة من جداولها التى تستمد سلسالها من ينابيع العقيدة الإسلامية التى لاتنضب ولا تأسن ، إنه باقة نادرة من زهور الفكر الثاقب اللمَّاح التى أبدعها ، وافتن فى تنفيذها مصطفى صادق الرافعي " .. فالمعانى فى موضوعاته متصلة يُغذى بعضها البعض الآخر ، وتتساند أجزاؤها تساند البنيان

---

(١) مجلة الأزهر – عدد شوال – ١٤٠٥هـ – يونيه ويوليه- ١٩٨٥م – من مقال الأستاذ أحمد مصطفى حافظ – صـ ١٦٧٢ .

المرصوص .. وكاتبنا العظيم فى تناوله لتلك الموضوعات ، وأشباهها ، أو القريبة منها ذات الأهمية فى حياة الإنسان لا يقف واعظاً متشنجاً يصم الآذان بصُراخه ، ويُلهب الجلود والوجدان بسياط محفوظه ، وشواذ قوله ، ثم يذهب كل شئ أدراج الرياح ، ولكنه يتسلل فى خفة ورشاقة إلى أعماق النفوس ، ومركز الإحساس والإدراك بقصصه الشيِّقة الجذابة التى يسوقها قصة إثر قصة ، تتبع منها قصة تحمل فى أدرانها البلسم الشافي ، والدواء الناجع لكل مصدور أو مجروح ، فلا يفرغ القارئ من قراءتها إلا وقد أشرقت نفسه ، وانشرح صدره ، وانتعش وجدانه – بما تحمله من غذاء روحي وعقلي ، واستروح بما تعبق به من عبير سماوي ينبعث من كتاب الله ، وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم"(١).

سادساً : شاعريته :

الذى يُطالع شعر صان الدِّين يظهر له أنه بصدد موهبه شعرية سمحة ثرّة كبيرة ، لا يجف معينها ، ولا ينضب ماؤها ، ولا ينقطع عطاؤها ، قد أهلته لأن يكون أحد فرسان الشعر النابهين فى عصرنا الحديث .. فهو من شعراء الأزهر الأفذاذ ، وأدباء الإسلام الأصلاء الذين صبغوا شعرهم بالصبغة الإسلامية .. فتشبَّعت نفسه ، وامتلأ وجدانه بالقيم الإسلامية الراشدة الحكيمة ، حيث نشأ نشأة مُحافظة مُتدينة ، ثم تشرَّب – منذ نعومة أظفاره – بروح وفكر الأزهر الشريف – تلك الرحاب التى أرست وغرست فيه إسلامية الفكرة والمضمون ، حتى ولو عالج موضوعات وفنوناً تبدو بعيدة عن موضوعات الاتجاه الإسلامي التقليدية ، وأغراضه المعروفة .. حيث يلحظ كل من يقرأ شعر صان الدِّين تغلغل الروح الإسلامية فى كيانه ، وسريانها فى أعماقه ، وجريانها فيه – مجرى الدم فى عروقه.

---

(١) مجلة الأزهر – عدد شوال ١٤٠٨هـ – مايو ، ويونيو ١٩٩٨م صـ ١٣٨٠ – ١٣٨٣ .

ولنُفسح المجال هـنا للأستاذ أحمد مصطفى حـافظ ليوقفنا علـى مكانة شاعرنا، ومنزلته العالية ، لاسيما بين أقرانه ونظرائه من شـعراء مجلـة الأزهـر الغرَّاء حيث يقول:" لا يقتصر الأمر بالنسبة لهذا الشاعر على أنـه درس بـالأزهر ، ودرج فى أنحائه ، وشرب من منابعه ، وصدر عن علومـه وآدابـه ، واسـتوعب ذخائره ومتونه فحسب ، بل تعدَّى الأمر ذلك كله بكونـه شـاعر المجلـه العريقـة الرصينة التى تحمل اسم : " الأزهر " منذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، وقد أتـيح لى : (والكلام للأستاذ حافظ) معرفة منزلته بين شعراء المجلة ، حينما كان فضـيلة الدكتور / على أحمد الخطيب – رئيس تحرير مجلة الأزهر (حينئذ) يكلفى بالاتصال الشخصي بالشاعر الكبير حسن جاد –رحمه الله– للحصول على قصائد العدد منـه ، بعد إحالتها إليه ؛ لاختيار أجودها ، وأنسبها للنشر ، وقد درج – رحمـه الله– علـى تقييم كل قصيدة مُجازة بتقدير ممتاز ، أو جيد جداً ، أو جيد فقط ، وأشهد :(والكـلام على لسان الأستاذ أحمد مصطفى حافظ) أنّ معظم قصائد الشاعر صان الدِّين كانت تظفر بتقدير ممتاز فى أغلب الأحيان ، بل وكان – رحمه الله– يعتبر الأستاذ صـان الدِّين شاعر المجلة الأول ، وأقرب الشعراء قاطبة إلى التعبير عن مـنهج الأزهـر ، ورسالته الإسلامية السامقة ، وتوجهاته فى الأدب والنقد والبلاغة.(١) .

سابعاً : مذهب الشاعر الأدبى :

الذى يقرأ تجاب صان الدِّين الشعرية – فى مجموعها – يجـده ينـزع فنهـا نزوعاً إيمانياً ، حيث يسرى فى شعره الروح الإيمانية .. وتمتلأ نفسـه بالمضـمون الإسلامي ، وينطلق من خلال تصوّر الإسلام الراشد الحكيم للإنسان والكون والحيـاة

(١) مجلة الأزهر – عدد شوال ١٤٢٣هـ – ديسمبر ٢٠٠٢ – صـ ١٦٤٣ .

.. فهو أي الشاعر :" من أشد الناس تمسُّكاً بدينه ، مُستمداً كثيراً من أشعاره من أصداء النصوص الدِّينية فى نفسه ، مع تمسكه بقيم دينه- قدر استطاعته .. "[١] .

ويبدو لمن يطالع شعر صان الدِّين أيضاً نزوعه فى كثير من تجاربه نزوع الرومانسيين .. حيث يُصوِّر ضيقه وتبرمه وشكواه مما جدَّ وطرأ على أبناء مجتمعه من طباع سقيمة ، وعادات غريبة ، وسلوكيات شاذة .. تصطدم معها نفس الشاعر الرقيقة ، ويُجرح بها حسه الرهيف ، وشعوره الرقيق ، فيشعر من ثم بالغربة والضياع وهو بين أترابه ولدَّاته .. فتفر نفسه من ثم وتفزع وتهرع إلى عالم الطبيعة المثالي البعيد عن الزيف والخداع ، والتكلف والافتعال .. حيث يجد فى رحابها الأنس والإيناس ، والراحة والهناء- مثلما هو الحال عند الشعراء الرومانسيين فإن : "هذا الاتجاه إلى اعتزال الناس ، والنزوع إلى العيش فى رحاب الطبيعة ، بعيداً عن الحياة والأحياء هو اتجاه رومانسي صادق .. " [٢] وستأتى الدراسة على هذه التجارب الوجدانية للشاعر- فى حينها ، وموضعها – بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه.

وقد أتيح للشاعر فى سني عمره المبكرة أن يطّلع على المذهب الرومانسي الذى كان سائداً وذائعاً آنئذٍ .. وذلك بعد أن تُرجمت العديد من الأعمال الشعرية الرومانسية إلى اللغة العربية ، وقد أفاد منها الكثير من الشعراء آنئذٍ ، ومن هؤلاء شاعرنا صان الدِّين الذى :" كان صدره ممتلئاً بالاتجاه الرومانسي ، والذى خلَّف لنا أجمل القصائد الشعرية التى تجلَّت فيها مظاهر الرومانسية التى تؤثر العُزلة عن

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – المقدمة – مقال : د/ مختار الوكيل – المقدمة – صـ ١٢ .
(٢)ديوان : أعاصير وأنسام – المقدمة – مقال : د/ مختار الوكيل – المقدمة – المقال ذاته – صـ ٨ .

الناس ، والنزوع إلى الطبيعة ، والعيش فى رحابها ، حيث الصفاء والنقاء ، والبعد عن الزيف والتكلّف"(١).

وصان الدّين لا ينتمى إلى مدرسة أدبية معينة ، وإن غلب عليه الطابع الوجداني المُتقِّد ؛ لأن الشعر لديه يصدر عن إحساسه الخاص ، ورؤيته الذاتية ، وشعوره الجياش .. وهو لا يشرع فى إبداعه وأخيلته ؛ بحيث لا يستطيع مدافعته أو التراخى فى تدوينه ، ويصبح فى حالة يملك الشعر فيها عليه لُبه ، ويموج فى أعماقه، ويأخذ بتلابيبه ، فلا يجد مناصاً من الاستجابة ، والاحتشاد له .. ويكون مثله فى تلك الأثناء كمثل الينبوع الصافى الذى ينبثق – فجأة ، وبلا مقدمات – من أعماق الأرض .. أو كالشلال الذى ينحدر من عل ، مكتسحاً كلّ ما يعترض طريقه من عوائق .. وإذا كان الشعر الدِّيني لديه يتعلق أحياناً بمناسبة ما ، فإنه يخلص من شوائب الصنعة ، والحرص على النظم لمجرد الاستجابة لدواعى المناسبة ، حتى لا يُرمى بالتقصير ، أو التقاعس – كما هو الشأن مع شعراء المناسبات .. وما أكثرهم! ؛ وذلك لأن صان الدِّين يُطلق العنان لشاعريته الفذّة من لحظات الإلهام ؛ كي تجود بمكنوناتها بتداع حُرٍ ؛ ليقول ما عنده ، وما يحرص على إبدائه من وجهة نظر خاصة أثناء الدفقة الشعورية، مُهتبلاً فرصة إمطارها ، وجيشانها " (٢).

---

(١) مجلة الأزهر – عدد جمادى الآخرة- ١٤٠٦هـ – فبراير ومارس –١٩٨٦م- مقال: د/مختار الوكيل – صـ ٨٧٩ ، ٨٨٠ .

(٢) شعراء ودودوين :أ/ أحمد مصطفى حافظ- صـ ٢٣٠- ٢٣١.

وخلاصة القول فى مذهب هذا الشاعر : أنه شاعر إسلامي رومانسي فى آن واحدٍ .. وهو شاعر الأصالة الإسلامية السمحاء ، والإبـــداع الشـــعري الرومانســـي الأخاذ..."[١] .

ثامناً : وفاة الشاعر :

وقد فاضت روح شاعرنا صان الدِّين لبارئها ، ولبت نداء ربها ، وخالقهـــا– سبحانه_ فى صبيحة يوم الإثنين الخامس من شهر شعبان ، الموافق للثانى والعشرين من شهر أكتوبر عام ألفين وواحد من الميلاد ..رحمه الله تعـــالى ، وطيّـــب ثـــراه ، وجعل الجنة مثواه! ؛ لقاء ما أبدع وأفاد ، وأحسن وأجاد .

---

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – شعر محمد عبد الرحمن صان الدين – مقال بعنوان : جولة فى ديوان أعاصير وأنسام : بقلم الدكتور /مختار الوكيل صـــ ١٧ ، ١٨ .

الفصل الأول

الأبعاد الفكرية للتجربة الوجدانية فى شعر صان الدِّين

توطئة ومدخل:

يدخل ضمن ذلك اللون من الشعر الوجداني تلك :" التجارب والفنون والأغراض التى هي أشدُّ لصوقاً بالنفس ، وأقرب تعبيراً عنها من مثل : الغزل ، والفخر والرثاء والشكوى والغربة والحنين .. وإلا فإن الحقيقة تنطق بأن كل الأغراض والفنون الشعرية تنبع من الذات ، ولكن- على اختلاف وتفاوت فيها- فى درجات القرب والبُعد .. حيث يقصد بذلك الاتجاه – أعنى الوجداني : ذلك اللون :" من الشعر الذاتي الذى ينبع من ذات الشاعر ، ويصور حياته الخاصة ، ومشاعره إزاء من حوله ، وما حوله ، ويبرز مشكلاته بصورة واضحة للمُتلقى ؛ كي يشعر به ، ويتعاطف معه ، ويشاركه مشاركة وجدانية فى مشاعره "(١) وهو – أي الشعر الوجداني أيضاً ذلك اللون :" الذاتي الذى يعبِّر فيه الشاعر عن خلجات نفسه ، وأحاسيس مشاعره ، والترجمة عن ذاته ، وحالاته الوجدانية ، وتجاربه الذاتية ، وما ينطبع فى نفسه من مشاهد الطبيعة والحياة"(٢) .

فمحور تجارب هذا الاتجاه وما تدور حوله إذن :" هو ذات القائل التى يتغنى بها ، ويتحدث عنها ، وهو أي (الشاعر) يصور بذلك اللون من الشعر آمالها وآلامها وهواتفها وأحلامها وأفراحها وأحزانها ، وغضبها ، ورضاها ، وإقبالها ،

---

(١) الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي: د/ عبد القادر القط – صـ ١٠ – ط مكتبة الشباب- الطبعة السابعة- د.ت .

(٢) أبعاد التجربة الشعرية فى شعر د/صابر عبد الدايم – تأليف: د/صادق على حبيب – صـ ٩٣ – ط دار الأرقم للطباعة والنشر – الزقازيق – ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م .

وإدبارها ، وهزلها ، وجدها ، ولينها ، وقساوتها ، ولذتها ، وحرمانها ، وصحتها ، ومرضها ، وشقاوتها ، وسعادتها"(١).

وشاعرنا صان الدِّين- وكما يبدو متحققاً خلال وجدانياته الكثيرة- كان واحداً من هؤلاء الشعراء الوجدانيين الذين بثوا فى شعرهم هتفات وجدانهم ، وأودعوه نبضات قلوبهم .. وكأنى به فى ذلك يُردد مع شاعر أبوللو الشهير : عبد الرحمن شكرى قوله:

ألا يا طائر الفردو س إنَّ الشعر وجدان (٢)

والذى ينعم النظر فى تجارب صان الدِّين الوجدانية يجدها ممتدة الأبعاد ، متنوعة الأغراض ، حيث تُحلِّق- خلال تلك الآفاق التى هي ذاتها مُكونات ذلك الفصل من الدراسة .. حيث يمكن تقسيم أبعاد وموضوعات تلك التجارب الوجدانية فى شعر صان الدِّين إلى أربعة مباحث تتمثل فيما يلي:

المبحث الأول: التأمل فى شعر صان الدِّين .

المبحث الثانى: الشكوى والألم فى شعره .

المبحث الثالث: الغربة والحنين فى شعره .

المبحث الرابع : الطبيعة وتشكيل الإحساس الوجداني :"الرومانسي" فى شعره .

وهاك أيُّها القارئ الكريم حديثا مفصلاً عن كل بُعد من تلك الأبعاد الفكرية للتجارب الوجدانية فى شعر صان الدِّين .. بمفرده مُستعيناً بربِّى ، وراجياً منه السداد والتوفيق .

---

(١) فى محيط النقد الأدبي : د/ إبراهيم أبو الخشب صـ ١٣٩ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب- د.ت .

(٢) ينظر ديوان عبد الرحمن شكرى : صفحة الغلاف – طبعة- ١٩٠٩م .

المبحث الأول
التأمل فى شعر صان الدِّين

الذى يطالع معاني ومضامين كلمة : " التأمل" الواردة فى معاجم اللغة يجدها لا تخرج عن كونها تدل على التمهل والأناة والرَّوية والتريث فى النظر إلى الأشياء ، والغوص والتنقيب وراء حقائقها وطبائعها .. فقد جاء فى القاموس المحيط تحت مادة : أمل :" والأمل : كجبل ، ونجم : الرَّجاء ، وجمعه : آمال ، وآمله : رجاه ، وما أطول إملته بالكسر ، أمِله أو تأميله ، وتأمّل : تلبَّث فى الأمر والنظر"(١).

وورد فى المصباح المنير– تحت مادة : أمَلته أملاً قول المؤلف :" أملتُه أملاً من باب :" طلب" ترقبته ، وأكثر ما يُستبعد حصوله ..، وتأملت الشئ إذا تدبرته ، وهو إعادتك النظر فيه مرّة بعد أخرى حتى تعرفه"(٢).

وفى معجم مختار الصحاح نطالع كلام مُؤلِّفه– والذى لا يبتعد كثيراً عن المعنيين السابقين لمادة : "أمل " حيث يقول : الأمل : الرجاء ، يُقال أمل خيره يأمُل بالضم أمَلاً بفتحتين ، وأمله أيضاً : تأميلا، وتأمل الشئ : نظر إليه مُستثبتا "(٣) .

وجاء فى لسان العرب :" التأمُّل : التثُّبت ، وتأملت الشئ : أي نظرت إليه مُستثبتا له ، تأمل الرجل : تثبت فى الأمر والنظر(٤) .

---

(١) القاموس المحيط: مجد الدين الفيروزبادى– ج ١ صـ ٣٢٠– ط مطبعة السعادة بمصر –د.ت .
(٢) المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير : للرافعي : تأليف العالم العلامة أحمد بن محمد المقري الفيومي . صـ ٣٠ – ط– المطبعة الأميرية بالقاهرة د .ت .
(٣) مختار الصحاح : لمحمد بن أبى بكر عبد القادر الرازي – صـ ٣٦ – ط المطبعة الأميرية – ١٩٣٢م .
(٤) لسان العرب : جمال الدين ابن منظور – ج١ – صـ ١٣٢ – ط دار المعارف – د.ت .

ويُقصد بالتجربة التأملية فى النص الأدبي تلك :" التجربة التى يخوضها الأديب ليعطينا من خلالها صورة صادقة عن أفكاره ومشاعره وتنبوءاته وتصوره للعالم من حوله ، والوقوف على مدى توافقه مع ما حوله من قيم ، أو رفضه لها ، وصراعه فى سبيل إيجاد عالم جديد مُبدع " (١) .

وميادين التأمل عديدة ، ومجاليه رحيبة ، تتسع إتساع الحياة ، وترحُبُ رحابتها، حيث تشمل : الوجود ، والنفس الإنسانية ، والموت والخلود ، وقيم ومبادئ الإنسانية بعامة .. وتتأكد قيمة التأمل ، وتأتى أهميته فى النص الأدبي- فيما يحدثه فيه من تنظيم الذهن ، وإعمال العقل ، وهو -أي التأمل - حلقة الاتصال بين عالم العقل ، وعالم الفن : " والتجربة التأملية فى أسمى صورها ترتفع بمدارك الإنسان ، وتسموبها عن التدلِّى إلى الأغراض الحسية التى تثيرها غرائزه الشهوانية ، ومن هنا كانت التجربة التأملية من أرقى التجارب الأدبية ؛ إذ تتعاون فى تكوينها قوى الإنسان العقلية والشعورية والروحية والجمالية فتخرج مادة هي مزيج من القدرات السابقة كلها ، فتُرضى كل ذى فطرة نقية ؛ لأن صاحبها فيه من الفيلسوف حكمته ، ومن الشاعر رقته ، ومن الصوفي شفافيته ، ومن الفنان ذوقه ونبوءته " (٢) .

وشاعرنا صان الدِّين كان واحداً من أولئك الشعراء المتأملين الذين عملوا عقولهم ، وارتفعوا بمداركهم ، ووقفوا عند كنهها ، وخبروا حقيقتها ، فأنعموا النظر فيها ، وغاصوا فى أعماق النفس الإنسانية ، وما يستتبع ذلك من حديث عن الموت والفناء والبعث والنشور ، ونظروا أيضاً بعين متأمِّلة مأخوذة- إزاء بديع ، وحُسن

---

(١) أدب المهجر- دراسة تأصيلية تحليلية لأبعاد التجربة التأملية فى الأدب المهجري - د/صابر عبد الدايم صـ ٣٤ - ط دار المعارف الطبعة الأولى - ١٩٩٣م.
(٢) أدب المهجر- دراسة تأصيلية تحليلية لأبعاد التجربة التأملية فى الأدب المهجري - د/صابر عبد الدايم - صـ ٤١ .

صنع الله تعالى ، وجمال وتناسق كونه سبحانه ، وتدبروا فيما أودعه البديع الوهاب سبحانه فى مخلوقاته من مظاهر العظمة ، ومجالى الجمال ، مما يدل على طلاقة قدرته ، وعظم شأنه وتفرُّده فى وحدانيته جل وعز .. وهو – أي شاعرنا – كان ممن غاص فى عالم حواء ، وسبر أغواره ، واستكنه أسراره ووقف على حقائقه فى تأمل فكر ، وإنعام نظر .. حيث يمكننا أن تنطلق فى الحديث عن تلك التجربة الوجدانية التأملية فى شعر صان الدِّين من خلال تلك الآفاق التى حلَّق الشاعر فى أجوائها ، وارتاد عوالمها .. على نحو ما يبدو متحققاً خلال النقاط التالية :

أولاً: أفق التأمل فى عالم النفس الإنسانية .

ثانياً: أفق التأمل فى عالم حواء .

ثالثاً: أفق التأمل فى الحياة والأحياء

رابعاً: أفق التأمل فى بديع صنع الله ، وطلاقة قدرته سبحانه .

وإليك أيها القارئ الكريم تفصيل القول فى كل أفق من تلك الآفاق التى تسبح فى فلكها التجربة التأملية فى شعر صان الدِّين .. مستعيناً بربي سبحانه .

أولاً: أفق التأمُّل فى عالم النفس الإنسانية :

وبادئ ذى بدء أقول: إن الذى يطالع تجارب صان الدِّين التى أبدعها فى النفس الإنسانية يجدها تشغل مساحة كبيرة فى تجاربه الوجدانية ، حيث غاص خلالها فى أعماق النفس الإنسانية ، مستكنها أسرارها ، مستبطناً أغوارها .. منطلقاً فى حديثه عنها ، وما يستتبعها من حديث عن الموت والفناء والبعث والنشور – من خلال تصور الإسلام الراشد الحكيم .

وفى إحدى تجاربه التى أبدعها الشاعر فى النفس الإنسانية ينادى صان الدِّين الإنسان ، ويهيب به أن يُفصح عن كنهه ، ويكشف عن حقيقته ، وينبئ عن طبيعته ، متسائلاً فى تيه وحيرة شديدين إلى أي جنسٍ من المخلوقات ينتسب وينتمى؟! هل إلى النوع المألوف المأنوس ؟! أم إلى النوع المُخيف المُستوحش؟ أم أنه مزيج منهما ؟ مُقرراً ومُؤكداً فى النهاية عجزه عن أن يقف على حقيقته ، وجهله بطبيعته ، حيث يقول :

أيها الإنسان أفصح　　　فيك حار الدهر فكر
يا ترى هل أنت قط　　　مُؤنس أم أنت نمر ؟!
أنت عصفور وديع　　　ساجع أم أنت صقر؟!
أم من الأجناس طُرًّا　　　فيك يا مجهول قدر
أيها المخلوق فى　　　نطق ووعي أنت سر(١)

وهذه التساؤلات المتتابعة – خلال تلك التجربة –لاشك فى أنها تجسد حيرة الشاعر إزاء الوقوف على حقيقة وطبيعة الإنسان .. ومن ثم رأيناه يشير فى النهاية إلى أن حقيقة الإنسان تظل سراً بعيداً عن العيان ، حيث يقول مخاطباً ذلك الإنسان : أنت سر ... ولعل ما جعل الشاعر يشعر بالحيرة إزاء الوقوف على حقيقة وطبيعة الإنسان هنا هو ما مرّ به من تجارب ومواقف حياتية متباينة تباين طباع أصحابها ، حيث يوجد الإنسان الأليف الذى يألف ويُؤلف ، وفى المقابل يوجد غيره الذى يُستوحش ويخافه الناس ، ويوجد أيضاً الحمل الوديع ، وفى المقابل يوجد القاسى الشديد، ويوجد فى الإنسان المتناقضات .. حيث تتنوع النفس الإنسانية ، وتتعدد طبائعها ... – فتحار – من ثم العقول – فى فهم حقيقتها ، والوقوف على طبيعتها ، حيث تغدو فى نهاية الأمر سراً بعيداً ، وغوراً سحيقاً .

---

(١) ديوان الإنسان فى الميزان – صـ ٧ ، وطُرأ : جميعاً

وها هو ذا شاعرنا صان الدّين يُدلى بدلوه فى ذلك الشأن ، حيث يتأمل فــى أصل بداية خلق الإنسان ، واقفاً على القول الصحيح فيها ، حيث بدء خلقه من طــين وماءٍ مهين ، وتسويته فى أحسن صورة فتبارك الله أحسن الخالقين ... مُفنداً ومُبطلاً فى الوقت ذاته تلك النظرية الدرونية الجامحة المجافية للصــواب .. والتــى يقــول صاحبها بالنشوء والارتقاء فى بدء خلق الإنسان ، حيث يشير دارون إلى أن الإنسان نشأ وانحدر فى بدء خلقه من سلالة القرود ، ثم ارتقى إلى حيث هيئته التى هو عليها .. لنترك المجال للشاعر – وهو يطرح تلك القضية الخطيرة عارضاً لــذلك القــول الزائف الجامح ، البعيد عن العقل والصواب ، مُفنداً زعمه ، داحضاً باطله ، ومجليــاً فى الوقت ذاته القول الحق ، والكلم الصائب فى ذلك الشأن جاهراً بــه وصــادعاً .. حيث يقول من قصيدته ذات العنوان الدال هنا "جنوح " :

فيلســـوف عبقـــــري ماله فى العلـــــم ند
يرصــــد الدنـــيا بفكر ليـــس عنه ما يـند
ذاك ما قالــــوه عنــه فى انبهـــار لا يُحَدُّ
طالـــع الدنـــيا بكشف فيه للإنســـان مجد
وسرت فى الأرض بشرى أن جَدَّ النـــاس قرد
فكرة طـــافت بعقـــل من يقين العِلم أفلـس
وادّعـــى زوراً فريـــق أنهـــا فكـــر مُقدَّس
حقها من غـــير نكـــر بين دور العلم تدرس
كم غثـــاء جمَّع الحطـــا ب حين الليل عسعس
لكن النقَّـــــاد ينفـــيـــه بصبح قد تنفَّـس
كان بدء الناس فى الفـــر دوس من طيـــن وماء

لا انسلاخاً من سوا ه فى نشوء وارتقاء
هكذا الأحياء أجنا س ببدء وانتهاء
جوهر الأشياء يبقى فى ثبات وانتماء
إنما الأعراض تغدو فى ذبول أو نماء (١)

وما أجمل وأبلغ الشاعر فى تصويره تلك النظرية الدرونية – فيما تقوم عليه من تخبط واضطراب بحال حاطب الليل الذى يجمع حطبه من هنا وهناك فى تخبط وعمى، وفى غير ما هدى ولا بصيرة .. فإذا ما تنفس الصبح تبين له حقيقة ما جمع :

كم غثاء جمَّع الحطَّا ب حين الليل عسعس .
لكنِ النقَّاد ينفيه بصبح قد تنفَّس

ولا يخفى تأثر الشاعر بالقرآن الكريم هنا ، حيث قوله تعالى {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}[التكوير:١٨] ، كما بدا تأثر الشاعر بالقرآن الكريم فى ألفاظه ومضامينه الشريفة ، حيث ينطلق صان الدِّين فى قوله يشير إلى بداية خلق الإنسان :

كان بدء الناس فى الفر دوس من طين وماء

من قول الله جل وعزّ : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ}[المؤمنون:١٢ ، ١٣]

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٣١ ، والمراد بالفيلسوف : دارون : معتنق فكرة النشوء والارتقاء ، ندّ: مثل ونظير ، ويند : يشرد ويغيب ، وعسعس : أظلم .

مُفنِّداً – أي الشاعر ما تقوم عليه نظرية دارون الزائفة الجامحة من القول فى ذلك الشأن بالنشوء والارتقاء ، مُصحّحاً إياها ، مُبدياً وجه الحق والصواب فى قضية أصل وبدء خلق الإنسان .

وفى قصيدته :" وما أدراك ما النفس؟ يُؤكِّد صان الدِّين أنها – أي النفس – سر خفي لا يستطيع أحد أن يدرك كنهه ، ولا أن يقف على حقيقته– مهما أوتي من العلم ، مشيراً إلى أنَّ ما قاله ممن يُسمَّون بالفلاسفة وعلماء النفس فى القديم والحديث عن النفس الإنسانية ، وما وضعوه من نظريات بشأنها إنما هي مجرد تخمينات وظنون لا ترقى إلى درجة اليقين ، ولا تصل إلى حد التسليم بها .. ومن ثم نراه يسائل كل من يدعى علمه بطبيعة النفس الإنسانية ، وإدراكه لحقيقتها .. بعد أن حار عقل وفكر الشاعر فى شأنها: هل للنفس الإنسانية حقيقة ملموسة ، معاينة؟ ، وأوصاف محسوسة مشاهدة على الإدراك تجرى ؟ وهل هي فى الروح ، أم فى الجسد ، أم فى العقل، أم فى القلب ، وما علاقتها بالبدن ، وأين تقع فيه ؟ وهل هي الروح التى استأثر بعلمها الخالق جل وعز، فهي من أمره– سبحانه ؟ أم هي سوى ذلك ؟.. ثم يؤكد بعد تلك التساؤلات جهل وتيه وقصور علم وإدراك هؤلاء إزاء تلك الحقيقة :" حقيقة النفس الإنسانية " ، إذ كيف يقفون على شيء غاب عن حسهم ، وبعد عن إدراكهم ؟! ومن ثم فتأتى أفكارهم ونظرياتهم مجرد ظنون وتخمينات تفتقد اليقين ، ويأتى كلامهم –حولها – فرية وزوراً وبهتاناً، حيث يستأثر الخالق سبحانه بالنفس والروح ، ويقف الخلق قاصرى الفهم ، محدودى الإدراك ، قليلي العلم – إزاء تلك الحقائق العميقة .

يقول صان الدِّين:

فى قديـــــم وحـــديث | خـــاض بحـــر الـــنفس رهـــط
بعضـــــهم آب ، وبعـــض | فـــى ضـــلال الـــوهم شـــطوا
كـــان أوفـــى الكـــل بـــاعاً | فـــى تقصِّـــيها أرســـطو
هل أمـــاط الســـتر عنها | أو بـــــدا للـــــيم شـــــط؟!
كل مـــا قالـــوه عنـــها | فـــى مـــدى الأزمـــان خلـــط!
شدَّ ما استرعى انتبـــاهى | مـــبهم فـــى العلـــم يـــذكر
قد تبـــارى فيـــه قـــوم | دون فكـــــــر يتـــــــدبر
قدَّســـوا ما قـــال "روســـو" | أو فرويـــدُ أو سبنســـر

يالقـــوم جلُّهـــم قـــد | صـــار بالتقليـــد يفخـــر
قد تلاشـــوا فـــى سواهم | مخبـــراً يفشـــيه مظهـــر
يا خبير النفـــس قل لـــى | مُفصـــحاً فـــى غيـــر عُســـر
إنـــه فـــى لـــغزها قـــد | حـــار وجـــدانى وفكـــرى
هل لها كنه وأوصـــاف | علـــــى الإدراك تجـــرى؟!
هل لها فى الجسم حـــرز | أو مقـــر عنـــه نـــدرى ؟!
هل هي الـــروح التى فـــى | نـــابض الأجســـام تســـرى ؟!
ذلك استفهـــام عقـــل | عـــاش فـــى تيـــه وجهـــل
علَّنىِ فى علمـــك النفـــا | ذ ألفـــــى مـــــا يجلِّـــــى
يا عليم النفس فى حلـــمٍ | أجبنـــــى أو فقـــل لـــي:
كيف تدرى طـــب شـــيئ | غـــاب عـــن حـــسٍ وعقـــل؟!

كيف بالأحكـــــام تخمينـــاً علـــى المحجـــوب تُــدلى؟!
فرية كبــــرى ، ووهـــــم فـــى عقـــول قـــد تجســـم
إنـــــه خلـــــط مضـــــى يهـــــذى بـــــه حـــــاك تكلـــم
ذاك ما سموه علم النفـــــ ـس زوراً دون معلــــــــــم
للعلوم الحـــق قانـــــون وثيــــق الضـــبط مُحكـــم
إن نفس المـــــرء مثــــل ال روح سر ليس يُعلم(١)

ويبدو من خلال تلك التجربة أن الشاعر يرمى بما وضعه الفلاسفة ، وعلماء النفس من غير المسلمين من نظريات بشأن النفس الإنسانية ، حيث لا تعدو فى نظره سوى خلط واضطراب : فـــ : كلُّ ما قالوه عنها ؟ فى مدى الأزمان خلـــط مضـــوا يهذون به ، وإن كان أرسطو فى حديثه عن النفس الإنسانية ، وتقصيه لأســـرارها ، ووقوفه على حقائقها أقرب الفلاسفة إلى السداد .. حيث تـــذكر الكتـــب التـــى تعنـــى بالحديث عن النفس الإنسانية كيف أن تعريف أرسطو للنفس قد جاء متفقاً مع تعريف فلاسفة الإسلام لها كابن سينا وغيره .. حيث يعرفها أرسطو بقوله :" الكمـــال الأول لجسم آني ذى حياة بالقوة " (٢) .

ومهما يكن من أمر أرسطو وغيره من الفلاسفة فسيبقى محاطاً عالم النفس بسياج من الأسرار والألغاز ، مما لا يعلم كنهه ولا يقف على حقيقته إلا الله سبحانه الذى استأثر بذلك وحده .. حيث ينطلق شاعرنا خلال تجربته هذه من هـــدي مضـــمون القـــرآن

---

(١) الأبيات فى ديوان الإنسان فى الميزان صـــ ٦٠، ٦١ ، والرهط : جماعة ، آب: رجع ، وسطوا : تجاوز الحد ، اليمُّ : البحر ، وأرسطو : هو ذلك الفيلسوف الإغريقي الأشهر ، ورسو وفرويد وسبنسر : فلاسفة غربيون ، ألفى: أجد ، فرية : كذبة ، والمعلم : الأثر الذى يدل على الطريق .
(٢) دراسات فى النفس والعقل: د/ محمود قاسم نقلاً عن الأدب الصوفى الإسلامي – اتجاهاته وخصائصه د/صابر عبد الدايم صـــ ٧٠ – الطبعة الرابعة –١٤٢٩هـــ– ٢٠٠٨م .

الحكيم، حيث قوله عزَّ من قائل : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا}[الإسراء:٨٥] .

ومن ثم نراه – أي الشاعر – يكثر من تساؤلاته هنا عن النفس الإنسانية ، وما يتعلق بها ، مُجسِّداً –من خلال تلك التساؤلات التى كثف بها تجربته تلك : هل .. هل .. هل مجسداً تيهه وحيرته ، مؤكِّداً قصور علمه وإدراكه إزاء ما أودع الله سبحانه فى نفس الإنسان من أسرار توارت عن العيان ، وألغاز غابت عن الأبصار .

ويبدو أن صان الدِّين يريد أن يشغلنا بتلك الفكرة ، والإلحاح عليها فى شعره .. فكثيرة هي تجارب الشاعر التى يؤكد فيها كيف أن النفس الإنسانية سر خفي ، وأمر مبهم ، وغور سحيق ، ونفق مظلم ، وبحر عميق لا يشق عبابه ، ولا تدرك أسراره ، ومن ثم تظل عقول المفكرين والفلاسفة قاصرة عن إدراك أسرار النفس الإنسانية ، وعاجزة عن الوقوف على حقيقتها– مهما أوتوا من العلم ، ومهما وضعوا من نظريات بشأنها ، مشيراً إلى أن ما جادت به قرائح هؤلاء واهتدت إليه ألبابهم من أقوال بشأنها ونظريات تغوص فى أعماقها ، وتستكنه أسرارها ، فإنها لا تعدو سوى حديث بالظنون مرَّجم .. إذ كيف يقف هؤلاء على حقيقة شيء لا يحسونه ولا يدركونه؟! .. ومن ثم فتبقى النفس لغزاً يحار الدهر فيه العالم .. ولنترك المجال الآن لشاعرنا صان الدِّين ليتحدث عن تلكم النفس الإنسانية ، ويطلعنا على طبيعتها مؤكداً أنها سرُ ، وغيب استأثر بعلمه الخالق سبحانه ، مثلها مثل الروح التى هي من أمره جل وعز ، ومن ثم فستظل عقول الخلق قاصرة وعاجزة عن إدراك كنهها ، والوقوف على حقيقتها ... يقول صان الدِّين من قصيدته " أيتها النفس " :

يا أيها السر الخفي المبهم ... يا أيها الغـور السـحيق المظلـم !
كيف السبيل إلى اكتناهك والـــ ... ـــغطاء عليــك ضــافٍ محكــم؟!
كم طوّفت من حولك الأوها ... م لاهثة تــروم الســرَّ وهــو مكــتم
كم باحث فى التيه عنك منقب ... ظــن الخيــال حقيقـــة تتجســم!!
ومضى يشيد بالفروض جواسقاً ... فوق الجـروف الهاريـات فتهـدم!!
هل جاء فى أسفارهم متنــاقضاً ... إلا حـــديث بـــالظنون مـــرجم؟!
هل أبرموا فى شأنها حكماً ولم ... ينقض ســواهم لاحــق مــا أبرمــوا؟!
والكل يزعم فى غــرو أنه ... بالســر مــن كبــد الحقيقــة أعلــم
لوصادف التنجيم يوماً واقعاً ... هل جاء بالحــق المبين مُنجِّمُ؟!

إن الحقائق كالصباح فلا ينا ... ل ضــياءه عقــل ممــار أو فــم
ومقدمات أنتجت متعارضاً ... أيقــن بــأن فســادها مُســتحكم
ومن العجائب أن وهم عقولهم ... جعلــوه للبســطاء علمــاً يُخــدم
يفنون زهرة عمرهم فى دير ... ه بكهانـــة المســتحوذين علــيهم
إنجيلهم ما قال "رسو أو فرويد" ... ومــن نحــا فــى وهمهــم منحــاهم
دعهم وما فتنوا به من ظاهر ... حســبوه لبــا لايــراه ســواهم!
النفس بحر لا يشق عبابه ... فيــه العجائــب جمــة تتــزاحم
غِيَرٌ وأحوال تعــاوره فما ... يــدرى بــه إلا الخبيــر الأعظــم
بينا تراه صفحة مصقــولة ... فــإذا بــه متكــدر يــتجهَّمُ
ويفيض بالخيرات وهو موادع ... حينــاً وحينــاً بالشــرور يدمــدم

أما متى أو كيف ذاك فإنه — سر بأستار الغيوب ملثم؟!
النفس سر الله فى الإنسان لا — يدريه عقل ألمعي ملهم
فالعقل يعمل فى مجال الحس أما — ما وراء الحس فهو توهم
ومعارف الإنسان قاصرة على — ما ينجلى بالحس أو ما يُعلم
يا أيها الإنسان حسبك فى حيا — تك ما تحس من الأمور وتفهم
ما الروح ما الحوباء إنَّ كليهما — لغز يحار الدهر فيه العالم؟!
إن كانت العنقاء خافية فإنــ — ن النفس أبلغ فى الخفاء وأعجم!(١)

ومضمون هذه التجربة لا يختلف كثيراً عن التجربة السابقة ، حيث تدور حول أفكار واحدة تقريباً .. وقد استهلها الشاعر بمناجاته للنفس الإنسانية – هذا السر الخفي المبهم ، وذلك الغور السحيق المظلم ، متسائلاً فى حيرة : كيف الطريق إلى الوقوف على حقيقته ، وقد غطي بغطاء مطبق محكم؟! ، مشيراً إلى كثرة الأقوال ، والنظريات التى وضعها أصحابها بشأن النفس الإنسانية ، يحدوهم ويدفعهم فى ذلك معرفتهم لذلك السر المكتم المصون ، ظانين – فى أكثرهم– أنهم وصلوا إلى حقيقتها ، وأبرموا بشأنها أمراً .. والحقيقة أن أقوالهم ونظرياتهم هذه لا تعدو سوى تخمينات وظنون هي أشبه بنبوءة المُنجمين ، وتوقعاتهم ، متعجباً من اعتداد هؤلاء بأقوالهم ونظرياتهم وإبداعهم فيما أسموه بعلم النفس .. ناظرين إليه نظرة إجلال وتقديس .. ثم نرى الشاعر يؤكد فكرته التى يلح فى إثباتها ، وتأكيدها وترسيخها فى أذهان ونفوس المتلقين– تلكم هي كون النفس الإنسانية سراً خفياً ، وغور سحيقاً ، وبحراً عميقاً لا سبيل لعقول البشر القاصرة لإدراك حقيقته ، وسبر أغواره ، واستكناه

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ . والحوباء : النفس ، ورسو وفرويد : مفكِّران غربيان – طرقا هذا الفن ، ولهما فى شأن النفس نظريات كثيرة ، وتعاوره : تداوله .

أسراره ، .. فلا يدركها أي حس ، ولا يحيط بأسرارها أي علم .. حيث نراه يصور النفس الإنسانية بالبحر الذى لا يشق غبابه ، ولا يتوصل إلى شطآنه ، ولا تتناهى أسراره ، ولا تثبت أحواله ، فبينما ترى الأعين صفحته قد راقت وصفت ، إذ بهذا الهدوء وذلك الاستقرار ينقلب إلى غضب وزمجرة ، فتبدو من ثم صفحته عكرة ، حيث يستحيل الهدوء والسكون إلى غضب وزمجرة ، فيحل الكدر والعُكار محل الصفاء والنقاء ، وهو أي– البحر– يجود حيناً بالخير ، ويُفضى بالعطاء ، وحيناً آخر يُلقى بالشرور والمفاسد، ويجلب الأخطار والمهالك ، وهنا يتساءل الإنسان متى وكيف يحدث هذا وذاك؟! .. فلا يجد للسؤال حواباً ، حيث يبقى ذلك غيباً متوارياً، وسراً خفياً ، وعلماً لدنيا .. وتلك صورة فنية رائقة لها موضعها المفصل من هذه الدراسة –بإذن الله تعالى وبتوفيقه تقوم على إبراز المعقول فى صورة محسوسة ، ملموسة فنفس الإنسان فى طبيعتها وما يعتريها من تغيير ، وما يتعاورها من أحوال مختلفة ، وهي فيما أودعه الله سبحانه فيها من أسرار – هي فى ذلك كالبحر الذى هو مستودع العجائب ، حيث تتناوبه أحوال مختلفة ، وتتعاور عليه هيئات متقابلة .. على نحو ما ذكر قبل قليل ، ولاشك فى كون تلك الصورة الفنية هنا موحية جيدة رائقة ، حيث انتقل فيها الشاعر من عالم المعنويات إلى عالم المدركات .. وهذا بدوره يزيد المعنى قوة وجلاء .

ثم يزيد الشاعر فكرته الرئيسة – خلال تجربته تلك – قوة وإيضاحاً وجلاء ، حيث يشير إلى أن النفس الإنسانية إنما هي سر الله الذى أودعه فى الإنسان لا يدركه عقله ، ولا يقف على حقيقة فهمه ، ولم لا ؟ والعقل مجاله المحسوسات والمدركات ، أما ما وراء الحس فهو ظن وتخمين ، وعجز وتوهم .. وعلم الإنسان قاصر على ما تبصره عيناه ، وتدركه حواسه ، ويعلمه ، ويحيط به عقله . ولذا

فعليك أيها الإنسان أن تقف عند حدود حسك وفهمك ، وحسبك ذلك ، فإذا ما سألتك نفسك ما الروح ما النفس؟ فلتجب : إنَّ كليهما لغز يحار الدهر فيه العالم.

ويختم صان الدِّين أبياته هذه بتلك الصورة الحسية التى تزيد فكرته جلاء وتوضيحاً ، وتمنحها قوة وتأكيدا .. حيث يقرر بأنه إذا كان العنقاء وهو ذلك الطائر المجهول الذى لا يُعرف إلا اسماً فقط دون أن يُرى ويُشاهد فى دنيا الواقع ، وعالم الحقيقة ، إذا كان هذا الطائر خافيا بعيداً عن العيان فإن النفس ينبغى أن تكون أشدَّ خفاء ، وأكثر استتاراً .

وينتقل بنا الشاعر – عبر تجاربه التأملية فى النفس الإنسانية – من الحديث عن حقيقة تلك النفس ، وإشارته إلى ما وضعه من يُسمون بالفلاسفة ، وعلماء النفس من نظريات بشأنها ، مؤكداً كيف أنها لغز يحار فيه هؤلاء ، وسر خفي ، وغور سحيق ، وبحر عميق يستحيل عليهم إدراك شأنه ، والوقوف على حقيقة .. وأن هؤلاء مهما أوتوا من العلم فسيظلون قاصرى الفهم ، محدودى الإدراك إزاء حقيقة ، وماهية تلك النفس .. وسيبقى حديثهم عنها مجرد رجم بالغيب .. ولا يعدو سوى حدس وظن وتخمين ... ها هو ذا الشاعر ينتقل بنا إلى حديث آخر ، حيث يصور فى احدى تجاربه التأملية فى النفس الإنسانية ما يدور فى داخل وكيان نفس كل إنسان من صراع محتدم بين الروح والجسد : "المادة" ، حيث تتذبذب نفس الإنسان بين الخير والشر ، وتتجاذب نوازع تلك النفس ورغباتها "أدران المادة" ، حيث تُلبى حاجات الجسد – ذلك الذى يُعد بمثابة السجن الكثيف للنفس ، والذى يحول دون انطلاقها وتحليقها فى مراقى السمو البشري ، ومراتب الكمال الإنساني .. ويتجاذب الإنسان أيضاً ذلك النزوع الفطري إلى الكمال الإنساني ، والتسامى الأخلاقى ، فيُحلِّق من ثم فى آفاق الطهر ، ويسمو فوق رغبات النفس الأرضية ، وحاجاتها الطينية ، ويتفوق على جموحها ونوازعها ، ويعلو على رغباتها ومطامعها .. هاهو

ذا شاعرنا يشير إلى ذلك من خلال مناجاته ربه مناجاة المتصوِّف المُحبِّ له سبحانه ، المُقبل على رحابه ، والمُنيخ مطاياه ببابه ، يرجوه أن يُلقى السكينة فى كيانه ، وأن يبدد بنور سناه ظلمة فؤاده ، فيظل من ثم يستحضر عظمة جلاله ، ويبقى محصناً من زائف حياته ، وأن يعينه على أن يقبل على رحابه ، وأن ينجيه من مخاطرَ وأهوالٍ وعثراتٍ تحول دون المثول ببابه سبحانه منتصراً على نوازع نفسه ، ورغبات كيانه ، ويتخلص من قيود جسده ، وشهوات نفسه .. مؤكداً ما ينتابه من صراع محتدمٍ بين السمو والارتقاء والتحليق فى عالم الروحانيات ، وبين السقوط والتردى فى عالم الماديات ، حيث يرى نفسه تنزع وتميل إلى تلبية حاجات البدن ورغباته وشهواته – بصفتها قد خلقت من الطين ، فهي تحن إلى الأرض ؛إذ منها خلقت ، وتكونت عناصرها من تربتها..

وما أجمل قول الشاعر يصور ذلك الصراع المحتدم الذى يتنازع نفسه ، ويتجاذب كيانه هنا :

أواه من ثقل التراب وقيده أواه من حُكم الحياة القاهر !!
أفكلما رمت النهوض إلى العُلا وبسطت من صفوى جناحي طائر؟!
ألفيتنى برغاب نفسى موقرا يهوى تراب الأرض جلُّ عناصرى(١)

ونرى الشاعر يختم تجربته الشفيفة تلك بإلحاحه فى مناجاة خالقه ، ورجاء العون والمدد منه سبحانه أن ينير له الطريق ، وييسر له السبيل فى هذه الحياة .. حيث لا يقدر أن يخوض غمارها ، ولا أن ينجو من لججها ، ولا أن يسير فى وعرها .. بما أُودع فيه من جسد له حاجاته ، ورغباته ، ونوازعه وشهواته .. حتماً سيهلك لو لم يسمو ويرقى ويعلو على هذه الرغبات والنوازع ، ويربأ بنفسه عنها ،

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٠٢ .

وذلك بعد أن يستمد العون والمدد فى ذلك من خالقه سبحانه الذى هو نور الوجـود ، والذى هو هادى النفس من حيرتها ، ومرشدها من ضلالها ، ومُنجِّيها من هلاكهـا ، ومُسعدها من كدرها، ومؤنسها من وحشتها ، يقول صان الدِّين :

يا خـالقى ممـا أردت لحكمة ... يـا عالمـاً بحقيقتـى وسـرائرى

ما قوتى ما حيلتى وتهافت الصـ ... صلصال يضـرب فـى كيـانى الحـائر

لكن بروح منك يا نور الوجـو ... د أمدُّ فـى لجـج الفتـون معـابرى

وأشق فى وعر الحياة مسـالكى ... وأجـوب آفـاق الضـياء البـاهر

وبها أقيم النفس فى نهج الهدى ... وأردهـا عـن كـل نهـج جـائر

ربَّاه إنـى حائـر متغـرِّب ... أبغى النجاة مـن الفتـون الغـامر!

وأفر من عيـش تكـدّر ورده ... يا رب خذ بيد الغريب الحائر!(١)

وهكذا يبدو صان الدِّين – خلال تجربته الشفيفة تلك فى صـورة الصـوفي الصادق فى الحُب والرجاء ، حيث يقف بين يدي خالقه سبحانه ، متبرئاً من الحـول والطول إلا إليه جل وعز ، راجياً منه ، ومتوسلاً إليه سبحانه ، مُلحاً فى التوسـل ، وملحفاً فى الرجاء أن يعينه على مجاهدة نفسه : "أعدى أعدائه ، والحجر العثرة دون سموه وانطلاقه .. والقيد الموثق الذى يحول دون تحليقه .. حيث تتوق نفس الشـاعر – خلال تجربته هذه إلى الملأ الأعلى ، حيث التحليق والسمو والارتقاء فـى عـالم الروحانيات ، بعيداً فى ذلك عن السقوط والتدنى فى عالم الماديات ، مُجسِّداً لنـا مـا يتجاذب نفسه من صراع جد محتدم ، فهو معذب كم تعانى نفسه من ذلـك القيـد .. والسجن الكثيف " بدنه الذى تتعلق به روحه ... وتحن وتميل إليه حتماً :

---

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٠٢ .

أواه من ثقل التراب وقيده   أواه من حكم الحياة القاهر !!

فهو معذب من أثر ذلك الصراع الدائر بين رغبات جسده الأرضية ، وتحليقات روحه السماوية ، ومن ثم نراه يلجأ إلى خالقه سبحانه أن يمده بعونه ، ومدده وهديه ونوره .. فينجو من ثم من المخاطر والمهالك ، فيأنس من وحشته ، ويهتدى من حيرته ، حيث لا حول له ولا قوة إلا بخالقه سبحانه .

فما أبلغ قول الشاعر ، وما أدله على هذا الصراع المحتدم فى داخله هنا ، حيث تتوق نفسه إلى السمو والانطلاق والارتقاء نحو الفضائل ... فى الوقت الذى يحول فيه جسده دون هذا الانطلاق والارتقاء ، حيث تمثل حجر عثرة ، وقيداً ثقيلاً ، وحكماً قاهراً يهوى به إلى الأرض ، مُلبياً فى ذلك حاجاته ورغباته ، ونزواته وشهواته ، حيث يقول:

أوّاه من ثقل التراب وقيده   أواه من حكم الحياة القاهر!!
فكلما رُمتُ النهوض إلى العُلا   وبسطتُ من صفوى جناحي طائر
ألفيتنى برغاب نفسى موقرا   يهوى تراب الأرض جل عناصرى

ومن ثم فقد حُق للشاعر أن يلجأ إلى ربه ضارعاً مُلحاً ومُلحفاً فى الضراعة ، مُتبرئاً من الحول والطول ، والقوة والمنعة إلا إليه سبحانه .. فهو سبحانه المُنجِّى له من هذه المهالك والأخطار ، والمُخلِّص له من تلك الحيرة والصراع .. الهادى له من ضلالته ، المُنير له ظلمته ، المُؤنس له فى وحشته:

يا خالقى مما أردت لحكمة   يا عالماً بحقيقتى وسرائرى
ما قوتى ما حيلتى وتهافت الصـ   ـلصال يضرب فى كيانى الحائر
لكن بروح منك يا نور الوجو   د أمد فى لجج الفتون معابرى

وأشق فى وعر الحياة مسالكى وأجـــوب آفـــاق الضـــياء البـــاهر
وبها أقيم النفس فى نهج الهدى وأردهـــا عـــن كـــل نهـــج جـــائر
ربَّاه إنـــى حائـــر متغـــرِّب أبغى النجـــاة مـــن الفتـــون الغـــامر
وأفر من عيش تكـدّر ورده يا رب خذ بيد الغـــــريب الحـــائر

ويتبع حديث الشاعر عن ماهية وحقيقة وطبيعة النفس الإنسانية ، وما أكـــده من كونها سراً ، وغيباً يقف إزاء إدراكه الخلق عاجزين ، قاصرى العلم ، محـــدودى الفهم ..يتبع هذا الحديث لدى الشاعر وتأمله فى عالم النفس الإنســـانية حديثـــه عـــن الموت والفناء ، والبعث والنشور .. وحشده للـــدلائل والبـــراهين ، وغوصـــه وراء الحقائق ، وتأمله فى ذلك العالم ؛ من أجل أن يؤكد وجود تلك الحقيقة الدامغة الناطقة بأن الله سبحانه يبعث من فى القبور .. حيث يكون البعث والنشور بعد الموت والفناء .

هاهو ذا صان الدِّين يُدلى بتأملاته فى ذلكم العالم .. عالم البعث والنشور بعد الموت والبلى .. حيث طاف يوماً – بين القبور ، مُتأملاً فيما أودعته فى بطنها مـــن جسومٍ رمَّت ، وبليت بات بعضها أعظماً عرّتها الرياح .. واستحال الـــبعض الآخـــر تراباً فارقته الرائحة الكريهة .. كم كانت تلك الجسوم والأبدان تفعم بالحياة ، وتمـــتلأ بالحركة ، وتتزين بالحُسن ، وتتحلى بالجمال .. أين هـــي الآن ؟! .. لقـــد صـــارت تراباً ... وهنا يهيب الشاعر ببنى الدُّنيا أن يعتبروا بهذا المشهد الرهيب فيفيقـــوا مـــن غفلتهم ، ويهتدوا من ضلالتهم .. حيث جهش الشاعر بالبكاء فجرت على صحن خدِّه الدموع والعبرات ؛ تأثراً منه بما يرى ويشاهد بين عالم القبور ، وما يسبقه من عـــالم الحياة .. حيث يعترى النفس الإنسانية الحياة ، ثم الموت ، ثم الإيداع فى القبر ، ثـــم النشر والبعث ، ثم السَّوق إما إلى السعير ، وإما إلى جنات النعـــيم .. يقـــول صـــان

الدِّين مُؤكِّداً حقيقة البعث والنشور، وما يكون قبلها من حركة وحياة ، مهيباً بالمتلقين أن يأخذوا ويستلهموا العظة والعبرة إزاء ما يُورده من مشاهد تؤكد وجود تلك الحقيقة :

طفتُ يوماً فى خشوع	حـــول أرمـــاس قديمــــه
عرّت الأريــاح منها	أعظمـــاً فيهـــا رميمــــه
بعضها قد صار ترباً	ذهبـــت عنـــه الزهومــــه
كان هذا الترب يوماً	جســـم هيـــآت وســـيمه
ناعمات مرهفـــات	ذات أصـــوات رخيمــــه
واستهلَّت من جفونى	فـــوق صـــحن الخـــدِّ عبـــره
ذى حياة ثم مـــوت	وانـــدثار بـــين حُفــــره
ثم نشـــر وانبعـــاث	حـــين يُلقـــى الله أمـــره
ثم خلـــد فى جحـــيم	أو جنـــاتٍ مســـتقره
يابنى الدنـــيا أفيقوا	إن فى هذا لعبـــره!![١]

وهكذا يُنعم صان الدِّين ، ويديم النظر فى عالم القبور – ذلك الذى طاف حوله هنا، حيث تأمل الإنسان – ذلك المخلوق الذى طالما ملأ الدنيا حركة ونشاطا وقد أخلد إلى السكون والهدوء الرهيبين ، حيث صار ذلك الكيان المفعم بالحيـــاة ، المعنـــي بالحُسن والجمال تراباً وعظاماً .. بعد أن فارقته الحياة ففني وبلي .. وكأنى بالشـــاعر يدعو مُتلقيه بعد ذلك إلى أن يقفوا متأملين إزاء المراحل والأطوار التـــى يمـــر بهـــا

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٧٧ ، ٧٨ ، والأرماس : القبور ، وتزايله : تفارقه ، والزهومة : الريح المنتنة.

الإنسان ما بين حياة ثم موت واندثار فى القبور ، ثم نشر وانبعاث حين ينفخ فى الصور ، ثم خلد ، إما فى جحيم ، أو فى نعيم .

ثم نرى الشاعر وقد أقام – خلال تجربته هذه – حواراً عقلانيا دار بينه– بصفته مسلماً يعتقد ، ويؤمن بتلك الحقائق والأطوار التى يمرُّ بها الإنسان ... وبين من أنكر تلك الحقيقة أعنى : حقيقة البعث بعد الموت .. عارضاً لزعمه وإنكاره هذا ، مفنداً هذا الزعم ، وداحضاً ذلك الباطل، مُثبتاً– من خلال سوقه الكثير من الأدلة ، وسرده للعديد من البراهين الناطقة – كون البعث بعد الموت حقيقة دامغة لا ريب فيها .

حيث يقول : مجسداً لنا حال وطبيعة ذلك المُنكر الذى تسيطر عليه مشاعر الهزء والسخرية والنكران والحجود إزاء تلك الحقيقة – حقيقة البعث والنشور ، مُستبعداً تحققها من بعد الموت والفناء :

فا نبرى لى ذو فتون — فى ازدراءٍ أو يزيد
قال لى فى نبرة قد — هالنى فيها الجُحُود
أي مرء مستنير — ضمَّه هذا الوجود
لا يرى فى بعث عظمٍ — أن ذا رجع بعيد
كل شيء إن تلاشى — فى فناء لا يعود؟!
فى دياجى الموت يخفى — الناس فى ليل طويل
ما رأينا أن ميتا — عاد من بعد الرحيل
ما سمعنا غير قول — لم يُؤَيِّد بالدليل

عن نشور بعد مــــوت ســــاغ فــــى الفكـــر الكليـــل
أي برهـــان لدعـــوى ردها راقى العقـــول؟!(١)

وهذه الأبيات فى عرضها لكــلام المنكـرين الجاحــدين لحقيقــة البعــث ، المستبعدين لحدوثها – تنطلق من خلال قول الله سبحانه على لسان هؤلاء المشــركين : {أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيد}[ق:٣] ، وقوله عزّ اسمه : {وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُون * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُون }[الواقعة:٤٧، ٤٨] ، وقوله : {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيم}[يس:٧٨] ، وقوله عزّ وتقدس {إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُون * إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِين }[الدخان:٣٤، ٣٥] .

وإذا كان شاعرنا قد عرض هناك فى أبياته السابقة لكلام هؤلاء الجاحدين المنكــرين ... فإنه ينبرى هنا فى الردّ عليهم ، مُكذباً لهم فى كلامهم ، مُفنِّداً لزعمهم ، مُــبطلاً لحُجتهم ، ولسان حاله ومقاله يُردِّد قول الله تعــالى يقطــع ببعــثهم بعــد المــوت ، ونشورهم بعد البلى : {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُون}[الصافات:١٨] ، وقوله عز وتقــدس .. رآداً على هذا المُنكر : {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم}[يس:٧٩] ، حيث يهم الشاعر فى أبياته التالية بتفنيد زعم هؤلاء المنكرين ، ودحض باطلهم ، مُثبتــا تلــك الحقيقة الدامغة حقيقة البعث ، وذلك من خلال سوقه للكثير مــن الأدلــة والبــراهين المشاهدة الناطقة بكون البعث بعد الموت حقيقة دامغة ..

هاهو ذا صان الدِّين يلفت نظر هذه الدّعيّ الأفَّاق ، مهيباً به أن يــنعم ويــديم نظره فى تلك الزروع والأشجار ذات الأغصان الرطيبة ، والثمار اليانعة التى تمــلأ

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ٧٨ ، ٧٩ .

الأجواء طيباً .. تُرى كيف كان حالها فى زمن الربيع .. ذلك الذى يُهدى للكائنات الحياة تُرى كيف كان حالها قبل ذلك ، حيث زمن الخريف فقد تساقطت أوراقها ، وذوت وذبلت أغصانها ، ووهيت سيقانها ، وأقحلت وأجدبت ثمارها .. فلك أن تنظر بعين التأمل كيف دبت فيها الحياة بعد الممات ، بل لك أن تنظر بعين التأمل إلى الأرض الميتة ذات الربوع الجدبة كيف تدبُّ فيها الحياة بعد أن يصيبها الغيث والقطر من السماء ، فتكتسى ربوعها بالخضرة والخصب والنماء .. بعد أن يجود ترابها بالزروع والثمار والأشجار والأقطان ، وهذه الأشجار تحيا وتنمو على تراب الأرض ، وتتغذى من طينها الذى هو فى الأصل من جسوم الغابرينا ، حيث استحالت تلك الجسوم بعد الموت فى طباق الأرض طينا ، لتتغذى عليها الأشجار والأعناب والتِّين والثمار ، فيطعم منها الأحياء، تُرى كيف دارت دورة الحياة فاستحال الميت حياً ... منة من الله ورزقاً وفضلاً .. يقول صان الدِّين متأملاً ،ومُهيباً بخصمه المُلحد الذى يحاوره إلى التأمل فيما حوله من مظاهر الكون ؛ كى يهتدي إلى تلك الحقيقة – حقيقة البعث بعد الموت :

قلتُ : يا هذا تأمل	**ذلك الغصن الرطيبا**
وانظر الأزهار فيه	**تملأ الأجواء طيباً**
كان من عهد قريب	**يابساً يؤسى القلوبا**
ليس فيه من حياة	**لا ترى إلا شحوبا**
ماله قد صار غضاً	**يرتدى ثوباً قشيبا؟!**
وانظر الغبراء تلف	**أنها أرض موات**
لا تراها غير جدب	**جعَّدته السافيات**
إن سقاها الغيث دبت	**فى روابيها الحياة**

واكتست خصباً بهيجاً قـــد زكـــا فيهـــا النبـــات
يجتنى منه ريـــاش أوثمـــــار ناضـــــجات
هذه الأشجار تنمـــو مـــن جســـوم الغابرينـــا
حيث صاروا بعد موت فـــى طبـــاق الأرض طينـــا
واستحال الطين فى الأشـــجار أعنابـــاً وتينـــا
قد طعمـــناه ثمـــاراً حلـــوة منهـــا حيينـــا
كيف عاد الميت حـــيا فى خـــــلايا العيش فينا؟!(١)

ثم ها هو ذا صان الدِّين يضع أمام هذا المُلحد المُنكـر للبعـث مزيـداً مـن المشاهد المحسوسة المدركة التى من شأنها أن تثبت تلك الحقيقة .. حقيقة البعـث .. حيث يدعوه ليتأمل حال الإنسان فى نومه ويقظته ، فهو – أي الإنسان- كالميت حين ينام ، حيث يسكن للراحة ، ويخلد للهدوء تماماً ، فلا حراك به ولا إدراك ، وإذا بـه بعد ما يستيقظ تدب فيه الحياة .. وهكذا يحدث للإنسان هذا الحدث فيحيا من ثم فـى كل يوم بعد الممات .. حيث تكون رقدته وانطراحه فى السرير كرقدته وانطراحه فى القبر .. هلا سألت نفسك كيف تُهدى للإنسان الحياة بعد الممات؟! بل ساءل نفسك أين كنت قبل أن تصير إلى هذا الحال من الخلق والاستواء ، وقبل أن تُودع فيك الروح ، ويُوهب لك العقل ؟ كنت عدماً فأوجدك الله الخالق .. يقول صان الدِّين متأملاً :

حين تُمسى فى سبات دون إدراك وحـــــــــــس
صرت مُلقى فى فراش لســـت تـــدرى أيـــن تمســـى؟!
ثم تصحو فى دبيـــب بـــين أتـــراح وعُـــرس

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٧٩ ، ٨٠ ، والرياش : المال واللباس .

إنه مــــوت وبعــث   كــــل يـــــوم دون لــــــبس
وانطراح فى ســرير   كـــــانطراح بـــــين رمــــس
هل سألت العقل يوماً   أيـــن كـــان المـــرء قبـــل؟!
كيف أضحى ذا كيان   شـــكله فـــى العـــين يحلـــو؟!
كيف تسرى فيه روحُ   ذات أســـــرار وعقـــــل؟!
لم يكن من قبل شيئاً   منـــــه فـــوق الأرض ظـــل
كان معـــدوماً بغيبٍ   ليـــس عـــــنه ما يـــدل(١)

وغير خافٍ أن الخماسية الأولى من هذه التجربة مستوحاة - فى مضــمونها- مــن مضمون القرآن الحكيم ، وهدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم .. حيث يقول الله تعالى فى هذا الشأن : {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[الزمر:٤٢] .

ويقول سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : " **والله لتموتن كمـا تنـامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، وإنها للجنة أبداً ، أو للنار أبداً** " (٢).

أما الخماسية الثانية من هذه المجموعة فتنبع من مضمون البيان القرآنـي الحكـيم ، حيث يقول الله تعالى فى هذا الشأن : {وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ

(١) ديوان : أعاصير وأنساب – صـ ٨٠، ٨١ . والرَّمس : القبر .
(٢) هذا الحديث الشريف أخرجه أبو زهرة فى كتابه:زهرة التفاسير- جـ ٢ - طبعة دار الفكر العربي ،وعزاه لابن عساكر فى: تاريخه – جـ١ – صـ ٣٩٦.

الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا }[مريم:٦٦، ٦٧] . ويقول جل شأنه : {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا}[الإنسان:١] . .

ثم يقطع شاعرنا بعد أن ساق لهذا الدعي الآفاق ، والملحد المنكر الكثير من الأدلة والبراهين المشاهدة رأي العين ، والتى تؤكد ثبوت البعث بعد الموت .. بما لا يدع مجالاً لتشكيك مُشكك ، ولا ارتياب مرتاب .. ها هو ذا شاعرنا يُنادى هذا الملحد المُنكر المرتاب للبعث ، قاطعاً بثبوت تلك الحقيقة بين يديه ، حيث سيبعث الله من فى القبور ، ووبحييهم من عجب أذنابهم ليقوم الخلق جميعاً للحساب .. والجزاء.. فالله سبحانه الخالق البارئ المصور المُوجد خلقه من عدم قادر على أن يحييهم بعد أن أماتهم ، لا تعييه ، ولا تعجزه إعادة إحيائهم .. وهنا حدَّقت عين الشاعر ، وأدامت النظر فى وجه ذلك المنكر الذى أطال فى محاورته .. عساه قد زالت عن قلبه وعقله غشاوة الكفر ، وظلمة الإلحاد .. ليرى بالفعل نوراً وهدى يشع وينبعث منه فى خشوع وسكينة وخشية .. حيث استحالت الغشاوة نوراً وهداية .. استقرا فى قلبه وكيانه ، ليتنفض معلنا توبته وإنابته لله المُحي المُميت الذى يبعث من فى القبور ، هارعاً إلى مناجاته سبحانه ، والوقوف بين يديه ، قائلاً فى لهفة وشوق ، وصحوة وصِدق : أين المُصلَّى؟! .. يقول صان الدِّين فى مختتم تجربته التأملية الإيمانية هذه :

أيها المُرتاب أخفى — فى ممارَاة مُراده؟!
أي ريب أي لبس — هز فى البعث اعتقاده؟!
إن عظم المرء يحيا — قائماً يوم الشهاده
فالذى سواه بدءاً — باختيار وإراده

فى جمـــال واكتمال	لـــــيس تعييـــــه الإعـــــاده
فى مجيا صاحبي قد	حــــدّقت عينـــــى لعـــــل:
ما تغشّــاه رقيــق	مـــن ضـــباب قـــد تـــولى
فارتأت فيه بريـــقاً	مـــن هـــدي القلـــب تجلّـــى
والذى قد كان وعراً	منـــذ ســـاع صـــار ســـهلا
ثم حيَّا فى خشـــوع	قائـــــــــلاً: أين المصلى؟(١)

ولا يخفى تأثر الشاعر فى خُماسيته الأولى من هذه التجربة بمضمون القرآن الحكيم ، حيث قول الله سبحانه على لسان المُلحدين المُســتبعدين المُنكــرين لحقيقــة البعــث والنشور بعد الموت والفناء .. ، مُؤكداً ثبوت تلك الحقيقة ، وأنها ليست تعيى وتعجــز من أنشأ وخلق وبدأ أول مرة : {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيم * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم }[يس:٧٨، ٧٩] . .

ثانياً: تأمله فى عالم حواء :

لصان الدِّين تجارب شعرية تأمَّل من خلالها فى عالم المرأة .. كاشــفاً عــن حقيقة وطبيعة ذلك المخلوق الضعيف الرقيق ، مؤكداً كيف أنه لغز يحار فيــه فكــر الرجال ، وسر تتيه إزاءه عقولهم ، مشيراً إلى أن هذا المخلوق الضعيف غدا صاحب سلطان ونفوذ ، وقوة وتأثير يخضع إزاءه أعتى الرجال ، ويضعف بين يديه أشــجع الفرسان ، وتلين وترقُّ طباع قساة القلوب ، غلاظ النفوس .. وقوة المرأة تكمن فــى ضعفها ودلالها :

(١) ديوان : أعاصير وأنسام –صــ ٨٢ .

فى يديـــها الليـــث يغدو وادعـــــاً مثـــل الغــــزال
روضت حــواء طبــع الــ جـــامح الجلـــف العنيـــف
كـــان ليثـــاً فى يديـــــها صـــــار كــــالهر الأليـــف
تجعل الجبار رب الســـ سيــف فى درك الضعيــف(١)

وهي ضرورة لابد منها ، ولا غنى عنها ، إذ :

لــيس شيء فــــوق الأر ض عــن حــواء يغنـــى

ولا يكاد يخلو أحد من أن يكون آخذاً من حُبها ، والكَلف ، والتعلُّق بها بسهم ، أو نصيب :

يا لمخلوق رقيق يشغل الدنــــيا بعيــــن !!

حول هذه المعانى والمضامين تقريباً دارت تجارب الشاعر التأملية فى عــالم حواء .. ولكن يجدر بى قبل أن أعرض لتلك المعانى والمضامين .. أن أؤكد كيــف أن صان الدِّين قد عزف فى شعره فى المــرأة عــن تصــوير مشــاعره الذاتيــة ، وأحاسيسه الخاصة .. وعلا وسما وربأ بنفسه عن تجسيد معــالم الفتنــة ، ومظــاهر الحسن ، ومجالى الجمال التى تتوافر عليها المرأة ؛ وذلك لأنه شاعر ملتزم يعتقد فى أن ذلك المسلك الذى يتفنن فيه هؤلاء الشعراء فى إبــداء الســوءات ، والتصــريح بالعورات ، وكشف المستورات ، وكل ما من شــأنه أن يثيــر الغرائــز ، ويُحــرِّك الشهوات ، ويهوى بالأذواق ، ويخدش المشاعر .. –شاعرنا يعتقــد فــى أن ذلــك المسلك غير نبيل الغاية ، ولا شريف المقصد لدى هؤلاء الشعراء ، حيث ابتعدو بــه عن العِفة والطهر والرشاد ، وتردوا وهووا وسقطوا من خلاله فى مزالــق الفُحــش

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صــ ٧١ ، والحفيف : صوت الشجر ، والنسيم عند التحرُّك.

والضلال ، والتهتك والهذيان ، خالعين عنهم بذلك عباءة الرقي فى الفن ، والالتـــزام فى الإبداع .

يقول صان الدِّين فى قصيدته : " أدعياء الشعر": مشيراً إلى طبيعـــة نظرتــه للمرأة .. تلك النظرة السامية الراقية المحافظة ، مؤكداً كيف حاد هؤلاء الذين شـــببوا بالنساء ، وأطالوا وأمعنوا فى وصف وتجسيد ما خفي وتوارى عن العيـــان ، مُلقـــين بذلك أستار الحياء .. كيف حاد هؤلاء عن الهدى ، وضلّوا عـــن الرشـــاد ، فتنكبـــواْ الطريق ، وبات إبداعهم فى مهب الريح ، لا يعدو سوى هذر وهذيان ، وفحش وتردٍ فى مزالق الشيطان ، شتان بينه وبين إبداع ينشد فيه صـــاحبه الفضـــيلة ، ويســـمو بالأذواق ، إذ شتان بين الدُّرِّ والحصباء ، ناعياً على هؤلاء الذين تنكبوا الطريـــق ، وحادوا عن الرشاد ، خالعاً عليهم صفة أدعياء الفن ، وزنماء الإبداع :

تـــاه عـــن نُبـــل ورشـــدٍ — مـــن يُشـــبب بالنســـاء
أو يطيل الوصف فى المســ — تور مـــن تحـــت الكســـاء
باســـم حـــق الـــفن يُلقـــى — عنـــه أســـتار الحيـــاء
هل يبيح الفـــن والابـــدا — ع تكـــدير الصـــفاء؟!
أحقر الأقـــوال قـــول — نـــال عـــرض الأبريـــاء
أدعيـــاء الشـــعر ظنوا — أن نظـــم الهـــذر شـــعر
فاعـــلات أو فعـــولن — وزنهـــا شـــعر أغـــرّ
بئس نظم القـــول والأذوا — ق والنقـــد المقـــر!

إن تساوى فى عيون النـــا س حصـــــــــــــــباء ودر
للــــذى أولاه ظهـــــــراً مشمئز النفـــس عــــــــذر[١]

... ولا شك فى أن هذه النظرة الراقية من الشاعر– إزاء المرأة – ينحو فيها منحى رومانسياً يسمو من خلاله على أدران الحس ، ورغبـــات الـــنفس وهــو – أي شاعرنا – يعترف مع ذلك بحُبِّه للمرأة ، ومَيْلُه نحوها ، وشغله بهـــا ، ُمؤكـــداً أنهـــا مصدر راحته وسكينته ، وسرّ بهجته وسعادته ، بيد أنه يبغى لها كل رفعة وســـموِّ ، وسلامة ورقي ، فتبقى هكذا دُرَّة مكنونة ، ولؤلؤة مصونة ، وجوهرة غاليــة ، ووردة نضرة تسلم من عبث العابثين ، وتنجو من شباك المخادعين .. حيث يقــول مخاطبــاً حواء ، مُصوِّراً إزاءها تلك المعانى والمضامين :

لا تحســـــبى حـــواءُ أنِّى عنــكِ مشــغولُ الجنـــان
هل أنت إلا قطعـــة منـــــى اســـتقلت عــــن كيـــانى
مازلـــت أبحـــث عنـــك فى كـــل الأمـــاكن والزمـــان
لا يعرف القلب السكيــــــــ ـــنة إنْ نأيت عن العيان
لكننى أبغيـــــك يا حــــوا ء عاليــــــة المكـــــان
لا .. لا أحبـــك ســــلعة معروضـــــة للمشـــــترينا
أودُمْيـــة تُطلـــــى لتحلــو فـــى عيــون الناظرينـــا
أو تنـــــزلين الســـوق فى قـــيظ الحيـــاة تزاحمينـــا

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٨٤ .

فالســـــوق يا حـــــسناءُ تعـــ ـــرك فى رحاها المُرهفينـــا
بل أنت للعــرش الممَّـــــــــــــرد فى ســمائك تأمريـــنا[١]

ولا شك فى أن هذه النظرة السامية الراقية من الشاعر نحو المــرأة- بعيــداً فى ذلك عن تصوير مفاتنها الجسدية ، وتســامياً فوق رغبــات الــنفس ، وأطمــاع الجسد ، وتعالياً على نزواتهما – لاشك فى أنه – أي الشاعر – ينحو فى تلك النظــرة منحاً رومانسياً فــ : " ليس الحُبُّ عند الرومانتيكيين مجرد فضيلة ، لا بل هو علـــى رأس الفضائل ، وهو وسيلة تطهير النفوس ، وصفائها " [٢].

" وقلما كان يُعنى الرومانتكي بلذائذ الحُبِّ الحسية الرومانتيكية ، وإنما كـــان حُبُّه عاطفياً حالماً" [٣] .

" لذلك تبدو عاطفة الحُبِّ عند هؤلاء الوجدانيين وكأنها تجربة روحية تــرتبط بمعانى الطهارة والعِفة والصمود أمام الشهوات ، ويسمو الشاعر فيها بخياله إلى عالم نوراني من الأحلام والأوهام ، متخذاً من حُبِّه مجرد إلهام لموهبته ، وحافزاً مُطلقــاً غائماً لا يحده فى الأغلب اسم زمان أو مكان ، يتحدث عنه فى كثير مــن الأحيــان حديثه إلى غائب مجهول ، أو يخاطبه أحياناً كما يخاطب مثالاً سامياً ، خالصــاً مــن أدران الحياة ، وأطماعها .. والشاعر فى تطلُّعه إلى هذا المثال يأمُل الخــلاص ممــا

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ١٧٢ ، ١٧٣ ، المُمرّد: القوي المرتفع البناء .
(٢) الرومانتيكية – تأليف : د/ محمد غنيمي هلال – صــ ١٦٩ – ط- نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- د.ت .
(٣)الرومانتيكية – تأليف : د/ محمد غنيمي هلال- صــ ١٧٥ .

يجد من معاناة الحياة ، ومخالطة الناس ، أو التحرُّر من الصراع المُحتدم فى وجدانه بين الرغبة ، والطهارة ، أو الواقع ، والمثال " [١] .

والآن نحيا مع بعض وقفات صان الدِّين التأملية فى عالم حواء .. حيث يشير فى إحدى قصائده فى هذا الشأن إلى أنها لغز حار فيه العقلاء ، متسائلاً هل هي شيطان رجيم ، سُلِّط على الأحياء ؟ أم أنها ملاك رحيم فوق الأرض ظِل وأنسام .. وأي رجل – مهما كان صلباً مغواراً ، شديدا مهابا يصير إزاءها رقيقاً لينا ، وحملاً وديعا .. وهي – أي المرأة – فى سخطها وغضبها شر مستطير ، وفى رضاها وهدوئها سهل يسير .. يقول الشاعر مخاطباً المرأة :

أنت يا حواء لغز ... ماله فى العقل حل
يا ترى هل أنت شيطان ... بدنيانا يحل؟!
أم ملاك منه فوق الأر ... ض أنسام وظل
عند سخط أنت وعر ... فى رضاءٍ أنت سهل
أي عملاق مهيب ... حين يدنو منك طفل [٢]

والحقيقة أن النساء من منظور الدِّين الحنيف رياحين خلقن للرجال .. لا شياطين .. فهن شقائق الرجال .. وما أجمل مطابقة الشاعر بين حالين يتناوبان على طبيعة المرأة هنا .. حالها فى أثناء سخطها ، وغضبها ، وحالها فى أثناء رضاها ، وهدوئها ، فهي عند سخطها وعر صعبة المراس والترويض ، وعند رضاها

(١) الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر : د/عبد القادر القط – صـ ٢٨٩ .
(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٦٧ .

وهدوئها سهل ذلول، حيث هي ملاك الرحمة ، والظل الظليل الذى يفيئ إليه الرجال آنئذٍ .

ويشير صان الدِّين – خلال قصيدته هذه– إلى أن هذا المخلوق الضعيف الرقيق لا غنى للرجال عنه ، فهى – أي المرأة – بعض منه ، وهو بعض منها ، وهذا المخلوق الضعيف تكمن قوته ، ويتمثل سحره وتأثيره ونفاذه فى ضعفه ورقته وحنوه وتدلُّله.. لطالما شغل الرجال بسحره وجماله ، واستهواهم بحسنه ودلاله .. فسلطانه طاغ بسلاح الضعف أحياناً ، وأخرى بالدلال..

يقول صان الدِّين:

ليس فوق الأرض شيء عنك يا حواء يُغنى
أنت فى الإنسان بعض منه ذو جاه وشأن
ضعفك المعهود أقوى من أعاصير وجن
كم أذاب الماء صخراً فى حنوٍ وتأنِ
يا لمخلوق رقيق يشغل الدنيا بعينِ!!
فى نشيج بنت حوا ء اشتكت ظلم الرجال
فاستمالت كل قلب من فريق لا يُبالى
حينما سلطانها طاغ ولو خلف الحجال
فى يديها الليث يغدو وادعاً مثل الغزال
بسلاح الضعف أحياناً وأخرى بالدلال(١)

---

(١)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٦٧ ، ٦٨ .

وما أدل تلك الصورة الرائقة التى شبَّه الشاعر فيها الرجال الشجعان إزاء المرأة – ذلك المخلوق الضعيف بالغزلان فى الرقة والأنس والدَّعة.. ما أدل تلك الصورة البليغة هنا على ما تحظى به المرأة من سحر وتأثير وقوة وسلطان فى قلوب الرجال ، الأقوياء منهم فى ذلك سواء ، والضعفاء .

ولا تخرج المعانى والمضامين التى تأَّمل من خلالها الشاعر فى عالم المرأة .. كاشفاً عن حقيقتها وطبيعتها .. لا تخرج تلك المعانى والمضامين فى بقية تلك القصيدة عن التى ذكرها الشاعر ، وأتيت عليها قبل قليل ، حيث لا تعدو سوى تأكيده ما للمرأة من قوة وسلطان وسحر وتأثير فى قلوب الرجال .. الأقوياء فى ذلك سواء والضعفاء .. حيث يقول صان الدِّين فى القصيدة ذاتها يشير إلى ذلك المعنى ، ويؤكده:

كم عظيم فاق نجـ م الشمس تعظيماً وقدراً
كان عند الناس ضرغاماً وعند البيت هرّا [(١)]

فإذا كان الرجال الشجعان هناك قد صاروا غزلاناً بين يدي المرأة ، فإنهم هنا قد صاروا كالهرة – بجامع الألفة ، والأنس ، والرقة ، والضعف فى الموضعين .

ويبدو أن تلك الفكرة التى أشار إليها الشاعر ، وأكدها – خلال قصيدته السابقة هذه – تلك التى تتمثل فيما تحظى به المرأة – ذلك المخلوق الضعيف من سحر ومضاء ، وقوة وسلطان فى قلوب الرجال .. يبدو أن تلك الفكرة تشغل فكر الشاعر ، وتسيطر على وجدانه .. حيث يشير إليها ذاتها ، ويُجلِّيها ويؤكدها فى

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٦٨ .

موضع آخر من شعره فى المرأة ، فها هو ذا صان الدِّين يشير إلى ما للمرأة من تأثير – من خلال قصيدته : حواء " إلى ما يتوافر فى المرأة من سحر وفتنة وحُسن وجمال من شأنها أن تستهوى إليها أفئدة الرجال ، لا سيما لو أبدت زينتها ، وأظهرت فتنتها .. فهي كالزهرة تبدو فتنة تسر الناظرين ، ويشتهى منها رحيق أو عبير كلّ حين .. ويظل حُسن المرأة ، ويبقى جمالها نضراً مصوناً ، سالماً من عبث العابثين ، وتعدِّى الآثمين .. مثلما الزهرة تبقى نضرة .. فإذا تساقط عليها النحل ذوت وذبلت .. كذا المرأة يذوى جمالها ، ويذبل حسنها، ويذهب رونقها – إن هي صارت كالكلأ المُباح .. حيث تغدو كوردة دون شوك يحفظها ويمنعها ، فتصير من ثم سهلة القطف .. يسيرة المنال .. ولا تصون الحُسن من النساء إلا من لها حزم وعقل .. حيث تسلم من ضعاف النفوس – ممن تجاوزوا الحدَّ ، وحادوا عن هدي الشرع الحنيف .

ها هو ذا شاعرنا يشير إلى تلك الفكرة .. مؤكداً من خلالها طبيعة نظرته للمرأة – تلك النظرة الرَّاقية العالية .. حيث يطمح ويأمُل ويبغى الشاعر لها كلَّ رقي وسموّ ، وتصوُّن ، وتمنُّع ، وإباء وحياء ، من خلال نصحه إياها ، وتنبيهها إلى ما فيه طهرها وسُموُّها ، مُمتدحاً ذلك الصِّنف من النساء ذوات الحِشمة والحياء .. ها هو ذا صان الدِّين يشير إلى ذلك – من خلال مخاطبته المرأة ، حيث يقول :

أنت مخلوق بديع ... فيك سحر كيف كنت!!
فى احمرار أو بياضٍ ... أو سمار أنتِ أنتِ
كل نحل أو فراش ... منك يدنو إن سفرت
هكذا الأزهار تبدو ... فتنة من غير لفت
يُشتهى منها رحيقُ ... أو عبيرُ كُلَّ وقت

غيــر أنّ الزهــر يــذوى حينمـــــا يغـــزوه نحـــلُ
والمعيــن العـــذب يُفنى مـــاءه السلســال نَهْـــلُ
لا تصـــون الحُســن إلا مـــن لهـــا حـــزم وعقـــل
إنَّ ورداً دون شــــوك قطفــــه المعشـــوق سَــــهْلُ
كل إنسان إزاء الغيـــــ د صـــــبُ فيـــه جَهْـلُ(١)

وإن كنت أرى أنَّ الشاعر جانبه الصواب فى فكرته التي تضـمن عليها بيته الأخير هنا .. حيث يصف فيه كلَّ من مال قلبه إلـى النسـاء ، وتعلقت نفسه بهن ، واشتاق فؤاده إليهن بالجَهل :

كل إنسان إزاء الغيـــــ د صـــــبُ فيـــه جَهْـلُ

أرى أن الشاعر قد جانبه الصواب فى تلك الفكرة التى تضمنها هذا البيـت ، وقد أوقعه ذلك الخطأ فى التناقض .. حيث أشار – فى موضع آخر،خلال وجدانياتـه فى المرأة ، مُقرِّراً ومُؤكِّداً – إلى أنّ التعلُّق بالنساء ، والكلف به ، والميل إليهن إنمـا هو أمر فطري ، وشيء غرزي يستوى فيه الشباب والشيوخ – على نحو ما جاء فى قوله يشير إلى تلك الفكرة، ويؤكدها :

وســـواء فى انعطـــاف نحو حــــواء الرجـــال

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صــ ٧٢ ، وسفرت : أظهرت فتنتك ، ويذوى : يذبل ، ونهل : شرب .

من شـــباب وشـــيوخ　　　يســتبى الكُلَّ الجمــــالُ[١]

بل إنه فى إحدى وجدانياته فى المرأة يخاطبها خطاب المتودِّد المُقرِّ بتأثيرها وسلطانها ، حيث يُصوِّر كلفه بذكرها ، وتعلّقه بشــأنها ، مُشــيراً إلى إنها حاضرة فى وجدانه ، ماثلة فى كيانه ، مستقرة فى فؤاده .. يقول :

لا تحســبى حــــواء أنِّى　　　عنــك مشــغول الجنـــان
هل أنت إلا قطعــة منِّــى　　　اســتقلّت عـــن كيـــانى
مازلت أبحــث عنــك فى　　　كـــل الأمـــاكن والزمـــان
لا يعرف القلب السـكيــ　　　نة إن نايت عن العيـــان[٢]

ويبدو أنه أراد فى البيت المذكور أن يؤكد فكرته التى أرساها خلال الأبيــات المذكورة قبل هذا البيت ، حيث يحذِّر الرجال من أن يقعواْ فى شرك سفور النســاء ، فيفتتنون بحسنهن الظاهر .. لكن الصياغة لهذه الفكرة جاءت غير دقيقة – فلو قال : كل إنسان إزاء :" سفور " الغيد صب فيه جهل لكان أنسب للفكرة وأقوم .. بدليل أنه قال يقر بتعلقه بالمرأة ، ويعترف بكلفه بها ، مُؤكداً بأنها قطعة من كيانه :

لكننى أبغيـــك يا حـــوا　　　ء عاليــــــة المكــــــان
لا .. لا أحبـــك ســلعة　　　معروضـــة للمُشـــترينا

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صــ ٧١ .
(٢) ديوان: أعاصير وأنسام – صــ ١٧٢ ، ١٧٣ ، والجنان : العقل والفكر .

أو دُمية تُطلــى لتحلــو　　　فى عيـــون النــاظرينا[١]

هذا وللشاعر تجارب أخرى ضمنها تأمله فى عالم المرأة ، وهي لا تكاد تخرج فى مضمونها عن التجارب السابقة المذكورة هنا .. فها هو ذا صان الدِّين يشير إلى ما للمرأة من تأثير كبيـــر ، وســـحر عجيـــب فـــى ترويض طبع الرجال ، فالطالما أحالت الجلف العنيف الغليظ الطبع القوي الشجاع الذى يُشبه الأسد .. هراً أليفاً ، وحملاً وديعاً، مستسلماً مـــن أثـــر لفتات المرأة : " الغزال "، ورقته وبسماته .. حيـــث يغـــدو الشـــديد ربُّ السيف فى يديها ضعيفاً مُستهاماً .. يقول الشاعر:

روضت حواء طبــع الجـــا　　　مـــح الجلـــف العنيـــف
كان ليـــثاً فـــى يديـــها　　　صـــار كـــالهرِّ الأليـــف
طيِّعـــــاً مستسلـــما مـــا　　　بال ذى القلـــب الرهيـــف؟!
لفتـــــة أو بســـــمة أو　　　همســـــة مثـــل الحفيـــف
تجعـــل الجبـــار ربَّ الســـ　　　سيف فى دركٍ الضعيف[٢]

ويزيد صان الدِّين هذه الفكرة جلاءً ، وتأكيداً، حيث يشير فى موضـــع آخـــر إلى ما للمرأة من سحر ماضٍ ، وتاثير نافذ ، وسلطان قوي فى قلوب ونفوس الرجال .. ، حيث يصير أعتى الناس بين يديها طفلاً وديعاً ، ويغدو الرجل غليظ الطبع الفـــظ الجلف من الناس رقيقاً لينا وادعاً مستسلماً .. وهي أى المرأة سر عجيـــب ، وبحـــر عميق تترامى سواحله .. يفيض بالألغاز، ويجود بالأسرار .. حيث يقول :

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٧٣ .
(٢) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـــ ٧١ .

هل أنت يا حــواء مخلــو ق يُعـــــدُّ مــــن الضــــعاف
أم أنت أعتى الناس طفــل فـــــى أناملــــك اللطــــاف
كم راض دمعـــك أو لا ن لــه دون قهــر كــل جــاف
فغدا إليك وإن تظاهر بالتــ تجهـــم فـــى انعطـــاف
ما أنت إلا لجـــة البحــ ر العميـــق بـــلا ضفاف (١)

ثم يشير صان الدِّين إلى أن هذا الكلف ، وذلك التعلــق بالنســاء ، والميل إليهن قاسم مشترك بين الرجال والنساء ، شبابهم وشيبهم فى ذلــك سواء ، فالكل يستبيه الجمال ، ويستهويه ذلك السِّحر الذى وشّاه الدلال .. ففى فترة الشباب يكون القلب طلقاً ، وتكون المشاعر فيَّاضــة ، وعنــدما يشيخ ويهرم المرء ، ويضعف ، ترق مشاعره ، وتجيش عواطفه ، حيث يذكيها الكبر، ويزيدها الضعف؛ فيحيا من ثم على ما كان بينه وبين المرأة من ذكريات .. وفى ختام تلك التجربة يؤكد الشاعر كيف أن المرأة ســر ليس يدرى كنهه ، ولا يقف على حقيقته فكر، ولا عقل، ولا بال .. حيــث يقول :

وســـواء فى انعطـــاف نحـــو حـــواء الرجـــال
من شبـــاب وشيـــوخ يســـتبى الكــلَّ الجمـــال
إن ميل القلب فى الإنـــــ ـــــسان يذكيـــه الكــلال

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٧٢ .

أي سحر فيك يا حـــو اء وشـــاه الـــدلال
أنت سر ليـــس يـــدرى كنهه المخبوء بـــالُ (١)

..وهكذا يتفق البيت الأخير فى كلا التجربتين المذكورتين هنا فـى الإشارة إلى ما يكتنف عالم المرأة- ذلك المخلوق الرقيق الضـعيف مـن ألغاز وأسرار من العسير أن يدرى كنهه ، ويقف على حقيقته ، و يصـل إلى نهايتها فكر، ولا عقل ، ولا بال .. حيث يقول فى مختتم الأولى :

ما أنت إلا لجـــة البحـــر العميـــق بـــلا ضفاف

ويقول فى مختتم الثانية :

أنت سر ليـــس يـــدرى كنهـــه المخبـــوء بـــالُ

ثالثاً : تأمله فى الحياة والأحياء :

لصان الدِّين تجارب وجدانية تأملية غاص من خلالها فـى طبيعـة الحيـاة والأحياء، عارضاً لبعض سلوكياتهم وعاداتهم وتقاليدهم .. منتقداً إياها .. مبيناً وجـه الصواب، وعين الرشاد فيها .. فها هو ذا شاعرنا يعرض فى إحدى قصائده التأمليـة لفكرةٍ سلوكية حياتية سقيمة تبناها الفيلسوف الإيطالى :"ميكيافل" ، ودعا إليها ، إنها : "فكرة الغاية تبرر الوسلية" ، وكيف أن تلك الفكرة : " الخطأ" قد غدت مذهباً اعتنقه ، واعتقد فيه الكثير ، من الناس فصار أثرها بادياً ومتحققاً فى سلوكياتهم .. حيث يتـيح هؤلاء ويُسوِّغون لأنفسهم فعل أي شـيء مهما كان حراماً ، وجرماً فى سبيل تحقيق غايتهم ، منتقداً ذلك السلوك الغادر المُخادع ، كاشفاً عن أثـره السـلبي ، وخطـره الضارى فى دنيا الناس .. وأن هؤلاء فى ضلالتهم وزيفهم يعمهون ، فلـيس يـأتى

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صــ ٧١ .

الخير من شر أبداً إذا كان الشر هو وسيلتهم .. حيث يدعو هذا السلوك إلى اســتخدام المراوغة ، والحيلة والخداع . وهذا من شأنه أن يكدر صفو العيش ، ويذهب بالسلام والأمان فى الحياة .. وهو مؤشر لفناء الفضيلة ، ونماء الرذيلة .. يقول صان الــدِّين فى قصيدته ذات العنوان الدال المؤحي :" الغايةُ تبرِّر الوسيلة " :

قد قرأنــــا ورأيـــــــنا أن (ميكيافيــــــل) يحيـــــا
فى سلـــــوك البعض ممن يحســــبون الهــــذر رأيــــا
إن ذا شــــر وخيـــــــم خـــــاب تــــدبيراً وســــعيا
جائحات خدرت فى الـــــنا س إحساســـــاً ووعيـــــاً
أي شــــرع؟ أي عقــــل؟ يرتضى فى الأرض بغيــا؟!
قد أتاح الجرم (ميكيــافيلّ) تحقيقـــــــاً لغايـــــــــه
أي غـــدر ، أي ختــــــل مستســـــاغ فــــى رعايـــه
ليـــس فيمـــــا بثـــه أو خطـــــــه إلا الغوايـــــــه
ظنــــــها المفتـــون بالتـــ تجـــديف والتخريـــب آيـــهْ
ذاك فــــى الأديـــان والــــ أعـــــراف هـــدم وجنايـــهْ
ليس يأتى الخير من شــــرٍ إذا كــــان الوســـــيلهْ
تلك أفكــــــار علــــــى الأحياء فى الــدنيا وبيلــهْ
تجعـــــل الإنســـان فيها ثعلبـــاً يســـطو بحيلـــهْ

إن صفو العيــــــش لا ينـــ ـــمو على أرض الرذيلـــهْ
إنمـــــا الدنــــــيا ســلا م ورخاء بالفضـــــيله[١]

ولا يخفى ما قام به الشاعر فى قصيدته هــذه مــن عــرض تلــك الفكــرة المرفوضة عقلاً وشرعاً ، وإلقاء الضوء عليها ، ثــم انتقــاده إياهــا ، وتصــحيحه لمسارها .. كاشفاً عن تنكب أصحابها للصراط المستقيم ، حيث نراه يتســاءل فــى – تعجب وإنكار شديدين ، فيقول:

أي شــــرع؟ أي عقـــــل؟ يرتضى فى الأرض بغيا؟!

ونراه أيضاً يُصور خطرها الداهم المحدق بالدِّين والحياة ، حيــث يقول:

ليـــس فيمـــــا بثـــه أو خطـــــــه إلا الغوايــــــــهْ
ذاك فـــــى الأديـــان والـــ أعــراف هــدم وجنـــايهْ
تلك أفكـــــار علـــــــى الأحياء فى الدنـــــيا وبيلهْ
تجعـــــــل الإنســـــان فيها ثعلـــباً يســـــطو بحيلهْ

وفى قصيدته التأملية الهادفة : " شعوذة ودجل" ينتقد الشاعر سلوكاً مرفوضــاً دينياً واجتماعيا تمكَن من المجتمع ، واستشرى بين كثير من أبنائه ، وكــاد يقضــى على أوصاله .. " هو الشعوذة والدَّجل" ، وكيف أن كثيراً من الناس قد اتخــذوا هــذا العمل وظيفة لهم يُغرِّرون ضعفاء الإيمان مــن النــاس ، ويخــدعونهم ، ويمنــونهم بالأمانى مُدِّعين علمهم الغيب ، وأن الجن يأتيهم بأنباء الدُّهور ، ومــن أســف تجــد لهؤلاء الآفاقين أنصاراً ومريدين يذودون عنهم ، ويعتقدون فى زيفهــم ، ويصــدقون

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٣٢ ، وميكيافيل : فيلسوف إيطالى صاحب مذهب : " الغاية تبرر الوسيلة " ..

مينهم ، وتتطلى عليهم أكاذيبهم .. كلما كذَّبهم مُكذب انبروا عنهم مدافعين مخلصين فى الدفاع .. يقول صان الدِّين – وقد أقام قصيدته هذه على الحوار الماتع المثير الشيق بينه ، وبين أحد العرّافين ومُريديهم : حيث يعرض القضية ، مُصحِّحاً مسارها ، مُجلِّياً وجه الحق والصواب فيها ، والذى يتمثل فى أنه لا يعلم الغيب إلا الله ، وأنه وحده سبحانه – النافع الضار – :

قلت للعراف فى جو والتجلِّـــــــى والبخـــــــور
والتهاويل التى قـد خــــدَّرت وعـــي الحضـــور
كيف تدرى ما توارى طـــي غيـــب عـــن بصـــير؟!
قال: إن الجن يأتيـ ـــــنى بأنبـــــاء الـــدُّهُور
قلت: إن الجن مثلى عـــيَّ عـــن كشـــف المصـــير
فانبرى لى ذو فتون مـــن مريديـــه يقـــول :
إن عِلمَ الشيخ سرُ لـــيس تدريـــه عقـــول !
عنده للغيب كشـف إنـــه شـــيخ جليـــل
قلتُ: فـضَّ الله فـا ك أيهـــا الغـــر الجهـــول!!
ما نبي أو رسـول خـــاض فـــى علـــم بغيـــب
إن ما بثوه وحـيُ عنـــه نـــور الحـــق يُنبـــى
أيُّهـا الإنسان حكم فـــى القضـــايا شـــرع ربـــى

إنه الينبـــوع يروى مــــن نميـــر كـــل قلـــب
لا تكن فى العيش غراً لعبة فى كـــــــف خــب(١)

وفى خماسية أخرى – خلال تجربته التأملية المثيرة هذه– يهيــب صان الدِّين بالمؤمن أن يكون لبيباً لا ينخدع بما يرى ويشاهد من شــعوذة المشعوذين ، ودجل الدجالين ، فليدعه مما قال شق أو سطيح ، وليعلم بأن ذلك هو الإفك المبين ، والكذب الصريح ، مُخاطباً المنجمــين ، ومُســائلاً إياهم– فى تعجب وإنكار : هل تدرون ما تخفى الليالىّ؟ ، هل اطلعتم على الغيب فقرأتم اللوح عند العرش فى نور الجلالّ؟ .. تُرى هل أجبتم السائل الحيران عن قصد السؤال؟ ، أم لزمتم الصمت والإعياء عن شافى المقال ؟! .. وهنا يستخلص شاعرنا المسلم الملتزم الحكمة ، ويصل إلى فصــل الخطاب فى هذا الشأن ، يقول صان الدِّين:

ضل عقل يحسب الأفــ لاك تُبنــى عن مآل
يا لبيـــبا دعك ممــا قـــال شـــق أو ســـطيح
فى عصور مظلمـــات سادها الجهــل القبــيح
دعك من أنبـــاء ميت ضــمَّه عظمــاً ضــريح
كل منســـوب إليــهم صاغه الإفــك الفصــيح
ذاك ما جــلاَّه شرعُ اللــ ــه والعلم الصحيح (٢)

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صــ ٣٣ ، والخبُّ : الخداع .
(٢) ديوان: الإنسان فى الميزان – صــ ٣٤ ، وشق وسطيح : عرّافان كانا فى الجاهلية قبل الإسلام .

ثم يتجاوز شاعرنا العرّاف وتابعه إلى مخاطبة النجم ذاته والــذى يزعم العرّاف أنه يستقى علمه منه ، فيقول فى خماسية أخرى يُنادى عيون النجم ، مسائلاً إياها فى سخرية واستهزاء ، وتهكُّم وإنكار :

يا عيون النجم هل تدريـــــ ن مـــــا تخفـــــى الليــــالى؟!
هل قرأتِ اللوح عند العــر ش فـــــى نـــــور الجـــلال؟!
هل أجبت السائل الحيــرا ن عــــن قصـــد الســؤال؟!
أم لزمت الصمــت والإعيا ء عـــن شـــافى المقـــال؟!
ضل عقل يحسب الأفـــلا ك تُنبِّـــى عـــن مـــآل(١)

وهكذا يصل الشاعر إلى بيت القصيد – خلال تجربته المثيرة تلــك – حيث ينطق بالحكمة ، ويلفظ بالقول الصائب ، حين يقول :

ضل عقل يحسب الأفــلا ك تُنبـــى عن مـــآل

ويقول:

كــل منســوب اليـــهم صـــاغه الإفك الفصيح
ذاك ما جلاه شـــرع اللـــ ـــه والعلـــم الصحيح

ويشير صان الدِّين – عبر تجربته التأملية هذه– إلى تمكن ذلك الداء من أبناء المجتمع المسلم ، واستشرائه فى أوصال ذلك المجتمع ، فغدا مهنة من لا مهنة لـــه ، فهذا يشفى من به مس ... وذاك يداوى ما بها من عُقم ... وثالث يبــرئ مــن لــدغ الحيّات ... ورابع يعمل سحره فى القلوب ... وهؤلاء جميعاً لا يأتون إلا بالأوهــام ،

---

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـــ ٣٤ .

ولا يُؤثِّرون إلا فيمن رقَّ دينهم ، وفسدت أذواقهم ، وسقمت طباعهم ، وانزلقت فى الضلال أقدامهم .. حيث تنطلى عليهم هذه الأكاذيب ، وتعصف بألبابهم المغيبة تلك الأراجيف .. يقول الشاعر :

ذاك مختص بمن فى ... جسمه مسَّات جن
آخر يشفى عقيماتٍ ... لداءٍ أو لسن
ثالثُ يحمى من الحيَّا ... ت إن صالت بدجن
رابعُ فى الحُبِّ أو فى ... الكره ذو باع وشأن
هكذا الأوهام فى الإنسا ... ن تهوى كل مين
حين يغوى الذوق فى ... الإنسان يبغى كل زيف
لا يرى الأشياء إلا ... مظهراً من غير كيف
يستبيه أي غث ... فى تهاويل وزيف
يرقص المعتوه من ... إيقاع مزمار وقصف
تعصف الأوهام بالألـ ... ـباب سكرى أي عصف(١)

وتلتقط عين الشاعر الناقدة المتأملة سلوكاً مرفوضاً يشوب الصوفي الذاكر فى أثناء ذكره لله سبحانه .. حيث يتراقص ، ويتمايل على أنغام الطبول ، وأوتار المزامير التى تُصاحب الذِّكر .. فيبعده ذلك عن روح الذكر ، ويحرمه من ثمرته فى تحقيق معنى الخشوع ، حيث يصير بذلك

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٣٥ ، وصالت : هجمت ووثبت ، وتدجن : بظلام مُطبق ، والمين: الكذب ، ويستبيه : يأسره .

الذكر لهواً حين يقعد الصوفي ، الذاكر لله تعالى عن السعي والضرب فى الأرض ، والمشي فى مناكبها ؛ ابتغاء الرزق الحلال ، والكسب الطيب ، فيكون من ثم عالة على غيره ، وبذلك يغدو سلبياً لا إيجابياً .. ها هــو ذا صان الدِّين يعرض لهذا السلوك المعيب ، مُصحِّحاً مساره ، مُقوّماً معوجه ، حيث يقول :

كم طبول الذكـر هـــزّت ... عطـــف فتـــاك عنيـــف
كم نحيب النـــاي أبكى ... كـــلَّ ذى حـــسٍّ رهيـــف
إنَّ رقص الخيل حتــــم ... عنـــد دقـــات الـــدُّفوف
من حداء تقطـع البيـــدا ... ء عـــيسُ فـــى زفيـــف
إنَّ ذكـــر الله أســـمى ... عنـــد ذى اللُّـــبِّ الحصـيف
ليست الأذكـــار مزمـاراً ... ولهـــــواً بـــــالطبول
لا ولا استعـــراض هـز ... ز العِطف فى عرض الســبيل
أو رطـــون دون معنـــى ... فـــى صـــراخ وعويـــل
إنما الأذكـــار معنـــاها ... خشـــــوع للجليــــــل
واكتساب الرزق بالمجهـو ... د فى المســعى النبيـل (١)

وكأنى بالشاعر يهيب- من خلال أبياته هذه- بالمسلم أن يكون علـــى وعـــي وإدراك وفقه بحقيقة ذكر الله -سبحانه ، وجوهره ، لا أن يبدو هكـــذا فـــى صـــورة اللاهى المشغول بالمعازف والطبول ، المتمايل مع أصواتها ، الـــذى يُصـــدر هكـــذا

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٥٩ .

أصواتاً وكلمات لا يعيها .. والذى يحيا عالة على غيره .. وفى هذا توجيه سديد من الشاعر فى ذلك الشأن ، حيث يلفت أنظار الصوفي الذاكر الحق ما يجب وينبغى عليه أن يكون عمله موصولاً بالسعى والضرب فى الأرض ؛ ابتغاء للرزق ، وطلباً للكسب الحلال .

وفى تجربة تأملية أخرى يلفت نظر الشاعر تصرُّف وسلوك نفرٍ من الناس ... كل همهم أن يزينوا بيوتهم بهذا الطلاء الشكلي القائم على الزخرفة والتنسيق ، فينشئون من ثم فى بيوتهم مكتبات تغصُّ بثمين الكتب ، والأسفار المذهبة المرصعة بالزخرف والزينة ، وكأنها العروس البكر زيِّنت – وقد عملت فيها يد التنسيق ، فرصت فى رفوف بعيدة عن أعين وأيدى مُقتنيها ، حيث اتخذت للزينة وإبداء الزخرف ، والتقنن فى إضفاء الجمال والبهاء ... حيث تنضم إلى غيرها مما يتوافر عليه البيت :" القصر " من أثاث فاره ، يدعو صاحبه إلى الزهو والفخر والتباهى به .. فقانى هذه الكتب وجيه قد اكتفى برصِّها ، مُحافظاً عليها ، حريصاً على أن تبقى هكذا بكراً بعيدة عن اللمس ، تسر الناظرين .. ، ومن ثم إذا سألت صاحبها عن محتواها .. لزم الصمت ، وأغرق فى الإعياء لجهله بما فيها ، مباهياً ومفاخراً بأن رفوف مكتبته الأنيقة تحمل أشعاراً جمَّة كثيرة تحوى علم العالمين ، ويكفيه مشاهدة ذلك ، وحسب السائلين .. يقول صان الدِّين متأملاً وناقداً ساخراً :

فى بيوت مكتبات بثمين الكتب غصت
مُذهبات ، حاليات كالعروس البكر زفت
فى رفوف قابعات بيد التنسيق رُصَّت
علمها فى جوفها عن راغب فى البحث أخفت
إنها للزهو ، والديـ كور فى قصر أُعدت

إن قانيـــــها وجيــــه يجلب السِفْرَ الثمينـــا !!
صانها بكـــراً بتــولاً فتنـــــــة للناظرينـــــــا
إن تسل عن محتواها زاغ فكــــراً وعيونـــــاً
قال : عندى ألف سفر فيـــه علــم العالمينـــا
إنها برهان عرفانى وحــســب السائلينا[١]

ثم يستخلص الشاعر ، ويستوحى ، ويستلهم من ذلك السلوك الدرس والعظـة والعبرة .. حيث يشير إلى ما حكاه القرآن الكريم عن أناس حفظــوا: " التــوراة " ، واستظهروها دون أن يهتدوا بهديها ، ويعملوا ويفيدوا بما فيها ، فغــدوا فــى ذلــك كالحمار الذى تعب وكدَّ فى حمل الأسفار والكتب دون أن ينتفع بما فيهــا .. وهكــذا حال أولئك النفر الذين يجتهدون فى أن تحفل وتغصّ رفوف مكتباتهم بأسفار العلــوم المحُلاّة بألوان الزينة والزركشة والزخرف ، دون أن يُعنوا بإثراء فكــرهم ، وتنميــة مداركهم ، وبناء عقولهم ، وغذاء مشاعرهم ، والسمو بأنفسهم بما فيهــا مــن علــوم ومعارف نفيسة ، هؤلاء جميعا مثل الحمار الذى يحمل الأسفار ولا ينتفع بها ، حيــث يقول الله تعالى فى هذا الشأن ذامًّا من وقع فيه : : {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[الجمعة:٥] .

ها هو ذا صان الدِّين يُشير إلى ذلك من خلال تأثره بما جــاء فــى القــرآن الكريم من هدي حكيم فى ذلك الشأن وأهله :

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٣٨ ، والديكور: كلمة أعجمية تعنى : الزخرفة .

آية فى محكـم التنزيـــ ل فيهـــا خيـــر عبـــره
يحمل البرذون أســـــفاراً بـــلا علـــم وخبـــره
هكـــذا الإنســـان إن لــم يُثْـــر بـــالمخطوط فكـــره
بعــد جهـــد وعنــــــاء يكشـــف المكنـــون ســـتره
لا ينــــال العِـــــلمَ إلاَّ ألمعي خـــاض بحـــره(١)

وهكذا يلتقط صان الدِّين بعينه الناقدة متأملاً ومنتقداً بعض ما فـــى هذه الحياة من أدواء اجتماعية ، وسلوكيات مريضة ، وتصرفات معوجـــة ، مُبينـــاً وجه الحق ، وعين الصواب فيها .. وهو فى هذه الخماسـية يصـل إلـى الثمـرة المرجوة ، والدرس المستفاد من التجربة هنا ، وذلك حـين يوجــه هـؤلاء الــذين ينظرون إلى كتب العلم على أنها مجرد حلية وزينة تتزين بها قصورهم .. دون أن يكدوا ويجتهدوا ويعانوا فى إثراء فكرهم ، وبناء عقولهم .. يُوجه شـــاعرنا هــؤلاء إلى ما يجب عليهم إزاء أسفار العِلم ، وأوعية المعرفة هذه ، حتى يكونوا فى عـــداد الأذكياء ، ولا يكونوا من الأغنياء ..

إذ لا ينال العلم إلاَّ ألمعي خاض بحره

وما أجمل أن يختم الشاعر قصيدته الناقدة المتأملة الساخرة هـــذه بذلك القول السائر الحكيم .

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٣٨ .

رابعاً :أفق التأمل فى بديع صنع الله تعالى ، وجمال وحُسن خَلقه- سبحانه-:

وينتقل بنا الشاعر – خلال تجاربه الوجدانية التأملية هذه من أفقٍ إلى آخر ، حيث يغوص هنا فى أسرار الكون ، متأملاً فى مظاهره ، سابحاً فى مشاهده ، مُحلقاً فى آفاقه ، مُستجلياً – من خلال ذلك – معالم قدرة الله البديع سبحانه ، ومدى تناسق وتناغم خلقه .. عز وتقدس ، حيث ينطلق صان الدِّين – خلال تجاربه الوجدانية التأملية فى مظاهر الكون والطبيعة من كون الطبيعة : "ذلك الكتاب المفتوح الذى نقرأ فيه أسرار الكون ، ونستشف منه جمال الحياة .. فللطبيعة دور مؤثر فى تشكيل التجارب الشعرية .. والطبيعة من منظور التصوّر الإسلامي هي مسرح التأملات ، ومصدر الجمال الكوني ، وترجمان القدرة الإلهية ، ومنبع السعادة الإنسانية .. وانطلاقاً من هذا التصوّر الإسلامي جاء تعامل الشعراء– وهم يخوضون غمار الرؤية الإسلامية مع الطبيعة ، فهي لا تُمثل مصدراً خارجياً ، ولا تمثل حالة نفسية كابية ، ولا رمزاً واقعياً مُنفِّراً ، وإنما تعد الطبيعة فى الرؤية الإسلامية رافداً أساسياً فى حقل التجربة الشعرية يعطى لها مذاقاً تأملياً إيمانياً ، ويدفع بها إلى رحاب الشمولية ، بعيداً عن التقوقع داخل أسوار الذات(١) .

وهاهو ذا شاعرنا ينتقل– عبر قصيدته ذات العنوان الدال المُوحى:" جمال الكون"– بين مظاهر ذلك الجمال ، حيث يُضمِّن قصيدته ألوانا مما أودعه الخالق سبحانه فى كونه ، تدل– فى حُسنها ، وتناسقها ، وتوازنها– على أنها من تدبير بديع ، وصنع حكيم – تبارك الله ربُّ العالمين .. هاهو ذا صان الدِّين يستهلها بتصوير صفحة الكون –وقد غدت مهرجاناً يفعم بالحياة ، ويفيض بالحركة .. حيث تُغرِّد

(١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق : د/ صابر عبد الدايم –صـ ١٦٤ ، ١٦٥ – ط دار الشروق – ٢٠٠٢م .

الطيور ، وتشدو والبلابل فرحة مسرورة بمقدم الربيع إلى الكون .. وكأنـــه عــريس تزفه العنادب والطيور– تلك التى ترتشف الرحيق من الزهور المفعمـــة بالنضـــرة ، وتلك الرياض تتيه وتنتشى هي الأخرى فرِحة مسرورة ، بعد أن اكتســت بســربال الربيع الأخضر الحسن البديع .. وهنا تنفعل نفس الشاعر بهذه المشــاهد البهيجــة ، فتمتلأ نفسه بالأمل والفرحة والأنس والراحة.. ولم لا؟ وهو يتنعم ويتمتع برؤية ذلــك الجمال العبقري النادر المثال .

يقول صان الدِّين:

غرّد الطير يــزف الزَّهْـ ـــر فـــى عُــرس الربيــع
حين تاه الروض فـــــو ق الأرض بالحُسن البديع
رحتُ أسعى فى صبـــاح باســم بــاهى الســطوع
أو مســـاءٍ حالـــم قــد ذاب فى ضــوء الشــموع
طافت الأنســـــام بالوجــ ـنات سكرى فى خشوع[١]

وبعد هذا المشهد الجميل الذى صورته عدسة صان الدِّين من بين الكثير مـــن مجالى الحُسن ، ومعالم الجمال التى توفر عليها كون الله تعـــالى الفســيح .. يقـــرر الشاعر كيف يستحيل على المتأمل أن يحصي ويُعدد ويستقصي هذا الحسن والجمـــال .. فجمال الكون جمال رباني عبقري لا يحد ، وهو ثري متنوع المجـــالى ، متعـــدد المظاهر ، تتجاور فيه الأضـــداد لا لتدل على التناقض ، وإنمـــا هـــي تـــؤدى إلـــى التناسق ، وتُحدث فى الكون التوازن ، فيبدو كل شيء فى هذا الكون وقد توفّر علـــى الحُسن والبهاء ؛ مما يبهر نفوس أولى النهي ، وذوى الألباب ، حيث تهتدى بعـــد أن

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـــ ١٢٥ .

تتأمل فى هذا التناسق ، وذلك الجمال إلى صانعه البديع المـــنعم الوهـــاب ، واهـــب الحسن والجمال ..:

كم على الدنـــيا جمــــال عبقــــري لا يحــــد!
ذا تليــــــد سرمــــدي ذا طريــــف مســـتجد
كل شـــئ فيـــه حســـن فى الوجود الرحب يبـدو
يجتليــــه فى إنبهـــار مـــن لــــه ذوق ورشـــد
إنـــه مـــن صُنع ربِــ ب الخلــق إنعامُ ورفــد(١)

وبعيداً عما يصاحب الشعراء الرومانسيين ، ويسيطر عليهم عادة من مشاعر الكآبة والقلق والوحشة والحيرة والتشاؤم والحزن والضياع.. وغير ذلك من المشاعر ذات الصورة السوداء القاتمة المتشائمة فى نظرتهم لليل ، وما يكتنفه فى منظـــورهم من ظلمة وسواد ، وهموم واكتئاب .. بعيداً عن ذلك يهيب شاعرنا بهذا المرء الكئيب المتشائم أن ينظر فيما أودعه الله فى السماء من نجوم وأقمار ، وما يهب نسيم عليـــل رقراق ..فسوف يؤنس ذلك وحشته ، ويكشف غمته ، ويذهب بحزنه .. حيث يغـــدو الليل حينئذ فى ناظرية مراحاً وبراحاً ، يشفى- بهدوئه وسكونه- ما يستبد بالمرء من عناء وتعب ، فيمنح الصبح والليل من ثم العيش طيبا .. يقول صان الدِّين :

ليـــت مـــن يشـــكو ســـواد الليـــل مهمومـــاً
ينظر الأقمـــار فيـــ ـــه تؤنس الأفـــق الرحيبـــا
والنسيم الرخص يسرى هــــامس الخطـــو رطيبـــا

(١) ديوان الإنسان فى الميزان – صـــ ١٢٥ ، وسرمدي : دائم .

إنما الليـــل ، مراح صـــمته يشـــفى اللغوبـــا!!
حبذا صبح وليـــــل يمنحان العيش طيبا!! (١)

ولا تخفى تلك النظرة الإيمانية المتفائلة المسيطرة على الشاعر هنا – وهـــو يتأمل الليل– بسواده ، وقتامه وطوله ، وامتداده .. حيث يصفه بأنـــه : مـــراح .. لا يضيق به ، ولا يضجر منه– مثلما يضيق به الكثيرون من الشعراء ، بل إن الليـــل – بهدوئه ، وسكونهُ – يُضمِّد جراح المرأ ، ويشفيه مما به من نصب وتعب .. وهو – أي الشاعر يمدح كلاًّ من الصبح والليل ، وأنهما معاً يمنحان الإنسان – إن هو استقام وتفاءل – الحياة الطيبة ... وهنا يستخدم الشاعر مفردة إيمانية استمدها من نبع البيان القرآنى الثر المعين إنها كلمة: " طيبا" .

وهو – أي شاعرنا – فى هذه الرؤية الإيمانية يرفض صورة الليـــل القاتمـــة عند كثير من الشعراء ، وكذلك يرفض صورة الليل الماجنة فـــى تجـــارب شـــعراء آخرين– على امتداد مسيرة الشعر العربي .. فالإيمان اطمئنان وجمـــال ، وتفـــاؤل ، ويقين ، وصفاء "(٢) .

ثم يقف الشاعر بعد ذلك عبر تجربته التأملية الإيمانية هذه وقفة متأنيـــة مـــع بعض تلك المظاهر الطبيعية الكونية ، منطلقاً فى تصويره لكل مظهـــر منهـــا مـــن منظور التصور الإسلامي الراشد الحكيم ، حيث يراها محراباً يتبتـــل فيـــه إلـــى الله سبحانه ، معلناً – من خلاله– الوحدانية والقدرة المطلقة له سبحانه ، مُستجلياً فى كل مشهد من تلك المشاهد دلائل قدرة البديع سبحانه ، وعظم خلقه –الذى هو على غيـــر مثال سابق من الحسن والبهاء ، والتوازن والتناغم.

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـــ ١٢٥ .
(٢) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق : د/ صابر عبد الدايم يونس – صـــ ٧٩ .

وها هو ذا شاعرنا صان الدِّين يقف مع واحدٍ من تلك المشاهد الكونية ، حيث يصور لنا حال الطائر الذى يستيقظ فى أيكه فى باكر الصباح ، وصدر النهار لينطلق مغرداً ، يملأ الدنيا بشدوه وتغريده فى بهجة وسرور ، وهناء وحبور ، وبراح ومراح ، فقد ضمن رزقه الموقوت فى غدوه ورواحه ، ما تأتاه بحرث ، ولا سقاه بالجناح .. حيث يأتيه رزقه رغداً وعفواً طي موج ، أو رياح ، يقول صان الدِّين :

حين يصحو بلبل فى ... الأيك إبان الصباح

يملأ الدنيا غناء ... فى ابتهاج ومراح

رزقه الموقوت حب ... فى غدوٍّ أو رواح

ما تأتاه بحرثٍ ... أو سقاه بالجناح

إنما يأتيه عفواً ... طي موجٍ أو رياح(١)

ولست مع الشاعر – فيما عرضه هنا من مضمون بشأن ذلك الطائر: " البلبل" ، فكأنى به يدعو– من خلال ذلك المشهد – إلى التواكل والتقاعس عن طلب الرزق والسعي والكد فى تحصيل لقمة العيش .. تماماً مثل ذلك الطائر الذى صوره بالمتواكل الذى يأتيه رزقه رغداً دونما سعي منه وكدٍ وحركة .. حيث لم يكن يأتيه رزقه " الحب " لو بقي هكذا فى أيكه ، ولم يغادره إلى حيث التحليق فى الفضاء ، والهبوط إلى الأرض، والتنقيب فيها ، بمعنى أنه إذا حقق السعي فى طلب الرزق فإن الرزق سيأتيه لا محالة ليس عفواً كما قال ، إنما سعياً منه وحركة هنا وهناك ، ليرى الحب يُساق إليه طي موج أو رياح ، ومن ثم رأينا هذا الهدي النبوي الراشد الحكيم فى ذلك الشأن ، حيث يقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم حاثاً على حسن

---

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـ ١٢٦ ، والأيك : الشجر العظيم ، إبان : وقت ، المراح: شدة السرور .

التوكل على الله سبحانه ، والأخذ بالأسباب والسعي فى طلب وتحصيل الأرزاق ، مؤكداً تحقق الرزق للمرء إن هو أحسن التوكل على الله –مثلما يرزق الطير : " **لو أنكم توكَّلُون على الله حقَّ توكُّله لرُزقتم كما يُرزق الطير ، تغدُو خِماصاً ، وترُوح بِطانا** "[١] .. حيث لا يخفى قوله صلى الله عليه وسلم عن الطير هنا :" تغدو ، وتروح" أى تتحرك هنا وهناك ، وتضرب فى الأرض ، وتحلّق فى السماء ؛ بحثاً عن رزقها الموقوت غداة ورواحا ، لا يخفى ما يدل عليه هذا التعبير من حسن التوكل وصدقه ، والأخذ بالأسباب فى الكسب ، وتحصيل الرزق .

وفى مشهد تاملي إيماني آخر ينتقل خلاله الشاعر من صورة إلى أخرى ، حيث تمثل كل صورة من تلك الصور عالماً من العوالم التى يتشكل منها الكون برحابته، مُستجلياً منها الشاعر دلائل قدرة الله سبحانه ، وحسن صنعه ، وطلاقة إبداعه ، مما يجعل شاعرنا يشعر بضآلة حجمه ، وقلة علمه ، وحقارة نفسه ، حيث يتلاشى عنه غروره ، ويذهب كبرياؤه إزاء ما يشاهد من عظمة وجلال .. فها هي ذى بيوت النمل – تلك التى تسير أسراباً منتظمة ، تشكل عالماً وحدها وهي تشق الصخور ، وتمشى على الأرض– فى صبر وأناة وتحمُّل يحدوها رجاء فى نُشدان رزقها ، وأمل فى تحصيله .. وها هي ذى أيضاً خلايا النحل وسعيها الدءوب ترشف ريق الزهور ، وتلثم رحيق الورود فتنتج أكلاً شهياً فيه شفاء للناس ، ثم هاهي ذى الطير وقد بنت أعشاشها ، حيث الأشجار أو نائى الوكور ، بعيداً عن الأعين .. وهنا وبعد أن شاهدت عينا الشاعر تلك الآيات من فن خلق وصنع الله القدير يشعر بقلة

---

(١) هذا الحديث الشريف رواه سيدنا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– ، ينظر فى : سنن الترمذي – جـ ٤ – صـ ٥٧٣ – الحديث رقم ٢٣٤٤ – تحقيق : أحمد محمد شاكر ، محمد فؤاد عبد الباقى – طبعة مصطفى البابي الحلبي – الطبعة الثانية – ١٣٩٥هـ .

علمه ، وقصور فهمه إزاء ذلك الكون الفسيح .. فانجلى من ثم عنه غروره ، وذهب كبرياؤه .. يقول الشاعر :

فى بيوت النمل أو فى سعيه بين الصخور
فى خلايا النحل أو فى رشفه ريق الزهور
فى عُشاش الطير فى الأشجار أو نائى الوكور
شاهدت عيناي آيات من الفن القدير
فازدرت نفسى بعلمى وانجلى عنه غرورى(١)

... وهكذا نرى الشاعر وقد انطلق فى تعامله مع مظاهر الطبيعة الكونية هنا من منظور التصور الإسلامي لها ، فهو لم يفن فى الطبيعة ، ولم يقف أسيراً لها .. وإنما دفعه تأمله فى تلك المشاهد البديعة على أن يشعر بضآلة حجمه ، وتناهي صغره – إزاء ما يُشاهد من مجالى الحسن المنعدمة النظير ، ومعالم البهاء المنقطعة المثال .. فيزداد من ثم إيمانه بالله البديع ، ويقوى يقينه به سبحانه .. فهو لا يقدس الطبيعة ، وإنما يقدس صانعها جلَّ وعزَّ ، ومُوجدها على غير مثال .

ثم يؤكد صان الدِّين ما يتوافر عليه كون الله سبحانه – على اختلاف مظاهره ، وتنوع مشاهده ، وتعدُّد مجاليه من ذلك الجمال والحُسن الناتجين من تناسقه وتناغمه .. فأينما وجهت عين الشاعر ، وحيثما تأملت فى هبوط أو صعود .. فى رياض أو بحار .. فى وهادٍ فى نجود .. فى صباح فى مساء... فى سكون فى رعود .. فى طريف أو تليد .. فإنها لا تبصر إلا كل حُسن وجمال ، وتناغم وائتلاق .. لا ترى فى خلق الرحمن من تفاوت .. يقول الشاعر :

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـ ١٢٦ .

من بهاء الله كان الحُسـ ـن فى هـذا الوجـود
أينـما وجهـت عينـى فـى هبـوط أو صـعود
فى ريـاضٍ أو بحـارٍ فـى وهـاد فـى نجـود
فى صبـاح فى مسـاءٍ فى سكون فـى رُعـود
لا أدرى إلا جمـالاً فى طريف أو تليـد(١)

وينتقل بنا صان الدِّين عبر تجربته التأملية الإمانية هذه بين ظـواهر الكـون الطبيعية ، فيورد مزيداً منها عن طريق الطباقات والمقابلات التى ألح عليها ، وكثّف تجربته بها ، حيث يشير إلى تلك الربوع المتجاورة التى تبدو –فى ظاهرها متناقضة ، وما هي بمتناقضة – ففى الأرض قفار مجدبة ، وفيها واحات بها ماء وظل .. ثـم هاهي ذى الجبال الرواسى الشامخات ذات الطرق الوعرة ، والشعاب الملتوية جُعلت واتخذت أكناناً ، وبيوتاً للنحل .. وفى ظلمات الليل نجوم فـى السـماء بهـا يُقتـدى ويُهتدى .. وفوق موج البحر ترسو الفلك الجوارى تقل فيها الأنـام .. مؤكـداً فـى النهاية تنوع مشاهد الكون ، وتعدد ظواهره، مُحدثة توازناً وتناغما وتناسـقاً .. يقول الشاعر :

فى قفار الأرض واحـات بهـا مـاء وظـل
فى جبـال موحشـات الـ درب أكنـان ونحـل
فى دياجى الليـل نجـم مـن أعاليـه يُطـل

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـ ١٢٧ ، ووهاد : منخفضات ، ونجود : مرتفعات .

فوق مــوج البحـــر فلك فيه إنســـــان يقـــل
قل لمن أدمـــاه وعـــر فى جوار الوعر سهل(١)

وهذه الخماسية ، والتى قبلها تتضمن – كما نرى –طائفة من ظواهر الكون التى تبدو فى ظاهرها متناقضة يقابل بعضها بعضها الآخر من مثـل : هبـوط – صـعود – وهـاد: "منخفضات" – نجود :" مرتفعات" – صباح – مساء – سكون – رعود – طريـق – تليد – قفار – واحات – وعر – سهل ... ولا شك فـى أن هـذا التنـوع ، وذلـك الاختلاف الكائن بين تلك الظواهر الكونية من شأنه أن يحدث فى الكـون تناغمـاً ، وائتلاقاً ، وتوازناً واتساقا ، حيث لا يخفى أن الضد يظهر حسنه الضد ، فالضدية هنا ليست دالة على التناقض ، وإنما هي تعد ترجمة دالة ، ودليلاً مشـاهداً علـى قـدرة الخالق البديع سبحانه ، وأن كل شئ فى هذا الكون له دوره وأثـره ووظيفتـه فـى إحداث هذا التوازن فى هذا الكون الفسيح .. وكأنى بالشاعر وقد استوحى هذا التقابل ، بين الأضداد والذى يدل على طلاقة قدرة الله ، وبديع صنعه سبحانه استوحى ذلـك من قوله عز اسمه : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُود * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُور }[فاطر:٢٧ ، ٢٨] .

وقوله سبحانه : {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَاب * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار }[آل عمران:١٩٠] وقوله جل وعزَّ {إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ

(١)ديوان: الإنسان فى الميزان– صـ ١٢٧.

الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [الأنعام:٩٥ ، ٩٦] .

ثم يناجى شاعرنا ربه الخالق البديع ذا الجلال .. واهب الحُسن والجمـــال .. مقرراً ومؤكداً أن كلّ ما أبدعه سبحانه فى الكون معدوم المثال .. حيث يقول :

يا بديع الصنُـــع يا خـــلاق يـــا رب الجـــلال
أي سرٍ أودعته كفـــا ك فـــى بـــاهى الجمـــال؟!
فى رياض فى بحـــار فـــى ســـماءٍ فـــى جبـــال
منه روحى فى انتشاء فيـــه وجـــدانى وبـــالى
كل ما أبدعته فى الـــ كون معدوم المثـــال!![١]

وحقاً وصدقاً ما قال الشاعر : فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين

(١) ديوان الإنسان فى الميزان – صـــ ١٢٨ .

المبحث الثانى

الشكوى (١) فى شعر صان الدِّين الوجداني

يمثل شعر الشكوى فى تجربة صان الدِّين الوجدانية بعداً مهماً بين أبعاد تلك التجربة .. حيث توجد فى شعره الوجداني قصائد صور- خلالها -مدى ضيقه ، وتبرّمه ، وحزنه وتألمه إزاء ما جدّ وطرأ على المجتمع المسلم المعاصر من أخلاقيات سلبية ، وتقاليد شاذة ، وطباع سقيمة ، من مثل : الزيف والخداع و الختل والنفاق والزيغ والمراوغة ، وسيادة قانون الغاب والصيد والاقتناص .. وغير ذلك من كلّ ما من شأنه أن يُعكر على النفس السوية صفوها ، ويُنغِّص عليها هناءتها .. حيث يكون الألم حينئذٍ شديدا ، والحُزن عميقاً .. والذى يُطالع تجارب الشاعر فى الشكوى يجدها تدور جميعاً حول ضيقه وتبرمه إزاء تبدل الحال ، وانقلاب الأوضاع ، واهتزاز القيم ، واختلال المقاييس ، وفساد الأذواق ، وسوء أخلاق ، وسقم طباع أبناء الزمان.

(١) يقال شكا الرجل أمره يشكو شكواً ، وشكوى ، وشكاة وشكاوة وشكاية ، وتشكى واشتكى وتشاكى القوم: شكا بعضهم إلى بعض ، والاسم: الشكوى ، والشكاية ، والشكية : إظهار ما يصفك به غيرك من المكروه ، والاشتكاء : إظهار مابك من مكروه وموجدة ومرض .. ونحوه – مادة شكا – اللسان – جمال الدين بن منظور – ١٧٢/٥ – ط دار الحديث – القاهرة- ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .

ومن ذلك ما جاء فى قول صان الدِّين يشير إلى سيادة قانون الغاب بين أبناء المجتمع ، وما يستتبعه من الزيف والخداع ، والختل والمراوغة .. والصيد والاقتناص ، وحُب الإيذاء ، ولذة الاقتحام المشروع بين الأحياء ، وجعل ذلك كله ديناً وقصداً .. مصوراً ضيقه وتبرمه بذلك ، ومجسداً شكواه وتألمه إزاءه ، ومن ثم فهو يلوذ بالعزلة والانزواء عن الناس مرتضياً ذلك ، وواجداً فيه الأنس والراحة.. متسائلاً فى تعجب ودهشة إذا كان منشؤ خلقه كبقية الناس ، فلم إذن هو يصطدم بحياتهم؟! ولا يرتضى بما يسود فيها من غرائب ومفاسد ومتناقضات ، وكأنه من غير بنى جنسهم ..

حيث يقول :

لا أرى الإنسان إلاّ ... ثعلباً قدرام صيدا
سارحاً بين البرارى ... يبتغى قوتاً ووردا
لا يُبالى أو يراعى ... فى أخيه الغر عهدا
لذة الدنيا اغتدت فى ... حِسِّه ديناً وقصدا
ذاك أمر ليس يخفى ... عنك لو أحكمت رصدا
ضقت بالإنسان ذرعا ... والأمانى والشجون
وارتضيت العيش فى صمـ ... ـت الليالى والسكون
أرصدُ الأطياف حولى ... سابحات كالظنون
هل أنا كالناس طبعاً ... كنت من ماء وطين؟!
لم إذن لا أرتضى عيـ ... ـش التجنى والمجون؟![١]

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان صـ ١٥ ، ١٦ .

ولا يخفى ما يجسده الاستفهامان الواردان فى البيتين الأخيرين من هذه الأبيات من مشاعر التعجب والدهشة والاستغراب- تلك التى تنتاب نفس شاعرنا المرهفة إزاء تلك الطباع السيئة ، والسلوكيات المُستهجنة التى غدت من شدة ذيوعها فى المجتمع المعاصر ، وتمكنها من أبنائه ، وكأنها قاعدة ثابتة ، وما سواها فهو شاذ عنها ، ومن ثم رأينا شاعرنا يتساءل متعجباً عن سر رفضه ، واستهجانه لها ، باعتبار تلك العادات السقيمة والسلوكيات الشاذة الغريبة صارت بين أبناء المجتمع عرفاً وديدناً ، وعادة وطبعاً.

وتعلو نبرة الشكوى ، وتتصاعد حدّتها فى أعماق الشاعر ، حيث تمتلأ نفسه بالهموم والآلام ، ويتشبع قلبه بالأحزان والأوجاع .. بعد أن اختبر العيش فلم تقع عيناه إلا على ألوية الشرِّ ، وأعلام الضلال – وقد شمخت وسمقت وارتفعت ، بينما هوت وسقطت وتراجعت ألوية الخير ، وأعلام الرَّشاد .. يقول صان الدِّين – وقد غلب عليه اليأس والتشاؤم ، مُجاوزاً حدّ الاعتدال بعض الشئ فى شكواه هنا :

لا تحدثنى بشيء من … أسى الدنيا جديد
حسب نفسى ما ثوى … فيها من الهمِّ التليد
إنَّ فى قلبي جروحا … ناغرات بالصديد
قد بلوتُ العيش والأحوا … ل فى شتى العهود
ما رأت عيناى إلا … الشر خفَّاق البنود[1]

والبيتان الأخيران تعلو فيهما نبرة التشاؤم واليأس لدى الشاعر بعض الشئ .. حيث لا يخفى أن الخير والشر يتصارعان ويتجاوران فى كل مصر وعصر .. فلا

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـ ١٦ .

يعدم أي مجتمع فى كل عصر من الخير والأخيار ، ولا يخلو قط أيضاً من الشر والأشرار .

وفى قصيدته : " وخزات " ذات العنوان الدّال على معانى الشكوى والألم ، والحزن والقلق .. يلتقط صان الدِّين – بعدسته الناقدة ، وبصيرته المتأملة فى الحياة والأحياء .. يلتقط صورة واقعية من شأنها أن توقفنا على طبيعة المجتمع المسلم المعاصر ، ومدى ضياع المعانى الإنسانية الغالية ، والمشاعر الدافئة الحانية فيه ، والتى هي أغلى ما يمتلك الإنسان ، حيث يغفل كثير من النَّاس عن تفقد ذويهم ، والقيام على شئون أهليهم من المرضى والمُعوِزين .. ويظلّ هؤلاء البؤساء مُهملين هكذا من قِبل ذويهم وأهل قرابتهم ، حيث لا يأبهون لصراخهم ، ولا ينفعلون بتألمهم ، ولا يتأثرون بشكواهم .. فيموت هؤلاء البؤساء ، ويفارقون الحياة ، وإذا بأهليهم وذويهم يبالغون فى إقامة سرادقات العزاء ؛ طلباً فى ذلك لمحمدة الناس ؛ وتطلعاً إلى ثنائهم ، مُتناسين أنَّ ميتهم الذى يُقيمون عليه مأتماً وعويلاً قد مات وهلك جُوعاً !! .. يشير صان الدِّين إلى هذا المضمون الإنساني المؤثر ، فيقول فى معرض الشكوى:

كم سقيم أو فقير ... عينه فاضت دموعا
أرسل الشكوى ولكن ... لم يجد يوماً سميعا
حين وافاه الرَّدى قد ... هَبَّ أهلوهُ جميعا
فأقاموا للتعازى ... مشهداً فخماً وسيعا
بسخاءٍ قد تناسوا ... أنه قد مات جوعا (١)

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٤٨ .

وهكذا يصور الشاعر فى شكواه هذه- ومن خلال هـذا المشـهد الإنسـاني المؤثر- ما دهى الناس فى ظل هذا الواقع المادي المتردي ، ويتحسر على أوضاعهم .. حيث صاروا غرباء عن بعضهم ، بعد أن افتقدوا : العواطف الإنسـانية النبيلـة : "أغلى ماعندهم" - وصاروا- فى انقيادهم للعصر- أشبه بـآلات يُحركهـا بوقعـه السريع- كيفما يشاء بعد أن جف بينهم الحُب ، وقتلت فيهم العواطف ،ووئـدت مـن بينهم المشاعر ..

وإذا كان لى من تعليق آخر على هذه الأبيات فإننى أتساءل مـع الشـاعر – إزاء ما تتضمنه تلك الأبيات من معانى إنسانية جد مؤثرة .. أتساءل مـع الشـاعر – خلال بيتين له من قصيدة أخرى تحمل تسمية بليغة تفى بالمقام هنا ، حيث تسـمى : "أهي القيامة أوشكت؟!" ، حيث يقول –وكأنه يُعلِّق على هذا المشهد الإنساني المُـؤِّثر الذى تضمنته أبياته السابقة :

أترى المطامعُ فى بنى الإنسـا ن حجَّـرت المشـاعر؟!
هل أجـدبت تلك النفـو س وأظلمـت فيها البصـائر؟! (١)

حيث يمكننا أن نُعلِّق على الأبيات التى تضمنتها التجربة السابقة بهذين البيتين الذين يتضمنان تساؤلين بليغين تقريرين يؤكدان ما للأطماع – حـين تسـتبد بـنفس الإنسان ، وتسيطر ، وتستولى عليه – من أثرٍ كبير فى تحجُّرها وقسوتها وجفائهـا ، وإظلامها ، وطمس النور فيها .. كل هذا يحدث فى النفوس من أثر طمعها ، وعـدم رضاها ... ولعلَّ المشهد الذى التقطته عين الشاعر المتأملة- خلال تجربته الإنسانية المؤثرة تلك .. لعل ذلك المشهد واحدُ من آثار استبداد الأطماع ببنى الإنسان- تلـك

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـ ٣٧.

التى تجعله قاسي القلب ، متحجر المشاعر ، مظلم النفس ، فيعيش من ثم فى دائـرة نفسه ، مُغفلاً دوره نحو غيره ، وواجبه إزاء أخيه .

ومن ثم فقد حُق للشاعر أن يشعر بالغربة النفسـية ، وأن ينشـد الأخـلاق ، ويبحث عنها ، حيث يرى فيها العِطر الذي تنبعث رائحته من الزهور ، ويجـد فيهـا الرَّوح والريحان والأنس والإيناس ، وهي السبيل إلى السعادة والسرور ، والأمـان والحبور ، حيث لا يخشى الإنسان فى ظلها حِيَلا وبهتانـاً ، وخـتلا وزورا ، وأذى وشرورا .

وهو – أي – الشاعر يأسى ويأسف إزاء ضياع الأخلاق ، حيث لم يعدُ منهـا فى المجتمع المسلم سوى النزر اليسير ، بعد ما ساد الشرور ، واستبدت الأطمـاع ، وخفقت بنود جُند الشيطان ، وذوت أعلام الهدى والرشاد .. يتساءل صان الدِّين عـن الأخلاق أين هي ؟ ، مُجلياً فضلها الكبير على المجتمع المسلم وأبنائه ، حيث يقول :

أين أخـلاق لـها عِطر ... كأنفـاس الزهـور؟!
تجعل الإنسـان يحـيا ... فـى أمـان وحُبـور
ليس يخشى حيث يسـعى ... مـن أحابيـل وزور
لهف نفسى لم يعد منهـا ... سـوى النـزر اليسـير!!
فى انزواءٍ عن غبار الـز ... زيـغ فى عصر الشرور[1]

وتُشتم فى هذه الأبيات رائحة الرومانسـية ، إذ إن مـن طبيعـة الشـعراء الرومانسيين أنهم دائماً ما يتمنون أن يحيوا فى عوالم مثالية ، حيث يجدون فى ذلـك

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٤٩ .

المتعة والمؤانسة ، بعيداً عن الواقع الذى يصدمهم ، ويُعكر صفوهم وينغص عليهم هناءتهم – بما فيه من هموم وأوجه اعوجاج ، ومظاهر فساد ، وشذوذ وانحراف ، وتبدل أحوال ... فهو يتساءل– وكله شوق ولهفة وأمل ورجاء فى وجود ذلك العالم المثالي الذى يهنأ أبناؤه بالأمان والحبور ، والسلامة والسرور :

أين أخلاق لها عِطر كأنفاس الزُّهور؟!
تجعل الإنسان يحيا فى أمان وحُبور
ليس يخشى حيث يسعى من أحابيل وزور

ثم هو– أي الشاعر – بعد ذلك راح يصور قلقه وأسفه إزاء القيم المنهارة التى تهاوت تحت ضغوط المدنية الزائفة ، والحضارة المادية الحديثة .. ها هو ذا شاعرنا يصور تحسره على ضياع الأخلاق ، وانزوائها فى عصرٍ تسوده الشرور .. حيث يقول :

لهف نفسى لم يَعُد منها سوى النزر اليسير!!
فى انزواءٍ عن غبار الزيغ فى عصر الشرور

وفى قصيدتين للشاعر فى الشكوى يُصور صان الدِّين قلقه إزاء القيم المنهارة فى المجتمع المسلم المعاصر ، وتحسُّره تجاه انقلاب الموازين ، واختلال المقاييس ، وتبدُّل الأحوال ، وسقم الطباع ، وتدنِّى الأذواق .. حيث بات للهذر والهذيان والغث والهُراء من الكلام الشهرة والذيوع ، فَعَلا – من ثم – صوت الغُراب ، وتراجعت بالضرورة أصوات العنادب .. وخلت من الأيك فى الروضِ الحمائم .. فاسودت الدنيا من ثم ، وأظلمت .. وحُق للشاعر – وهو – المرهف الإحساس ، الرقيق المشاعر – أن يضيق بالحياة بعد أن شعر بالغربة والتيه والحيرة إزاء ما يُرى ويُشاهد من أحوال تبدّلٌ أو تحول .. يقول الشاعر فى أولاهما :

صحبت العيش لوناً بعد لون وأحـــوالاً تبـــدل أو تحـــول
فماذا غير أطيـــاف تراءى وأشـــباح مقطبـــة تهـــول؟!

....

تغيرت المعالم يا إلهـــى وضلَّت فـــى المتاهـات العقـول!!
فأصوات الهُراء لـــها دوي وصـــوت العقـــل مخنـــوق هزيـــل!
إذا نعب الغُراب فقد تلاشى من الأيكات فـــى الـــروض الهـــدِيل
فأفٍ للحيـــاة إذا اكفهَّرت وعمَّى فى مجـــاهلها السبيل !! (١)

ويبدو أن هذه التجربة- يرصد صان الدِّين- من خلالها- حال الفنّ والإبداع فى دنيا الناس فى عصره ، حيث يشكو مرَّ الشكوى من تدنى أذواقهم ، وسقم طباعهم ، فغدا من ثم – الفن الهابط ، والإبداع الساقط – هو الذائع المُدوِّى طبـــاعهم الـــذى تطبق شهرته الآفاق ، فى حين ذوى وتراجع فى أيامهم – وفى ظل سقم طبـــاعهم ، وتدنِّى أذواقهم الفن الراقى ، والإبداع السامى الذى يجمع بين الإمتاع والإفادة .. مما جعل الحياة مظلمة – وعُمي فى مجاهلها السبيل .

ويواصل صان الدِّين تصوير شكواه ، وضيقه وتبرُّمه إزاء ما آل إليه حـــال أبناء مجتمعه .. مؤكداً تدنِّى أذاوقهم ، وسقم طباعهم ، واختلال مـــوازينهم ، وتبـــدُّل أحوالهم .. مُصوراً مدى حزنه وتألمه ، وضيقه وحيرته – إزاء تلك المشاهد المقلوبة ، والأوضاع المختلة التى تنبئ عن أذواق متدنية ، وطباع سقيمة .. حيـــث يتســـاءل مُنكراً وناعياً على أبناء مجتمعه ما آل إليه واقعهم وحالهم ، وصارت عليه أخلاقهـــم وطباعهم .. ها هو ذا صان الدِّين ينادى لداته وأقرانه ، مُهيباً بهم أن يزيلوا عنه مـــا

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٤٢ .

هو فيه من حيرة ، وضيق ، ودهشة ، وحزن- إزاء ما يرى ويشاهد من غرائب ومتناقضات طفت على سطح المجتمع المسلم المعاصر- ذلك الذى يموج بالغرائب ، والمتناقضات ، فذهبت من ثمَّ بنوره .. حيث يقول :

يا لدَّاتى كل شيء — حال لوناً مثل طعم
أنبئونى انبئونى — واكشفوا بالعلم همِّى
هل صحيح ما أرا — ه أم تهاويل لوهمى؟!
من أمور غامضات — حار فيها كلّ فهْمِى
هل يكون الفضل فى الإنـ — سان مدعاة لذم؟!
والتزام الحق جُرماً — فى نزيه.. أي جرم؟!
والصريح القول فظاً — يرتدى جلباب شؤم؟!
هل يكون السم شهداً — والحصى براق نجم؟!
هل يصير المين صدقاً — بعد تزويق ووشم؟!
والمجون الجهر ظرفاً — والخنا تفريج همِّ؟!
والكلام الهجر نظماً — عبقرياً أي نظم؟!
ذاك ما يطفو على — سطح الحياة المدلهم!!
يا رفاق العيش ماذا — غير ما أحصاه كلمى؟!
هل أصبت الحُكم فيـ — ـه أم تُراه جار حكمى؟!(١)

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٩ ، ٦٠ ، وتُصمى : تُصيب مقتلا ، والمْين: الكذب والخنا : الفُحش .

وصان الدِّين إذ يُكثر من تساؤلاته الإنكارية التعجبية التوبيخية هذه فإنه ينبئ عن مدى قلقه وحيرته وضيقه وتحسُّره إزاء ما يرى ويشاهد فى مجتمعه من أوضاع مقلوبة ، وموازين مختلفة ، وأحوال مُبدَّلة .. إذ كيف يستحيل الفضل فى الإنسان مدعاة لذم ؟ ومجلبة لقدح ؟! ، وكيف يغدو الالتزام بالحق جُرماً ؟! ، وكيف يُوصف من يجهر بالحق بأنه فظ يرتدى جلباب شؤم؟! ، وكيف يستحيل السم الزعاف شهداً مُكرراً ؟! ، وكيف يصير الكذب المطلي بالتزويق والنفاق صدقاً ؟! ، وكيف يصير الفُحشُ والمجون حُسناً وظرفاً ؟! ، وكيف يغدو الخنا مصدر سرور ، وتفريج همٍّ ؟! ، وكيف يكون الكلام الساقط القبيح والعبث والهذيان إبداعاً أي إبداع ؟! .. وتلك التساؤلات الكثيرة المتتابعة من شأنها أن تجسِّدَ حيرة الشاعر وقلقه وحزنه وتحسُّره إزاء تلك المتناقضات والغرائب فى دنيا الناس فى عصره .. تلك التى طفت على سطح الحياة المعاصرة ، فأظلمتها ، وطمست نورها ، وفى النهاية يُنادى الشاعر رفاق دربه ، مُشركاً إياهم فى شكواه هذه ، متسائلاً : هل أصاب الحكم فيها ؟ ،أم تُراه جار حكمه ؟.

.. وهكذا تتبع تجارب الشاعر فى قصائده فى الشكوى- تلك التى صوَّر فيها ضيقه وتبرُّمه بواقعه ، وشعوره بالاغتراب عنه ، والتصادم معه ، وشكواه مما جدَّ وطرأ – على مجتمعه ، مما يتصادم مع الفطرة النقية ، والطبع السوي هنا ، هكذا تتبع تجارب الشاعر هنا فى الشكوى من

إحساسه بالقلق تجاه القيم المُنهارة التى تهاوت تحت ضغوط الحضارة الحديثة ، والمدنية الجديدة التى انقلبت فى ظلها الموازين ، واختلت المقاييس ، وتبدّلت الأوضاع .. وأيضاً من اصطدامه بالواقع المادي الذى كاد يقتل العواطف والمشاعر ، ويئد بماديته الصرفة أشواق الإنسان إلى حياة ملؤها الحُب ، وقوامها العواطف والمشاعر الفيّاضة ، بعد أن صيَّر العصر أبناءه آلاتٍ خالية من القلوب ، جامدة الإحساس والشعور ، وجعل منهم دُمى يسيِّرها ويُحرِّكها- كيفما يشاء بوقعه السريع ، فلم يعُد هناك مجال للعواطف ، ولا ميدان للمشاعر الإنسانية الغالية .. حول هذه المعانى والمضامين تقريباً دارت تجارب الشكوى لدى صان الدِّين .

المبحث الثالث

الغربة(١) والحنين فى شعر صان الدِّين

الإنسان – بطبعه – مُحِب لوطنه ، يعلق فؤاده به ، وتظل نفسه تحن إليه ، مخلصة فى ذلك الحُب ، فإذا ما بعد عنه واغترب تأكد الحُب ، وازداد التعلُّق ، واتقد الشوق ، وهفت النفس ، وتاقت واشتاقت ، واهتزَّ القلب واضطرب ، فليس كالاغتراب شئ يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه ، وحبه له ، وتعلقه به .. والحنين إلى الوطن والأهل والأحباب مؤشرُ إلى رقة القلب ، وهو سمة بارزة من سمات الرَّشد ؛ لما فيه من الدلائل على كرم الأصل ، وتمام العقل ، وصحة الطبع ، واستقامته :" وحب الوطن فطرة عند كل كائن حي ، سواء كان إنساناً أم غير إنسان، فهو يمتلك مشاعر الإنسان ، ويأخذ بقلبه ، ويستولى على فكره ، وخصوصاً إذا فارقه أو بعد عنه ولو إلى وقت محدود ، وقد عرف العرب ذلك ، وعبَّروا عنه فقالوا : " الكريم يحن إلى جنابه كما يحن الأسد إلى غابه" ، وقالوا : إذا كان الطائر يحنُّ إلى أوكاره ، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه ، " وقالت الحكماء : " الحنين من

---

(١) الغربة والغرب: النوى والبُعدُ، وغرب: اى بعُد ، والتغرب : البعد ، والغربة والغرب : النزوح عن الوطن ، والاغتراب والتغرب كذلك ، وغريب : بعيد عن وطنه ، والجمع : غرباء .. مادة : غرب – اللسان: ٥٨٧/٦ ، والحنين إلى الوطن : النزوع إليه ، والاشتياق له ، .. مادة : حنن – اللسان: ٦٣٤/٢ .

رقة القلب ، ورقة القلب من الرعاية ، والرعاية من الرحمة ، والرحمة من كرم الفطرة ، وكرم الفطرة من طهارة الرشدة ، وطهارة الرشدة من كرم المحتد " (١) .

فإذا ما انضم إلى تلك السمات ، وهاتيك الصفات رهافة الحِسِّ ورقة الشعور ، تلك التى يتحلى بها أولئك النفر من الشعراء .. لاسيما إن تغربوا وابتعدوا عن أوطانهم ، حيث يهزهم الشوق والحنين إلى مرابعها ، وينتابهم النزوع والميل إلى ملاعب صباهم فيها ... إذا ما توافرت تلك السمات عند أولئك النفر مرهفى الإحساس ، رقيقى الشعور ، تراهم يُبدعون فرائد فى الغربة والحنين .. كأثرٍ من آثار تجربة الغربة الحقيقية – تلك التى قاسوها ، واكتووا بنارها .

وينضم إلى ذلك اللون من الغربة الحقيقية– تلك التى تتمثل فى بُعد الإنسان ، واغترابه الحقيقي عن وطنه .. ينضم إلى ذلك اللون .. ما يمكن أن نسميه : الغربة النفسية ، والأخلاقية .. حيث يشعر الإنسان المرهف الحِس ، الرقيق الشعور بوخز الغربة ، وآلام البعاد– وهو بين أهله وذويه ، وتحت سماء وطنه ، وفوق ثرى أرضه .. بعد ما أحسَّ بالتصادم وعدم الانسجام مع ما يقع ويحدث بين أبناء مجتمعه من سلوكيات شاذة ، وطباع سقيمة ، وأخلاقيات جد غريبة تتصادم معها النفس السَّوية ، ولا يرضى عنها صاحب الطبع السليم ، والذوق الرفيع ، والإحساس الرهيف .

---

(١) رسائل الجاحظ –٣٨٦/٢– تحقيق عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – بدون تاريخ ، ويُنظر : شعراء الجاهلية بين الأوطان وبلاط الملوك : د/ محمد احمد سلامة – صـ ١١ – ط –دار الطباعة المحمدية – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م .

وشاعرنا صان الدِّين يتوفر فى تجاربه فى الغربة والحنين هذان اللونان من الغربة المشار إليهما قبل قليل .. وحول هذين اللونين من الغربة يدور حديثنا فى الصفحات المقبلة –بإذن الله تعالى – من خلال تجارب الشاعر فى الغربة والحنين.. وليكن حديثنا أولاً عن ذلك اللون الذى يُسمى الغربة النفسية والأخلاقية ، ذلك الذى يصور فيه الشاعر شعوره بالغربة والحسرة ، والضياع والحيرة ، ويُجسِّد تصادمه وعدم انسجامه إزاء مجتمعه المائل المائج بالمتناقضات والنقائص ، الحافل بالعيوب والمثالب .

ومن ذلك ما جاء فى قصيديه : " حائر " ذات التسمية الدالة الموحية المعبرة عن المقام هنا ، حيث ينادى الشاعر أولى النهى من بنى مجتمعه مُجسِّداً ما ينتابه من مشاعر الحيرة والضياع والتيه والاضطراب ، فقد شرد عقله ، وحار فكره ، وتاه رشده ، وفقد صوابه .. فراح من ثم يتخبط فى سيره ، لا يدرى أي الطرق يسلك بعد أن غاب عنه شرقها وغربها ، حيث أخفت معالمها تلك الرياح الهوجُ التى خيمت على الأرجاء ، فحجبت من ثم الرؤى ، مُسائلا رفاق دربه من أولى النهى ، كيف له أن يسير فى شعاب ملتوية مظلمة مطبقة فى الظلام .. ويمشى فوق أشواك وصخر؟! .. حيث العيش الدَّامى ، والحياة القاسية ، مشيراً إلى افتقاده الأمن والأنس بعد أن شعر وأحس بأنه يحيا بين وحوش كاسرة ، وحيات شرسة ذاق فى ظلهم آلام الغربة ، واكتوى بسببهم من نار البعاد ، فقد بات غريباً وسط لداته وأقرانه ، غير منسجم معهم ، وراح يكتوى بتلك النار – أعنى نار الغربة النفسية والأخلاقية – فى الغداة والعشي ، لدرجة أنه يشعر بالغربة – وهو حاضر بين أقرانه ، حيث يمثل بينهم بجسمه ، دون حسه ، فكم نفدت إلى أعماقه سهام شرورهم السامة فأصابت منه – وهو الحُر الرهيف الإحساس، الرقيق الشعور– مقتلا .. يقول صان الدِّين:

يا أولـــى الألبـــاب إنِّى	حـــائر قـــد نـــدَّ حِلمـــى
واختفــــت عنـــى طريقى	فـــى غيابـــات الخضـــمِّ
أين شــرقى أين غربـــــى	والسوافى الهوج تعمـــى؟!
خبِّرونـــى كيــف أخطـــــو	فى ضباب تحــت غــيم ؟!
فــوق أشــواك وصخــــــر	فى طريق العــيش تــدمى
ضـــاع أمنـــى وائتنـــاسى	بـــين غـــيلان ورُقـــم
إتنــــى أحـــيا غــريباً	وســـط أقرانـــى وقـــومى
أغتــــدى فيهـــم وأمُسى	فوق جمر النـــار رغمـــى
راحـــل عنهـــم بحـــسِّى	حاضـــر فـــيهم بجســـمى
كم سهـــــامٍ مُرشقـــــات	فى فؤاد الحُرّ تصمى (١)

ولا يخفى ما يدل عليه ، ويُجسِّده كل من النداء والاستفهام الواردين- خـــلال تلك الأبيات –من سيطرة مشاعر الحيرة والقلق والحسرة والضياع علـــى الشـــاعر ، وتملكها من نفسه المصدومة غير المنسجمة ، حيث تبدو غير متكيفة إزاء مـــا جـــدَّ وطرأ على أبناء المجتمع المسلم من متناقضات ونقائص وعيوب ومثالب من شـــأنها أن ينفر منها الشاعر ذو الإحساس الرهيف ، والشعور الرقيق ، وتتصدم معها نفســـه الحُرة ، وتُصاب بها فى مقتل :

كم سهام مرشقات	فى فؤادى الحُر تُصمى

ويؤكد لنا الشاعر عبر تجربته هذه ما ينتابه ويتملكه مـــن مشـــاعر الحيـــرة والضيق والحسرة والقلق إزاء واقعه المائل المائج بتلك العيوب والنقائص والمثالـــب

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٥٨ .

الأخلاقية ، والذى يشعر إزاءه بالغربة والبعاد ، حتى ولو كان وسط لداته وأقرانه .. يؤكد لنا الشاعر ذلك – من خلال ندائه رفقاء دربه ، وأقران عصره ، وأيضاً– من خلال تلك التساؤلات التعجبية الإنكارية المتتالية التى كثَّف الشاعر بها تجربته هنا ، مؤكداً تغير حال المجتمع ، وتبدل أوضاع أبنائه .. وانقلاب موازينهم ، وسقم طباعهم ، وتدنِّى أذواقهم ، مُهيباً بأولئك الرفقاء أن يقاسموه فى مشاعره تلك ، وأن يهموا بإعانته على الخروج من تلك الأزمة النفسية .. من خلال إجابتهم إياه على سؤله : هل ما أشار إليه ، وشعر به من الغربة والضياع ، وشكا منه هنا هو فعلاً عين الحقيقة؟! ، أم أنه تهاويل واهم ، وظنون ظان .. حيث تلك الأمور الغامضات التى حار فى فهمها لُبه وعقله ، نازلاً على أرض الواقع ، ناقلاً منه مشاهد تُجسد طبيعة المجتمع المعاصر ، وتعكس أذواق وطباع أبنائه ، حيث سقم الطباع ، ومرض الأذواق ، وانقلاب الموازين ، واختلال المقاييس ، واهتزاز القيم ، وانهيار الأخلاق .. وغير ذلك مما يؤلم نفس الشاعر ، ويحزنها ، ويدميها ، ويشعرها بوخز الغربة ، وآلام البعاد ، ويجعلها تصطدم مع تلك المتناقضات ، ولا تتكيف معها ، مُتطلعاً إلى التخلص منها ، والتنعُّم بعيداً عنها – فى ظل الحياة الراقية الكريمة .. يقول صان الدِّين:

يا لدَّاتى كل شيء ... حال لوناً مثل طعم
أنبئونى أنبئونى ... واكشفوا بالعلم همِّى
هل صحيح ما أرا ... ه أم تهاويل لوهمى؟!
من أمور غامضات ... حار فيها كلّ همِّى
هل يكون العقل فى الإنـ ... ـسان مدعاة لذم؟!
والتزام الحق جُرماً ... فى نزيه.. أي جرم؟!

والصريـــح القـول فظاً يرتــدى جلبــاب شــؤم؟!
هل يكون الســم شــهداً والحصـــى بــراق نجــم؟!
هل يصير الميــن صــدقاً بعــد تزويـــق ووشـــم؟!
والمجـون الجهـــر ظرفاً والخنــا تفــريج هـــمِّ؟!
والكــلام الهجـــر نظمــاً عبقريـــــاً أي نظـــم؟!
ذاك مــا يطفــو علـــى ســطح الحيــاة المــدلهم!!
يا رفاق العيــش مـــاذا غير مــا أحصــاه كلمــى؟!
هل أصبـــت الحُكــم فيــــه أم تُراه جار حكمى؟![1]

وتلك التساؤلات العجيبة الإنكارية التى ألحَّ الشاعر فى اســتعمالها ، وكثّــف تجربته بها هنا ، لاشك فى أنها تُجسِّد طبيعة المجتمع المعاصر المائلــة المُعوجَّــة ، وتعكس أذواق أبنائه السقيمة ، وطباعهم المريضة .. وهي جميعاً تؤكد انهيار القيم ، واختلال المقاييس ، وانقلاب الموازين ... وفى ظلّ هذه القــيم المُنهــارة ، والأذواق السقيمة ، والطباع غير السوية- تلك التى تمكنت من أبناء المجتمع المعاصر- تغــدو المثالب والنقائص هي المثال المنشود ، والنموذج المُبتغى ، والقدوة المحتذاة .. فــى حين تذوى المحاسن والمكارم ، وتتوارى القيم والفضائل أمام سيل المثالب والنقائض الجارف الذى كاد يغرق المجتمع ، ويذهب بأركانه .

فغربة الشاعر هنا غربة نفسية أخلاقية اجتماعية ، حيث تنبع تجربــة صــان الدِّين من إحساسه المتصادم مع الواقع ، وهو إذ يُصور ضيقه وتبرُّمه وتصادمه إزاء تلك النقائص والمتناقضات ، فإنه فى الوقت ذاته ينشد قيما وفضائل ضاعت ، ويبحث

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ٥٩ ، ٦٠ .

عن مُثل وأخلاقيات ذوت فى دنيا الناس .. وكأنى بنفسه .. يتوق إلى وجهٍ آخر للمجتمع فى الزمن الماضى الزاهر ، حيث المثالية ، بصفائها ، ونقائها الفطري ، فلم يكن الاغتراب الذى شعر بوطأته الشاعر ، وأحسَّ بوخزه هنا سوى اغتراب نفسي وروحي : " فالاغتراب هنا ليس اغتراباً مادياً عن طريق الرَّحيل ، وإنما هو اغتراب روحي يتمثل أكثر مما يتمثل فى عدم التكيف الاجتماعي والنفسي ، ودلالته الواضحة هي النفور من تعقُّد الحياة ، والرَّغبة فى البساطة "(١) .

وتلك سمة يتسم بها الشعراء الرومانسيون : " الوجدانيون " المُحدثون ، وذلك ملمح من ملامح شعرهم فى العصر الحديث :" الغربة سواء كانت غربة مادية أو روحية شعور يتردد كثيراً عند الوجدانيين المُحدثين ، كما تردد من قبل عند نظائرهم من العذريين ، والتشوُق إلى الماضى على إطلاقه ، مهما يكن باعثه المباشر سمة رومانسية أخرى غالبة على شعر الرومانسيين "(٢).

وآن لنا الآن أن نتحدث عن اللون الآخر من الغربة والحنين فى شعر صان الدِّين ، حيث الغربة الحقيقية المكانية – ذلك اللون الذى يتمثل فى اغتراب الأديب عن وطنه ، وابتعاده عن أهله وذويه حقيقة لا مجازاً .. حيث قُدِّر لصان الدِّين أن يبتعد عن أرضه ووطنه ، ويغترب عن أهله وأحبابه .. فينتابه من ثم الشوق والحنين ، فيهتز قلبه ، ويضطرب فؤاده حُبًّا وشوقاً وتعلقاً وحنيناً إلى وطنه ، وذويه .. فنراه يُبدع من وحي غربته الحقيقية " المكانية " قصائد :" تجارب" يجسد من خلالها ما ينتابه من مشاعر الحُب والحنين واللهفة والشوق الدَّفين إزاء ثرى وطنه العزيز ، وترابه الغالى وربوعه الأثيرة لديه ، وأهله ، وذويه ، وأحبابه الأقربين .

(١)الحنين والغربة فى الشعر العربي الحديث : د/ماهر حسن فهمى – صـ ١١٠ – ط دار القلم – الكويت – الطبعة الثانية– ١٩٨١م .
(٢)الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر – د/ عبد القادر القط – صـ ٢٧ .

ومن ذلك ما جاء فى قوله يُجسِّد حنينه وأشواقه إزاء مصر الكنانة ، بعد أن اغترب عنها ، حيث تنتابه مشاعرُ الحُبِّ والحنين ، واللهفة والشوق الدفين إزاء ربوعها العزيزة ، وجنباتها الغالية ، وتوُخزه آلام الغربة ، وعذابات البعاد عنها ، حيث يبكى فيشتدُّ بكاؤه ، ويظمأ فلا يرتوى فؤاده ، وكأنه من غربته عن منبته ، وبعاده عن مسقط رأسه رضيع فُطِم قبل أوان الفطام ، فذوى ، وضعف من ثم ، وهزل ، ووَهن .. حيث لا يسلو مصر ، ولا ينفك عن تذكرها ، والتعلق بها ، والحنين إليها ، واجداً فيها ريَّه مما يكاد يقتله من ظمأ شديد ، وشفاءه الناجع مما يضنيه من مرضٍ جهيد ، ، مُتسائلاً – فى لهفة وشوق وحيرة واضطراب ــ كيف الطريق إليها ، وأنى السبيل إلى المثول بين جنباتها ؟! ، وقد حالت بينه وبينها قيود موصدة ، وموانعُ مُحكمة ، مُتشوقاً إلى شربة ماءٍ من نيلها العذب تروى ظمأه ، وتطفى لظى قلبه ، وغلّة شوقه ، وتبلُّ صدى فؤاده .. مُمنياً نفسه بعَود حميد ، وأوبة كريمة إلى ربوع مصر الحبيبة ، بعد أن تنقضى ساعات البعاد .. وينطوي زمن الاغتراب ، خائفاً من ذهاب حياته، وأفول نجم عمره– قبل أن يتحقق له ذلك الأمل المنشود .. مُؤكداً أنه لا سعادة ، ولا قرارة عيش ، ولا هناءة حياة ، ولا راحة بال لابن مصر إذا كانت نهايته بعيدة عن ثراها العزيز الغالى .. يقول صان الدِّين :

تعج بقلبى حرور الجوى ... ويهفو بروحى حنين النوى
فأبكى ولكن بغير دموع ... وأظمأ لكن بدون ارتوى
كأنّى فطيم قبيل الأوا ... ن جفته المراضع حتى ذوى
إلى منبتى مصر كل الحنيـ ... ن وما من سلوًّ وما من سُوى
فيا مصر إنى غريب الديا ... ر مشوق الفؤاد مريد الهوى
وأنتِ الرواء لذلك الغليـ ... ل وأنت الدَّواءُ لهذا الدوى

ويا مصر كيف إليك السبيـــل ودونــك قيــد وبيــد قــوى؟!
ومن لى بشربة مــاءٍ رويٍ من النِّيل تطفــئ حــر الجــوى؟!
أعلِّل نفسى بعــودٍ حميــد إذا مـــا زمـــان البعـــاد انطــوى
وأخشى المنيَّة قبــل الإيا ب إذا نجــم عمــرى غــداة هــوى
وهل يستريح ابن مصر بأرض سوى أرض مصر إذا ما ثوى؟![(١)]

وقد أجاد الشاعر ، وأمعن فى تجسيد ما يتملكه من مشاعر الحــب والحنــين واللهفة والشوق الدَفين – إزاء أرض الكنانة :" مصر " .. أجاد الشاعر، وأمعن فــى تجسيد تلك المشاعر – كما نرى – وذلك من خلال استخدامه تعابير دالة ، وتراكيــب بليغة ، وصور رائقة ، من مثل : تعبيره بتلك الكلمات الدالة المعبرة عما يشمل نفــس الشاعر من معاناة وآلام : تعجُّ ، يهفو ، أبكى – أظمأ – بجانب أنها أفعال مضــارعة تدل على تجدُّد واستمرار تلك الآلالم ، ومن مثل ما جاء فى قوله :

فأبكى ولكن بغير دموع وأظمأ لكن بدون ارتوى

حيث لا يخفى ما يدلُّ عليه تحجُّر الدمع فى عين الشاعر فى أثناء بكائه هنــا من شدة حزنه ، وبالغ أساه ، وعمق ألمه ، وامتداده.

وما يدل عليه أيضأ تعبيره : وأظمأ لكن بدون ارتوى .. من سيطرة واستبداد مشاعر اليأس والإحباط به ، وعدم أمله فى الرِّيِّ ، حيث المثول بأرض مصر الطيبة .

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٦١ .

ومن مثل تلك الصورة التشبيهية الدالة – التى صوَّر الشاعر نفسه خلالهـا – وهو يُعانى وخز الغربة ، ويقاسى ويلات البعاد – بالطفل الذى فُطـمَ قبـل الأوان ؛ فهزل من ثم ، ووهن ، وضعف :

كأنّى فطيـــم قبيل الأوا ن جفته المراضع حتى ذوى

وأيضاً – من خلال نداء الشاعر مصر أكثر من مرّة – خلال تلك الأبيـات، واستعماله فى ندائه إياها حرفاً يدلُ على البعد: " يا " ؛ توافقـاً مـع حالتـه النفسـية والشعورية هنا ؛ فالبون بينه وبين مصر شاسع ، والشقة بعيدة .. وأيضاً– من خـلال خطابه مصر الكائن فى قوله الذى يجسِّد مدى أهميتها فى حياته :

وأنت الرواء لذلك الغليـ ل وأنت الدَّواءُ لهذا الدوى

بجانب الاستفهامات الواردة فى هذه الأبيات ، وما تجسِّده من حيـرة وقلـق يسيطران على ذات وكيان الشاعر من أثر وخز الغربة ، وآلام البعاد :

يا مصر كيف إليك السبيل ودونك قيد وبيد قـــــــوى؟!
ومن لى بشربة ماءٍ روي من النِّيل تطفىء حر الجـوى؟!

ثم يحث الشاعر – خلال تجربته الرقيقـة هـذه – ليـالي البعـاد ، وساعات النوى – تلك التى يحسُّ –إزاءها– بأنها بطيئـة الخُطـى ، وئيـدة المشي ، بعد أن ضاق بالغربة ، وذاق مرارة البعاد ،ولم يعد يطيب له المقام هناك ، بعيداً عن وطنه وذويه ، .. هاهو ذا يحثها على أن تجدَّ فى السـير ، وتُسرع فى الانقضاء – فتمرُّ كطيف الخيال .. فقد كره الثواء فى ظل الغربة بعد أن اكتوى بنار البعاد ، ووقود الاغتراب .. وبعد أن لم تعد تطيـب لـه الحياة ، ولم يعد يهنأ بنعيمها ، مُؤثراً الثواء فى مصر ، والإقامة بأرضـها – وهو فى ضيق عيش ، وشظف حياة على الثواء والإقامة بغيرها – وهو فـى

سعة عيش ، ورغد حياة ، حيث يغدو كل عيش رغيد بدونها عيشا كئيباً تعوزه السعادة ، ويفتقر إلى الهناءة .. يقول صان الدِّين :

فجدِّى المسير ليالى الفرا	**ق بحاضرعيشى وما قد حوى**
ومُرِّى سراعاً كطيف الخيا	**ل فقلبى لهذا المقام احتوى**
فكيف يطيب نعيم الحيا	**ة لمرءٍ بنار البعاد اكتوى؟!**
فأنعم بأرضك يا مصر حتى	**ولو غالنى فيك ناب الطوى**
فلا كان دونك عيش رغيد	**ولا كان قلب سلا وارعوى!!(١)**

ويبدو شدة حُبٍّ وحنين الشاعر لوطنه ، ويظهر تعلقه الكبير بربوعه – كما نرى – فى حثه ليالي الفراق على أن تنقضي سريعاً كطيف الخيال ، خالعاً عليها بذلك سمات العقلاء ، حيث يخاطبها خطاب من يعقل فى قوله :

فجدِّى المسير ليالى الفرا	**ق ومُرِّى سراعاً كطيف الخيال**

كما يبدو أثر ذلك الحُب والتعلق والشوق والحنين المُتقد فى أعماق الشاعر – إزاء وطنه – من خلال استفهامه الدال على التعجب والاستبعاد ، حيث ينفى الشاعر أن يحسَّ المرء المغترب بطيب الحياة ، ويشعر بنعيمها – وهو يكتوى بنار الغربة ، ويقاسى ويلات البعاد :

فكيف يطيب نعيم الحيا	**ة لمرءٍ بنار البعاد اكتوى؟!**

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـ ٦٢ ، واحتوى المقام : كره المقام فيه ، وغالنى : أهلكنى .

ومن وحي تجربة الغربة الحقيقية : " المكانية " أيضاً يستوحى صان الدِّين قصيدته :" أشواق مغترب "– تلك التى نظمها فى أثناء غربته بليبيا – بعد أن زار أحد الليبين مصر ، وعاد مأخوذاً ، وآب مبهوراً يتحدث بين يدى الشاعر عمَّا رأى وشاهد من مجالى السحر ، ومظاهر الجمال النادرة المثال فى مصر الكنانة .. وكان شاعرنا معاراً آنئذ للتدريس فى ليبيا ، فأهاج ذلك القادم من أرض مصر فى أعماق الشاعر الحنين ، وأثار فى حناياه لواعج الشوق الدفين إزاء وطنه الحبيب ... وقد طال نفس الشاعر فى تجربته هذه ، حيث بلغت أربعة وثلاثين بيتا تفيض جميعاً بالشوق والحنين إلى مصر ، ويبث الشاعر فيها آلامه وشجونه –إزاء فراق وطنه ، وبُعده عنه .. وقد استهلها الشاعر بندائه ذلك القادم من أرض مصر بلده الحبيب مُحيِّياً إياها ، مُرسلاً إليها من قلبه الظامئ ، ورُوحه الهائمة تحية حُب وشوقٍ ، هائماً فى حبِّها ، والميل إليها ، والتعلق بها– مثلما يهفو ويُقبل الفراش على أريج الزهور ، مُستوقفاً ذلك القادم من أرض مصر ، آملاً منه أن يدنو ويقترب ، حيث يشتم منه ريح بلاده الزكي– وأن يقصَّ على مسمعه حديثاً مُطولاً يصول فيه ويجول ، مُستقصياً ما وقعت عليه عيناه من مجالى الحُسن ، ومعالم الجمال .. فيهُمُّ بِوصف ما شاهده من عجائب وفرائد– ممَّا تتوفر عليها أرض مصر ، وأن يعيد على مسامعه ذلك الحديث .. مثنى وسُباع ، حيث تطيب ، وتنعم نفس شاعرنا بذلك الترداد ، ولا تسأم ، ولا تملّ من ذلك التكرار ؛ ولم لا فهو فى حاجة ماسة إلى ذلك الترويح .. فنفسه مُقيدة بأغلال الغربة مثقلة بقيود البعاد عن الديار .. يقول صان الدِّين :

بالله عرِّج وانزلن عندى برحب　　　فى رياض محبتى ووداى
وتدان منى –قد فديتك – إننى　　　أستاف منك أريج جو بلادى!
وأدر على سمعى حديثاً مسهباً　　　عن مصر ذات السحر والأمجاد

وأعدهُ مثنى أو سباع مُـردِّداً فحديثها يحلـو مـع التـرداد
إنىِّ غريب قيدته يدُ النـوى بمثقل الأغـلال والأصفـاد(١)

وبعد أن استوقف الشاعر ذلك القادم من أرض مصر – حين عاد منها إلـى ليبيا ، حيث ثواءُ الشاعر .. وبعد أن رجى أن يدنو منه ، وأن يسهب فـى الحـديث عما رآه وشاهده من عجائب وفرائد– مما تتوفرُ عليه أرض مصر الجميلـة ، حيـث يُدخل ذلك الحديث المسهب فى وصف مصر على نفس الشاعر الراحة والسـرور ، والهناءة والحبور ، ويخلصها مما يكبلها من أغلال الغربة ، وما يقيدها مـن أصـفاد البعاد .. راح صان الدِّين بعد ذلك يلحّ على صاحبه هذا أن يصف له ما شـاهد مـن عجائب ، لافتاً نظره إلى ما يمكن أن تقع عليه عينه من مشاهد الجمـال ، ومجـالى الحسن – مما خبرها الشاعر ، وأحبها ، وتعلق قلبه بها ، وحنت نفسه إليهـا ، مـن مثل: تلك القطع المتجاورات المكسوة باللون الأخضر ، حيث الجنَّات ، والرِّيـاض– والبساتين الحافلة بالزروع والزهور والثمار دائمة الخصب والإثمار ، وحيث قـاهرة المُعزِّ – بمعالمها الأثرية ، ومرائيها الساحرة ، ومشاهدها الخالدة – تلك التى تحمـل عبق الماضى ، وحيث المآذن والقباب التى تعلو المساجد العامرة التى تؤمها جماعات النسّاك والعُبَّاد من أرجاء مصر المعمورة ، وحيث معاهد العلم المنتشرة بين ربوعها ، والتى ظلّت على كرِّ الزمان منارة الأنام ، وحيث القصور الفخمة الفارهة النـادرة المثال فى الحُسن والجمال٠٠ بعد أن تفننت فى تشييدها ، وتنميقهـا أيـدى الصـنّاع المهرة ، وحيث ليل القاهرة – المزدان بأنوار المصابيح ، والذى يبدو– مـن كثـرة ووفرة الأنوار المُضاءة فيه – وكأنه فى رابعة النهار ، وحيث الأُنـس والإينـاس ، والألفة والألاف – تلك المشاعر التى يلمسها المقيم فى مصر – بما عُرف عن أبنائها

(١) ديوان: أعاصير وأنسام صـ ٦٣ ، ٦٤ .

من طيب العِشرة ، وحُسن العهد ، وبشاشة عند اللقاء ، ونقاء السـريرة .. ، وحيـث ساعات الأصيل الهانئة – فى ظلِّ ضفافها وشواطئها التى تموجُ بالرواد ، وتغُـصُّ بالزوار ، حيث الأنسام الرقراقة التى تريح النفوس ، وتُمتع الأرواح .. وحيث النِّيـل شريان الحياة بها ، وسرُّ بهجة ربوعها ، ومصدر فرح وسعادة رُباها ، وشواطئها .. ها هو ذا شاعرنا يشير إلى ذلك كلِّه– من خلال مخاطبته لصاحبه القادم من مصـر هذا :

صف لى رعاك الله ما شاهدت من — عجب يفوق تآلف الأضـداد
أرأيت أرض المسك قد فُرشت بأخـ — ضردائم الإعطـاء والإرفـاد
من عاطر أو باهـر فى حُسـ — نه أو غامر من ملبس أو زاد؟
أمشيت بين رياضـها متـأنياً — يشجيك فيها هادل أو شـاد؟
هل زرت قاهرة المعزِّ وجُلت فى — أنحائها فى دهشـة المرتـاد
متغير الإحساس من سحر الحديـ — ث إلى جلال مسارح الأجـداد
بين المآذن والقبـاب تـؤمُّها — زمر مـن النُّسَّـاك والعُبَّـاد
ومعاهد العلم التى ظلَّـت علـى — كرِّ الزمان منـارة الإرشـاد
أرأيت هاتيك القصـور فخلتـها — قامت بأيدى الجـن والمُـرَّادِ
وشهدت رائعة النهـار بليلـها — فحسبت أنك فى رواحك غـادِ
لا تعتريـك سـآمة برحابـها — أبداً ولا استيحاش ضيف وفـادِ
لك حيث سرت عشيرة من أهلـها — وبشاشة برئت من الأحقـاد
لله ساعات الأصيل على الضفـا — ف الساحرات تموج بـالروَّاد!!
تترقرق الأنسـام فى خطراتـها — بالرَّوح لـلأرواح والأكبـاد

والنِّيل يسرى فى ســـكون حالم　　سريان روح الله فى الأجساد
من ذاك تهتز الشـــــــواطئ والرُّبا　　نشـــوى تتيه بأيكـــها الميَّاد (١)

وغير خافٍ أنَّ الشاعر لا ينفك عن تذكر وطنه ، والحنين إليــه ، والتعلــق بربوعه ، ومجاليه هنا ، حيث تبدو تلك المعالم والمجالى- التى ألفها الشاعر، وكــان له معها ذكريات خوالٍ – تبدو ماثلة فى وجدانه ، حاضرة فى ذاكرته ، محفورة فــى مخيلته .. حيث نراه ينتقل مع صاحبه القادم من مصر من مشهد لآخر مــن مشــاهد السحر والجمال- تلك التى تتوفر عليها أرض مصر الحبيبة ، مُسهباً فــى الحــديث عنها ، واجداً فيه الرَّاحة ، والهناءة ، وهو السبيل إلى طرده عن نفسه السأم والملالة الناتجين من أثر الغربة ، ووخز البعاد عن مصر الكنانة .

ويختم صان الدِّين تجربته الرقيقة الشاجية تلك بإلحاحه على تجسيد ما يُقاسيه من آلام البعاد ، ويلاقيه من عذابات الاغتراب .. حيث حُرم ببعده عن وطنه هنــاءة العيش ، وقرارة العين ، وفقد باغترابه أنس روحه ، وراحة باله فى يقظته ومنامــه، مُقسماً على عدم توقف قلبه لحظة عن الحُب لوطنه ، والتعلق به ، واللهفة والحنــين إزاء ربوعه العزيزة الغالية ، خالعاً صفة السفه ، وعدم الرشد على كلّ من ابتعد عن مصر، واغترب عن ربوعها باختياره وإرادته ، ودونما حاجة مُلحة إلى ذلك ، مُقسماً بالله سبحانه الذى رفع ذكرها ، مخلِّداً إياها فى قرآنه ، والذى بسط للنــاس أرضــها لتجود بالزروع والثمار التى ينشدها العباد .. على أنه لم ولن يــرتض أبــداً وطنــاً سُواها ، حتى ولو فاق هذا الوطن مصر فى الحُسن والسحر والجمال ، ضارعاً إلــى ربِّه واهب الحياة ، ومُودع الأرواح فى الأبدان أن ينسئ له فى أجله ، حتــى يــنعم

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـــ ٦٤ ، ٦٥ ، والمُراد: جمع مارد وهو : العاتى .

ببغيته ، ويظفر بمُراده ، فيمثل فى أرض الكنانه مرة ثانية ، ولم لا ؟! وهو حفنة من تراب لا تنفكُّ أبداً عن أن تحنّ لأصلها ، وتتادى على أرضها .. يقول الشاعر :

أواه يا مصر الحبيبة إننى ... مُذبنتُ عنك حُرمتُ طيب رقادى!!
وفقدت أنس الرُّوح بين جوانحى ... فى يقظة المسعى وفى إخلادى
تالله ما فتر الحنين بمهجتى ... أبداً ولا أغفت عيون فؤادى
لا والذى أعلاك ذكراً خالداً ... فى الآباد يبقى مع الآباء
ودحاك للإنسان سهلاً يانعاً ... تهوى إليه مشاعر القصَّاد
لا أرتضى وطناً سُواك وإن شأى ... فى الحُسنِ والإمتاع جنة عاد[1]
هل ناء عنك مُخير فى نأ ... يه إلا أخو سفه عديم رشاد ؟!
يا فاطر الإنسان فى وجدا ... نه يا مرسل الأرواح للميعاد
هبنى حياة تبلِّغنى موطنى ... أرض الكنانة بغيتى ومُرادى
هل كنت إلا قطعة من تُربها ... أبداً تحن لأصلها وتنادى؟![2]

وإذا كان شاعرنا صان الدِّين قد جسَّد- خلال تجربتيه السابقتين فى الغربة والحنين- ما ينتابه من مشاعر الحُب والحنين واللهفة والشوق الدّفين إزاء وطنه مصر وربوعها بعامة ، فإنه فى التجربة التالية يرسل زفراته الحارة – تلك التى تصدر من قلب مصدوع ، ونفسٍ محزونة ، وكيانٍ خائر ، وعزم واهٍ ، وذاتٍ قد اعتصرها الألم ، ونال منها الأسى ، وضعضعها الحزن ، واستبدت به الحسرة ،

---

(١) فيها إشارة إلى قول الله تعالى فى سورة الشعراء على لسان هود عليه السلام .. يعظ قومه عاداً، مُذكِّراً إياهم بآلاء ربهم عليهم: {وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُون * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِين * وَجَنَّاتٍ وَعُيُون} [الشعراء: ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤].

(٢) ديوان : أعاصير وأنسام صـ ٦٥ ، ٦٦ ، وشأى: فاق وزاد .

وتملك منها الضياع ، لا تدرى أتحن وتشتاق لرؤية أمِّها ؟! ، أم تأسى وتحــزن إزاء فراقها .. حيث نلتقى- خلال تلك الزفرة الحارة – مع صان الدِّين فى أثنــاء غربتــه عن وطنه ، وبعاده عن أهله .. وبعد أن نمى إلى علمه نبأ رحيــل والدتــه .. وهــو وحيدها النائى عنها .. فلكم ذاب حزناً ، وكمداً وحسرة وألما ، حيث لم يكــن يتبقــى على موعد أوبته إلى مصر سوى النزر اليسير .. لتهنأ أمّه به ، وينعم هو بهــا ، لا سيما بعد أن طالت غيبته عنها ، فأصابها من المرض والعلل ما أصابها ، وهــو- أي شاعرنا- لكم كانت نفسه تأمُل وتطمع فى أن – يجمع الله شمله بأمِّه ، مُجتهــداً فــى تقديم كل ما من شأنه أن يدخل عليها البهجة ، والسرور ، لاسيما وهي فى أخريــات حياتها .. ولكن بدلاً من ذلك اللقاء الذى فيه الراحة والهناءة كان الفناء ، ومن بعــده الفراق والوداع دون لقاء ، ومن ثم كانت الآلام والأحزان.

وقد استهلَّ صان الدِّين زفرته الحارة تلك بالدعاء لوالدته بأن ترفرف رُوحُها فى مراقى السمو ، وتحلِّق فى مراتب الكمال من النعيم والرضوان ، مُحاطــه بهالــة من النور ، مسرورة بالغفران ، مُحدِّثاً بما لها من أيادٍ وأفضال من شأنها أن تعــرج بها إلى الروح والريحان ، حيث تنعم بالنعيم المقيم على الأرائك فى جنــات النعــيم ، وتمشى بين الحور العين باسمه المُحيَّا ، وضاءه الجبين ، غادية ممــن تعــرف فــى وجوهمم نضرة النعيم .. فتقابل بالبشر والسرور ، داعياً الله سبحانه لهــا أن يكــون مستقرها الخُلد ، حيث جنات النعيم ــ جزاء كونها أصل الخُلق الزاكــى الكــريم .. يقول صان الدِّين :

طيرى بآفاق الضياء وحلِّقى وإلى رُبا الفردوس خفِّــى واســبقى!!
رفــــافة كالنــور فى هالا ته نشوى بغفران السماء المُغــدق!!
صنعت يمينك فى الحياة معارجاً تفضى إلى آلاء ربك فارتقى!! وهناك

فى ظل الخلود تربعى فـــوق الأرائـــك بـــين روضٍ مونـــق!!
تمشين بين الحور باسمة المحيَّا فـــى أرقّ ســـناً وأبهـــى رونـــق
تلقاك ألوان التحـــايا كُلُّـــها شارفت نهراً أو خطـــرت بجوســـق
يهنيك يا أمَّ الخصال الزاكيا ت الخُلدُ فى هذا النعيم المُطلق!![١]

وغير خاف أن الشاعر بدأ تجربته الشفيفة فى الغربة والحنين هنا ببكاء أمّـه الراحلة فى أثناء غربته وبعاده عنها ، ويطيب لى أن أورد فى هذا الصدد ما ذكـره الدكتور :/ مصطفى حسين- وهو بصدد تعليقه على هذه القصـيدة المـؤثرة التـى بعنوان : " ورحلت يا أماه"، وبمعرض إشادته وتنويهه بها ، لاسيما مطلعهـا الـذى نحن بصدده الأن، حيث يقول :" فالمطلع هنا :(يقصد مطلع الأبيات المـذكورة آنفـا) صورة متجانسة متماسكة يشكل نسيجها عناصر الحركة الروحية الشفيفة من طيـران إلى رُبا الفردوس، إلى رفيف النور ، إلى معارج تفضى إلى آلاء الله ، وتربُّع فـى روض مُونق ، ومشي بين الحور ، فشارف الأنهار والقصور .. وكلها صور روحية جزئية تُشكل هذه الصورة الكلية الشاملة للفردوس [٢].

وبعد هذا المطلع الباكى ، والاستهلال المؤثر المُضـمخة تعـابيره بـالعِطِر الصوفي الشفيف الذى يفوح بالشذى ، ويفـيض بالطيـب ، حيـث روح أم الشـاعر الراحلة المُحلقة فى مراقى السمو، الطائرة إلى رُبا الفردوس المُقيم ٠٠بعد هذا المطلع البارع المؤثر راح الشاعر يجسِّد – عبر تجربته هذه – ما كانت تعـانى منـه أمّـه الراحلة فى أثناء غربته .. حيث كانت تقاسى من دائين عُضالين يكدِّران عليها صـفو حياتها : أولهما غربة وبعاد وليدها الوحيد عنها ، وثانيهما مرضها المُضـنى الـذى

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٨٨ ، والجوسق : القصر .
(٢) مجلة عالم الكتاب – مقال: د/ مصطفى حسين – صـ ١٠٥ - عدد يناير - ١٩٨٩م .

كانت فى صراع معه ، محاولة جهدها دفعه عن نفسها ؛ أملاً ورجاءً فى لقاء وحيدها ، فترد إليها من ثم روحها ، ويعمَّ الخصب والنماء فى واديها، مُصوِّراً شوقه وحنينه وترقبه إلى العودة إلى وطنه ، حيث عطف ، وحنو أمِّه .. فيمكث ما يمكث فى ظلها ، ثم يُمرِّغ خديها عند وداعها ، فتنتظر من ثم إليه مترقبة أثره ، وعيناها مغرورقتان بالدموع .. حيث يعلم الله– سبحانه – وحده ما بقلبها من ألم وحزن بالغين متقدين بين الحنايا والضلوع يكادان يذهبان بها ، أما هو فقد كبلته الحياة بحكمها القاسي المُوجع ، حيث راح يكتوى بنار النأي ، ولظى البعاد ، حيث لا ينفك فؤاده عن حبِّها ، والتعلق بها ، والحنين إليها حنين الطائر الجريح المُوثق بالحبائل .. يقصد أنّ بينه وبينها أمداً بعيداً ، ومسافة جد كبيرة ، لكنه يظل هكذا يحيا على أمل اللقاء بها ، محتملاً ما يُقاسيه من لواعج الشوق والحنين ، مُمنِّيا نفسه ، ومُصبِّراً إياها بدنو انقضاء سنين النوى .. حاثاً ما بقي من ليالى الفراق على سرعة الانقضاء .. لكن ومن أسف ، ومن حزن بالغين قد عاجلت أمَّه المنون مخترمة إياها ، وذاهبة بها عن الحياة ، لترحل ظامئة الفؤاد ، حيث لم تَبِلّ ، ولم تُرح ما به من صدى وجوى ناتجين عن فراقها قبل اللقاء بوحيدها ، مستعظماً المصيبة فى فقدها ، فهي نبع الحنان الثرِّ الهتَّان ، وهي مصدر الخير والعطاء الفيّاض، مُلحّاً فى تجسيد ما ينتابه ، ويُوخزه من أسى عميق ، وحزن بالغ ، وحسرة كبيرة تحمله على اليأس والبكاء ، حيث لم يعد يرتجى رؤيتها ، بل إنه يكتفى باسترجاع سالف عهدها ، ومُشرق ماضيها .. يقول صان الدِّين:

قد كنت يا أمَّاه تشكين الجوى ... لوحيدك النائى بوادٍ مغلق
وتصارعين الداء فى غلوا ... ئه وتغالبين يد الحمام المحدق
أملاً يداعب منك ذاوياً ... ويمد جدب الرُّوح فيك بريِّق
علَّ الغريب يعود فى إبا ... نه ويمرِّغ الخدين عند المفرق

فتشيمى عيناك بين الحاضريـ ـن لدى الوداع بطرفها المغورورق
والله يعلم ما بقلبك من أسى فتأجج بين الحنايا مُوبق
ووحيدك النائى تكبِّلُه الحيا ة بحكمها من فوق جمر محرق
يهفو إليك فؤاده مُسترحماً كجريح طير بالحبائل موثق
لكنه والوجد يعصر نفـ ـسه يحيا على أمل اللقاء الشيق!!
ويخال أعوام النوى قد أدبرت فمضى يحث من الليالى ما بقى
لكن ووا حزناه بادرت المنو ن فطوّحت منىِّ بفضِّ الزئبق!!
فرحلت يا أمَّاه ظمأى مهجة عن هذه الدنيا ولما نلتق
ورحلت يا نبع الحنان الثر ر يا موج السخاء الغامر المتدفق
وبقيتُ مشبوب الأسى فى غربتى أبكى بقلب فى الضلوع مصفق
لا أرتجى روياك إلا حالماً مُسترجعاً صور الماضى مُشرق(١)

ومثلما استهل الشاعر قصيدته- تلك التى تجمع بين الرثاء والحنين إزاء أمِّه الراحلة .. فقد ختمها أيضاً بالدُّعاء لها بعد أن باتت فى رحاب ربِّه سبحانه .. حيث يرجو من ربِّه- جل وعز- أن يجزيها جزاء المتقين ، مُلحّاً فى مناجاة ربِّه سبحانه ، والضراعة والتوسل إليه ، وأن يجزل لها ولوالده الرحمة والرضوان ، فهذا أمله ورجاؤه ومبتغاه ، طامعاً

(١) ديوان : أعاصير وأنسام –صـ ١٨٩ ، ١٩٠ ، والرَّيِّق : أول الشباب والمطر ، تشيمنى : تنظر فى ترقب .

فى فيض كرمه سبحانه وإنعامه ، وسعة وعظم فضله وإحسانه .. حيث لا يردُّ مُتضرِّعاً ، ولا يحرم مُستسقياً .. يقول صان الدِّين:

ربَّاه أمِّى فى رحابك فاجــزها — مُتكرمـــاً عنـــى جــزاء المُتقـــى
هذى أكفى قد بسطت مُناجياً — لك من فؤاد فى الضراعة مُغرق
أرجوك للأبوين أجزل رحمة — جُهْدَ البنين دعاء قلب مُشــفق!!
حاشاك ربِّى أن تردَّ تضرعى — وبحار فضلك لا تضيق بمستق!!(١)

وهكذا يجمع صان الدِّين – خلال قصيدته تلك – بين ثنائيه الرثــاء والحنــين إزاء أمِّه الراحلة فى أثناء غربته ، وبعاده عنها – ورأيناه قد مزج بين هذه المشــاعر مزجاً جيداً ، ينبئ عن مهارة واقتدار كبيرين .

---

(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٩١ .

المبحث الرابع : الطبيعة وتشكيل الإحساس الوجداني: "الرُومانسي" لدى الشاعر:

لا يخفى ما للطبيعة من دور محوري ، وأثر جوهري فى بناء وتشكيل تجارب الشعراء بعامة .. حيث لا تقوم للشعر قائمة بدون الطبيعة ، ولا يتخيل وجوده بغيرها ، فلطالما :" شغلت الطبيعة – منذ كان الشعر – جميع الشعراء .. أو قل كيف يكون الشعر من دون الطبيعة ، حيث يستلهم الشعراء جمالها ، ويودعونها الحسّ والوجدان ... ويُخلِّدون بذلك صوراً ولوحات تبقى حيَّة نابضة ، محتفظة بألوانها ، وفيض ينابيعها"(١) .

وتتأكد أهمية الطبيعة ، ويتضاعف أثرها فى بناء وتشكيل تجارب الشعراء الذين ينحون فى شعرهم منحى رومانسياً ، وينزعون فيه منزعاً ذاتياً ... حيث تمثِّل الطبيعة بالنسبة لهم الأم الرءوم ، والصدر الحنون ، والصديق الصدوق ، والملاذ الآمن ، والملجأ الآنس الذى يلوذ به ذووا الإحساس الرقيق ، والمشاعر السامية ، والنفوس الراقية ، حيث يصطدمون مع الواقع المُتجهِّم ، والحياة القاسية التى لا تروق لأمزجتهم ، ولا تتوافق مع نفسياتهم ، فيشعرون من ثم بالغربة والوحشة– وهم فى أوطانهم ، وبين ذويهم ، وأهليهم ، ومن ثم نراهم يفرون من الواقع ، ويهربون منه بعد ما ضاقوا به ذرعاً .. هارعين إلى الطبيعة ، حيث الدفء والإيناس ،

---

(١) الطبيعة الرومانسية فى الشعر العربي الحديث : د/ أحمد عوين – تقديم الدكتور:/ سعيد حسين منصور –صـ ٥ – ط ـ دارالوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية – الطبعة الأولى -٢٠٠١م .

والصفو والنقاء ، والهناءة ، والسلامة من الزيف والخداع ، بعيداً فى ذلك عن الواقع المائج بالمفاسد والمتناقضات – والذى تصطدم بـه أصحاب النفوس الشاعرة ، والأحاسيس الرقيقة ، والمشاعر السامية .. :" فقد كان هؤلاء (أي الرومانسيون) منطوين على ذات أنفسهم ، ضائقين ذرعاً بما تضطرب به المجتمعات من حولهم ، فولعوا بترك المدن إلى الطبيعة ، وكانت تروقهم الوحدة بين أحضانها ليخلوا إلى ذوات أنفسهم .. وهذه النشوة بين أحضان الطبيعة هي طابع الرومانتيكيين جميعاً ؛ وذلك أنّ من مبادئهم حبّ الخلوة ، واعتزال الناس ؛ لأن المجتمعات مباءة ، ومثار للمشكلات ، وعبء على ذوى النفوس الرقيقة الشعور(١).

ولا يبتعد شاعرنا فى تجاربه التى أبدعها ، وكان للطبيعة أثر بارز فى بنائها ، ودور فاعل فى تكوينها .. لا يبتعد فى ذلك عن أولئك النفر من الشعراء الرومانسيين الذين طالما كان ينتابهم حنين جامح إلى الحياة الفطرية ، حيث الطبيعة ، وما تقوم عليه الحياة فى ظلها الوارف ، وحضنها الدافئ من الصفاء والفطرة والنقاء ، والسلامة من الكدر والزيف والافتعال .. فقد أتيح للشاعر – وهو فى مرحلة مبكرة من عمره ، حيث سني شبابه الأولى أن يطلع على نتاج طائفة من شعراء الرومانسية المُبرِّزين آنئذٍ، من أمثال : "فيكتور هوجو ، ولامرتين ، وشيلى ... وغيرهم ممن تُرجمت إبداعاتهم إلى اللغة العربية .. فكان أمام شاعرنا وغيره من لدّاته ومعاصريه نتاج رومانسي بلغة عربية..

بجانب ما عُرف عن الشاعر، واشتُهر به من كونه صاحب نفسٍ حساسة رقيقة .. مما جعله مستعداً بفطرته إلى أن ينزع ذلك النزوع الرومانسي فى شعره – وذلك بعد أن امتلأ صدره ، وتشبعت نفسه بروح الرومانسية ، وقد تمخض عن هذا

---

(١) الرومانتيكية : تأليف د/محمد غنيمى هلال – صـ ١٥٢ ، ١٥٣ – طبعة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – د.ت .

المَيل والنزوع إلى الرومانسية لدى صان الدِّين عـدّة تجـارب نحـا فيهـا منحـى الرومانسيين ، وحذا حذوهم ، ونسج على منوالهم .. حيث يرى صان الدِّين الطبيعـة – مثلما يراها الرومانسيون أمّا حانية يرتمى فى أحضانها ، مُفضياً إليهـا بشـجونه وأسراره ، وباثاً بين يديها أحزانه وآلامه .. فها هو هذا صان الدِّين – فـى إحـدى تجاربه التى استوحاها من الطبيعة .. وبعد أن أحسّ بالغربة والانفصال عن مجتمعـه ، وشعر بحاجته الضرورية إلى الفرار من ذلك المجتمع .. ها هو ذا يحلم مثلما يحلم الرومانسيون بأن يحيا فى عالم آخر غير الذى اصطدم وضاق به ، حيث يبنـى فـى مخيلته عالماً من أغصان الطبيعة وأشجارها وأزهارها وأكواخها القابع فى أحضـانها الدافئة ، والكائنة فى ربوعها الهادئة ، والبعيدة عن مظاهر العُمران .. والتى تُشـبه– فى حُسنها – جنة الرضوان ، بعد أن أضفى عليها الطهر الحُسن والجمال ، وخلـت من آثام وأوضار الأنام .. وهناك فى حضن السكون يحلم الشاعر بـأن يُنشـئ مـن سعف النخيل ، ويابس الأغصان كوخاً تحوطه الورود والأزهار ، وتُظللـه أغصـان الدوّح ، وأوراق الأشجار ، ويُهدى إليه النسيم فـى البكـور روح الحيـاة ، ونفحـة الريحان .. ويُسعد الشاعر شدو الأطيار فى الأفنان بأعذب الألحان ، وتغريد البلابـل والعنادب بلحن الصفاء .. ويسعده أيضاً رؤيته الماء ينساب فى الجداول ، ويهبط فى الوديان ، والنخل باسقات تُحلّق فى عنان السماء .. ويظل شاعرنا يومه فى أحضـان تلك الربوع هانياً ناعماً وادعاً ، مُطالعا فيها مظاهر قدرة القـدير ، ودلائـل حُسـن وإبدع البديع سبحانه – يظل الشاعر هكذا، حتى يقبل الليل– بدعته وسكونه ، ويلفّه– برهبته وظلمته، فيداعب النوم من ثم أجفانه ليأوى إلى كوخه الذى ابتنـاه، مُفترشـاً أرضه ، فيخلد إلى الراحة والسكون ، هانئاً وادعاً .. يقول صان الدِّين فى قصـيدته الحالمة : " حلم شاعر" :

يا حبذا العيش الوديـع بواحــــة شجراء قد ناءت عن العُمران!!
فى عزلة ما شاهدتــــها أعيــــن أبداً ولا خطــرت بهــا قــدمان
يُضفى عليها الطُّهر روعة حُســ نه فتخالها من جنة الرضــوان!
وهناك فى حُضن السكون أعد من سعف النخيل ويابس الأغصان:
كوخاً تحف به الزهور ويكتســى بقشيب ظــل الــدّوح والأفنــان
يهدى النســيم إليه فى غـــدوا تــه روح الحياة ونفحة الريحان
وتُردِّد الأطيــار فـــى أفنــانها لحن الصفاء فينتشــى وجــدانى
والماء يعدو فى الجداول بعــــدما أرخت له الغدران فضل عنــان
ينساب فى ظــل الخمــــائل حالماً حتى يضل هناك فــى الكثبــان
والنخل يضرب فى السما متمايلاً بــين الأثيــر تمايــل النشــوان
فأظــل يومــى هانئــاً منتقـــلاً مــا بــين ظــل وارف وأغــان
وأطالع الآيات فى ســفر الوجــو د فــأجتلى إشــراقة الــرحمن
حتى إذا ولـــج النــهار بغمـــ ـده وغزت جيوش الليل كلّ مكان
وتلاشت الأصداء فى صمت الدُّجى والنــوم راح مــداعباً أجفــانى
آوى إلى كوخى وئيــداً وادعــــاً فيضـــمُّنى بترفـــق وحنـــان
وأنام فوق العُشب يغمرنى الكرى والقلب فى مهد الجوانح هانى (١)

وهكذا نرى الشاعر- وقد اتخذ من الطبيعة- بمظاهرها الفاتنــة المتنوعــة ، ومجاليها البديعة الثرّة هنا -صديقاً وفيّاً ، وخلا أميناً يخلع عليه همومــه وأحزانــه ،

(١)ديوان: أعاصير وأنسام – صــ ٣٨ ، ٣٩ وولج النهار بغمده : أي دخل فى الليل .

ويشاركه شقاءه وآلامه .. إذ كان يُعانى الغربة فى مجتمعه ، مما دفعه إلى أن يعتزل الناس ، ويهرع إلى الطبيعة ، ويأنس بها ويهنأ ؛ ملتمساً فى ربوعها العيش الهانئ ، والحياة الوادعة.

ثم راح صان الدِّين – عبر تجربته البديعة الحالمة هذه – يبيِّن الدافع من حُبه لهذه الحياة الوادعة فى ظل الطبيعة ، ويُوضِّح السبب فى شغفه بها ، ورغبته الأكيدة فى العزلة عن مجتمعه ، ولدّاته وأقرانه ، مؤكداً صلته الوثيقة بمظاهر الطبيعة ، واتحاده بمجاليها ، وامتزاجه بعناصرها ، حيث يشير إلى حزن الطيور على فقده ، ووقوفها جماعات تترنم بأشجى الألحان على فراقه .. وهذه الأغصان تنثر زهرها على بدنه .. وتلك الأوراق تجعل من نفسها كفنه ، أما الرياح فتروح وتغدو موارية فى التراب جسده .. وها هي ذى كائنات الطبيعة تصدح قائلة : ها هنا مثوى غريب من بنى الإنسان ..هاهو ذا صان الدِّين يُشير إلى تلك المعانى والمضامين، فيقول :

وكذا أعيش فلا لئيماً شانئاً ... ألقى ولا خل بها يلقانى
فإذا سراج الرُّوح أطفأه الردى ... والموت أفعم كأسه وسقانى
وقفت زرافات الطيور حزينة ... تبكي بألحان الأسى فقدانى
والأيك ينثر حول جسمي زهـ ... ـره ويحوك من أوراقه أكفانى
وتروح حولى السافيات وتغتدى ... حتى يوارى فى الثرى جسمانى
والكائنات تهتف ههنا ... مثوى غريب من بنى الإنسان[1]

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٤٠ ، وأفعم : ملأ ، والأيك : الشجر الكثير المُلتفّ ، والسافيات : الرِّياح المُحمَّلة بالتراب .

وكأنى بالشاعر – خلال أبياته هذه – يقول : إنه يجد الأُنس، والإيناس، والتكيف ، والانسجام مع ذلك العالم الآخر عالم الطبيعة ، حيث تُبادله مظاهرها نفس المشاعر ، وتُقاسمه مجاليها ذات الأحاسيس من الحُب ، والوفاء .. فهو يتمنى أن يعتزل الناس ، لا سيما بعد أن اصطدم وضاق بهم ؛ فراراً من لهيب الحياة ، ونجاة من قسوة الأحداث .. فلا من لئيم الطبع هنا فى عالم الطبيعة ، ولا من مُبغضٍ فيها ، ولا شانِئٍ ، ولا من خلٍ من العقلاء بها يلقانى.

وتتجلى فى هذه التجربة – كما نرى– سمات الرومانسية ، لاسيما فى إشارة صان الدِّين إلى حزن وبكاء الطيور إزاء فقده ورحيله ، وما قامت به الأغصان والأوراق والرياح من دور إيجابي إزاء هذا الفقد والرحيل :

فإذا سراج الرُّوح أطفأه الردى والموت أفعم كأسه وسقانى
وقفت زرافات الطيور حزينة تبكى بألحان الأسى فقدانى
والأيك ينثر حول جسمي زهـره ويحوك من أوراقه أكفانى
وتروح حولى السافيات وتغتدى حتى يوارى فى الثرى جسمانى
والكائنات تهتف ههنا مثوى غريبٍ من بنى الإنسان

فالشاعر يجعل مظاهر الطبيعة هنا – كما نرى – تتجاوب مع حالته النفسية ، وتُعبِّر عن مشاعره الذاتية ، حيث تخيلها مخلوقات تُحس به ، وتتجاوب معه ، مما يدل على تجاوبه معها ، واندماجه فيها ذلك الاندماج الذى كان وراءه ، والدافع إليه هنا هو إحساس الشاعر البالغ بالوحشة والاغتراب ، ومن ثم رأيناه قد اعتزل الناس لائذاً بالفرار إلى الطبيعة – بمظاهرها البديعة المتنوعة – مُلتمساً فى ربوعها الألفة والإيناس .. حيث : " يشعر الرومانتيكي: بحاجته إلى الفرار من بيئته ، فيختار لنفسه

بيئة أخرى يحيا فيها بروحه ، ويُحلِّق فى أجوائها بخياله ، ويجد فيما يتصوره من فسيح رحابها متنفساً له ، وعوضاً عما ضاق به من بيئته التى يحيا فيها ، والتى لم يعد له قِبَل باحتمالها ، وفى هذه الهجرة الروحية يجتهد الرومانتيكي فى تصوُّر البيئة التى هام بها ، ولكنه تصوير لا يهمه فيها أن يتحرّى الواقع ، ولكن يهمه أن يُصوِّر مواطن الجمال التى يحلم بها ، ويودُّ لو طارت به أجنحة خياله إليها ؛ ليتم فيها تحرُّره(١) .

"وهذه النشوة بين أحضان الطبيعة هي طابع الرومانتيكيين جميعاً ، وذلك أنَّ من مبادئهم حبّ الخلوة ، واعتزال الناس ؛ لأن المجتماعات مباءة ، ومثار للمشكلات ، وعبء على ذوى النفوس الرقيقة الشعور "(٢) .

حيث تشيع فى نتاج الرومانسيين تلك الظاهرة التى تتمثل فى : " إحساسهم بوطأة الحياة والناس ، وتمنِّيهم أمنيات خيالية تنأى بهم إلى عالم جميل من السلام أو الحرية أو الجمال.. وهي أمنيات مألوفة فى الشعر الرومانسي ، وفى الشعر العربي الوجداني يتلمس الشاعر فيها هذه المعاني فى آفاق الطبيعة ومشاهدها ، ويتخذ من بعض عناصر الطبيعة، وأحيائها رموزاً لها : كالطير، والريح ،والموج ،والشعاع ،والفراش .. وغيرها مما يوحى بالحرية والانطلاق والسلام والجمال .. " (٣).

ولعل هذا الكلام يتحقق عند شاعرنا صان الدِّين فى تجربته هذه ، حيث غدا بها واحداً من الشعراء الرومانسيين ، وذلك بعد أن بنى لنفسه هنا : " عالماً من أغصان الطبيعة ، وأشجارها، وأزهارها يأوى إليه ، ويرتاح فيه مع أصدقائه ، وبنى

---

(١) الرومانتيكية : د/ محمد غنيمى هلال– صـ ٧٨ .
(٢)الرومانتيكية : د/ محمد غنيمى هلال – صـ ١٥٣ .
(٣) الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر : د/عبدالقادر القط – صـ ٢٤٠ .

جنسه الحقيقيين – كما يعتقد– " الطيور ، وعناصر الطبيعة فى مُجملها " ؛ لأنه فــى عالمه المادي يُحسُّ بالغربة والوحشة حتى من نفسه ، فيحيا بذلك بعيداً عن الناس فى برجه العالي ، مُنفصلاً عن مجتمعه نفسياً ؛ لاعتقاده أنه يحمل روحــاً أســمى ممــن يعيشون حوله ، تلك الرُّوح التى تحمل رسالة مثالية ، ولا يتم له القيام بهذه الرســالة على خير وجه إلا فى عزلته " (١) .. [مُشبهاً بذلك الشعراء الرومانسيين] .

وفى قصيدته ذات العنوان الدال :" حكمة طائر " يُجرى صان الدِّين الحكمــة على لسان ذلك الطائر ، حيث يعقد خلالها حواراً ، ويقيم موازنة بينه وبين العصفور ، مُغبطاً إياه فيما يحياه من حياة – ظاهرهــا – فيــه الراحــة والأمــان ، والدَّعَــة والاطمئنان ، حيث يبدو العصفور لشاعرنا – وقد نَعِم هانئا بالحياة ، بــين الجــداول الرقراقة ، والأزاهر الفوَّاحة ، يرعى فى المروج المُمرعات التى تموج بالخصــب ، وتفيض بالنماء .. شادياً للحياة فى تفاؤل وأمل ، ومُردِّداً أنغامه الساحرة مــن فــوق الأيك فى تلك المروج ، وهنا يؤكد الشاعر ما يهنأ فيه العصفور مــن عــيش وادع ، وحياة ناعمة له فيها كل ما يأمله ويتمناه .. فقد سُخِر له الروض والفضاء ، والظِــل والماء ، والأشجار والأغصان ، يمرح بينها غادياً ورائحاً فى دعة وأمان ، ويئــوب وادعاً إلى بيته ، آمناً فيه من عاديات الأيام ، ومُغيرات الليالى ، إذ لا خــوف عليــه من طامع ، أو غادر ، أو جائر ، أو حانق .. ها هو ذا صان الدِّين يحسد عصــفوره هذا– فيما يهنأ فيه ، وينعم من حياة ناعمة وادعة ، وعيشة هانئــة مرحــة .. حيــث يقول :

---

(١) ينظر فى ذلك : الرومانتيكية :د/ محمد غنيمي هلال – صــ ١٥١ ، وينظر أيضاً : الطبيعة الرومانسية فى الشعر العربي الحديث : د/ أحمد عوين – صــ ٧٣ .

قد قلت للعصفور وهو يرف بيـــــ ـــن جـداول رقراقـة وأزاهـر
فوق المروج الممرعات الفيح يشـ ـدو للحياة وللصباح الناضر
ويُردِّد الأنغام سـاحرة الصَّدى من فوق عرش الأيك عفو الخاطر
يهنيك يا عصفور عيش ناعـم لك فيه ما يهوى خيال الشـاعر!!
إن الفضاء مسخر لك فى مدى الأفـ ـق المدبج بالضـياء البـاهر
والروض مِلكك والغصون المثـ قلات الحانيات على الغدير الزاخر
والظِلّ والماء النمير وبسـمة إلا صباح فى بهو الوجود السـاحر
تغدو به وتروح حُـراً آمنـاً كالحلم كالطيف الجميل العـابر
فإذا أجن الليل تـأوى هانئـاً كالطفل فى دعة وسكر مشـاعر
مُستعصماً فى دوحة شماء يقـ صر عن مداها كل خب جـائر
ترعاك فى مهـد يُظلله الكـرى أحداق نجم فى الدياجى سـاهر!
فى مأمن من عاديـات مخـاتل أو طامعٍ أو شـانئٍ أو غـادر(١)

وكأنى بالشاعر– فى حسده ذلك العصفور على ما ينعم فيه من حيـاة ملؤهـا الراحة والهناءة ، والدَّعة والانطلاق .. كأنى به فى ذلك يتمنى أن ينعم بحياته مثـل ذلك العصفور .. حيث تبدو حياة ذلك العصفور – فى ظاهرهـا – مفعمـة بالحريـة والدّعة والسعادة ، وخالية مما يُعكر صفوها، ويذهب بِدَعَتِها وهناءتها – وذلك كمـا يبدو فى مخيلة الشاعر .. لكن ذلك العصفور يقف من شـاعرنا موقـف الفيلسـوف الحكيم .. حيث يُدلى بين يديه بتأملاته فى عالم الإنسان فى تعجب ، وإشـفاق – إزاء

(١) ديوان : أعاصير وأنسام –صـ ٤٤ ، ٤٥ ، والمُمرعات : المُخصبات ، والفُيَّح : العطرة الواسعة ، والأيك : الشجر الكثير الملتفّ ، والمُدَّبج : المنقوش المُزيَّن ، والبهو : المُتَّسع .

منهج الإنسان ، وأسلوب عيشه فى الحياة ، حيث يراه يحيا فيها مُتخبطـاً كالضـرير العاثر ، ويعيش فيها مترنحاً بعزم خائر ، ويشرد ويضل فيها بفكر قاصر ، ويلهـث وراء حُطامها الزائل ، ويجرى خلف متاعها الفانى ، فيهوى ويسقط مـن ثـم إلـى الحضيض الغائر ، مُنخدعاً فى ذلك ببريق الحياة الزائف ، وزيفها الخادع ، مُتغـافلاً عن لُبابها ، مُولعاً ومُغرماً بسفاسفها ، لافتاً -أي الطائر- أنظار الشاعر إلى مـا قـد يكون غاب عن فكره من جوانب فى حياة ذلك الطائر – تلك التى يحسده عليها – فى مجموعها .. حيث لم تسلم حياة ذلك العصفور من المهالك والأخطار التـى تحيـق ، وتحدق به بين الحين والآخر ، سواء من حبائل الصياد ، أو فخ الصبي العابـث ، أو تقويض ذلك البيت : " العُش" ، أو انقضاض الصقر ، أو زحف الأفاعى ، أو زمجرة العواصف ، أو هول الرعد الماطر؛ مما يقض مضجعه فى رهيب الـدياجر، ويُقلـق ساكنه ، ويذهب بدعته وهناءته .. لكنه مع إشراقة الصُبح ، وانبلاج النور سرعان ما ينسى ما حدث له فى ليلته الليلاء هذه .. غير عابئ لما سيحدث له فـى الغـدِّ ، ولا مهموم به .. ولا لاهثٍ خلف الأمانى الزائلة ، ولا نادم على الآمال الغائبة .. فهو – أي العصفور – يعيش فى حدود يومه لا يتجاوزه إلى غيره .. مُـذعناً ، ومُستسـلماً لمشيئة ربِّه ، وإرادة خالقه- سبحانه -فى رحلة حياته .. ممّا جعـل الشـاعر يقـف مُعجباً مشدوها من طائره الفيلسوف الحكيم هذا فيما أودعه بين يديـه مـن تجـارب وخبرات تُنبئ عن قصور فهمه وإدراكه .. ها هو ذا صان الدِّين يتحدث على لسـان عصفوره- هذا الذى وقف منه موقـف الحكـيم المُعلِّـم ، والفيلسـوف المُجـرِّب ، والمُصلح المُقوِّم .. حيث يقول:

فأجابنى العصفور فى سمت الحكيـــ م وفى إشـارة فيلسـوف سـاخر
ورنا إلي وفى وميض عيـــو نه عبرات راثٍ وابتسـامة مـاكر:
ويح ابن آدم فى نضـارة عيـــ شـه يخطو كخطوات الضرير العـاثر؟!

يجتـــاز درب حيـــاته مترنِّـــحاً بِجِبِلَّـــةٍ حيـــرى وعـــزم خـــائر
يشـــقى ويســـعد بالوهـــوم كأنه فـــى رشـــده يحيـــا بفكـــر قاصـــر
ويهيم فى بيـــد الحيـــاة مُضـــلّلاً عـــن روحهـــا ولبابهـــا بالظـــاهر
وهـــو المـــدل بعقـــله وذكـــا ئه وهو المسفُّ إلى الحضـــيض الغـــائر
يا ويحه من جاهـــل مُتعـــــالم كلف بسفســـاف الأمـــور مكـــابر!!

....

ومضيت أرهف مسمعـــــى لحديـــ ـــثه ومضى يخاطبنى بعين محاذر
قف يا وعاء الحُمق واسمع إنّنـــى أُفضى إليك بخبرتي وسرائرى كم ذا
أُلاقـــى فى حيـــاتى مزعجـــــاً وأمرُّ بين فجاجها بمخاطر
أجتاز فى وضح النهار حبائل الصـــ ـياد أوفخَّ الصبي الهاذر
ويُقوِّض الأطفال عُشـــي عُنـــوة فأعود أبنيه بعزم مثابر
وأبيت أحلمُ بانقضاض الصقـــر أو زحف الأفاعى فى رهيب دياجر
وتقض زمجرة العواصف مضجعى ويهولنى رعد السحاب الماطر
حتَّى إذا ولى الظـــلام بهـــوله وبدت تباشير الصباح السافر
أشدو وأرقصُ مغفلاً ما كـــان أو سيكون فى الكون الرحيب الهادر
لا أركضن خلف الأمانـــــى لاهثا كلا ولا أبكى رحيق الغابر
إن الحياة كما أُحِسُّ بفطـــــرتى أفراح يوم وانتهازة حاضر
خذها كمـــا شـــاء الإله مطيّةً فى رحلة أو واحة لمسافر
فوقفت مشدوه المشـــاعر خاشعاً متعجباً أُصغى لحكمـــه طـــائر(١)

وفى مناجاة الشاعر للطائر ، وتوحُّده معه ، واندماجـــه فيـــه ، ومحاورتـــه واشراكه إياه فى مشاعره هنا أثر من آثار الرومانسية ، وملمح من ملامح شـــعرائها

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٤٥ ٤٦ ، ٤٧ .

.. حيث يكثر الشعراء الرومانسيون من مناجاة الطيور ، حتى إنهم يجعلونها تُشاركهم عواطفهم، وتقاسمهم أحاسيسهم .. وتلك السمة موجودة فى الشعر العربي فى عصوره الزاهية .. ومن ذلك قول أبى فراس الحمداني – حين سمع حمامة تنوح على شجرة مُترنمة بأشجى الألحان –وهو فى أثناء أسره يُعانى محنة القيد ، ويُقاسى ويلات الغربة ، وغياهب السجن .. يهيب بها أن تُقاسمه أحزانه ، وتُشاطره آلامه ، فى الوقت الذى يهيب فيه بنفسه أيضاً أن تشارك تلك الحمامة أحزانها ، وتُشاطرها آلامها ، حيث تتحقق بينهما تلك المشاركة الوجدانية :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة ... أياجارتا هل تشعرين بحالى؟!
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ... ولا خطرت منك الهموم ببالى!!
أتحمل محزون الفؤاد قوادم ... على غُصن نائى المسافة عالى
أيا جارتا، ما أنصف الدَّهرُ بيننا ... تعالي أقاسمك الهموم تعالى
أيضحك مأسور وتبكى طليقة ... ويسكت محزون ويندب سالى؟!
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ... ولكن دمعى فى الحوادث غالى(١)

ويبدو أن شاعرنا كان مُولعاً ، ومُغرماً بالطبيعة بعامة ، والطيور بخاصة .. حيث نراه فى قصيدته : " صمت الطيور " يُسائلها مُتعجباً لِمَ لِمَ تعد تشدو وتُحلِّق فى البكور ؟! حيث يشاهدها وقد ركنت للصمت الرهيب ؟! واستسلمت للحزين الدفين ، فتوقفت من ثم عن الشدو ، وعن التحليق !! .. تُرى ماذا حدث لها ؟! لقد كان الشاعر يعهدها تملأ الدنيا شدواً

(١) ديوان: أبى فراس الحمداني – صـ ٢٣٨ – ط – صادر بيروت – د.ت .

بألحان السرور ، وتنتقل فى مرح وفرح بين الخمائل والجداول والجسور ، وتلثم مع الصباح رحيق الزهور ، وتبادل الشمس فى حركتها الفرحة والسرور .. حتى إذا جنَّ الظلام ، وأرخى الليل على الكون الستور تأوى فى دعة وأمان ، ودفء ووئام، إلى حيث مضجعها الوثير ، وعشها الصغير ، فتنام فيه هانئة نومة الطفل الغرير .. تُرى ماذا دهاها؟! ، ولماذا آثرت الصمت ؟! فتوقفت عن الشدو والتغريد .. ولماذا بقي الهزار فى روضه لم يغادره؟! .. ماذا دهاها فصارت حزينة الفؤاد ، كسيرة الجناح ، حيث استحال المرح والسرور إلى ألم وحزن وأنين .. هيا بنا نُسائل الطيور مع شاعرنا – خلال تجربته تلك ، حيث يقول :

لِمَ لم تُغنى يا طيور ... لم لا تطيرى فى البكور ؟!
مالى أراك قد انطويت ... فلا رفيف ولا ظهور؟!
وركنت للصمت الحزين ... وأنَّه القلب الحسير!
إنِّى عهدتك تصدحين ... بكل ألحان السرور!
وترفرفين على الخمائل ... والجداول والجسور!
وتغازلين مع الصَّباح ... فتَّان الزهور!
وتبادلين الشمس فى ... سبحاتها كأس الحبور!
حتى يواريها المساء ... وراء مسدول الستور!
فتحلقِّين على المروج الساجيات ... إلى الوكور!
حيث الوداعة والأمان ودفء ... مضجعك الوثير!

فإذا احتواك العُــــشُّ نمـــ ت كنومـــة الطفـــل الغريـــر!
ماذا دهـــــاك فصـــرت دا ميـــة المـــدامع والشـــعور؟!
وتحـــوَّل المَـــرَحُ الجميـــــ ـــلُ إلى أنيـــنٍ أو زفـــير؟!(١)

وبعد تلك التساؤلات التى تقوم على التعجب والاستغراب من الشاعر للطيور: لم لم تغنى يا طيور؟ لم لا تطيرى فى البكور؟ مالى أراك قـــد انطويـــت ، وركنـــت للصمت الحزين ؟! .. كان لابد وأن يأتيه الجواب منها ، حيث سمع صوتاً ينبعث من بين أنَّاتها ينبئه – وهو الغافل عن حالها- بما جدَّ وطرأ على حياتها؟! قد حَالَ وباعـــد بينها وبين الشدو والتغريد ، والانطلاق والتحليق ، فالروض قد يبس شجره ، والمـــاء قد غاض وقلَّ ونضب من الغدير ، والأرض قد امتلأت بفتاك الأفـــاعى والنمـــور ، والفضاء قد هيمنت عليه ، واستأثرت به أسراب الجوارح والصـــقور ، والأمـــن قـــد اغتالته أنياب الشرور ، وهاهي ذى الأطماع والـــدَّواهي تنـــذر بـــالهلاك والثبـــور ، وتعصف بالجليل ، وبالحقير ، والعيش تحكمه قوانين الغـــاب والغـــرور .. فيتلـــوى ويتضورَّ من ثم فى ظلِّه الضعفاء من الجوع الشديد ، ويقاسون به من الظلم المُغير ، فذوت هناك ووهيت سواجع الطير ، وغدت نحيلة الجسم الصغير .. كل هذا قد أحال حياتى إلى تلك الحال التى ترانى عليها ، حيث رُحت –بعد أن سئمت مـــن الحيـــاة ، وضقت بالأحياء ألتمس الراحة والهناءة ، والأمن والأمان ، والسكينة والاطمئنان فى القبور : " عالم الموتى" ، ورضيت من عيشى بظلٍ خافت بـــين الصـــخور .. أنشـــد القطر الشرود ، وأمضغ العُشب المرير ، وأظل هكذا عيشى راضياً قانعاً حتى يأتينى أجلى ، فأبثّ شكايتى من العباد فى ساحة العدل القدير سبحانه .. ها هـــو ذا صـــان الدِّين يُشير إلى تلك المضامين الرمزية، مُتحدثاً عنها بلسان الطيور ، حيث يقول :

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٥٣ .

فسمعـت صـــوتاً ينبرى مـــن بـــين أنـــات الطيـــور
يا غافـــلاً عمـــا اسـتجد د وذاهـــــلاً عمّـــــا يـــــدور
أنَّـــى أُغــرد أو أنقـــــ قـــر فـــى مجـــالى أو أطيـــر
والروض صوَّح أيكه والــ مـــاء غـــاض مـــن الغـــدير
والأرض قـــد غـــصَّت بفتـــاك الأفـــاعى والنمـــور
والجــو قد ملكتـــه أسرا ب الجـــــوارح والصـــــقور
والأمن فى المأهـــول قد غالتـــــه أنيـــاب الشـــرور
وقـــوارع الأصـــوات تنـــ ذر بـــــالبوائق والثبـــــور
والقـــوة الهوجـــاء تعـــ صـــف بالجليـــل وبـــالحقير
والعيش تحكمـــه قوانيـــ ن المخالـــــب والغـــــرور
والأمـــر أمـــر الجاثميـــ ن علـــى الجمـــاجم والصـدور
فتضورَّ الضعـــاف تحـــ ت مطـــارق الظلـــم المُغيـــر
وسواجع الطيـــر الوديـــ ع نحيلـــة الجســـم الصـــغير
هـــذى هـــي الدنـــيا كما وضـــحت لأعمـــى أو بصـــير
فلجأت ألتمـــس السكيـــ نـــة والأمـــان إلـــى القبـــور
وقنعت من عيشـــى بظلـــ لٍ شـــاحبٍ بـــين الصـــخور
أتســـقط القطـــرَ الشرو د وأمضـــغ العُشـــب المريـــر
حتَّى يوافينى الحِمَامُ وألـــ فـــظ الـــنَّفَسَ الأخيـــر
وتطير أجنحـــة المـــلا ئـــك بـــى إلـــى خُلـــدِ المصـــير
فأبـــث ثمَّ شكـــايتـــى فى ســـــاحة العَـــدل القـــدير(١)

---

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـــ ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

وغير بعيد أنَّ الشاعر يتخذ من صمت الطيور هنا معادلاً موضوعياً لذاته المثقلة بآلام الغربة النفسية عن مجتمعه وبيئته ، ونفسه المُترعة بأوجاع التصادم مع واقع الحياة المُتجهِّم ، ومظاهر العيش القاسى ، المائج بالسلبيات والمتناقضات ،حيث يُسقط حالته الشعورية والنفسية على الطائر – خلال تلك التجربة ، ساكباً مشاعره الشاجية ، ومُفرغاً أحاسيسه تلك على الطائر ، ومتحدثاً بلسانه – مثلما هو عند الشعراء الرومانسيين ، مصوراً فى ذلك تصادمه بالمجتمع ، مُجسِّداً غربته النفسية عنه ، وفراره منه ، وإيثار العزلة ، واعتزال الناس .. حيث رمز صان الدِّين بتلك الطيور هنا عن نفسه الحزينة ، ومشاعره الأليمة إزاء ما يرى ويشاهد من عجائب ومتناقضات.

ولعلَّ الطيور قد أجابت الشاعر بهذا الكلام عن حقيقة صمتها ، وانزوائها ، وسبب توقفها عن الشدو والتغريد ، والانطلاق والتحليق .. حيث كان ذلك منها أثراً من آثار شعورها هي والشاعر بالغربة النفسية عن المجتمع والبيئة ، واصطدامها بهذا الواقع ذى الوجه القاتم ، المائج بالأوضار والمفاسد .. ومن ثم فقد آثرت " الطير " الشاعر العزلة ، ولاذت بالهروب ، مُؤثرة السلامة والأمان ، والهناءة والاستقرار .

وجدانيات متفرقة:

هذا وينضم إلى تلك الأبعاد الفكرية التى شملتها تجربة صان الدِّين الوجدانية التى عالجتها صفحات هذا المبحث من الدراسة .. ينضمَّ إلى تلك الأبعاد الفكرية ما ذكرته ، وأشرت إليه فى أثناء حديثى عن حياة وإبداع شاعرنا صان الدِّين .. حيث رأيه فى الشعر والإبداع المنطلق فيه من الالتزام بالتصور الإسلامي الراشد الحكيم للإنسان والكون والحياة ، حيث يبغى فى شعره الحق والصدق ، وينشد السمو والرقي والطُّهر والعلوّ ، ويربأ فيه بنفسه عن الباطل والكذب ، والضعة والإسفاف والتدنِّى والفُحش والسقوط والخلاعة والمجون ؛ وذلك لأنه يعلم يقيناً أنه مسئول عمّا يبدع ، وموقوف بين يدي الله سبحانه للسؤال على نحو ما يبدو جليا فى قوله يوقفنا على فلسفته فى الشعر والفن ، وانتصاره فيه لدينه وعقيدته ، مؤكداً أن ذلك الإبداع الملتزم الذى يأتى بخير هو الذى يمكن أن نطلق عليه

صفة الفن والإبداع ، لا غيره من السفاسف والترهُّات والأكاذيب والأباطيل – تلك التى يتبناها أدعياء الفن ، وأقزام المبدعين – ممن سقمت طباعهم ، وشذت أذواقهم ، وسفلت أنفسهم ، وتدنت مشاعرهم ، وهوت أحاسيسهم :

يا شعر .. إن لم تنتصر لعقيدتى ... وتجهر بها فى الناس كنت عقيما
وإن أنت بالأنغام لم تُعل عندهم ... عواطف دنيا كنت منك سقيما
رأيتك عند القانتين لربهم ... ملاكاً ، وعند الغافلين رجيما
ونظَّام هُجر القول ليس بشاعر ... وإن هزّ أعطافاً وصاغ نجوما
سمو المعانى فى القريض منابع ... تفيض بجدباء النفوس نعيما
وتُضفى على الدنيا بهاءً ورونقاً ... يضيئان من قُدس الجلال حُلوما
لهذا جعلت الشعر ناياً أبثه ... ترانيم قلب لا يزال صميما
تزوايق شيطان الهوى لم تمل به ... وهل يستميل الغيّ قط سليما
يرى أن قول المرء فى كل حالة ... يصير بديوان السماء رقيما
ومن يحظ بالذوق الرفيع فإنه ... يكون لسفساف القريض خصيما
فلا كان فن بالمجون مزخرفاً ... ولا كان شعرُ يستبيح حريما!!(١)

وأيضاً ما أشرت إليه هناك فيما حدث له فى أثناء مرحلة من عمره ، حيث هجر عالم الشعر ، وترك دنيا القريض .. ليئوب – لا محالة – إلى الشدو والتغريد بالشعر ، ويلج عالم الإبداع ، ويطرق بابه مرة ثانية بعد أن ألحَّ عليه داعى الشعر ، واشتاق إليه لُبُّه ، ونزعت وتاقت إليه نفسه .. وهو – أي شاعرنا – كما ذكرت – فى هذه التجارب يُودع آراءه فى الفن: "الشعر" ، وفلسفته فى الإبداع .. واجداً فى ذلك الخلِّ الوفي ، والصديق الحنون حياته وهناءته .. حيث يتغنى قائلاً :

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٢١ ، ٢٢ .

أنا فى دوحة الدنيا هزار وهل يحيا الهزاربلا أغان؟![١]

هذا بجانب تجارب شاعرنا – تلك التى أودع خلالها فلسفته فى الحُبِّ والهوى ، وجسَّد – خلالها– طبيعة نظرته إلى المرأة – تلك التى تقوم على العفة والطهر والرُّقي والسّموِّ على نحو ما ورد ذكره ، وسبقت معالجته من تجارب للشاعر فى المرأة فى أثناء الحديث عن تأمُّله فى عالم حواء ، كفكرة بين أفكار الشاعر الرئيسة التى تنتظمها تجربته الوجدانية .. حيث كانت نظرته إلى المرأة تنطلق من خلال قوله عنها :

هل أنتِ إلا قطعة منّـ نـِى استقلَّت عن كيانى
ما زلت أبحث عنـ ك فى كل الأماكن والزمان
لا يعرف القلب السكيـ نة إن نايت عن العيان
لكننى أبغيك يا حواء عالية المكان
لا .. لا أُحبك سلعة معروضة للمشترينا
أودمية تُطلى لتحلو فى عيون الناظرينا
أو تنزلين السوق فى قيظ الحياة تزاحمينا
فالسوق يا حسناء تعـ رك فى رحاها المرهفينا
بل أنت للعرش الممر رد فى سمائك تأمرينا [٢]

وتبدو تلك النظرة السامية الراقية من الشاعر إزاء المرأة أيضاً –من خلال انتقاده لهذا المسلك المعيب ، وذلك المنزلق السحيق الذى يهوى ويهبط ويتيه فيه كلّ من حادوا عن الهدى ، وزاغوا عن الرشاد من أدعياء الفن الذين غدا كل همهم التشبيب بالنساء ، وإطالة الوصف فى المستور من تحت الكساء ، ظانين وواهمين أن ذلك باسم الفن ، وتحت مظلة الإبداع .. والفن والإبداع من ذلك بَرَاءُ ، وأن ذلك لا يعدو سوى هذر وهُـرَاءٍ ، وسخف وهذيان وعبث ، وخدش للحياء :

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٤ ، والدوحة: الشجرة العظيمة ، والهزار : طائر صغير غَرد.
(٢) ديوان: أعاصير وأنسام – صـ ١٧٣ ، الممرّد : القوي المرتفع البناء .

تـــاه عـــن نبـــل ورشـــد مـــــن يُشــــبِّب بالنســــاء
أو يطيل الوصف فى المســ تـــور مـــن تحـــت الكســـاء
باســـم حـــق الفـــن يُلقى عنــــه أســـتار الحيـــاء!!
هل يبيـــح الفـــن والإبـــ داع تكـــدير الصـــفاء؟!
أحقـــر الأقـــوال قـــول نـــال عـــرض الأبريـــاء(١)

وهكذا تقوم نظرة الشاعر للمرأة – خلال تجاربه هنا– بجانب ما سـبق ذكره هناك من تجارب بشأنها حيث الحديث عن تأمله فى عالم المرأة .. هكذا تقوم نظرة صان الدين للمرأة على الحُب المُغلَّف بالاحترام والتقدير ، والمنطلق من خلال العفة والتصون .. حيث بدا خلال تلك التجـارب – كمـا وصـفته الأستاذة الشاعرة جليلة رضا – وهي بصدد إيضاحها لموقفه من المرأة ، حيث تصف نظرته إلى المرأة بأنها : " صراخ رجل ثائر على أوضاعها ، يريد لها الكمال ، ويؤلمه عجزه ، صراخ رجل أقسم منذ عرف الله ألا يجذبه سـحرها الأنثوي ، وألا يصيب قلبه لحظها الفتاك " (٢) .

وكما وصفه الدكتور مصطفى حسين – وهو بمعـرض حديثـه عـن أسلوب الشاعر فى معالجته فى شعره لقضية المرأة المسلمة – ، حيث يقول : " عالج الشاعر قضية المرأة المسلمة بأسلوب يجمـع بـين الإقنـاع الهـادئ ، والإصرار الراسخ ، والشاعرية الشفيفة المقنعة ، يهمـس ويـؤثر ويخاطـب الوجدان مع خطاب العقل المُقنع المُتزن "(٣) .

---

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان – صـــ ٨٤ .
(٢) مجلة القافلة – صـــ ٤٦ .
(٣) مجلة عالم الكتاب – صـــ ١٠٦ .

رحم الله شاعرنا صان الدِّين ، ورضي عنه ، وطيب ثراه !!.

الفصل الثانى

السِّمات الفنية لتجارب صان الدِّين الوجدانية

تتمة للفائدة ، واستكمالاً للحديث ، واستيفاءً لجزئيات الصورة المنشودة عــن عالم صان الدِّين الوجداني .. ، وبعد أن أُميط اللثام ، وكُشف الحجاب عن جانبٍ من ذلك العالم خلال صفحات تلكم الدراسة السابقة .. حيث حديثى عن الجانب الفكــري للتجربة الوجدانية لدى صان الدِّين .. فإننى سأُنقِّب فى الصفحات المقبلة –بــإذن الله تعالى– عن الوجه الآخر لذلك العالم الوجداني لدى الشاعر ، إنه الجانب الفني التــى ستتناول جزئياته صفحات هذا الفصل بالدراسة والتحليل – ذلك الذى يحمل عنــوان: السمات الفنية لتجارب صان الدِّين الوجدانية ، ويتضمن المباحث التالية :

المبحث الأول: بناء القصيدة الوجدانية فى شعر صان الدِّين .

المبحث الثانى : المعجم الشعري فى القصيدة الوجدانية لدى صان الدِّين .

المبحث الثالث : من خصائص التراكيب فى أساليب الشاعر – خلال تجاربه الوجدانية .

المبحث الرابع : من الظواهر البديعية فى الأسلوب – خلال تجارب الشاعر الوجدانية .

المبحث الخامس: الصورة الفنية فى القصيدة الوجدانية لدى صان الدِّين .

المبحث السادس : عاطفة الشاعر – خلال تجاربه الوجدانية .

المبحث السابع: الموسيقى الشعرية– خلال تجارب الشاعر الوجدانية .

وإليك أيُّها القارئ الكريم حديثاً مُسهباً عن تلك السِّمات الفنية التى تتسم بها تجربة صان الدِّين الوجدانية ، مُفصلاً القول فى كل سمة منها ، مُحلِّلاً ومُعلقاً سائلاً ربيِّ– جلَّ وعزّ– التوفيق والسداد .

المبحث الأول

البناء الفني لتجارب صان الدِّين الوجدانية

تكمن قوة وجودة القصيدة الشعرية فى تماسك بنيانها ، وترابط أفكارها ، وانسجام أجزائها ، وتناغم عناصرها ، بحيث تبدو كياناً متلاحماً ، وكُلاًّ متجانساً ، وتغدو أجزاؤها كمثل الجسد الواحد لكل عضوٍ فيه وظيفته ودوره المنوط به .. تلك التى تتمثل فى عنوانها ثم بدايتها ، وما بين أفكارها من حُسن التخلُّص ، وجودة الانتقال ، وأخيراً ختامها الذى لا يقل فى الأهمية والأثر عن مفتتحها .. ومن ثم فقد حظي الحديث عن ذلك البناء الفني للقصيدة باعتناء النقاد والأدباء والباحثين ، وأولوه اهتمامهم ، ولقي عندهم صدى ووجوداً ملحوظاً ، فراحوا يُسلِّطون عليه الأضواء ، ويوردون فى شأنه الأقوال – تلك التى وضعوا خلالها الضوابط والمقاييس التى تتحقق بها قوة وجودة الابتداءات ، والخروج والختام ؛ تنبُّها منهم لبالغ أهميتها ، وعِظَم فائدتها فى إكساب القصيدة الشعرية صفات القوة والجودة والحُسن والبراعة ، فتأتى القصيدة – من ثم – قوية جيدة لها من التأثير والنفاذ فى المتلقين مالها! ، مُهيبين – أي هؤلاء النقاد – من خلال حديثهم عن تلك الضوابط – الشعراء أن يحرصوا على تحقيقها ، والالتزام بها – وهم يشرعون فى خلق وإبداع قصائدهم .. " فقد عُني النقاد العرب بالبناء العام للقصيدة ، وكان لهم اتجاه نظري واضح فى تحديد شكل القصيدة البنائي ، من حيث الوحدة اللفظية والمعنوية والنسق الخاص الذى

تخضع له فى البدء والختام ، والتنقل بين الأغراض المختلفة التى تحتويها القصيدة الواحدة ".(١)

" واستحسن البلاغيون والنقاد التأنق والبراعة فى ثلاثة مواضع من القصيدة، ونظروا إليها نظرة خاصة ، وأوصوا بالاهتمام بشأنها حتى تكون أعذب لفظاً ، وأحسن سبكاً ، وأصحَّ معنى ، وأعمق أثراً ، وأبقى ذكراً .. وتلك المواضع الثلاثة هي: المطلع ، التخلص ، الختام " (٢) .

ولا ريب فى أن الشاعر المُوفق هو من يبيت : " يُفكِّرُ طويلاً فى منهج قصيدته ، وفى الأثر الذى يريد أن يُحدثه فى سامعيه وفى الأجزاء التى تتدرج فى إحداث هذا الأثر ، بحيث يتمشى مع بنية القصيدة – بوصفها وحدة حية "(٣) .

وانطلاقاً من الكلام السابق فإن صفحات هذا المبحث القادمة ستُفصح –بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه– عن مدى توفيق صان الدِّين فى اختياره عناوين قصائده ، وصُنعه لمطالعه وخواتيمه ، وتنقُّله بين أغراضه ، وخروجه عن مضامينه – خلال قصائده التى تسبح فى فلك تجربته الوجدانية .. كما ستجلِّى تلكم الصفحات بإذن الله وبتوفيقه سبحانه – مدى الترابط العضوي بين أفكار وموضوعات وأغراض الشاعر – خلال قصيدته الوجدانية ، ومدى تحقق ذلك التسلسل والتتابع المنطقي الذى يؤدي

---

(١) نظرية الشعر فى النقد العربي القديم د/ عبد الفتاح عثمان – صـ ٢١١ – ط مكتبة الشباب بالمنيرة – ١٩٨١م .

(٢) ينظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة – الشيخ :عبد المتعال الصعيدي – ج٤ – صـ ١٣٠، ١٣١ ، طبعة مكتبة الآداب – ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

(٣) النقد الأدبي الحديث د/محمد غنيمى هلال – صـ ٣٧٣ – ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٧م.

فى النهاية إلى الإسهام فى توافر الوحدة فيه ، وأخيراً مدى تحقق وحدة الموضـوع ، وعدم تعدُّده داخل القصيدة الوجدانية فى شعر صان الدِّين – رحمه الله تعالى ..

أولاً: مكوِّنات القصيدة الوجدانية الصَّانية من عناوين ، ومطالع ، وحسن تخلص ، وخواتيم.

أ- العناوين :

عنوان القصيدة هو مفتاحها ، ودليل القارئ إليها ، وهو المؤشر الذى يـومئ بمضمونها ، ويشى بغرضها .. " وعنوان القصيدة المعاصـرة لبنـة فـى صـرحها الشامخ ، وإن شئت فقل : هو حجرُ الأساس الذى يقوم عليه معمار القصيدة " (١).

وهو – أي العنوان- الضوء الكاشف .. والدليل الهادي الـذى يُجمـل فيـه الشاعر ما سوف يُفصِّل فيه القول طيلة قصيدته بعد ذلك ، فلاشك فى أن العنوان هو الوسيط الحقيقي بين المُتلقِّي والمُبدع ، وهو يحمل دفقة شعورية لا تنفصل بحال عـن مضامين التجارب (٢).

ومن ثم فهو- أي العنوان: " يحمل دلالة ذات قيمة فنية فى النص الشـعري (٣). كما أنه : أي المطلع " يُقدِّم الرؤية الأولى لعالم النص وتجلياته ، ويرمـز إلـى المفتاح المفضى إلى فهمه "(١) .

---

(١) التجربة الإبداعية فى ضوء النقد الحديث: د/صابر عبد الدايم يونس – صـ ١٥٧ – الطبعة الثانية ٢٠٠٨م .

(٢) ينظر : تأملات نقدية فى قصيدة : أين الطريق إليك ؟ إبداع د/ صابر عبد الدايم – عرض وتحليل: د/ حسن عطيه أحمد طاحون – صـ ١٥ – بتصرف – ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م .

(٣) البناء فى شعر عمر أبو ريشة – صـ ٤١ – رسالة ماجستير : للباحث محمد خالد عواد مخطوطة فى مكتبة كلية الآداب والعلوم – جامعة الشرق الأوسط .

وتنبُّهاً من النقاد المعاصرين لأهمية العنوان ، وإدراكاً منهم لبالغ أثـره فـى القصيدة اهتمت النصوص الأدبية الحديثة بوضع مفاتيح ومعالم لهذه العتبات النصـية قبل الولوج داخل النص ؛ لتحقيق ذلك التواصل المتبادل بين النصِّ وفاتحتـه ، إلا أن بعض التطبيقات الأسلوبية الحديثة أهملت فى معظمها هذا الجانب ، وغاصـت فـى جسد النص دون الالتفات إلى مداخله ، ومنها : العنوان ، وما يؤدي إلى إهمال أحـد المفاتيح المهمة للنص ، أو عتباته الأساسية وهي الفاتحة النصية " (٢) .

ومن ثم فلا يحسن إغفال العنوان ، ولا يجمل إهماله حيـث إنِّ :" الحـرص على وضع العنوان يدل على وعي الشاعر بأن تجربته تدور حول قضية ما ؛ لـذلك يبرزها العنوان بشكل مباشر، أو رمزي " (٣) .

ونحن فى غنى عن التأكيد على أن كاتب العمل قد أعطى كتابة عنوانـه مـا أعطاه للعمل من عناية واهتمام.(٤)

والشاعر المجيد هو الذي يجعل عنوان قصيدته متصلاً اتصالاً وثيقاً بمطلعها، ومتنها ، وختامها .. تُرى ما حال شاعرنا صان الدِّين إزاء اختيار ، وصَوغ عناوين قصائده الوجدانية .. هل كان ممن وُفق فى اختيارها ، ونجح فى صياغتها ؟ أم أنـه

---

(١) مدخل إلى دراسة العنوان فى الشعر السعودي : عبد الله بن سليم الرشيد ، صـ ٢٣ – الطبعة الأولى – ط نادي القصيم الأدبي – بريدة – الطبعة الأولى – ٢٠٠٨م.

(٢) قراءات فى مناهج الدراسات الأدبية :د/ حسن الواد – صـ ٩١ – ط سراس للنشر – تونس – الطبعة الأولى – ١٩٨٥.

(٣) مدخل إلى دراسة العنوان فى الشعر السعودي: عبد الله بن سليم الرشيد – صـ ١٨.

(٤) العنوان وسيمو طيقا الاتصال الأدبي : د/محمد فكرى الجزار صـ ٧ – الهيئة العامة للكتاب – ٢٠٠٦م .

اخفق فى بعضها .. هذا ما ستكشف عنه السطور المقبلة بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه سبحانه .

وقبل أن أدلف إلى الحديث عن عناوين الشاعر – خلال قصائده الوجدانية أشير إلى ما قام به أحد الباحثين المعاصرين من دراسة استقصى خلالها عدة عناوين ، حيث وجدها تنحصر فى ثلاثة عشر نوعاً – تقريباً- بناءً على اطلاعه ، واستقرائه .. وقد جاءت على النحو التالى :

١- العنوان : الاسم ، ٢- العنوان : المطلع أو الخاتمة ، ٣- العنوان البيت أو الشطر من القصيدة ، ٤- العنوان : الوزن ، ٥- العنوان :الوصف ، ٦- العنوان : الانشاء ، ٧- العنوان : البديع ، ٨- العنوان: الاقتباس والتضمين ، ٩- العنوان: التأمل ، ١٠- العنوان : الرمز ،١١ - العنوان: الصورة ، ١٢- العنوان: القصيدة . العنوان: الصمت .. وهو ما يُشار إليه بعلامة الحذف (...) أو علامة استفهام ، أو علامة تعجب .. أو نحو ذلك " [(١)].

وهذا الحصر وإن كانت تعوزه الدقة والاستقصاء ، حيث يزيد الشعراء على تلك العناوين ، إلا أنه يُعطينا تصوراً كبيراً عن طبيعة عناوين القصائد ، وصوغ الشعراء لها .

---

(١) ينظر : كتاب : مدخل إلى دراسة العنوان فى الشعر السعودي :د/عبد الله بن سليم الرشيد صـ ٢٣-٥٣ .. ط النادي الأدبي – القصيم ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، وينظر مقال بعنوان: تأملات نقدية فى قصيدة : أين الطريق إليك" للشاعر الدكتور / صابر عبد الدايم .. عرض وتحليل د/ حسن عطيه أحمد طاحون صـ ١٦ ، ١٧ – بحث مستل من مجله كلية اللغة العربية – فرع جامعة الأزهر بالزقازيق – العدد الخامس والثلاثون – ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م .

وشاعرنا صان الدِّين وبعد وقوفى على عناوين قصائده الوجدانية تبين لي وعيه التام إزاء اختيار عناوين قصائده ، وحرصه الشديد على أن تكون عناوينه ذات صلة وثيقة ، وعلاقة وشيجة بجوٍّ وطبيعة القصيدة بما تحمله من معانٍ ، وتعالجه من مضامين .. حيث يَشِي العنوان بحال وجو القصيدة ، ويدل المُتلقِّى من أين الطريق إليها ، بعد أن يراها تحمل دفقة شعورية ، وشحنة وجدانية لا تنفصل بحال عما ترد فيه من معان ، وتدل عليه من مضامين ، فتتكشف فى ناظريه من ثم أبعاد التجربة فى القصيدة ، وتتهيأ نفسه لمتابعتها بعد ذلك من خلال التعايش مع مفتتحها ، ثم ما بين أفكارها ومضامينها "متنها" من انتقال منسجم ، ثم مع ختامها فى النهاية ، حيث يمكننى أن أقرر فى قناعة ورضا تامين كيف أن عناوين الشاعر خلال وجدانياته تتسم فى الكثير الهائل منها بالبراعة والجودة.

ويطيب لى فى هذا الصدد أن أورد طائفة من عناوين قصائد الشاعر الوجدانية التى أبدعها فأحسن فيها وأجاد .

والناظر فى قصائد الشاعر خلال تجاربه الوجدانية يمكنه أن يطالع تلك العناوين : "سأشدو"، "حُلمُ شاعر" ، "أزف الرَّحيل" ، "حكمة طائر" ، "صمت الطيور"، "زفرة" ، "حائر" ، "الحنين إلى أرض الكنانة" ، "أشواق مغترب" ، "ورحلت يا أماه" ، "البعث حقيقة" ، "أيتها النفس" ، "الإنسان مُحيَّر" ، "جنوح" ، "الغاية والوسيلة" ، "شعوذة ودجل" ، "ديكور" ، "وما أدراك ما النفس؟" ، "مع حواء" ، "يا قريضى" ، "جمال الكون" .. وغير ذلك من عناوين قصائد صان الدِّين – خلال تجاربه الوجدانية الكثيرة .

ويمكننا حتى يتبين لنا مدى نجاح الشاعر ، وتوفيقه فى اختيار تلك العناوين، وحتى نتعرف إلى مدى كون تلك العناوين تدل على هضم الشاعر لتجاربه

، ووعيه التام لها ، حيث تبدو تلك العناوين من نسيج تجاربه ، وصـــميم أعماقــه .. يمكننا فى هذا الصدد أن نحيا مع بعض تلك العناوين المذكورة – من خلال القصـــائد التى وردت للتعبير عنها ، والدلالة عليها .

فمثلاً عنوان القصيدة الأولى :(سأشدو) من شأنه أن يوقفنا من الوهلة الأولى على طبيعة التجربة هنا ، حيث يؤكد الشاعر من خلال هذا العنوان البليغ الدال بمـا يقوم عليه من صياغة الفعل المضارع الذى يفيد التجدد والاستمرار ، بجانب حــرف السين الذى يدخل عليه هنا ، والذى يؤكد هو الآخــر معنــى التجــدد والاســتمرار والاستقبال .. يؤكد الشاعر من خلال هذا العنوان كيف أنه لا يملك – مـا دام قلبـه ينبض وفؤاده يخفق إلا أن يشدو ، ويترنم ، ويُغرِّد بالشعر .. مهما بـدا لــه ، أمـر هجره : "سأشدو" ، حيث جاء فى التقدمة لهذه القصيدة على لسان الشاعر قوله : فـى مرحلة من العمر هجرتُ الشعر ، ومزقت ما نظمت من أشعار لأسباب ، ولكنى لـم أستطع مقاومة الرغبة فنظمت هذه القصيدة .

وهكذا نرى كيف كان هذا العنوان الموجز الدال موائماً لمطلع القصيدة هنا ، حيث يقول صان الدِّين مؤكداً أن الشعر بالنسبة له هو الحياة والبقاء، وأن عدمه هـو الموت ، والفناء :

أؤفصح أم أموت بما أعانى ... وأمضى بين تيار الزمـــان؟!
وفى قلبي أناشيد عــذاب ... وفى وجدانى أبكار المعانى[(١)]

كما بدا ذلك الاتصال الوثيق ، والترابط الشديد بين هذا العنوان ، وبين مـتن القصيدة هنا ، حيث يقول الشاعر فى وسطها ، مؤكداً ذلك المضمون الــذى يحملـه عنوان القصيدة هنا نفسه ، والمعنى ذاته :

---

(١) ديوان أعاصير وأنسام – صـــ ٣١ .

أنا قيثارة قد أغفلتـــها يد العزّاف إبان الأوان (١)

وتبدو تلك اللُّحمة الشديدة والقرابة الأكيدة كذلك بين هذا العنوان ، وبين ختام القصيدة ، حيث يقول صان الدِّين وقد أقنع المُتلقى وأرضاه ، وروى ظمأه ، وشــفى غليله:

أنا فى دوحة الدُنيا هزار وهل يحيا الهزار بلا أغان؟!(٢)

مما يدل على وعي الشاعر التام بتجربته ، وما يدور حولها ، حيث تختمـــر فكرتها ، ويكتمل موضوعها فى ذهن وفكر ووجدان الشاعر قبل الشروع فى إبداعها ، ومن ثم يبرزها ذلك العنوان إبرازاً مباشراً ، بعد أن غدا لبنة رئيسة فى صرح تلك القصيدة ، وبدا حجر الأساس الذى بنيت عليها التجربة هنا .

والقصيدة الثانية : حُلمُ شاعر " يحمل عنوانهـــا –كمـــا نـــرى – مضـــموناً رومانسياً نحا فيه الشاعر منحى الشعراء الرومانسيين فى إيثارهم للعزلة والفرار من عالم الأحياء العقلاء ، حيث الزيف والخداع ، والفساد والنفاق .. والهروب إلى عـــالم الطبيعة ، حيث الصفاء والنقاء ، والهدوء والارتقاء .. والذى ينظر فـــى التجربـــة " القصيدة" هنا يجدها تدور فيما تدور حول هذا الحُلم الذى طالما تاقت نفـــس الشـــاعر إلى تحقيقه .. حيث المثول بين أحضان الطبيعة ، والتنغم فـــى مرابعهـــا ، والتفيـــؤ بأظلالها ، والتروُّح بأندائها ... والشاعر يشاغلنا بهذا الحلم من أول بيت وحتى آخـــر بيت فى قصيدته ؛ مما يجعلني أقول إن هذا العنوان يُعد بمثابة المفتاح الذى تفتح بـــه مغاليق القصيدة هنا ، وهو حجر الأساس الذى تبنى عليه .. حيث يمثل هذا العنـــوان دفقة شعورية لا تنفصم بحال عن مضمون التجربة هنا : فهـــو أي الشـــاعر يســـتهل قصيدته تلك بقوله ينبئ عن هذا الحُلم :

(١) ديوان أعاصير وأنسام– صـــ ٣١ .

(٢) ديوان أعاصير وأنسام – صـــ ٣٤ .

يا حبذا العيش الوديع بواحة شجراء قد ناءت عن العُمران!!
فى عزلة ما شاهدتها أعيـن أبداً ولا خطرت بها قدمـــان
يُضفى عليها الطهر روعة حُسـ نه فتخالها من جنَّة الرضـوان!(١)

ويسترسل شاعرنا فى الوقوف على حقيقة ذلك الحُلم ، ووصــفه وتجسـيده ، حيث يقول :

وهناك فى حضن السكون أُعِدُّ من سعف النخيل ويابس الأغصان
كوخاً تحف به الزهور ويكتسى بقشيب ظل الدَّوح والأفنـان(٢)

ويختتم الشاعر قصيدته الحالمة تلك بختام من نسيج تلك التجربة بقوله :

فإذا سراج الروح أطفاه الرَّدى والموت أفعـم كأسـه وسـقانى(٣)

..إلى النهاية

وصياغة هذين العنوانين أعنى : العنوان هنا والـذى قبلـه – كمـا نـرى– يحملان صياغة لم يُشر إليها الحصر المذكور هنا ، حيث صيغ الأول صياغة الجملة الفعلية ، بينما صيغ الثانى صياغة الجملة الإضافية.

ونُطالع بعد ذلك قصيدة : " زفرة" ، حيث ذلك العنوان الموجز شديد الإيجـاز الدال المُعبر الذى يمكن أن تنطوى تحته الكثير من المعانى والمضامين – بما يجسده من مشاعر وأحاسيس هي – فى أعماق الشاعر – نفثة مصدور ، وزفـرة مكلـوم ، وصرخة مصدوم ، ودمعة محزون لفحته حرور الحياة ، واتقد فى أعماقه جمرهـا ، واشتعل أوارها ، وامتدت به أحزانها ، وضاقت به فجاجها ، وادلهمت فـى ناظريـه سماؤها ، وفارقته بين الخلائق بسماتها ، وابتعدت عنه ضحكاتها ، وجفَّت فى فـؤاده

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٩ .
(٢)ديوان : أعاصير وأنسام– صـ٣٩ .
(٣) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٤٠ .

ينابيعها ، واستبدت به وحشاتها ، وأظلمت فى نفسه أرجاؤها .. وهنا وبعد أن أدلهمت الحياة ، وأظلمت الدنيا فى ناظري الشاعر فبدا فى صورة اليائس المتشائم ذى العبوس .. مما أصاب عاطفته هنا فى صحتها فبدت مريضة .. على نحو ما ستوضحه الدراسة وتقف معه وقفة متأنية فى مكانه وحينه المناسب بإذن الله وبتوفيقه ، ومهما يكن من أمر هنا فلا ينفى هذا ما يتسم به ذلك العنوان من سمات القوة والجودة والطرافة والإيحاء والإيجاز .. بجانب ما يتضمنه من دفقة شعورية ، وشحنة انفعالية هي من نسيج التجربة ، وهي لُحمتها وسداها .. ففى كل بيت من أبيات هذه القصيدة تقريباً : " زفرة" زفرها الشاعر المصدوم ، ونفثه حارة نفثها وهو المحزون: يقول صان الدِّين :

هذى الحياة نعيمها وشقاؤها أين اختفى عن ناظري بهاؤها؟!
سيَّان عندى حلوها ومريرها إرواؤها فى مهجتى إظماؤها !!
أنسامها لفح السموم يُمضنى وصباحها فى ناظري مساؤها
نعماؤها جمر يُلذِّع خاطرى صاب يدور بمهجتى صهباؤها
ما كنت إلا عند ليباً كاسفاً ضاقت علي فجاجها وسماؤها[(١)]

أريت كيف سرى ذلك العنوان الدّال :"زفرة" فى وجدان التجربة ،وتغلغل فى كيانها ، واستشرى فى أوصالها هنا ، فغدا من نسيجها ، وبات من كيانها .

وفى تجربة وجدانية رامزة بين تجارب شاعرنا نحس بالصمت الرهيب من قِبل الطيور – تلك التى اتخذها الشاعر معادلاً موضوعياً لذاته المثخنة هنا بآلام الحرمان ، ونفسه المترعة بأوجاع الصدام مع واقع الحياة المُتجهِّم ، وعدم الانسجام

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٦ ، ويمضُّنى : يُحرقنى ، والصَّاب : المرّ .

مع ما يموج فيها من متناقضات من شأنها أن يصطدم إزاءها ذوو المشاعر المرهفة ، والأحاسيس الجيَّاشة .. ومن ثم فقد آثر هو والطيور السلامة ، والهناءة ، حيث الصمت والعُزلة عن الناس .. وحيث التوقف عن الشدو والتغريد إلى أن يوافيهما الأجل المحتوم فليفظان نفسيهما الأخير .. نشعر بهذا كله من خلال واحدة من قصائد الشاعر الوجدانية الرقيقة التى وظَّف فيها الطبيعة الحيَّة متمثلة هنا فى الطيور فى تشكيل إحساس رومانسي ، حيث يسقط عليها ما يُحس ويشعر به من غربة نفسية تسبب له حيرة وقلقاً واضطراباً ووجلا ، وعزلة وبُعداً ، وكذا الحال مع الطيور لم تعد تغرِّد أو تحلِّق أو تطير فى البكور ، بعد أن ملك الآفاق أسراب الجوارح والصقور ، والأمن والإيناس قد مضغته أنياب الشرور ، وصار قانون الغاب هو الذائع الشهير ، والعيش تحكمه قوانين المخالب والغرور .. كل ذلك قد حمل الطيور : "الشاعر" على الصمت والعزلة والسكنى فى القبور ، حيث الوداعة والسرور ، والهناءة والحبور ، والرضا بالكفاف وبالقليل ، وتظلُّ الطيور على حالتها هذه حتى يوافيها المصير ، حيث رحاب الملائكة الشهود فى ظل رب عدل ، وساحة ملك قدير

قصيدة الشاعر هذه قد أطلق عليها تلك التسمية الدالة المعبِّرة : " صمت الطيّور" حيث درات التجربة هنا فيما دارت حول هذا الصمت – صفته وحقيقيته –، دواعيه وأسبابه ، مظاهره وسماته .. والعنوان – كما نرى – بدا هو حجر الأساس ، واللبنة الركيزة فى بنيان تلكم القصيدة المعماري: يقول صان الدِّين :

لِمَ لم تُغنى يا طيور ... لم لا تطيري فى البكور؟!
مالى أراك قد انطويـ ... ـت فلا رفيف ولا ظهور؟!
وسكنتِ للصمت الحزيـ ... ـن وأنّه القلب الحسير
إنِّي عهدتك تصدحيـ ... ـن بكل ألحان السرور

وترفرفـــين علـى الخما ئـل والجـداول والجسـور
وتغازلـــين مع الصبـــا ح البكـــر فتَّـــان الزهـــور
وتبادلين الشمـــــس فى ســـبحاتها كـــأس الحبـــور

....

ماذا دهـــاك فصـــرت دا ميـة المـدامع والشـعور؟!
وتحوّل المـــرح الجمـيـــ ـــل إلـى أنـين أو زفيـر
فسمعـت صـــوتاً ينبـرى مــن بــين أنــات الطيــور
يا غافـــلاً عمـــا استجـد د وذاهـــلاً عمـــا يـــدور
أنـــى أغـــرد أو أُنقّـــ قِر فـى مجـالى أو أطيـر؟!
والـــروض صـــوّح أيـــ ـــكه والماء غاض من الغـدير!!
والأرض قـــد غصّـــت بفتّاك الأفـاعى والنمـور!!
والجـــو قـــد ملكته أســ ـــراب الجوارح والصـقور!!
والأمن فى المأهـــول قـد غالتـــه أنيـــاب الشـــرور!!

....

والعيـــش تحكمـــه قوا نـــين المخالـــب والغـــرور!!

....

هـــذى هي الدنـــيا كما وضحت لأعمـى أو بصـير
فلجأتُ ألتمـــس السكيـــ ـــنة والأمـان إلـى القبـور
وقنعت من عيشى بظـلـــ ل شـاحبٍ بـين الصـخور

أتسقِّـــط القطـــــر الشرو د وأمضغ العشــب المريــر
حتــــــى يوافينـــــى الحما م وألفـــظ الـــنفس الأخيــر
وتطــير أجنحـــــــة الملا ئك بى إلــى خلــد المصــير
فأبثّ ثمّ شكــــايتى فـــى ســـــاحة العــدل القديــر (١)

ولنا أن نقف مع كلمة : " جنوح " تلك التى جعلها الشـــاعر عنوانـــاً لإحـــدى قصائده التأملية ، حيث يبدو لمن يطالع تلك القصيدة شدة اتصال عنوانها بمضـــمونها، وما تقوم عليه التجربة فيها .. فهو أي شاعرنا يعرض من خلال تلك القصيدة لقصـــة بدء الخليقة ، وأصل الإنسان .. وكيف أن بعض الناس قد جنحوا للخطأ ، ومالوا عن الصواب ، حين اعتقدوا فى صحة نظرية دارون – تلك التى تشير إلى أن الإنسان قد انحدر من سلالة القرود ، ثم ارتقى بعد ذلك إلى حيث الهيئة التى هو عليهـــا الآن .. مُجلياً – أي شاعرنا– فى القصيدة ذاتها – وجه الصواب فى ذلك الشأن ، منتقداً ذلك الجنوح فى الفكر ، والميل والبعد عن الصواب فى القول به .. فهو أي شاعرنا يشير فى قصيدته هذه إلى الجنوح والميل والخطأ والخطل فى فكرة بدء الخلـــق ، وأصـــل الإنسان هذه:

فيلســـــوف عبقري ماله فى العلــــم ندّ
يرصد الدنيا بفكــــــر ليــس عنـــه ما يندّ
ذاك ما قالـــــوه عنـــ ه فى انبهـــــارِ لا يحدُّ
طالع الدنيا بكشـــفٍ فيه للانســـــان مجد

(١) أعاصير وأنسام – صــ ٥٢-٥٥ ، وصوح أيكه : يبس شجره وتناثر ، وغاض : قل ونضب ، وغصت : امتلأت ، وغالته : قتلته ، وأتسقط : أطلب ، الحمام: الموت ، ثمّ : هناك .

وسرت فى الأرض بشرى	أنّ جدَّ النـــــاس قرد
فكرة طافــت بعقــل	من يقين العلم أفلس
وادَّعى زوراً فريق	أنها فكــر مُقــدَّس
....	....
كان بدء الناس فى الفردو	س من طيــن ومــاء
لا انسلاخاً من ســوا	ه فى نشوء وارتقاء(١)

وهكذا تبدو تلك الكلمة التى وضعها الشاعر عنواناً لقصيدته هذه : " جنــوح" بمثابة الرمز والمفتاح الذى يدل على وعي الشاعر التام بتجربته ، حيث نــرى ذلــك العنوان بكلمته الوحيدة يبرزها ، ويدلُّ عليها بشكل مباشر .

وفى معرض انتقاد الشاعر لمشهد تأمله فى هذه الحيــاة حيــث رأى أناســاً يزينون بيوتهم بتلك المكتبات ذات الأرفف المُذهبة المُحلاّة التــى عملــت فيهــا يــد التنسيق والتنميق ، وقد حفلت بثمين الكتب ، وغصّت بقيِّمها .. كل ذلك لأجل الزينــة : " الديكور" ، حيث يتوارى ما فيها من كنوز العلم الخبيئة ، وثمرات المعرفة المفيدة .. فكل همِّ قانيها ومُجتلبها أن تكون للزهو والديكور فى قصره المشيد .. وشــاعرنا ينتقد هذا التصرُّف ، مُبيناً ما ينبغى ، ويجمل فيه .. حيث يلفت الأنظار إلى الاعتنــاء بالجــــوهر واللُّباب أيضاً ، لا الاعتناء بالمظهر ، والرياش فقط ..

وقد جاء ذلك من خلال قصيدة الشاعر التأملية الناقدة تلك التى تحمل عنوان: " ديكور" تلك الكلمة التى تعنى : الزخرفة والزينة ، ويلحظ قارئهــا كيــف أن هــذا

---

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان– صـــ ٣١ ، والمراد بالفيلسوف ، داروِن مُعتنق ، فكرة النشوء والارتقاء ، وندُّ : مثل ونظير ، ويندُّ : يشرد ويغيب .

العنوان قد غدا حجر الأساس الذى تقوم ويُبنى عليه التجربة هنا ، حيث تنطلق من خلاله ذاهبة نحو تصحيح ذلك المسلك المعيب ، وإيضاح وجه الصواب فى ذلك الشأن .. يقول الشاعر فى قصيدته التأملية الناقدة الساخرة هذه:

فى بيوتٍ مكتبات	**بثمين الكُتب غصَّت**
مُذهبات حاليات	**كالعروس البكر رُفت**
فى رفوف قابعات	**بيد التنسيق رُصّت**
علمها فى جوفها عن	**راغب فى البحث أخفت**
إنها للزهو والدِّيـ	**ـكو فى قصر أُعَدَّت(١)**

ويلحظ ورود كلمة : " الديكور" العنوان فى البيت الأخير خلال الأبيات المذكورة ، مما يمكننا أن نطلق عليه تسمية : العنوان الشطر من البيت .

وأختتم تلك الطائفة من بين العناوين المذكورة خلال التجارب السابقة بذلك العنوان الدال المُشعّ الذى أجمل فيه الشاعر ما فصَّله بعد فى قصيدته .. حيث راح يُعدِّد فى أثنائها مجالى الحُسن ، ومظاهر الجمال ، ومشاهد السِّحر الذى يتوفَّر عليه كون الله سبحانه الفسيح .. فهو – أي شاعرنا– ينتقل فى قصيدته التأملية هذه بين مشهد وآخر من مشاهد الكون الفسيحة الجميلة التى يرى فيها بديع صُنع الله عز وجل ، وتناغم ملكوته .. مما يُشكِّل فى النهاية لوحة جمالية بديعة تنطق بقدرة الله تعالى ، وعلمه المُطلقين .. هذا العنوان الدال المشعّ المُجمل هو :" جمال الكون " وقد اتخذه الشاعر عنواناً لقصيدته التأملية التى قسمها خماسيات ، كل خماسية فيها تكشف عن حسن وجمال وبديع صُنع الله عزَّ وجل من خلال مشهد من المشاهد التى تضمنها هذا

(١) ديوان: الإنسان فى الميزان– صـ ٣٨ ، والديكور : كلمة أعجمية ، تعنى : الزخرفة .

العالم الفسيح .. حيث تنقل صان الدِّين بالحديث بين عالم الطيور ، وعالم النمل ، وعالم النحل ، وعالم الجبال ، وعالم البحار .. وغير ذلك مما يدلُّنا على مدى كون عنوان القصيدة هنا دالاً مُجملاً شاملاً جامعاً متصلاً اتصالاً وثيقاً بمطلعها ومتنها وخاتمتها ، مُفصحاً عن طبيعة التجربة ، مُنبئاً عن أبعادها .. ويطيب لى أن أورد هنا هذه الخماسية بين خماسيات تلك التجربة الإيمانية التأملية حيث يرد فيها جزء من كلمات هذا العنوان:

كم على الدنيا جمال — عبقري لا يُحدُّ
ذا تليد سرمدي — ذا طريف مُستجّد
كل شيء فيه حُسن — فى الوجود الرحب يبدو
يجتليه فى انبهار — من له ذوق ورشدُ
إنه من صُنع رب الـ — خلق إنعام ورفد (١)

ويمكننا فى ضوء الحصر المذكور آنفاً أن نخلع على العنوان هنا : " جمال الكون" تسمية : " العنوان الوصف .

.. وهكذا تتحقق فى عناوين الشاعر فى الكثير الهائل ميها صفات الجودة والحُسن والدقة والإيحاء ؛ مما يدل على وعي الشاعر الشديد بتجربته ، وهضمه التام لها .. حيث تُوحى جُلُّها بالرؤية الأولى للتجربة ، وتصل اتصالاً وثيقاً بمطالع قصائده ومتنها وختامها .. وتغدو هذه العناوين من أهميتها وحيويتها حجر الأساس الذى تبنى عليه القصيدة ، والمحور الرئيس الذى تتمحور حوله ، والمفتاح الذى تفتح به مغاليق النصِّ .

---

(١)الإنسان فى الميزان– صـ ١٢٥، وتليد : قديم ، سرمدى: دائم ، طريف: جديد ، ورفد: عطاء.

ب : المطالع :

حتى يتحقق للمُتلقى عامل التشويق والمتابعة لما تحمله القصيدة من معان ومضامين ، لابُدَّ وأن تكون المطالع –أو مبادئ القصائد –كما يُسمِّيها القدماء آخذة بلبِّ ذلك المُتلقِّى ، مستولية على مجامعه.. وذلك بأن يُوفَّق المبدع فى تجويد مطالعه وإحكامها ، ويجتهد فى تنقيحها وإتقانها .. وإلا غدت مُنفرِّة تجول دون إقبال المُتلقي على القصيدة ولا تُغريه بُمتابعة أفكارها ومضامينها بعد ذلك .. ومن ثم تكمن قيمة المطالع ، وتأتى أهميتها ، ويكون خطرها ، ولم لا وهي – أي المطالع– المقياس الجمالي الأول للقصيدة ، وهي بمثابة الوجه الذى هو أول معالم الجسد للإنسان ، وعنوان الحُسن أو القُبح فيه .. لذا رأينا النقاد فى القديم والحديث يُعنون عناية شديدة بواجهة القصيدة – تلك التى تتمثل فى مطلعها .

فلقد : " عُني نقاد العرب بمطلع القصيدة عناية فائقة ، فطالبوا الشعراء بأن يبذلوا غاية الجهد فى إجادته وإتقانه ، علماً منهم بقوة الأثر الأول فى النفس ، وأنَّه يدفع السامع إلى التنبُّه والإصغاء إن كان جيداً آسراً ، وإلى الفتور والانصراف إن كان ضعيفاً فاترا"(١) .

---

(١) أسس النقد عند العرب : د/أحمد بدوى – صـ ٢٩٧ – ط نهضة مصر – القاهرة – د.ت .

وحتى تُحدث تلك المطالع الأثر المرجو منها يجب على الشـاعر أن تكـون مطالعه : " جزلة ، حسنة المسموع والمفهوم، دالة على غـرض الكـلام ، وجيـزة تامة"(١) .

وقد قبل النقاد من المطالع ما كان بيِّناً واضحاً ، لا غمـوض فيـه ، سـهلة المأخذ ، لا تعقيد فى تركيبه ، ولا صعوبة فى فهم معناه " (٢).

وإذا تحقق فى المطالع تلك الصفات فإنها تصبح ذات نفاذٍ وتأثير إيجابي كبير فى نفس المُتلقى حيث : " تُشوِّق المُتلقى لمتابعة الإبداع الشـعري بصـفة خاصـة، ويحدث هذا إذا كانت المطالع آخذة بالألباب والقلوب" (٣).

وهي _أي المطالع- :" تؤدى وظيفة فنية فى جذب المُتلقى ، وإثارة انتباهـه، وتُمهِّد فى نفس الوقت لموضوع القصيدة ، ومن ثم فإنها (أي المطالع) جزء جوهري فى العمل الشعري تتحقق به الإثارة النفسية المطلوبة ، ويقوى به الارتباط بين سـائر أجزاء القصيدة ، بحيث تغدو كياناً لغوياً مترابطاً " (٤).

ولذا فجدير بالشاعر :" أن يتحرز فى أشعاره ومفتتح أقواله مما يُتطير منـه، ويُستجفى من الكلام ، لاسيما فى القصائد التى تتضمن المدائح والتهانى ، حيـث إن

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : لأبي الحسن حازم القرطاجنى – تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة صـ ٣٠٥ ، ٣٠٦ – ط دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان – الطبعة الثالثة (د.ت) .
(٢) ينظر أسس النقد عند العرب : د/ أحمد أحمد بدوي – صـ ٢٩٧ .
(٣) ينظر مقال بعنوان: تأملات نقدية فى قصيدة :" أين الطريق إليك ؟ للشاعر الدكتور صابر عبدالدايم – عرض وتحليل أ.د/حسن طاحون – صـ ٢٢ .
(٤) نظرية الشعر فى النقد العربي القديم –د/عبد الفتاح عثمان –. صـ ٢٢٨-٢٢٩ .

مطلع القصيدة هو أول ما يقع فى السمع من كلام الشاعر ، لذلك قال بعض الكتاب : أحسنوا معاشر الكُتاب الابتداءات ، فإنهن دلائل البيان" [١].

.. ترى هل وفِّق صان الدِّين فى صنع مطالعه؟ وما مدى توفيقه فى صوغ وإنشاء ابتداءاته فجاءت دالة موحية جاذبة لنفوس القراء والمتلقين ، فاتحة لمغاليق ما ترد فيه من قصائد ، ومعبرة عن شعور صاحبها ووجدانه ، مُكثفة ومُلخِّصة ، وموجِزة لمعانيه ومضامينه ، مؤكدة ما بينها وبين غرض القصيدة من صلة حميمة، وعلاقة وشيجة .

أقول بعد نظرى فى مطالع صان الدِّين خلال قصائده الوجدانية ، ووقوفى على حالها وطبيعتها تبين لى حرص الشاعر الشديد على الاعتناء بمطالعه ، والاهتمام ببداياته فجاءت –فى أغلبها– من النوع الذى يوصف ببراعة الاستهلال بعد أن وفَّر لها الشاعر ما اتفق عليه النقاد ، وأشاروا إليه من خصائص وسمات يتصف بها المطلع الجيِّد ، والاستهلال الرائع ، والبداية البارعة فى كونها جزلة الكلمات ، وجيزة المفردات ، حسنة المسموع والمفهوم ، دالة على غرض الكلام الوجدانية ، مُوشية بجو القصيدة الوجدانية ، منبئة عن طبيعتها .. كما ظهر لى من خلال تفحص مطالعه خلال قصائده الوجدانية أنه يشرع فى أغلب الأحيان فى موضوعه ، ويدلف إلى غرضه من أول بيت فى قصيدته .. حيث لا توجد فى قصائده تقريباً مقدمات ، من مثل تلك التى اعتاد الشعراء ، لاسيما فى العصر الجاهلي استهلال قصائدهم بها من مثل : المقدمة الطللية والخمرية .. وغير ذلك مما ذاع واشتهر آنئذٍ..

---

(١)كتاب الصناعتين :لأبي هلال العسكري صـ ٤٣١- ٤٣٥ بتصرف – تحقيق :على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .ط المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٩هـ .

كما لا توجد فى قصائده فى الكثرة الهائلة منها مثل تلك المقدمات التى تواكب روح العصر ، وتوائم مستجداته .. بل رأيناه يحدثنا عن موضوعه ، ويشرع فى الكلام عنه من أول بيت فى القصيدة .

ولعلّ فى هذا الصنيع دليلاً على ما تتسم به شخصية الشاعر من الوضوح والصراحة ، كما أن فى ذلك مؤشراً إلى هضم الشاعر التام لتجاربه ، ووقوفه العميق على طبيعتها ، وتقصيه التام لأبعادها .. فهي –أي التجربة –تبدو واضحة جلية من خلال مطلعها ، وعند بداية قراءتها ..

والآن أسوق بين يدي القارئ الكريم طائفة من مطالع الشاعر –خلال قصائده الوجدانية ؛ حتى يتسنى لنا الوقوف على حال وطبيعة تلك المطالع ، ومن ثم يمكننا التعرّف على ما تمتاز به من خصائص ومميزات ، وتتسم من ملامح وسمات .

ففى واحدة من قصائد صان الدِّين الوجدانية تلك التى أكد فيها عدم قدرته على التوقف عن الشدو بالشعر والتغريد به ، حيث يُمثل له الحياة والهناءة والانطلاق ، فما يزال قلبه يفيض وينبض بالشعر ، وما يزال وجدانه يمتلأ بينبوعه المتجدد الثرِّ الذى يفيض ولا يغيض .. فى قصيدته "سأشدو" نرى الشاعر يستهلها بهذا الاستهلال الدال المُعبِّر الذى تشى كلماته ، وتنطق مفرداته بحال وجوٍّ ما بصدده الشاعر من موقفٍ ، وما يُعانيه من إحساس .. وما يدبُّ فى أعماقه من صراع ، فلطالما حدثته نفسه ، وأملت عليه أحداث الحياة بأن يهجر الشعر ، ولكنه لم يصمد فى المواجهة ، ولم يستطع المقاومة ، فكان أن أقدم على إبداع تلك القصيدة التى يقول فى مستهلها :

أؤفصح أم أموت بما أُعانى وأمضى بين تيار الزمان ؟

وفى قلبى أناشيد عـــذاب وفى الوجدان أبكار المعانى(١)

وبجانب ما تضمنه هذا المطلع ، وتوافر فيه من كلمـات دالـة ، ومفـردات معبِّرة ، وعبارات ناطقة بمضمون التجربة ، وكاشفة عن لُبها هنا من مثل : أموت.. أعانى .. أمضى بين تيار الزمان .. فى قلبي ، أناشيد ، عذاب .. فى الوجدان أبكـار المعانى .. بجانب تلك الكلمات والتراكيب الدالة نطالع فى مستهل البيت الأول ذلـك الأسلوب الذى ألبسه الشاعر ثياب الاستفهام ، حيث يتساءل قائلاً : أؤفصح – يعنى : أؤنشد ، أو أأغرِّد وأعزف على قيثارة الشعر بأحلى اللحون ، وأعـذب الأنغـام ، أم أموت بما أعانى ؟ حيث لا يخفى ما يدل عليه تساؤل الشاعر هنا ، ويجسده ، بجانب ما تضمنه استهلاله من كلمات دالة وتراكيب مُعبِّرة – لا يخفى ما يدل عليه ويجسـده من التأكيد على مدى ضرورة وأهمية الشعر البالغة بالنسـبة للشـاعر .. فهـو– أي الشدو والتغريد– الحياة بالنسبة له .

فإمَّا أن يُفصح ويُعرب ويعبِّر الشاعر عما فى مكنونه ، ومـا يعـتلج فـى صدره ويمتلأ به قلبه ، ويفيض وجدانه من إحساس ومعاناة ، وإما أن يموت فيظـل الشعر خبيئ صدره ، حبيس وجدانه . حيث تُشتم فى البيت –كمـا تـرى – رائحـة المقابلة بين حالين يتوزعان نفس الشاعر ، ويتناوبان على وجدانه .

ومن المطالع الجيدة ، والبدايات الآسرة ، والافتتاحات المُثيرة التـى يتحقـق فيها براعة الاستهلال ما جاء فى قول صان الدِّين يُجسد ما ينتابـه ، ويُـوخزه مـن مشاعر الحيرة والقلق من أثر إحساسه بالغربة والضياع وهو ماثل بين أهله وذويـه، وثاوٍ فى لداته ومعاصريه :

---

(١) ديوان: أعاصير وأنسام –صـ ٣١ .

يا أولـــى الألبـــاب إنى حـــائر قـــد نـــدَّ حلمـــى
واختفت عنى طريقـــى فـــى غيابـــات الخضـــم
أين شرقى أين غربـــى والسوافى الهوج تعمـــى؟
خبرونى كيف أخطو فى ضـــباب تحـــت غـــيم ؟
فوق شـــوك وصخـــر فى طريق العـــيش تُـــدمى
ضاع أمنى وائتناســـى بـــين غـــيلان ورُقـــم
إنـــى أحـــيا غريـــباً وسط أقرانى وقومـــى(١)

فلنا أن نقف على تلك البداية الآسرة المُثيرة ، حيث تضعنا من أول وهلة فى قلب الحدث ، وتوقفنا على حال وطبيعة وجو التجربة هنا ، وما يسيطر على الشاعر، ويلفه ويكتنفه ويحوطه ويحتويه من مشاعر الحيرة والقلق والغربة والضيق إزاء مـــا يحياه من واقع مليءٍ بالمتناقضات ، حافل بالمفاسد ، مما تصطدم معها نفسه المرهفة ، ومشاعره الرقيقة .. فالشاعر هنا بصدد تعبير عـــن غربـــة نفســـيه يُحـــس بآلامهـــا المُمضة.. ومن ثم رأينا ذلك الافتتاح وقد تضمن ألفاظاً دالة ، وعبـــارات موحيـــة ، وتراكيب بليغة من شأنها أن تجسِّد لنا تلك الغربة النفسية الممضة التى تـــؤلم نفـــس الشاعر ، وتدمى أعماقه.. حيث نطالع فى مستهل البيت الأول أسلوب النداء فى قول الشاعر : يا أولى الألباب.

وفى النداء عادة – دلالة على حيرة المُنادى ، ومؤشر إلى قلقـــة ، والشـــاعر هنا حائر قلق .. وهو لا ينادى أى شخص ، وإنما ينادى العقلاء يخبرهم بأنه حـــائر

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـــ ٥٨ .

قد شرد منه لبه ، وعزب فكره ، وحار عقله .. ودمي قلبه .. وتاهت عنه من ثم طريقه..

حيث تطالعنا فى ذلك الصدد تساؤلات متكررة ، واستفهامات متجاورة تؤكد ما يلف الشاعر ويتملكه من مشاعر الحيرة والقلق : أين شرقى؟! أين غربى؟! كيف أخطو فى ضباب تحت غيم؟! .. حيث كثّف من تساؤلاته ، وأكثر منها هُنا ، بجانب ما توفر فى ذلك الافتتاح من مفردات دالة ، وكلمات مُعبرة توقفنا على حجم وطبيعة تلك الغربة النفسية التى يقاسي ويلاتها الشاعر من مثل : حائر ، ندَّ حلمى ، اختفت عنى طريقى-غيابات الخضم ، السَّوافى الهوج – تعمى ، ضباب غيم ، شوك – صخر – تدمى – ضاع أمنى وائتناسى .. وتنضم أيضاً فى إضفاء صفات : القوة والجمال وبراعة الاستهلال على هذا المفتتح ما تحقق فيه من صور فنية جد بليغة رائقة من مثل : وصفه الرياح فى هبوبها وعنفوانها وما لذلك من أثر بالغ على نفس ذات الشاعر : والسوافى الهوج تعمى .. أي تجعله يضل الطريق بما ينبعث فى الأفق من غبار وتراب .. وتكنيته الواردة فى قوله : بين غيلان ورقم .. تكنيته بالغيلان والحيات عما ساد فى عصره من شرور وأشرار تنفث سمومها ، وترمى بشررها فتضرب رقيقى الشعور ، مرهفى الإحساس من ثم فى مقتل ، وتودى بالأنفس النبيلة، وتذهب بأنسها إلى حيث الشعور بالوحشة والغربة ، حيث تدفعه إلى أن يقول فى كلمات تفيض حسرة وألماً وحزناً :

ضاع أمنى وائتناسى بين غيلان ورُقم
إننى أحيا غريباً وسط اقرانى وقومى

ولنا أن نقف على حال وطبيعة ذلك المطلع الرومانسي الدال الموحى هنا حيث يستهل شاعرنا صان الدِّين واحدة من قصائده الوجدانية التى نحا فيها منحى الرومانسيين ، وذهب مذهبهم ، فقد آثر العزلة عن الأحياء ، والهروب من العقلاء،

والفرار منهم إلى حيث الطبيعة الآنسة المؤنسة بعيداً عن زيــف النــاس وخــداعهم ونفاقهم .. لنا أن نقف على هذا الافتتاح الدال المُعبر عن حال وطبيعة التجربة هنا .. حيث يقول صان الدِّين :

يا حبذا العيش الوديع بواحة شجراء قد ناءت عن العُمران!!

فى عُزلة ما شاهدتها أعيــن أبداً ولا خطرت بــها قدمان !![(١)]

فقد تضمن هذا المفتتح –كما نرى– كلمات دالة وتتسم بالإيجاز الشديد ، وفى الوقت ذاته تدل على المعنى الكثير .. فهو – أي شاعرنا يجسد من خلال هذا المطلع الحالم تمنِّيه الشديد ، وتوقه الكبير إلى أن يحيا فى ظل عيش هــانئ وديــع ، حيــث حضن الطبيعة الآنس الدفيء : يا حبذا العيش الوديع بواحة شــجراء .. وليســت أي واحة بل إنه يفضلها قاصية بعيدة عن المأهول والمعمور ، فيأنس بســكونها، ويهنــأ بهدوئها وحده ، دون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، ولا أن ينغص عليه منغِّص : **قــد ناءت عن العمران .. فى عزلة ما شاهدتها أعين أبداً .. ولا خطرت بها قــدمان ..** فما أبلغ وأدل هذا المطلع الوجيز فى تجسيد طبيعة تجربة شاعرنا الرومانسية تلك .. حيث يشى بجوها ، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بها ، ويوقفنا فى البداية على طبيعتها مــن حُلم وردي– لطالما تاقت إليه نفس الشاعر الرقيقة المرهفة المصدومة فى واقعهــا .. وحلمت بتحقيقه فى واقع حياته .. وكأنى بالشاعر وقد أجمل فى هذا المفتــتح حقيقــة حلمه ، وأوقفنا على ملامحه وأسبابه ودواعيه– تلك التى راح يُفصِّل القول فيها بعــد ذلك طيلة قصيدته الرومانسية تلك .

---

(١)ديوان: أعاصير وأنسام –صــ ٣٩ .

ومازلنا بصدد الحديث عن تجارب استمدها الشاعر من وحي الغربة ، وغدت أثراً من آثارها .. وإذا كان شاعرنا قد عايشنا فى تجاربه السابقة تلك التى وقفنا على بداياتها .. إذا كان قد عايشنا خلال تلك التجارب مع لونٍ من ألوان الغربة مُؤلم مُمضٍ- ألا وهو الغربة النفسية " المجازية" -تلك التى يشعر ويحس فيها بوخز الغربة ،وألم الضياع- وهو وسط أقرانه وذويه .. وعلى ثرى وطنه ، وبين لداته ومعاصريه .. فإنه يوقفنا فى التجارب التالية مع ذلك اللون الحقيقي من الغربة وهو الغربة المكانية .. حيث إن له من وحي غربته الحقيقية " المكانية" ، وبعاده البدني عن وطنه وذويه ثلاث تجارب .. كانت أثراً من آثار غربته، ومن ثم حُبه الفائض ، وحنينه الدائم ، وشوقه العارم إزاء وطنه الحبيب مصر ، وأهله وذويه ، ولاسيما والدته الرءوم المعطاء .. هذه القصائد هي: "الحنين إلى أرض الكنانة" ، "أشواق مغترب" ، "ورحلتِ يا أمَّاه" .. والذى يطالع ابتداءات تلك القصائد يبدو له ما يتحقق فيها من صفات وسمات المطالع الجيدة القوية ، فهي شديدة الارتباط بالتجارب التى ترد فيها ، وثيقة الصلة بمضامينها ، فلا يجد المُتلقى لها أدنى عناء فى أن يقف على حالها وجوِّها ، ذات إغراء وجذب للمتلقين ، وحث لهم على أن يتابعوا ما يرد بعد خلال متن وختام القصيدة .. حيث تحقق فيها ما يُعرف ببراعة الاستهلال ، وما يجب أن يكون لكل مقام من المقال .. بجانب كونها مُصرعة .. زينها صاحبها بزينة التصريع ، وحلاَّها بحليته ، فأحدثت نغماً آسراً ، وحققت إيقاعاً ماتعاً من شأنه أن يدخل على نفس متلقيه الهناءة والسرور ، ويباعد بها عن الملالة والنفور .. ويطيب لى أن أقف مع القارئ الكريم وقفة متأنية إزاء تلك الابتداءات .. كل ابتداء منها بمفرده ، وما يتسم ويتصف به بين غيره من المطالع .. حيث رأينا الشاعر وقد استهل قصيدته : الحنين إلى أرض الكنانة بهذا الاستهلال الناطق بطبيعة التجربة هنا .. حيث يُصور الشاعر- من خلال كلماته الدالة ، وتراكيبه البليغة ، وصوره الرائقة

ما ينتابه من مشاعر الحب والحنين واللهفة ، والشوق الدفين إزاء أرض الكنانة مصر الحبيبة .. فيقول :

تعج بقلبى حرور الجــوى وتهفو بروحى حنين النوى
فأبكى ولكن بغير دمـــوع وأظمأ لكن بدون ارتـــوى
كأنى فطيم قبيـــــل الأوا ن جفته المراضع حتى ذوى
إلى منبتى مصر كل الحنيــ ن وما من سلو وما من سوى
فيا مصر إنى غريب الدِّيا ر مشوق الفؤاد مريد الهوى[(١)]

ويفيض ذلك الافتتاح –كما نرى– بالألفاظ الدالـــة ، والمفــردات المعبــرة، والتراكيب البليغة التى من شأنها أن تجسِّد ذلك الموقف الذى يقفه الشـــاعر ، حيــث يصور – من خلالها – ما تفيض به نفسه من مشاعر الحُب والشوق واللهفة والحنين إزاء أرض الكنانة : مصر الحبيبة ، وما يلذعه من وجع الغربة ،والبعـــاد الممــض عنها ، حيث لم تزده الغربة عنها إلا شوقاً إليها ، وتعلقاً بها من مثل : تعج بقلبـــى – حرور الجوى ، ويهفو بروحى ، حنين النوى .. فأبكى بغير دموع .. وأظمـــأ بـــدون ارتوى – إلى منبتى مصر – كل الحنين – وما من سلو ، وما من سوى ، فيا مصـــر – إنى غريب الديار – مشوق الفؤاد – مريد الهوى .

ونلتقى أيضاً عبر هذا المُفتتح الدال المُعبر بتلك الصـــورة التشـــبيهية الدالـــة الرائقة التى تضمنها البيت الثالث .. حيث صوّر الشاعر فيها نفسه – وهـــو يُقاســـى آلام الغربة والبعاد ، وما يُحدثه ذلك فى نفسه من شعور بالفقد والحرمـــان .. صـــور الشاعر نفسه فى ذلك بالفطيم الذى حُرم صدر أمِّه ، ومُنع رفدها قبيل الأوان ، فذوى

---

(١) ديوان: أعاصير وأنسام –صـــ ٦١ .

من ثم ووهي وخارت قواه .. فمصر بالنسبة له هي الأم المعطاء الرءوم ، والصدر الدافئ الحنون..

ورأينا الشاعر وقد حرص على تحسين مطلعه هنا ، وتزيينه بتلك الحلية البديعة : "التصريع" ، بجانب حرصه على ما يُعرف : بحسن التقسيم ، ومجيئه ببعض أبياته متساوية الأجزاء .. كما في قوله :

تعج بقلبى حرور الجوى وتهفو بروحى حنين النوى

فكلمتا : "تعج بقلبى" أتيتا متساويتين مع كلمتي : وتهفو بروحى بينما نرى كلمتي : حروى الجوى .. متساويتين مع كلمتي : حنين النوى .. فى حين نرى البيت الأخير تحقق فيه تلك الحلية البديعية :" حسن التقسيم" ، حيث قسَّمه الشاعر إلى أجزاء متساوية تأتى جميعاً فى صيغة الإضافة .. هي : غريب الديار ، مشوق الفؤاد – مريد الهوى .. وتلك صفات يتصف بها الشاعر المُحب المشوق .. وهي تؤكد ما يكنه الشاعر، وما يستقر فى أعماقه ووجدانه من حب دفين ، وشوق مكين إزاء حبيبته مصر التى أطلق عليها مُسمَّى : الكنانة الجميل ؛ لأنها محفوظة مصونة من ربِّ العالمين سبحانه .

والحال ذاته متحقق فى استهلال الشاعر لقصيدته : "أشواق مغترب" ، ذات العنوان الدال الذى يمثل –بحق – المفتاح الذى تُفتح به مغاليق التجربة هنا .. حيث يحس المتلقى ويشعر بما بين ذلك العنوان وبين التجربة من ارتباط شديد ، فيدرك من ثم منذ البداية مضمونها وما عليه تدل وتفيد .. الحال ذاته بالنسبة لمطلع التجربة هنا .. فما أشد صلته بها ! وما أوثق ارتباطه بمضمونها .. حيث دلت كلماته القليلة على معانٍ ومضامين كثيرة ، فجاء من ثم دالاً موجزاً مجملاً لتفصيل سيأتى بعد ذلك فى أثناء متن وختام القصيدة .. يقول صان الدِّين :

يا قادماً من أرض مصر بلادى حياك قلب فى الجوانح صاد !!
وهفت إليك الروح هائمة كما يهفو الفراش على شذا الأوراد
بالله عرِج وانزلن عندى برحب فى ريــاض محبتــى ووداى
وتدان منى – قد فديتك- إننى أستاف منك ريح جو بلادى!![١]

وهو –أي شاعرنا– يُنادى من خلال مفتتحه هذا على ذلك الرجل القادم من مصر يرجوه ويستحلفه بالله سبحانه أن يدنو منه ويقترب ويطيل المكث والمثول بين يديه ، بعد أن أهاج ذلك الليبي القادم من أرض مصر فى أعماق الشاعر أحاسيس ومشاعر الحُب والحنين واللهفة والشوق الدفين– إزاء مصر أمِّه الرءوم .. حيث يجد فيه ويشم ريح بلاده الحبيبة فيروى من ثمَّ ظمأ فؤاده ، ويطفئ غلة شوقه، فتذهب – من ثم – روحه تطير إليه هائمة ، كما يهيم الفراش برائحة الأزهار ، وينجذب إليها

وقد تضمن هذا الابتداء – كما نرى – كلمات دالة ، وتراكيب معبِّرة من مثل : يا قادماً – من أرض مصر بلادى – حياك قلب !– فى الجوانح صاد .. وهفت إليك الروح هائمة .. بالله عرِّج – وانزلن عندى برحب .. فى رياض محبتى ووداى ، وتدان منى .. قد فديتك ! .. إننى أستاف منك أريج جو بلادي .. وغير خافٍ على القارئ الكريم استعمال الشاعر خلال تلك الألفاظ والتراكيب المذكورة .. أسلوبي القسم والدعاء وما يجسدانه، ويدلان عليه من شدة حب وتعلق الشاعر بوطنه الأثير ، وبلده الحبيب مصر ، حيث يراها فى ذلك القادم منها توّاً .. ومن ثم فهو يرجوه ويستحلفه الله أن يدنوا منه ويقترب .. وأيضاً يدعو له بالفداء والبقاء .

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـ ٦٣ .

بجانب تلك الصورة التشبيهية الدالة المعبِّرة عن المضمون هنا ، حيث يصور خلالها الشاعر نفسه فى حُبه الشديد ، وتعلقه الكبير ، وشوقه الدائم ، وحنينه الدائب إزاء بلده الحبيبة مصر .. يصور نفسه فى ذلك بالفراش الذى يتجاذب على رائحه العطور .. ويستهويه شذا العبير .. منتقلاً بذلك من المعقول إلى المحسوس ، مما يكسب صورته الفنية هنا قوة وبهاء ، ورونقاً وجمالاً .. وينضم – فى إضفاء صفات القوة والجودة والحُسن والبراعة على المطلع هُنا كونه مزيناً بتلك الحِلية البديعة :" التصريع" ،حيث تكسب الكلام هنا نغماً رائقاً ، وإيقاعاً عذباً ، يسر وجدان المُتلقى ، ويؤنس نفسه ، بجانب أنه – أي المطلع – المصرّع يدل على القافية عند بداية قراءة القصيدة .

والتجربة :" القصيدة" الثالثة التى أبدعها صان الدِّين من وحي الغربة الحقيقية : " المكانية " كانت بعنوان : " ورحلت يا أمَّاه" قالها حينما عَلِم برحيل والدته وذهابها عن الحياة – وهو غريب بعيد عنها .. فكان أن زلزله ذلك الرزء الفادح ، والمصاب الجلل .. حيث فقد أمَّه الحبيبة ، ولم يعد يراها مرة ثانية كما كان يرجو ويأمل ، ورأيناه يستهل بكائيته تلك التى يمتزج فيها البكاء والدَّمع الثخين إزاء والدته الراحلة بالغربة والحنين إزاءها ، وإزاء أهله وذويه .. رأيناه يستهل تجربته هنا باستهلال دالٍ ، ويفتتحها بافتتاح مُعبِر ، حيث يدعو فيه لروح والدته الذاهبة بالرحمة والمغفرة ، وأن تُحلق روحها وتسرع مهرولة حيث جنات الفردوس ، وأن ينبعث النور والضياء منها ، مُكبراً صنيعها ، ومُحدِّثاً بأياديها عليه تلك التى تستأهل بها أن ترتقي وتعرج إلى حيث الرضا والنعيم المقيم على الأرائك فى ظل رياض بهيجة مؤنسة ، جميلة معجبة ، يقول صان الدِّين مُستهلاً قصيدته الرقيقة المؤثرة تلك بالدعاء لأمه الراحلة بالرحمة والرضوان ؛ جزاء ما قدمت ؛ ولقاء ما صنعت من خير ومعروف لا يزال يذكره ويكبره:

طيرى بآفاق الضياء وحلِّقى وإلى رُبا الفردوس خفىِّ واسـبقى!!
رفافة كالنــور فى هـــالا تــه نشوى بغفران السماء المُغدِقِ!!
صنعت يمينك فى الحياة معارجاً تفضـــى إلى آلاء ربــك فارتقـــى!!
وهناك فى ظل الخلود تربَّعى فوق الأرائك بين روض مُونــق!!(١)

وهو –أي الشاعر يدعو لأمه الراحلة بالرحمة والمغفرة ، وأن يكون مستقرها النعيم والرضوان ، وذلك من خلال تلك الكلمات التى تضمنها ذلــك الافتتــاح ممــا يناجى بها روح أمِّه من مثل : طيرى .. حلقى .. خفِّى .. واسبقى .. حيــث يهيــب بروح والدته أن تطير وتُحلِّق إلى حيث آفاق الضياء والنور .. وأن تسرع مهرولــة : " تخف وتسبق " إلى ربا الفردوس حيث النعيم المُقيم ، ثم هو– أي الشاعر – يُضمِّن البيت الثاني – خلال ذلك الابتداء – صورة تشبيهية دالة ، حيث يُشــبه روح والدتــه فى سموِّها وعروجها وتحليقها بمعظم ومجتمع النور .. ومن ثم فهي فرحــة نشــوى بإغداق ربِّ السماء سبحانه عليها بالرحمة والرضوان .. وفى البيت الثالث من ذلــك الابتداء نرى الشاعر يُحدِّث بأفضال وأيادى والدته عليه ممَّا تؤهِّلها إلــى أن تحظــى بالرحمة والرضوان .. وهذا الاستهلال وإن كان مرتبطاً بالتجربة ذا صلة كبيرة بهــا هنا ، إلا أنه قد شابه بعض الفتور والرزانة والهدوء .. فبدا لا يفــى بجــلال ذلــك الموقف الرهيب ، ولم يُحدث من ثم فى المُلتقى الأثر المنشود .. حيث تردُ فى تلــك البكائية الممتزجة بالغربة والحنين أبيات أخرى من شأنها أن – تفى بطبيعة التجربة ، وجلال الموقف هنا ، وتحدث من ثم الأثر المنشود ، من مثل قوله فى بناء قصــيدته هذه يصور ما كان يؤلم ويُوخز قلب ونفس والدته من ألم ممضٍ ، وحزن بــالغ إزاء وحيدها الغريب البعيد عنها ، ممنية نفسها ومُسرِّية عنها بذلك الأمل الــذى يحــدوها

---

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـ ١٨٩ .

فيعيد لها رُوحها الذاوية .. إنه عودة وليدها، ومثوله بين أحضانها .. ولكن كيف اللقاء بها ؟! وقد كبلته الحياة بقيودها ، فكم تتوق نفسه هو الآخر ، ويهفو قلبه إلى اللقاء بأمه ، وبعد مرور الكثير ، وبقاء من الأيام القليل ويكون اللقاء ، لكن واأسفاه وا حزناه رَحَلَت الحبيبة ولمَّا يلتقيا !! ، فقد بادرت المنية بوالدته نبع الحنان الثر .. وموج السخاء الغامر المتدفق .. وبقي الشاعر مشبوب الأسى ، يبكى بقلب دام ، وبدمع ثخين ، لا يرتجى فيه رؤياها إلا كطيف فى المنام ، مسترجعاً فيه صور أيام خلت من الزمان ..

لنقرأ هذه الأبيات التى يبدو على الشاعر فيها التفجع والتوجع إزاء والدته الراحلة ، حيث كانت تصارع السّقام ، وتنوشها الأمراض ، وما يقاسيه هو من آلام الغربة وعذاب الفُرقة ، مما يجعلها –أى تلك الأبيات– أكثر مناسبة، وأشد ملاءمة لأن تكون مطلعاً لتلك التجربة هنا ، لا تلك الأبيات التى استهل بها تجربته ، حيث يناسبها – عادة أن تقع فى ختام التجربة لا فى بدايتها كما فعل الشاعر ، لاسيما وأنه قد ختم قصيدته تلك بالدعاء لأمه –مثلما دعا لها فى مفتتحها .

يقول صان الدِّين:

قد كنت يا أمَّاه تشكين الجوى — لوحيدك النائى بـــواد مغلق
وتصارعين الدّاء فى غلـــوا — ئـــه وتغالبين يد الحمام المحدق
أملاً يداعب منك قلباً ذاويــاً — وتمدُّ جدب الـــروح فيك بريِّق
علَّ الغريب يعود فى إبـــا — نه ويمرغ الخدَّين عند المفرق
فتشيمنى عيناك بين الحاضر — ين لدى الوداع بطرفها المغورورق

والله يعلم ما بقلبك من أسى متأجج بين الحـــنايا مُوبق
ووحيدك النـــائى تكبلهُ الحيـــا ة بحكمها من فوق جمر مُحرق(١)

فلنا أن ننظر فى تلك الأبيات التى تفيض بـــالمفردات والتراكيـــب والصـــور الدالة البليغة التى تجسد ذلك الموقف المهيب أيما تجسيد .. مما يجعلها أكثر ملاءمـــة لأن يستهل بها القصيدة هنا ، لا غيرها .

فليست بالضرورة هي بدايات الشاعر فى مجموعها مما يتوافر فيها صـــفات القوة والجودة .. إذ إنَّ له بعض البدايات – وإن كانت قليلة جداً ، ونـــادرة للغايـــة – بالقياس إلى بداياته الآسرة الماتعة المثيرة الهائلة الكثيـــرة – لصـــان الـــدِّين بعـــض البدايات التى أخفق فيها ، ولم يحالفه التوفيق فى صُنعها ، فجاءت غير منسجمة مـــع مضمون التجربة العام ، من مثل استهلاله لقصيدته التأملية الرائقة : " جمال الكون" ، حيث قسَّمها خماسيات راح فى كل خماسية منها يقف وقفة متأنية مع مشـــهد بـــديع ، ومظهر جميل من مشاهد ومظاهر كون الله سبحانه الفسيح ، مُستجلياً فى أثناء ذلـــك معالم قدرة الله– عز وجل–، وبديع صنعه سبحانه :: يقول صان الدِّين :

غرَّد الطيـــر يـــزف الزهـــ ر فى عُـــــرس الربيع
حين تاه الروض فوق الأرض بالحُـــــــسن البديـــع
رحــــتُ أســعى فى صبــاح باسمٍ باهى السُّطوع

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٨٩ ، ووادٍ مغلق: لا منفذ به ، والرَّيِّق: أول الشباب والمطر ، وتشيمنى : تنظر فى ترقُّب ، ومُوبق : مُهلك .

أو مســاءٍ حـــالم قــــــد ذاب فى ضوء الشموع
طــافت الأنســـام بالوجنـا ت ســـكرى فـــى خشـوع (١)

فهذا الاستهلال لم يكن فى موضعه المناسب ، ولم يُوفَّق فيه صاحبه كلّ التوفيق .. فهو – أي هذا الاستهلال– لم يأخذ – كما نرى – صفة الشمول والعموم التى ينبغى أن تتحقق فى المطلع الجيد .. فلم يكن مُجملاً ، ولا كافياً هنا .. بحيث يمكن لبقية الخماسيات فى القصيدة أن تُبنى عليه ، وتنطلق من خلاله .. وإنما هو قد أخذ صفة التجزئة ، والخصوص ، حيث التقط فيه الشاعر صورة جزئية بين مشاهد كون الله سبحانه البديع الفسيح .. وكان أولى بالشاعر وأقوم أن يستهل لوحته التأملية البديعة تلك باستهلال آخر يأخذ صفة العموم والشمول .. يمكن أن تتدرج المشاهد التى تتضمنها خماسيات القصيدة بعد ذلك تحته ، وتنطلق من خلاله .. كما فى قوله من خماسية تالية للخماسية المذكورة آنفاً:

كم على الدنـــيا جمـــــال عبقــــري لا يحـــــد
ذا تليـــــد سرمــــــدي ذا طريــــف مســـــتجد
كل شـــيء فيـــه حُســـن فى الوجود الرحب يبـدو
يجتلـــيه فـــى انبــــهار مـــن لـــه ذوق ورشـــد
إنــــه مـــن صنـــع ربــ ب الخلق إنعام ورفـــد(٢)

فهذا المشهد الكلي من شأنه أن ينضوى تحته بقية المشاهد البديعة التى يتوافر عليها كون الله تعالى البديع .. مما يجعله أكثر ملاءمة لأن تُفتتح به التجربة هنا ،

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ١٢٥ .
(٢)ديوان : الإنسان فى الميزان– صـــ ١٢٥

حيث لا يخفى ما تدل عليه لفظة : " كم " الواردة فى مستهل البيت الأول من " التكثير " فكون الله يفيض بالجمال العبقري الذى ليس له حدود .. وهو – أي ذلك الكون : متنوع المشاهد ، متعدد المجالى : فهذا : شئ قديم ، وذاك جديد – وهذا دائم ، وذاك متحول ..وغير ذلك من عوالم الخالق جل وعزَّ – الناطقة بطلاقة قدرته ، والدالة على تفرده فى وحدانيته سبحانه : وأيضاً كلمات : كل شيء .. الوجود الرحب . لا هذا الاستهلال الآخر الذى يُجسد من خلاله الشاعر مشهداً جزئياً صغيراً بين مشاهد كون الله تعالى الفسيح ، يصعب أن تبنى عليه ، وتنطلق من خلاله بقية المشاهد " العوالم": عالم الطير .. وعالم النمل.. وعالم النحل .. وعالم الطبيعة الصامتة : الجبال والسهول والوديان .

ووجود الله تعالى رحب ، وكونه فسيح .. وهذا الجمال يدركه من له ذوق ، ولُب رشيد ، وهو – أي ذلك الجمال – من البديع سبحانه عطاء وهبة لا تغيض .

..وهكذا فقد اتسمت تلك الخماسية بصفة الشمول والعموم .. وقد كان للطباق الأثر البين هنا فى تجلية وإبراز ما تتضمنه الأبيات من مشاهد متنوعة بديعة .. مما يتوافر عليه كون الله الفسيح ، وهذا التنوع هو ما يُضفى على ملكوت الله سبحانه البديع تناسقاً وانتظاماً ، وتناغماً ، وائتلاقاً .

جـ – حُسن التخلص :

مما يُحقق فى القصيدة ، ويكسبها صفات القوة والجودة والحُسن والبراعة – بجانب ما يتوفر فيها من مطلع جيد ، واستهلال بليغ ،وابتداءٍ جذاب ، حُسن التخلُّص ، حيث إنه دليل على حذق وإتقان الشاعر ، ومؤشر إلى قوته وتمكنه ، وهو – أي حُسن التخلص يُقصد به : " أن يستطرد الشاعر المتمكِّن من معنى إلى معنى آخر

يتعلق بممدوحه بتخلص سهل ، يختلسه اختلاساً دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلاّ وقد وقع فى الثانى ؛ لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما ، حتى كأنهما أفرغا فى قالبٍ واحد ، ولا يشترط أن يتعين المُتخلص منه ، بل يجري ذلك فى أي معنى كان "(١) .

"ويُقصد به أيضاً رعاية المناسبة بين مبادئ الكلام التى درج المتأدبون على الابتداء بها ، كالغزل ، وذكر أيام الشباب ، ووصف الجمال ، وبين المعنى المردوف الذى يلى مطالع القصيدة "(٢) .

إذن فهناك طريقة مُثلى لدى الشاعر للتخلص أو الخروج والانتقال من غرض إلى غرض آخر داخل القصيدة الواحدة .. بحيث تبدو كلاً مندمجاً ، وبنياناً مرصوصاً ، ولا يكون ثمة انفصال بين أجزائها ، ولا انفصام بين أفكارها .

والناظر فى قصائد الشاعر– خلال تجاربه الوجدانية يلحظ عليه دخوله مباشرة فى الحديث عن فكرته الرئيسة ، ومضمونه الأصلي ، حيث يدلف إلى ذلك دونما مُقدمات ،أو توطئات يُقدِّم ويُوطِّئ بها بين يدي الغرض الشعري – الذى هو بصدده .. فقد خلت – تقريباً – قصائد الشاعر الوجدانية من تلك المُقدمات التى يقدِّم بها الشعراء لقصائدهم ؛ ولعل ذلك راجع إلى طبيعة تلك التجارب هنا ، فهي تجارب وجدانية تقوم على دفقات وشُحنات وانفعالات شعورية يتلو ويتبع بعضها بعضاً ..

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب : لتقي الدين أبي بكر بن حجّة الحموي ، شرح عصام شعيتو ، ج١ – صـ ٣٢٩ – ط دار ابن حزم – الطبعة الأولى – ١٤٣٣هـ – ٢٠١٢ م .

(٢) البديع من المعانى والألفاظ : د/ عبد العظيم المطعنى – صـ ٩٧ – ط–مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الأولى –٢٠٠٢م.

ومن ثم فلا مجال لتأخير تلك الدفقات ، ولا معنى لإرجاء تلك الانفعالات .. حيث يسكبها الشاعر من أول بيت فى القصيدة .. ولا يقدم عليها بأي مقدمات .

وأستطيع بفضل الله وبتوفيقه سبحانه أن أؤكد ما تحقق فى قصائد الشاعر الوجدانية – فى الكثرة الهائلة منها- ما أطلق عليه النقاد هنا : " حسن التخلُّص " ، حيث رأيناه – أي الشاعر – وقد تخلَّص – فى مهارة وبراعة ، وتنقل فى حنكة وشاعرية ، وتحوّل فى يسر وسماحة عبر أفكار القصيدة الواحدة ، حيث ذابت الفواصل ، وتلاشت الحواجز بين أفكاره ، مما جعل متلقى شعره الوجداني من ثم لا يشعرون من شدة السهولة والانسيابية فى خروجه وانتقاله بهذا التخلص ، وذلك الانتقال ؛ لما بين أفكار ومضامين وجدانياته تلك من شدة الانسجام ، وقوة الالتئام ؛ مما يجعلها تبدو من ثم ممتزجة مرتبطة بعضها ببعض ..

ويطول بنا الحديث إذا رُحنا نعدِّد المواضع التى تحقق فيها حسن التخلُّص خلال قصائد شاعرنا الوجدانية .. بيد أننى – وانطلاقاً من تلك القاعدة التى تقول بإن الجزء ينبئ عن الكل فسوف أورد فى السطور المقبلة- بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه سبحانه – بعض النماذج التى يتحقق فيها حُسن التخلص والخروج لدى صان الدِّين- خلال بعض قصائده الوجدانية .

ولتكن من بين تلك النماذج قصيدته الوجدانية المُغرقة فى الذاتية ، الموغلة فى الوجدانية : " سأشدو" تلك التى أكَّد من خلال أبياتها جميعاً ما للشدو بالشعر ، والتغريد به من ضرورة ، وأهمية شديدين فى حياته "، حيث يمثل له الحياة .. وهجره يمثّل الموت .. فقد فكر فى فترة من عمره أن يكفَّ عن التغريد والشدو به .. لكنه لم يستطع مقاومة سحره وحلاوته، حيث لا يملك إلا أن يعود إليه ، فيصدح به،

ويشدو صدح وشدو الطائر– الذى يمثل شدوه حياته ومرحه ، فى حين يُمثل صـمته موته وقيده ..

ولنا أن نقف مع كل من مطلع تلك القصيدة .. ومتنها .. وختامهـا .. حيـث ندرك دونما أدنى عناء ما بين تلك الأجزاء جميعاً من نسب وقربي ، حيث تتصـهر كلها فى بوتقة واحدة ، وتؤكد جميعاً مضموناً واحداً هو لُبّ التجربـة هنـا ، وهـو التأكيد على ضرورة الشدو بالشعر والتغريد به بالنسبة للشاعر ، واستحالة تركه إيـاه وهجره له .. وأن ذلك بمثابة الحياة ،أو المـوت بالنسبة للشاعر. يقول فى مستهلها :

أؤفصح أم أموت بما أعـانى   وأمضى بين تيار الزمان؟!
وفى قلبى أناشـيد عِذَاب   وفى الوجدان أبكار المعانى(١)

بينما رأيناه ينتقل عبر قصيدته تلك انتقالة جيدة ، ويخرج خروجـاً حسنا لا نكاد نشعر به ؛ لما بينه وبين المطلع من انسجام شديد ، وتنـاغم أكيد .. حيث يقول :

أنا قيثـارة قـد أغفلتـها   يـد العـزَّاف إبـان الأوان
وكم من باهر كالطيـف ولـى   ولم يلمَـح سـناه النـاظران
وكـم فى القـاع من دريتيـم   خفـي لـم تلامسـه يـدان
كتمـت روائـع الأنغـام دهراً   وقيدت الشوارد فـى جنـانى

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣١ .

وعشت كما يعيش الغُمر فدماً حليف الصمت معتقل اللسان

فلم تنبس بأفكارٍ شفاهي ولم يخطر على طرس بناني[١]

فهذه الأبيات تجسد ما كان يعانى منه الشاعر ويقاسى فى أيامه .. من إهمالٍ لشعره ، وعدم تقدير لفنه ، وتجاهل لإبداعه ..ذلك الذى يشير إلى طبيعته، ويومئ إلى نفاسته.. فهو –أي شعره– داخل من طرف خفي ضمن اللون الباهر الذى ولى سريعاً ، فلم يلمح ضياه الناظران .. وأيضاً شعره الرّائق المغمور– شأنه شأن الدرِّ الخفي الذى لم تلامسه اليدان .. مما جعله يهجر الشعر ، ويمزّق ما نظم من أشعار .. لكنه كما قلت لم يستطع مقاومة تلك الرغبة الأكيدة المُلحة فى كيانه ، فسرعان ما عاد كالطائر الغريد يُغرد ويصدح ويشدو بالشعر راداً بذلك الحياة لنفسه ، بعد أن كاد يحس يشعر بالموت بتركه وهجره التغريد بالشعر .

ومن ثم رأيناه يختتم قصيدته هنا بهذا المختتم الدال المحكم الذى لا يبغى المتلقِّى زيادة عليه ؛ بعد أن شفى غلته ، وأشبع نهمه فرضي به من ثم رضا ، وقنع قناعة تامين .. يقول صان الدِّين :

أنا فى دوحة الدنيا هزار وهل يحيا الهزار بلا أغان؟![٢]

فقد كان هذا الختام خير ختام هنا .. حيث أتى تثبيتاً للفكرة الرئيسة التى تضمنتها القصيدة ، وجاء تأكيداً لمضمونها الأساس ، ومنسجما مع مطلعها ومتنها .. فغدا من ثم – كافياً شافياً ، مُقنعاً مُتمماً .. فما أجمل وأبلغ فى الدلالة على ضرورة التغريد بالشعر بالنسبة للشاعر من تشبيهه لنفسه فى دنيا الإبداع بالطائر الغريد الذى

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٢.

(٢)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٤ .

لا يتوقف أبداً عن الشدو والتغريد، منبئاً بذلك عن مرحه وحياته .. وهل يحيا الهزار بلا أغان ؟! والإجابة معلومة بداهة .. لا يحيا .. وهكذا الشعر بالنسبة لشاعرنا :" لا يحيا بدونه .

ومن المواضع التى انتقل فيها الشاعر بين أفكار قصيدته فى حنكة وشـاعرية أيضاً .. وخرج فيها خروجاً حسناً لا يكاد يشعر به المتلقون ما جـاء فـى قصـيدته المتأملة فى النفس الإنسانية : " مراقى السمو " والتى يُصور من خلالها تلك المجاهدة النفسية التى تكون فى أعماق كل إنسان وما يدور فى داخله من صراع محتـدم بـين السموِّ والترقي ، والتحليق نحو الجانب الرُّوحي للنفس ، وبين ذلـك القيـد الوبيـد ، والسجن الكثيف الذى تتعلق به النفس وتميل وتنجذب إليه ، إنه البـدن ومالـه مـن حاجيات ومتطلبات وشهوات ورغبات من شأنها أن تقف حجر عثـرة دون التحليـق والترقى فى مراقى السموِّ للنفس .. ورأينا الشاعر وقد استهل قصيدته المتأملة هـذه بهذا الاستهلال الرقيق الشفيف ، حيث يرجو من ربِّه سبحانه ، ويلتمس منه أن يعينه على نفسه فيرقق بذكره مشاعره ، ويجعل جلاله وهيبته والخشية منه ماثلاً وحاضراً فى وجدانه وخاطره ، وأن يُبدِّد بنوره وضيائه غياهب وظلمات طينيتـه :" جسـده ، وحاجاته ورغباته " فيتخلص من ذلك القيد الثقيل؛ ليكون بمنجىً من الزيف والضلال ، وزهوة وغرور الحياة .. يقول صان الدِّين مُناجياً ربَّه سـبحانه ملتمسـاً منـه أن يُخلِّصه من الضياع والهلاك ، راجياً أن يمنَّ عليه بالهداية والنجاة فـى ظـل ذلـك الصراع المحتدم فى داخله بين طينية الجسد ، وروحانية "سموّ " الروح :

رقِّق بذكرك يا لطيف مشاعرى واجعل جلالك مـــاثلاً فـــى خـــاطرى
بدِّد بنور سناك ظُلْمة طينتـــى ألق السكينة فـــى فـــؤادى الهـــادر
لأكون من زيف الضلال مُحصناً لا تزهـــين رؤى الحياة لناظرى(١)

ثم نراه ينتقل الشاعر فى يُسر وسماحة ، وحِنكة ومهارة بعد هذه المناجاة منه لربِّه سبحانه إلى تجسيد وتصوير ما يمثله الجسد – بجموحـــه ورغباتـــه ونوازعـــه وشهواته – بالنسبة للنفس الإنسانية وعلوها وترقِّيها فى مراتب السمو والكمال ، حيث التحليق فى الجانب الروحي .. ها هو ذا شاعرنا يُجسد هنا مدى مـــا يمثلـــه الجســـد بالنسبة للنفس من عائق شديد ، وحاجز منيع ، يعوقها ويحجزها عن السمو والترقـــى إلى معارج النور والضياء فتظل تتجاذبها تلك النوازع والشهوات والمفاسد والرغبات ، حيث تقف هذه الأشياء عائقاً وحاجزاً منيعـــاً ، دون أن يســـمو الإنســـان بنفســـه ، ويترقَّى بها فى مراتب الكمال فإذا به كلما عزم على النهوض والارتقاء .. وكلما همَّ يُحلِّق بجناحيه نحو مراتب الصفو والسمو والكمال ، إذ برغبات نفسه تتجاذبه نحوهـــا ليهوى ويسقط ،حيث تُراب الأرض والذى منه الطِّين وغيره من العناصر التى منهـــا خُلَّق ورُكِّب الإنسان .. ها هو ذا شاعرنا يُصور ذلك الصراع الذى يقوم على الشـــدِّ والجذب فى أعماق كل إنسان .. أيضاً مُلحاً ومُلحفاً فى الضراعة أن يخلصـــه ممـــا يقاسي ويعانى .. فيقول يناجى ربه وقد خرج فى ذلك خروجاً حسناً لا يكـــاد يشـــعر معه المتلقى بأدنى انقطاع ، ولا يحس إزاءه بشئ من الانفصام ، بعـــد أن انســـجمت واندمجت الفكرتان ، هناك وهنا :

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٠١ .

إنَّ الطريق إلى رحابك زاخـر بحبائـــل منصـــوبة ومخـــاطر
ومواطئ الأقدام غشَّاها الرُّكَـا مُ مــن الضــباب فــلا تبــين لســائر
هي خطرة هي لمحة ما بيــن منزلــق ومنجــاً للضــرير العــابر
أواه من ثقل التــراب وقيـــد ه أواهٍ مــن حُكــم الحيــاة القــاهر
أفكلما رمت النهوض إلى العلا وبسطت مــن صــفوى جنــاحي طــائر
ألفيتنى برغاب نفسى موقــراً يهوى تراب الأرض جلُّ عناصرى(١)

وهكذا يشعر المُتلقى لهاتين الفكــرتين بمــا بينهمــا مــن انســجام وتنــاغم وائتلاق،ولم يُحس بأي بونٍ ولا انقطاع بينهما ، حيث يقوم المضمون هنا وينطلق من خلال هدي النبي الكريم صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : " **حُفَّت الجنَّة بالمكاره ، وحُفَّت النَّارُ بالشهوات** "(٢) .. وهكذا الحال بين أفكار الشاعر فــى ثنايــا قصــائده الوجدانية ، حيث يسودها الودّ والانسجام ، ومن ثم ينتقل الشاعر بينهــا فــى يســر وسهولة ، دون أن يحسّ مُتلقوها بهذا الانتقال بينهما ، مما يدل على مهارة الشــاعر وبراعته ، وحنكته وشاعريته الفنية .

د: الخواتيم :

إنَّ لختام القصيدة أثراً بالغاً ، وقيمة كبيرة لا يقل فى ذلك عن البدء والتخلُّص .. حيث تكتسب القصيدة من هذه العناصر جميعاً صفات القــوة والجــودة والإثــارة والبراعة، فتحدث من ثم أثرها المنشود فى نفوس المُتلقين ، وتؤتى ثمرتها المرجوة ،

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ١٠٢ .
(٢) هذا الحديث النبوي الشريف رواه أنس بن مالك .. ينظر : فى صحيح مسلم –ج٤ – الحديث رقم ٢٨٢٢ – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

ولم لا يكون للخواتيم ذلك الأثر ، وتلك الأهمية وهي : " قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى فى الأسماع منها ، فقد أوجبواْ – أي النقاد – أن يكون الكلام فيها أفضل مما اندرج فى حشو القصيدة ، وأن تكون محكمة لا يمكن الزيادة عليها ، ولا أن يأتي بعدها ما هو أحسن منها" (١) .

فالختام هو: بمثابة خُلاصة أفكار الشاعر ، وزبدة مضامينه – تلك التى حاول جاهداً بثها ، ومعالجتها فى ثنايا قصيدته ، فهو يأتى تأكيداً وتثبيتاً لتلك الأفكار والمضامين التى هيمنت عليه طيلة قصيدته ..ومن ثم تكمن قيمته ، ويكون خطره ، وتأتى أهميته ، فالخاتمة هي المواقف التى تستعطف أسماع الحضور ، وتستلهمهم إلى الإصغاء (٢) .

وحتى تُحدث الخواتيم ذلك الأثر الطيب المنشود فى القصيدة لابد وأن يُراعى فيها المُبدع أن تكون مطابقة لما تردُ فيه من معان ، حيث تتمشى مع موضوع القصيدة ، وتتناسب مع غرضها ، فـ "ينبغى أن تكون بمعان سارة فيما قصد به التهانى والمديح ، وبمعانٍ مؤسية فيما قصد به التعازى والرثاء ، وكذلك يكون الاختتام فى كل غرض بما يناسبه "(٣) .

وبجانب ذلك يجب أن يتجنب المُبدع فى خاتمته ما يُستجفى ، ويُتطير به ، ويُنفر منه من الكلام ، حتى لا ينصرف المُتلقي عن متابعة القصيدة ، وإنما يظل

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة : للقزويني – صـ ٢٤٣ – ط مكتبة ومطبعة محمد على صبيح .

(٢) ينظر : الوساطة بين المُتنبى وخصومه : للقاضى على عبد العزيز الجرجاني – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوي – صـ ٤٨ – بتصرف –ط المكتبة العصرية – بيروت د.ت .

(٣) منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء – حازم القرطاجني – صـ ٣٠٦ – تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة – الطبعة الثالثة – ط دار الغرب الإسلامي – بيروت ١٩٨٦ م .

مُقبلاً عليها ، مشدوداً إليها : " فالخاتمة يجب أن يكون ما وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج فى حشو القصيدة ، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه ، أو معنى مُنفِّر للنفس عما قصدت إمالتها إليه ، أو مُميل لها إلى ما قصدت تنفرها عنه ؛ وإنما وجب الاعتناء بهذا الموضع ؛ لأنه منقطع الكلام وخاتمته ، والإساءة فيه عفية على كثير من تأثير الإحسان المُتقدِّم عليه فى النفس ، ولاشيء أقبح من كدر بعد صفو .." (١) .

كما ينبغى على المُبدع أن يحرص على أن يكون : " آخر كلامه عذب اللفظ ، حسن السبك ، صحيح المعنى ، مُشعراً بإتمام الكلام ، حتى تتحقق براعة المقطع بحُسن الختام ، حيث يكون آخر الكلام مستعذباً حسناً ، لتبقى لذته فى الأسماع ، مُؤذناً بالانتهاء ، بحيث لا يبقى تشوقاً إلى ما وراءه" (٢) .

تُرى ما حال نهايات وجدانيات الشاعر ؟ ، وبم اتسمت به تلك الخواتيم ؟.. هذا ما ستنبئ عنه السطور المُقبلة –بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه .

الذى يُنعم النظر فى نهايات وجدانيات صان الدِّين يجده قد عُني بها– مثلما عُني ببداياتها ، ومتونها .. فجاءت ختاماته فى الكثير الهائل منها من الختامات الجيدة المحكمة التى لا يمكن الزيادة عليها ، بعد أن جاءت موائمة لطبيعة ما ترد فيه من تجارب ، مناسبة لما تعالجه من مضامين .. وأتت كافية شافية متممة للمعنى ، مؤكدة

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني صـ ٢٨٥ ، ٣٠٦ .

(٢) جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع – تأليف أحمد بن ابراهيم بن مصطفى الهاشمي – صـ ٣٤٤ – ضبط وتدقيق وتوثيق دكتور / يوسف الصميلي – نشر المكتبة العصرية – بيروت – بدون تاريخ .

للمضمون ، لا يبغى المتلقى عنها حولا ، ولا يرضى بسواها بدلا ، بعد أن شفت غُلَّته ، وأشبعت نهمه فرضي – من ثم– وقنع بها رضاً وقناعة تامين .

ويطول بنا المقام .. إذا وقفنا على تلك النهايات الجيدة التى تحققت خلال وجدانيات شاعرنا صان الدِّين .. وانطلاقاً من أن القليل يُغنى عن الكثير ، والجزء ينبئ عن الكلّ فإننى فى السطور المقبلة سأقف بإذن الله وبتوفيقه سبحانه – وقفة متأنية مع تلك الخواتيم .. كاشفاً عن سماتها وملامحها ، ومحلِّلاً لأسرارها ودقائقها .

فها هو ذا شاعرنا .. يختتم إحدى تجاربه الوجدانية بمختتم دالٍ مُعبِّر بليغ بدا محكماً لا تكمن الزيادة عليه ، وجاء مُجملاً لتفصيلٍ مضى ، ومؤكداً لمضمون سبق ، حيث يقول فى ختام قصيدته سالفة الذكر " سأشدو" :

أنا فى دوحة الدُنـــيا هــزار   وهل يحيا الهزار بلا أغان؟!

فقد تضمن هذا المختتم الدال البليغ – كما نرى – صورة تشبيهية رائقة ، حيث شبه الشاعر نفسه فى عدم استغنائه بحال من أحوال عن التغريد والشدو بالشعر – بالطائر المغرّد الذى يملأ الأشجار شدواً وتغريداً.. منتقلاً بينها فى مرح وسرور ونشوة وحبور ، بجانب ما يقوم عليه كلام الشاعر هنا من معنى الاختصاص والقصر الذى يدل عليه استعماله لضمير المتكلم : " أنا فى دوحة الدنيا هزار " ، ثم ها هو ذا شاعرنا يؤكد فى الشطرة الثانية كيف أنه لا يستطيع أن يتوقف عن الشدو والتغريد بالشعر من خلال هذا التساؤل الذى يدل على النفي والتعجُّب والاستبعاد .. **وهل يحيا الهزار بلا أغان؟!** .. بمعنى كيف يحيا .. بدون شدو وتغريد؟! ، أو لا يحيا بدونهما ، مما يجعل المختتم هنا كافياً شافياً ، مُؤكداً لمضمون التجربة ، مُجملاً لما فيها من تفصيل ، مُتمماً لها .. مشوقاً ، من شأنه أن يغري المتلقين على مداومة

المتابعة للقصيدة حتى النهاية ، حيث يصل بعد قولٍ مُفصلٍ عن رحلة حياته مع الشعر .. وما مرَّ عليه من مواقف جعلته يتوقف قليلاً عن الشدو والتغريد به .. وعودته اللاإرادية إلى دوحه ورياضه .. ومن ثم يبدو الختام هنا دالاً بليغاً يحسن السكون عنده ، ولا يمكن الزيادة عليه ، حيث بدا :" وكأنه بمثابة النتيجة والوصية الجامعة لكل ما جاء فى ثنايا القصيدة " [١] .

وهذا الحال ذاته متحقق فى ختام تجربة الشاعر الوجدانية التأملية التى بعنوان: " البعث حقيقة"- تلك التى أقامها على حوار دار بينه وبين جاحدٍ ومنكر لحقيقة البعث ومستبعد له بعد الموت .. وشاعرنا طيلة قصيدته هذه يسوق بين يدي هذا الجاحد المُشكك المرتاب الأدلة والبراهين التى يُدلّل من خلالها على صدق وحدوث ووجود حقيقة البعث بعد الموت .. وذلك من خلال تقسيمه للقصيدة هنا إلى عدة خماسيات .. يُورد فى كل خماسية مشهداً تأملياً ينطق بوجود حقيقة البعث .. وقد اختتم شاعرنا هذه القصيدة التأملية الإيمانية بخماسية جاءت كافية شافية لغُلَّة المتلقى ، مُشبعة لنهمه، متممة لمضمون التجربة ، مؤكدة لما تقوم عليه من إثبات حقيقة البعث بعد الموت .. حيث يرى شاعرنا فى عيون صاحبه المجادل المرتاب الإقرار والتسليم والاقتناع بكلامه فى النهاية بعدما انقشع عنها ضباب الشرك ، وغشاوة الضلال .. وحلّ محله وتجلَّى إشراق الهدى ، ونور الإيمان ، وهداية الرحمن ، والذى قد كان مضبباً فى ناظريه صار منقشعاً مُضيئاً ، ليعلن من ثم توبته وإنابته ، ويتساءل فى لهفة وصدق : " أين المصلَّى"؟:

يقول صان الدِّين :

---

(١) ينظر : تأملات نقدية فى قصيدة : أين الطريق إليك من شعر د/صابر عبد الدايم- د/ حسن عطيه طاحون – صـ ٢٦ .

فى محيـا صاحبـى قـد حَـدَّقت عينـى لعـلَّ
مـا تغشـاه رقيـق مـن ضـباب قـد تـولى
فارتـأت فيـه بريـقاً من هـدي القلـب تجلـى
والذى قـد كـان وعراً منـذ سـاع صـار سـهلاً
ثم حـيَّا فى خشـوع قائلاً : أين المُصلّـى؟! (١)

وهكذا يطوى الشاعر خلال هذا الختام حديثه هنا ، ويصل به إلى النهاية التى يرضى عنها المتلقى، ويقنع بها ، ولا يبغى بعدها زيادة ولا إضافة .. فماذا بعد أن يُسلِّم هذا الجاحد المرتاب بعد حجود وإنكار طال به وامتد طيلة القصيدة جمعاء . ماذا يبغى ويريد القارئ والمتلقى من الشاعر بعد أن يشير إلى إذعان وتسليم هذا الجاحد المنكر – بوجود حقيقة البعث بعد أن دخل نور الإيمان قلبه ، وزالت عنه غشاوة الشرك ، وتجلى فى نفسه هدي الرحمن .. فهرع من ثم إلى الراحة والطمأنينة والهناءة والسكينة إلى الصلاة ، حيث الوقوف فى خشوع واستلام بين يدي الله ذى الجلال والإكرام .

ومن بين النهايات الجيدة التى فاضت بها وامتلأت قصائد الشاعر الوجدانية نلتقى بهذا الختام الذى كان بمثابة إجمال لما عالجه الشاعر فى ثنايا قصيدته من تفصيل القول فى حقيقة النفس الإنسانية ، ومدى كونها فى النهاية لغزاً حار فى كنهه الفلاسفة والمفكرون ، وأن ما وضعه هؤلاء من نظريات بشأنها لا تعدو مجرد تخمينات وظنون .. حيث يقف هؤلاء فى النهاية محدودى العلم ، قاصرى الفهم إزاء ذلك السر الخفى المُبهم ، والغور السحيق المظلم .. ها نحن أولاء نلتقى بهذا الختام

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٨٣ .

الذى كان بمثابة إجمال لتفصيل سبق .. وتأكيد لمضمون مضى وتتمة لحديث عولج فى ثنايا القصيدة ، هو كافٍ وشافٍ ، ومُقنع ومُتمم يشعر القارئ إزاءه بقناعة ورضا تامين .. لا يبغى عنه حولاً، ولا يرضى بسواه بدلا .. يقول صان الدِّين فى مختتم قصيدته التأملية : " أيتها النفس " :

يا أيها الإنسان حسبك فى حيا　　　تك ما تحس من الأمور وتفهم

ما الرُّوح ما الحوباء إن كليهما　　　لغز يحار الدَّهر فيه العالم؟!

إن كانت العنقاء خافية فإن　　　ن النفس أبلغ فى الخفاء وأعجم!!(١)

..وهكذا فقد أجمل شاعرنا خلال مختتمه هذا ما سبق أن فصّل القول فيه عن حقيقة النفس الإنسانية، وما تقوم عليه من تعمية وإلغاز وخفاء .. حار فى حقيقتها المفكرون الألباء .. كما أنه –أي الشاعر – قد أكد من خلال مختتمه هذا ما أراد أن يصل إليه ، وقرره خلال قصيدته .. من كون النفس الإنسانية سراً خفيا مُبهماً ، وغوراً سحيقاً مظلماً .. كيف الطريق إلى معرفة مداه؟ ، وإدراك حقيقته؟! وكل ما وضعه الفلاسفة بشأنها من نظريات لا تعدوأن تكون ظنوناً ، ورجماً بالغيب .. ولا ريب فى أن هذا المختتم يُجمل تلك الحقيقة الدامغة ، ويؤكدها هنا .

ومما أضفى على هذا المختتم حيوية وإثارة وطرافة هذا النداء الذى صدره به الشاعر ، حيث ينادى على الإنسان أينما كان .. مُهيباً به ألاَّ يشغل باله ، ولا يكدّ نفسه فى البحث عما يعجز عقله القاصر ، وفهمه المحدود ، وعلمه القليل من أسرار ودقائق تدور حول الننفس الإنسانية ، ويكفيه أن يقف فقط على ما يدركه عقله ، ويحيط به علمه ".. وفى النداء يقظة وتنبيه وإثارة ولفت نظر للمتلقين ؛ ليقبلوا على

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٩٣ ، والحوباء : النفس ، والعنقاء : طائر مجهول لا يعرف إلا اسماً فقط ، وأعجم : أي أكثر خفاء واستتاراً .

ما بعد النداء من مضامين لاشك فى أنها مهمة ... وعلى الإنسان أن يطرح عنه كثرة التساؤلات ، وما عليه سوى أن يُسلِّم فقط بوجود النفس الإنسانية ، أما ما هي ؟ وأين تقع فى الجسد ؟ فلا شأن له بذلك .. والبيت الأخير من هذا المختتم قد زاد المضمون تأكيداً على تأكيده .. حيث عقد الشاعر من خلاله مماثلة بين صورتين .. صورة ذلك الطائر المجهول الذى لا يُعرف إلا اسماً فقط .. وصورة النفس الإنسانية التى ينبغى أن يتعامل معها الإنسان المسلم على أنها اسم له حقيقة وفقط ، فإذا كان الناس قد حاروا فى الوقوف على حقيقة ذلك الطائر المجهول ، فإن حيرتهم فى الوقوف على حقيقة النفس أشد وأبعد ومعرفتهم بحقيقتها أكثر خفاءً واستتاراً .

وهكذا فقد جاء الختام هُنا إجمالاً لتفصيل سبق ، وتأكيداً لمضمون مضى ، اتسم بأنه كافٍ وشاف ومحكم لايبغى المتلقى للقصيدة زيادة عليه ، حيث كان هذا الختام بمثابة القول الفصل فى هذه القضية التى تعالجها القصيدة هنا .

.. وهكذا هي ختامات الشاعر فى وجدانياته .. حيث يتحقق فى الجل الأعظم منها صفات الختام الجيد من المواءمة والانسجام مع المضمون العام للتجربة ، والإجمال لما فيها من تفصيل ، والتأكيد لما ورد فيها من أفكار ومضامين .. وكونها متممة للمعنى يحسن السكوت عندها .. مما يجعل المتلقى يرضى بها ، ولا يبغى عنها حولاً ولا يطلب سُواها بدلاً .

ثانياً : الوحدة الفنية فى القصيدة الوجدانية

ممَّا يكسب القصيدة صفات الحُسن والروَّعة ، والقوة والجودة – بجانب ما سبق ذكره من عنوان دال ، ومطلع بليغ ، وتخلّصٍ حسن ، وختام جيد كاف شاف مما اتسمت به جلُّ قصائد صان الدِّين الوجدانية .. بجانب ذلك أن يكون بين أفكار

القصيدة ومعانيها :" أجزائها" لُحمة أكيدة ، وصِلة حميمة ، حيث تبدو القصيدة – فى مجملها– مُنسجمة : " تتكامل أجزاؤها ، وتتضام عناصـــرها ، وتتـــآزر أفكارهـــا ، ويتلاحم كيانها فى إحداث ذلك الأثر الفني الجمالي المنشود فـــى أعمـــاق مُتلقيهـــا .. حيث تعمل القصيدة آنئذٍ فى إبراز الشعور ، وإيقاظ الإحساس داخل المُتلقـــين ، فـــلا يشعرون من ثم بخلل ولا تناقض ، ولا يحسون بانقطاع ولا انفصام ، بعد أن غـــدت القصيدة بنياناً مرصوصاً ، وكياناً مدموجاً .. فلا تكون هكذا مجموعة من الخـــواطر المُفككة ، والأفكار المتناثرة – تلك التى لا تنتظم فى سلك فني شعوري واحد .. وإلاَّ فإن المتلقين سينصرفون عن متابعتها .. حيث يحول شرودهم وذهابهم فـــى شـــعاب الأفكار والمضامين التى تحويها القصيدة الواحدة ، والتى تذهب فى كـــل مـــذهب .. يحول ذلك بين المتلقى وبين الإقبال على القصيدة ، ويُغريه بمتابعة أفكارهـــا حتـــى نهايتها ويُسمى هذا المظهر ، ويُعرف لدى النقاد بالوحدة .. تلك التى تتنوع أســـماؤها ما بين وحدة شعرية ، وفنية ، وعضوية"(١) .

وقد تضافرت أقوال النقاد ، وتتابعت تترى فى إبداء حرصهم علـــى الوحـــدة والتماسك بين أجزاء القصيدة ، وما يجب أن يكون بين أفكارها وعناصرها من تآلف وانسجام .. حيث نلتقى بابن طباطبا ت ٢٢٢هـــ فى قوله :" وأحسن الشعر ما ينـــتظم القول فيه انتظاماً يتسق به أوله مع آخره على ما نسَّقه قائله ، فإن تقدَّم بيت على بيت دخله الخلل .. بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرهـــا

---

(١) ينظر : بناء القصيدة فى النقد العربي القديم فى ضوء النقد الحديث – د/ يوسف حسين بكار – صـــ ٢٨١ – ط دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـــ – ١٩٨٣م .

نسجاً ، وحُسناً ، وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ، ودقة معانٍ ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجاً لطيفاً" (١) .

ونطالع مع ابن قتيبة ت ٢٧٦هـ قوله :" وتتبين التكلف فى الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره ، ومضموماً إلى غير لفقه "(٢) .

ورأينا الإمام عبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ يقول فى هذا الصدد : و" واعلم أن مما هو أصل فى أن يدق النظر ، ويفيض المسلك فى توخى المعانى التى عَرفت أن تتحد أجزاء الكلام ، ويدخل بعضها فى بعض ، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول ، وأن يحتاج فى الجملة إلى أن تضعها فى النفس وضعاً واحداً ، وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه هاهنا ، فى حال ما يضع بيساره هناك ، وفى حال ما يُبصر فى مكان ثالث ، ورابع يضعها بعد الأولين "(٣) .

هذا ويُقصد بالوحدة فى القصيدة :" وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع ، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهى إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور ، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته ، وتؤدى بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل فى التفكير والمشاعر ، وتستلزم هذه الوحدة أن يُفكر الشاعر تفكيراً طويلاً فى منهج قصيدته ، وفى الأثر الذى يريد أن يحدثه فى سامعيه ، وفى الأجزاء التى تتدرج فى إحداث هذا الأثر ، بحيث تتمشى مع بنية القصيدة بوصفها

---

(١) عيار الشعر : محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي – صـ ١٢٦ –ط – دار الكتب العلمية – الطبعة الثانية – ٢٠٠٥م .

(٢) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، صـ ٣٧ –طبعة دار المعارف ، ١٩٨٣م.

(٣) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجانى صـ ١٢٧ – طبعة مكتبة الخانجى ، ١٩٨٤ م .

وحدة حية ، ثم فى الأفكار والصور التى يشتمل عليها كل جزء ، بحيث تتحرك به القصيدة إلى الأمام لإحداث هذا المقصود منها عن طريق التتابع المنطقي ، وتسلسل الأحداث أو الأفكار ، ووحدة الطابع .. والوقوف على المنهج على هذا النحو قبل البدء فى النظم يساعد على ابتكار الأفكار الجزئية ، والصور التى تساعد على توليد الأثر المراد "(١) .

فالوحدة العضوية إذن هي تلك التى تحدث ترابطاً بين شطري البيت الواحد ، وأيضاً بين سائر أبيات القصيدة ، بحيث يبدو هناك تآلف بين أجزائها ، وتلاحم بين مكوناتها ، حيث :" تنصهر فيها هذه المكوِّنات لتصبح كياناً واحداً مُتلاحماً متجانساً، لا تفكك فيها ولا تنافر ، وهذه الوحدة تنسحب فى العناصر الشعورية والنفسية والفكرية التى يتألف منها نسيج القصيدة الشعوري ، بمقدار ما تنسحب على الأدوات والتكنيكات الفنية يتألف فيها بناؤه الفني ، فكل هذه الأشياء فى القصيدة الحديثة تمتزج وتتلاحم ، وتتكامل فى كيان واحد متماسك " (٢) .

فالقصيدة فى ظل تحقق الوحدة العضوية إنما هي :" بنية نابضة بالحياة ، بنية تتجمع فيها إحساسات الشاعر وذكرياته ، لتكون مزيجاً لم يُسبق إليه من الفكر والشعور" (٣).

---

(١) النقد الأدبي الحديث : د/ محمد غنيمى هلال – صـ ٣٩٥ – ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر – د.ت .

(٢) نظرية الشعر فى النقد العربي القديم ، د/ عبد الفتاح عثمان – صـ ٢١٢ – ط مكتبة الشباب بالمنيرة – ١٩٨١ م .

(٣) فى النقد الأدبي :د/ شوقى ضيف – صـ ١٥٣ – ط دار المعارف مصر – الطبعة الرابعة ، د.ت .

بحيث تستلزم القصيدة فى ضوء توفّر الوحدة العضوية ، وتحققها :" أن تُسلم الفكرة الأولى إلى التى تليها على ترتيب ونسقٍ يتعذر معه تقديم فكرة على أخـرى ، أو حذف فكرة من بين أخواتها ، دون أن يحدث على إثر هذا الحذف أو التقديم خلـل فى القصيدة " (١) .

.. وتجدر الإشارة هنا إلى ما فى تطبيق تلـك الوحـدة العضـوية بمعناهـا الحرفي على الشعر الغنائي ، وتحققها فيه من عُسر وصعوبة ، وما في إلزام الشاعر الغنائي الوجداني بها من تعسف وشطط :" فالشعر الغنـائي الوجـداني لا يمكـن أن تتحقق فيه هذه الوحدة العضوية ، إلا إذا كانت أقصوصة غنائية ؛ لأن الوجداان يأتى على دفعات وموجات ، ولا يكون شعور دائماً متصلاً ، وفكرة متماسكة مترابطـة .. فطبيعة الشعر الوجداني أن يكون انفعالات يتلو بعضها بعضاً، وليس انفعـالاً واحـداً مُتصلاً ؛ وذلك لِتعدد الانفعالات ، وتباينها نوعاً ، وقوة وضعفاً، ولم تتحقق الوحـدة العضوية أبداً فى الشعر الوجداني لدى أي شاعر من شـعراء العـالم ، اللهـم إلا إذا نظمها على طريقة القصة ، فهنا فقط يجوز أن تتحقق ، وفى شعرنا العربـي حتـى الجاهلي منه أمثلة عِدَّة لوحدة القصيدة إذا جاءت قصة " (٢) .

فالأمر إذن جد مختلف فى الشعر القصصى والمسرحي ، حيث يُلائـم هـذا اللون من الشعر تلك الوحدة ويناسبها ، بل إن تحققها فيه أمر طبيعي ؛ لما يقوم عليه هذا الشعر من سرد أحداث متتابعة متنامية ، ويُراعى فيها التسلسل المنطقي ، حيـث

(١) التجربة الشعرية بين النظرية والتطبيق:د/ ناجى فؤاد بدوى – صـ ٣٧ – ط دار الأرقم بالزقازيق – الطبعة الأولى –١٤١٤هـ – ١٩٩٣م . وينظر : قضايا النقد الأدبي المعاصـر : د/ محمـد زكـى العشماوي – صـ ٢٠٦ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاسكندرية .

(٢) فى الأدب الحديث : أ/ عمر الدسوقى – جـ ٢ – صـ ٢٤٩ – ملتزم الطبع والنشر – دار الفكر العربي .د.ت .

يترتب بعضها على بعض ، ويُوصِّل بعضها إلى بعض ، إلى أن يصل الأحداث إلى العُقدة والتأزم ، فالانفراج والحلّ : " فإذا صوَّر الشعر العربي قصة أو مسرحية ، وتناول أحداثها وعالج مُشكلاتها بالشعر فلابد فيه من الوحدة حتى يبدو العمل الفني متجانساً مُتكاملاً ، أما إذا تناول المدح والهجاء والوصف وغيره ، فلا لزوم للوحدة أبداً ، ويكفينا عاطفة الشاعر القوية ، وتصويره القدير وصدقه الفني فيما تناول" (١) .

ولما كانت الدراسة التى بين أيدينا تعالج جانباً إبداعياً غنائياً يقوم على العاطفة والوجدان لدى شاعرنا صان الدِّين فقد بات من الصعب والعسير أن يتحقق فيه هذه الوحدة العضوية بمعناها الحرفي ، بحيث تُرتب الأبيات داخل القصيدة ترتيباً منطقياً ، يأخذ كل بيت فيها بتلابيب السابق عليه ، ويستدعى وجود اللاحق به، بحيث إذا حذف بيت منها ، أو قدِّم على غيره اختل المعنى ، وفسد المضمون ، وانقضَّ – من ثم – تأليف القصيدة ، وانهار بنيانها ، وانهدت أركانها ..

ولما كان الأمر كذلك فقد بات من الصعب العسير إذن أن يتحقق فى هذا الجانب الإبداعي –الغنائي الوجداني تلك الوحدة العضوية – بمعناها الحرفي ؛ وذلك لأن الشعر الغنائى يقوم على العاطفة والوجدان ، ومن الصعب أن يتحكم الشاعر الوجداني فى مشاعره وأحاسيسه ووجدانه ، ومن العبث أن يُطلب منه أن يُخضع أحاسيسه ومشاعره للترتيب والتنظيم وإعمال المنطق فيها ، والالتزام بالضوابط والمقاييس النقدية ؛ لأنها –أي تجاربه الوجدانية – عبارة عن دفقاتٍ شعورية ، ودفعات وجدانية من العسير التحكم فيها ، والسيطرة عليها .. وإن كان هذا لا ينفى وجود صلات قوية ، وعلاقات حميمة بين أفكار ومضامين الشاعر – خلال قصائده

---

(١) ملامح النقد العربي فى القديم : د/ عبد الرحمن عبد الحميد علي – صـ ٨٣ – مطبعة الأمانة بمصر – الطبعة الثانية-١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م .

الوجدانية – حيث لا تعدم تلك القصائد وحدة الجو النفسي ، والشعوري ، ووحدة الباعث ، أو الدافع الذى يدفع شاعرنا فى إبداع قصائده الوجدانية موضوع الدراسة هنا .. إلا أن ذلك لا يرقى إلى درجة قصائده التى تنزع نزوعاً قصصياً ، وتنحو منحىً دراميًا ، حيث يُناسب مثل ذلك اللون من القصائد تلك الوحدة العضوية بمعناها الحرفي – ويصلح بطبيعته لتحققها وتوفرها ..

ومثل ذلك اللون من القصائد التى تنحو منحاً قصصياً ،وتنزع نزوعاً دراميا حوارياً بين تجارب صان الدِّين الوجدانية الكثيرة .. مثل ذلك اللون من القصائد قليل جداً ونادر للغاية فى نتاج صان الدِّين الشعري الوجداني .. ومن ذلك القليل النادر من قصائده الذى تتحقق فيه الوحدة العضوية بمعناها الحرفي الدقيق ما جاء فى قصيدته التأملية :" البعث حقيقة " ، حيث أقامها على الحوار الذى دار بينه وبين ذلك الجاحد المنكر لحقيقة البعث ، والمشكك والمُرتاب فى حدوثه بعد الموت .. وشاعرنا يحاور صاحبه هذا حواراً يسوق خلاله الأدلة والبراهين على صحة ما يذهب إليه ، ويعتقد فيه اعتقاد المؤمن قوي الإيمان ، صحيح العقيدة .. يقول صان الدِّين من قصيدته التأملية هذه وقد استهلها بتأمله فى عالم الموتى ، وتفكيره فى أصحاب القبور تأمل وتفكير المؤمن ذى العقيدة الصحيحة ، حيث يعتقد فى أن الله سبحانه يبعث مَن فى القبور ، ومن قبل الموت تكون الحياة التى يهبها الله سبحانه خلقه ، ثم يكون الموت والفناء ثم البعث والنشور ، حيث يبعث الله تعالى من فى القبور، ثم يوقفهم فى موقف عظيم ،ففريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، مُهيباً – أي شاعرنا– فى أثناء ذلك ببنى قومه أن ينتبهوا من ضلالهم ، ويفيقوا من غيهم، ويأخذوا من ذلك العظة والعبرة .. ثم يطلعنا بعد ذلك على حال ذلك الجاحد المنكر لحقيقة البعث فيعقد حواراً بينه وبينه .. عارضاً لموقف ذلك الجاحد المنكر المستبعد بعقله عودة الحياة بعد الموت ، وأن ذلك – كما حكى القرآن الكريم – على لسان الكافرين – رجع بعيد ..

ثم ها هو ذا شاعرنا يسوق بين يدي ذلك الجاحد فـــى بقيـــة قصـــيدته هـــذه الأدلـــة والبراهين على صحة معتقده ، مؤكداً من خلال تلك المشاهد ، ومثبتاً بها كون البعث حقيقة مُشاهدة لا ريب فيها .. ها هو ذا شاعرنا يشير إلى تلك المعانى والمضـــامين– من خلال حوارٍ أقامه مع ذلك الجاحد الدَّعي ، طال به ، وامتدَّ عبر أبيـــات قصـــيدته هذه ، حتى كانت نهايتها المُقنعة المُرضية للمتلقين ، حيث اســـتحال هـــذا الجحـــود والنكران لدى هذا الدّعيِّ إلى إيمان وتسليم ، وإقرار وإذعان بوجود حقيقة البعث :

طفت يومـــاً فى خشـــوع ... عنـــد أرمـــاس قديمـــه
عـــرت الأريـــاح منـــها ... أعظمـــاً فيهـــا رميمـــه
بعضـــها قد صـــار تُربـــاً ... ذهبـــت عنـــه الزهومـــه
كان هـــذا التّرب يومـــاً ... جســـم هيئـــات وســـيمه
ناعمـــات مرهفـــات ... ذات أصـــوات رخيمـــه
واستهـــلت من عيـــونى ... فوق صحن الخـدِّ عَبـرَه
ذى حيـــاة ثم مـــوت ... وانـــدثار بـــين حُفـــره
ثـــم نشـــر وانبعـــاث ... حـــين يلقـــى الله أمـــره
ثم خلـــد فى جحيـــم ... أو جنـــات مُســـتقره
يا بنى الدنـــيا أفيـــقوا ... إنَّ فـــى هـــذا لعبـــره!!
فانبـــرى لى ذو فتـــون ... فـــى ازدراء أو يزيـــد
قال لى فى نبـــرة قـــد ... هـــالني منهـــا الجحـــود
أي مـــرءٍ مُستنيـــر ... ضـــمَّه هـــذا الوجـــود؟!
لا يـــرى فى بعـــث عظـــم ... أنّ ذا رجـــع بعيـــد !!

كــــل شــــيء إن تلاشـــى ... فـــى فنـــاء لا يعـــود!
فى دياجــى المـــوت يخفى ... النـــاس فـــى ليـــل طويـــل
مـــا رأينـــــا أنّ ميّتـــاً ... عـــاد مـــن بعـــد الرَّحيـــل
مـــا سمعنـــا غير قـــول ... لـــم يُؤيَّـــد بالـــدليل
عن نشـــورٍ بعد مـــوت ... ســـاغ فـــى الفكـــر الكليـــل
أي برهـــان لدعـــوى ... ردَّهـــا راقـــى العقـــول؟!
قُلت : يـــا هـــذا تأمّـــل ... ذلـــك الغُصـــن الرَّطيبـــا
وانظـــر الأزهـــار فيـــه ... تمـــلأ الأجـــواء طيبـــا
كـــان من عـــهد قريـــبٍ ... يابســـاً يؤســـى القُلوبـــا
ليـــس فيـــه من حيـــاة ... لا تـــرى إلا شـــحوبا
ماله قـــد عـــاد غضّـــاً ... يرتـــدى ثوبـــاً قشـــيبا؟!
وانظر الغبـــراء تُلـــف ... أنهـــا أرضُ مـــوات
لا تـــراها غيـــر جـــدبٍ ... جعدتـــه الســـافيات
إن سقـــاها الغيـــث دبّت ... فـــى روابيهـــا الحيـــاة
واكتســـت خصبـــاً بهيجاً ... قـــد زكـــا فيهـــا النبـــات
يُجتنـــى منـــه ريـــاش ... أو ثمـــار ناضـــجات
هذه الأشجـــار تنمـــو ... مـــن جســـوم الغابرينـــا
حيث صاروا بعـــد مـــوت ... فـــى طبـــاق الأرض طينـــا
واستحال الطين فى الأشـــ ... ـــجار أعنابـــاً وتينـــا
قـــد طعمنـــاه ثمـــاراً ... حلـــوة منهـــا حيينـــا

كيـف عـــاد الميــت حيّاً ... فى خلايــا العـيش فينـا؟!
حيـــن تُمســـى فى سباتٍ ... دون إدراك وحِـــــسِّ
صرتَ مُلقـــى فى فــراش ... لســتَ تــدري أيــن تُمســى
ثم تصــحو فى حيـــاة ... بــين أفـــراح وعُــرس
إنـــه مــوت وبعـــث ... كـــل يـــوم دون لـــبس
وانطـــراح فـــى سريــر ... كـــانطراح بـــين رَمــس
هـــل سألــت العقـــل يوماً ... أيـــن كـــان المــرء قبــل؟
كيــف أضحـــى ذا كيــانٍ ... شكله فـــى العـين يحلـــو؟!
كيــف دبّـــت فيـــه روح ... ذات أســـرار .. وعقـــل؟
لم يكـــن من قبـــل شيئـــاً ... منـــه فـــوق الأرض ظِــلُّ
كـــان معدومـــاً بغيـــب ... لـــيس عنـــه مـــا يــدل
كـــم علـــى الدنـــيا ظلوم ... غـــاب عـــن قــاض وحــاكم
عاث فـــى الأرض فســـاداً ... كالوبـــــاء كـــالأراقم
ما نجـــا منـــه ضعيـــف ... أو حلـــيم أو مُســـالم
لـــو فرضنـــا البعث وهمـــاً ... قد نمـــا فـــى ذهــن واهــم
واختفى فى النـــاس زجـــر ... أين يُقضى فـــى المظـــالم؟!
أيـــها المرتـــاب أخفـــى ... بالممـــــاراة مــــراده
أي ريـــــب أي لبـــــس ... هزّ فـــى البعـــث اعتقـــاده؟!
إنّ عظـــم المـــرء يحيـــا ... قائمـــاً يـــوم الشـــهاده
فالـــذى ســـوّاه بــــدءاً ... باختيـــــــار وإراده

فــــى جمـــــال واكتمـــــال ... لـــــيس تعييـــه الإعـــــاده
فى محيًّـــا صـــاحبى قـــد ... حـــدّقت عينـــى لعـــلّ:
مـــا تغشّـــــاه رقيـــــق ... مـــن ضـــباب قـــد تـــولّى
فارتــــــأت فـــيه بريـــــقاً ... مـــن هـــدي القلـــب تجلّـــى
والذى قـــد كـــــان وَعـــراً ... منـــذ ســـاع صـــار ســـهلا
ثم حيًّـــا فـــى خشـــــوع ... قـــــائلاً: أين المُصلِّى؟[١]

ويلحظ المُطالع لهذه التجربة ما تقوم عليه أبياتها من تسلسل ، وتتابع منطقي، وترتيب طبيعي ، يأخذ بعضها بتلاليب بعض ، ويستدعى السابق منها اللاحق عليهــا ، فتبدو من ثم مترابطة شديدة الترابط ، متناسقة متناغمة التناسق ، بحيث إذا حــذف منها مجموعة (خُماسية) ، أو قُدِّمت واحدة منها على أخرى لبــدا علــى التجربــة واعتراها الخلل .. حيث راحت تتقدم أبياتها شيئاً فشــيئاً ، وذهبــت أحــداثها تتمــو وتتصاعد حتى تصل إلى ذروتها وتأزمها ، ليأتي بعد ذلك الحَل ، وتكون الانفراجــة والنهاية .. تلك التى يُحس معها المُتلقّون بقناعة ورضاً تامين ، فكأنى بالتجربة هنــا وقد غَدَت كالبنيان الواحد إذا هوت منه لبنة ، أو انتقلت من مكانها لخــرّ وانهــدم ، والحال هنا بالنسبة للقصيدة ، فلو حدث ذلك فيها لفسد المعنى، واختلَّ المبنى .

وهكذا فقد بدت الوحدة العضوية متحققة إلى حدٍ كبير خلال تلك القصــيدة – كما نرى – وذلك بعد أن أقامها الشاعر على أسلوب الحوار الذي دار بينه وبين ذلك الجاحد المنكر لحقيقة البعث .. وقد كان لأسلوب الحوار الذى تبنى عليه القصيدة هنا

---

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صــ ٧٧-٨٢ ، والأرماس : القبور ، تزايله : تفارقه ، الزهومة: الريح المنتنة ، وعبرة: دمعة ، والغبراء : الأرض ، وجعدته: جعلته غليظاً ، متعرجاً ، والسافيات : الرياح .

أثره البارز فى إضفاء صفة الوحدة العضوية عليها ، فبدت تلكم القصيدة من ثم نسيجاً مُكتملاً ، وكلاً مندمجاً ، وبنياناً مرصوصاً ، وجسداً واحداً .. حيث تسلسلت معانيها ، وتتابعت مضامينها ، وتنامت أحداثها ، وتصاعدت لتفضي فى النهاية إلى ذلك الختام الذى رأيناه يتسم بالختامات المحكمة التى لا يبغى المُتلقى زيادة عليها بعد أن رضي عنها ، وقنع بها .

ولا يخفى ما تحقق فى تلك القصيدة ما يستلزم تلك الوحدة العضوية – بجانب قيام التجربة هنا على الحوار والحكي والقصة ، وما بين أبياتها من صلة جد حميمة، وعلاقة عضوية–لا يخفى ما تحقق فيها– بجانب ما ذكرمن وحدة الموضوع ، ووحدة الوزن والإيقاع دون القافية ،حيث أتى بها الشاعر فى خماسيات، تتفق كل خماسية فيها فى قافية واحدة، ووحدة الباعث والغاية ، ووحدة الجو النفسي والشعوري .

وهذا التحليل والتوصيف السالف الذِكر يمكن أن ينسحب بعينه على قصيدة صان الدِّين التأملية : " حكمة طائر " ، حيث تنحو هي الأخرى منحى القصة ، وتنزع منزع الدراما ، وذلك بعد أن أقامها الشاعر ، وبنى التجربة فيها على حوار دار بينه وبين ذلك " الطائر" الذي وقف من الشاعر موقف الفيلسوف الحكيم الذى خبر الحياة والأحياء ، فراح من ثم يُدلى بين يدي الشاعر تأملاته فى عالم الإنسان ، وعالم : "عالم الطيور" ، آتياً ومُستخلصاً فى أثناء ذلك الحكمة وفصل الخطاب .. يقول صان الدِّين فى قصيدة تأملية حوارية ساد الترتيب والتنظيم والتنسيق بين أبياتها ، وقد استهلها بتصوير غبطته لذلك الطائر على ما يحياه من حياة فى ظاهرها الهناءة والوداعة .. وهنا يقف الطائر ليُبيِّن له ما يكون قد خفي وغاب عن أنظاره من جوانب حياته غير الوادعة ، ولا الهانئة فى بعضها ، كما يقف ذلك الطائر الذى يحاوره الشاعر فى بقية القصيدة موقف الحكيم المُجرِّب الذى خبر الحياة والأحياء :

قد قلت للعصفور وهو يرف بيــ ن جــداول رقراقــة وأزاهــر
فوق المروج المُمرعات الفُيَّح يشــ دو للحياة وللصــباح الناضــر
ويُردد الأنغــام ساحرة الصَّدى من فوق عرش الأيك عفو الخــاطر
يهنيك يا عصفور عيش ناعم لك فيه ما يهوى خيال الشــاعر!!
إنَّ الفضاء مسخر لك فى مدى الأف ق المُــدبج بالضــياء البــاهر
والروض ملكك والغصون المُثــ قلات الحانيات على الغدير الزاخـر
والظِلّ والماء والنمير وبسمة الإصــ بــاح فى بهــو الوجــود الســاحر
تغــدو به وتــروح حُراً آمــنا كالحلم كالطيف الجميل العــابر
فإذا أجن الليل تأوى هـــانئاً كالطفل فى دعة وسُكر مشــاعر
مُستعصماً فى دوحة شــماء يقــ صر عن مداها كل خــب حــائر
ترعاك فى مهد يظلله الكــرى أحداق نجم فى الدياجى ساهر!!
فى مأمن من عاديات مُخــاتل أو طامع أو شــانئٍ أو غــادر فأجــابنى
العصفور فى سمت الحكيــ م وفــى إشــارة فيلســوف ســاخر!
ورنا إليَّ وفى وميض عيـــو نه عبرات راثٍ وابتسامة مــاكر
ويحُ ابن آدم فى نضارة عيــ شه يخطو كخطوات الضرير العــاثر!!
يجتــاز درب حيــاته مُترنِّحاً بجبلَّـــة حيــرى وعــزم خــائر
يشقى ويســعد بالوهــوم كأنــ نه فى رشده يحيا بفكرٍ قاصــر
ويهيم فى بيد الحيــاة مُضلّلا عن روحها ولبابهــا بالظــاهر
وهو المُــدلّ بعقــله وذكـــا ئه وهو المســف إلى الحضيض الغائر

يا ويحه من جاهل متعالم كَلِفٍ   بسفســـاف الأمــور مكـــابر!
ثم استدار الفيلســـوف مُولِّيا   مُتحصِّناً منـــى بغصـــن آخـــر
وكأنما قدرابـــه ما انتـــابنى   من عزة عصفت بكلِّ مشـــاعرى
لكنـــه أومأ بإصغـــائى لـــه   فبقيت منجـــذباً إليـــه بســـائرى
ومضيت أرهف مسمعى لحديـــ   ـثـــه ومضى يخاطبنى بعين مُحاذر
قف يا وعاء الحُمق واسمع إننى   أفُضى إليك بخبرتى وســـرائرى
كم ذا ألاقى فى حياتى مُزعجـــاً   وأمرُّ بـــين فجاجهـــا بمخـــاطر
أجتاز فى وضح النهار حبـــائل   الصياد أو فخ الصـــبي الهـــاذر
ويقوِّض الأطفـــال عُشي عَنوة   فـــأعود أبنيـــه بعـــزم مثـــابر
وأبيت أحلمُ بانقضاض الصقر أو   زحف الأفاعى فى رهيب ديـــاجر
وتقض زمجرة العواصف مضجعى   ويهولنى رعد السحاب المـــاطر
حتَّى إذا ولى الظـــلام بهـــو   له وبدت تباشير الصباح السافر
أشدو وأرقص مُغفلاً ما كان أو   سيكون فى الكون الرحيب الهـــادر
لا أركُضن خلف الأمانى لاهثاً   كلا ولا أبكى رحيـــق الغـــابر
إنَّ الحياة كما أُحـــس بفطرتـــى   أفراح يـــوم وانتهـــازة حاضـــر
خذهـــا كـــما شـــاء الإله مطـــية   فى رحلـــة أو واحـــة لمُســـافر
فوقفت مشدوه المشاعر خاشـــعاً   مُتعجـــباً أصغـــــى لحكمـــة طائر(١)

وهكذا يبدو من خلال تلك الأبيات ما تحقق فيها مـــن الوحـــدة العضـــوية .. بحيث بدت القصيدة أشبه هنا بقصة شعرية لها بداية ووسط ونهاية .. تبدأ أحـــداثها ،

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٤٥-٤٧ .

ثم تنمو وتتصاعد إلى أن تصل إلى التأزم والذروة ، ثم يأتى الانفراج بعد ذلك والحلّ ، حيث النهاية ، حيث تغدو القصيدة هنا كنظيرتها السابقة كالعقد الذى تتجاور وتتناغم جبَّاته ، حيث تأخذ الحبَّة بيد الأخرى فى تناسق وتناغم وانسجام .

ونلتقى أيضاً – خلال تجارب شاعرنا الوجدانية – بتلك القصيدة الرومانسية الحالمة التى نحا فيها منحى الشعراء الرومانسيين فى إيثارهم للعزلة ، حيث الطبيعة وهروبهم وفرارهم من العقلاء إليها بعد أن صدمهم الواقع بما يموج ويغصٌّ به من مفاسد ومتناقضات من شأنها أن تنغِّص على ذوى النفوس النبيلة، والأحاسيس المرهفة هناءتهم ، وتقض مضجعهم ، وتدمى مشاعرهم .. وشاعرنا هو واحد من هؤلاء الرِّجال الذين صُدِمُوا فى مجتمعهم فلاذوا بالهروب والفرار منه إلى الطبيعة، حيث الملاذ الآمن ، والرحاب الآنس الذى يفيض بالصفاء والنقاء ، ولا يعرف الزيف والخداع ، ولا سبيل فيه إلى التصنُّع والنفاق ، وارتداء الأقنعة والبغضاء ، وإننى فى هذا الصدد أدعو القارئ الكريم إلى قراءة تلك القصيدة الحالمة ذات العنوان الدَّال : " حُلم شاعر" قراءة متأنية ، حيث سيبدو له كيف أنها تعالج وتُجسِّد مضموناً كلياً واحداً لا تتعداه إلى غيره ، تدخل تحته عدّة أفكار جزئية لا تكاد تخرج فى مضمونها عن مضمون القصيدة الكلي .. حيث تبدو أبياتها متماسكة البنيان ، متآخية الوجدان .. يقول صان الدِّين :

يا حبذا العيش الوديع بواحــة   شجراء قد ناءت عن العُمــران!!

فى عزلة ما شاهدتها أعيــن   أبداً ولا خطرت بهــا قــدمان

يضفى عليها الطهر روعة حُســ   نه فتخالها من جنة الرضــوان!

وهناك فى حُضن السكون أُعِد من   سعف النخيل ويابس الأغصــان:

كُوخاً تحف به الزهور ويكتسى   بقشيب ظل الدَّوح والأفنـــان

يُهدى النسيم إليه فى غـدوا — ته روْح الحياة ونفحة الرَّيحان
وترُدِّد الأطيـار فى أفنانـها — لحن الصـفاء فينتشـى وجـدانى
والماء يعدو فى الجداول بعدما — أرخت له الغدران فضل عنـان
ينساب فى ظلِّ الخمائل حالماً — حتى يضلّ هُناك فى الكثبـان
والنَّخل يضرب فى السَّما متمايلاً — بين الأثير تمايـل النشـوان
فأظـل يومـي هـانئاً متنقلاً — ما بين ظـل وارف وأغـان
وأطالع الآيات فى سفر الوجو — د فأجتلى إشـراقة الـرحمن
حتى إذا اولج النهار بغمـ — ـده وغزت جيوش الليل كـل مكـان
وتلاشت الأصداء فى صمت الدُّجى — والنوم راح مداعباً أجفـانى
آوى إلى كـوخ وئيد وادعـاً — فيضـمُّنى بترفـق وحنـان
وأنام فوق العُشب يغمرنى الكرى — والقلب فى مهد الجوانح هانى
وكـذا أعيـش فلا لئيما شـانئاً — ألقـى ولا خِـل بهـا يلقـانى
فإذا سراج الرُّوح أطفـأه الرَّدى — والموت أفعم كأسـه وسـقانى
وقفت زرافات الطيـور حزينـة — تبكى بألحان الأسـى فقـدانى
والأيك ينثر حول جسمي زهـر — ه ويحوك من أوراقـه أكفـانى
وتروح حولى السافيات وتغتدى — حتى يُوارى فى الثَّرى جسـمانى
والكائنات هنـاك تهتف ههـنا — مثوى غريب من بنى الإنسان(١)

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٩ ، ٤٠ ، وولج النهار غمده : أي دخل فى الليـل ، والـرَّدى : الموت ، أفعم : ملأ ، والأيك : الشجر الكثير الكثيف الملتف ، والسافيات : الرياح المُحملة بالتراب .

وهكذا يبدو لقارئ تلك القصيدة من النظرة الأولى ما يتحقق فيها – بجلاء– من وحدة الروح والمشاعر ، ووحدة الموضوع ، ووحدة الوزن والقافية ، ويلحظ قارئها أيضاً ما بين أبياتها – فى جُلِّها من تسلسل طبيعي ، وترتيب منطقى ، بحيث رأينا البيت الأول يؤذن بالبيت الثانى ، والثانى يسلم القارئ للثالث ، والرابع يأخذ بحجز الثالث .. وهكذا تسير الأبيات هنا سيراً منطقياً حتى النهاية ، تلك التى تشى بموت ذلك الحُلم الهنيء الذى طالما تاقت إليه نفس الشاعر ، وتؤذن بانتهائه ، حيث تروح كائنات الطبيعة ، وتغتدى تبكى جسد الشاعر الذى ووُري الثَّرى هاتفة بقولها الشجي : ههنا مثوى غريب من بنى الإنسان .. وكأنى بالشاعر يشير فى هذا الختام من طرف خفي ، ويومئ به إلى ما قد يكون قد دبَّ ونشأ بينه وبين مظاهر الطبيعة – تلك التى لاذ بالفرار إليها ، والمثول بين ربوعها ناشداً فيها الأنس والايناس ، والراحة والهناء .. كأني به فى هذا المختتم الرومانسي الحزين يشير إلى مادبَّ ونشأ بينه وبين مظاهر الطبيعة – على اختلافها – من ألفة وانسجام وحُب ووئام .. مما يجعلنى أقول بتحقق الوحدة العضوية بمعناها الحرفي فى تلك القصيدة التى غدت أشبه ما تكون بمسرحية شعرية لها ما للمسرحية من مكونات تتمثل فى المكان والزمان والشخوص والأحداث وغير ذلك من المكوِّنات التى تقوم على التتابع والتنامى، ثم التأزم والتعقيد، فالحل حيث النهاية .. فمن يتأمل هذه القصيدة يدرك أن بها خيطاً شعورياً واحداً ، وسلكاً وجدانياً تنتظم فيه ، وتنطلق من أول بيت فيها وحتى آخر بيت ، فهي تدور حول هذا : " الحُلم الآمل الهنيء الذى يحلم شاعرنا بتحققه بعد أن ضاق بالعقلاء .. فراح من ثم – ينشد – فى أحضان الطبيعة الحانية، وظلالها الوارفة الصفاء والنقاء والوداعة والهناء .. وقد تناول كل بيت من تلك الأبيات جزءاً من الحديث عن هذا الحُلم حقيقته – دواعيه وأسبابه ، مظاهره وآثاره .

.. وهكذا تتحقق الوحدة العضوية خلال هاتين القصيدتين ، سالفتي الذكر اللتين تنزعان منزعاً قصصياً ، وتتحوان منحى درامياً ، حيث تقومان – كما رأينا – على الحوار .. هذا الذى يجعل أبياتها مسلسلة تسلسلاً طبيعياً منطقياً .. بحيث يسلم البيت الأول الثانى ، والثانى يسلم الثالث .. وهكذا تأخذ أبياتها بحجز بعض ، حيث تسير فيهما سيراً منطقياً حتى تتنامى أحداثها ،ثم تتأزم لتصل إلى النهاية –تلك التى بدت مقنعة مُرضية .

بجانب هذه القصيدة الرومانسية قريبة الذكر هنا والتى أخذت شكل القصة أيضاً .. وما سُوى هذه القصائد الثلاثة تقريباً فلم يتحقق فيه تلك الوحدة العضوية بمعناها الحرفي .. حيث لم تتحقق تلك الوحدة فى الكثرة الهائلة ، والجُل الأعظم من تجارب الشاعر الوجدانية ؛ وذلك لما تقوم عليه من العاطفة والوجدان ، ومن الشطط والتعسُّف إخضاع هذين العُنصرين لأية ضوابط ومقاييس نقدية ؛ لأنها عبارة عن دفقات شعورية ، ودفعات وجدانية من العسير التحكم والسيطرة عليها ، ومن ثم إخضاعها للترتيب والتنظيم وإعمال المنطق والعقل فيها .. وإن كان هذا لا ينفى أبداً ما تحقق – بجلاء– بين أفكار الشاعر ومعانيه – خلال تجاربه الوجدانية الأخرى من صلات قوية ، وعلاقات حميمة ، وروابط وشيجة من شأنها أن تُحقِّق وحدة المشاعر والأفكار والصور، ورعاية الترابط والتلاؤم بين تلك العناصر ، بحيث لا يحس المُتلقى ببُعد وقطيعة بين الفكرة والأخرى ، أو الصورة والأخرى .. وإن كان هذا لا يرقى إلى درجة الوحدة العضوية ، بحيث يمكن حذف بيت من القصيدة الوجدانية غير القصصية لدى الشاعر ، أو تقديم بيت أو تأخيره على ما سُواه .. دون أن يُحدث ذلك خللاً فى بناء القصيدة ، ولا اضطراباً ولا هلهلة فى نسيجها .. فالحق أنّ من يطالع وجدانيات الشاعر يبدو له ما يتحقق – بجلاء– فى الجُلّ الأعظم ، والكثير الهائل منها من وحدة الشعور والانفعال والأفكار والصّور والصياغة الفنية ،

بحيث تتحد هذه العناصر ، وتتجانس جميعاً فى إضفاء صفات الترابط والتماسك على القصيدة ، فتغدو من ثم متماسكة البنيان ، متآخية الوجدان .

كان هذا حديثاً مفصَّلاً – بعض الشيء – عن الوحـــدة العضـــوية بمعناهـــا الحرفي – ومدى تحققها فى وجدانيات صان الدِّين .

والآن آخذ القارئ الكريم إلى الحديث عن اللون الثانى من هذه الوحدة خلال تجارب شاعرنا الوجدانية – وهو الوحدة الموضـــوعية .. فـــأقول – مطمئنـــاً – أن قصائد صان الدِّين –خلال شعره الوجداني موضوع الدراسة هنا – تكاد تكون كلهـــا ذات موضوع واحد لا تتعداه إلى غيره ، ولا أدل على ذلك مـــن عنـــاوين قصـــائد الشاعر – خلال وجدانياته هذه ، حيث عادة ما تكون تلك العناوين منبئة عن طبيعـــة التجربة ، وما تعالجه من موضوع ، وتعبِّر عنه من مضمون من مثل قصائده عـــن الشعر : "يا شعر"(١) ، "أنغامُ الحياة أنت" (٢) ، "سأشدو" (٣) ، ومن مثل قصـــائده فـــى التأمل : "حكمة طائر" (٤) ، "صمت الطيور" (٥) ، "البعث حقيقة" (٦) ، "أيتها النفس" (٧)

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٢١ ، ٢٢ .

(٢)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٢٣ ، ٢٤ .

(٣)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٣١-٣٤.

(٤)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٤٤-٤٧.

(٥)ديوان : أعاصير وأنسام –صـــ ٥٢-٥٥.

(٦)ديوان : أعاصير وأنسام –صـــ ٧٧-٨٢.

(٧)ديوان : أعاصير وأنسام –صـــ ٩١-٩٣.

، "مراقى السموّ" (١) ، "جنوح" (٢) ، "الغاية والوسيلة" (٣) ، "شعوذة ودجل" (٤) ، "الغاية والوسيلة"(٥) ، "ديكور" (٦) ، "ذكر

أم لهو؟" (٧) ، "وما أدراك ما النفس"؟ (٨) ، "مع حواء" (٩) ، "جمال الكون" الكون" (١٠) ، ومن مثل قصائده فى الشكوى : "أهي القيامة أوشكت ؟!" (١١) ، "أزف الرحيل" (١٢) ، "زفرة" (١٣) ، ومن مثل قصائده فى الغربة بِنَوعَيْها : النفسية والحقيقية : " المكانية " : "حائر" (١٤) ، "حُلم شاعر"(١٥) ، "الحنين إلى أرض الكنانة" (١٦) ، "أشواق مغترب" (١) ، "ورحلت يا أمَّاهُ" (٢) .

---

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٠١-١٠٢.

(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان صـ ٣١.

(٣)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٣٢.

(٤)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ٣٣-٣٥.

(٥)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٣٢.

(٦)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ٣٨.

(٧)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٥٩.

(٨)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٦٠-٦٤ .

(٩)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٦٧-٧٠ .

(١٠)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ١٢٥-١٢٩ .

(١١) ديوان : أعاصير وأنسام صـ ٣٩-٤٠ .

(١٢)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٤١-٤٣ .

(١٣)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٦-٥٧ .

(١٤)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٨-٦٠ .

(١٥)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٩-٤٠ .

(١٦)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٦١-٦٢ .

فهذه القصائد – هي تقريباً جُلُّ قصائد الشاعر خلال تجاربه الوجدانية .. وهي كلّها تتحدث عن موضوع واحدٍ ، لا تتعداه إلى سُواه ، وهذا يدلنا على اكتمال التجربة ، واختمار مضمونها فى ذهن ووجدان الشاعر قبل الشروع فى إنشائها ، وانشغال فكره بموضوع التجربة التى هو بصددها قبل أن يبدأ فى صوغها بعد ذلك .. باستثناء القليل النادر جداً من قصائده الوجدانية التى تعددت فيها الموضوعات .. ومع تعدد الموضوعات فيها ، إلا أنها فى النهاية يمكن أن تلتقي فى مضمون واحدٍ .. من مثل قصيدة شاعرنا التى بعنوان : " أنت " ، حيث تضمنت ثلاثة موضوعات : الأول : هو ما يدور حول التأمل فى حقيقة الإنسان .. وكيف ينظر إلى الأشياء من حوله ، آملاً أن تكون أحداث الحياة موافقة لهواه ، حيث يقول صان الدِّين مازجاً بين حِكَمِهِ ووصاياه ، وبين ألمه وشكواه :

أنت فى الدنيا طليح ... تائه بين الضباب
بقشور يابسات ... تتلهَّى عن لباب
فوق شوك الحمق تعدو ... لاهثاً خلف السَّراب
مُدبراً من غير وعي ... عن ينابيع السَّراب
ثم تمضى فى شكاةً ... ونحيب واكتئاب
أنت ترضى عن أمور ... ليس يرضاها سواكا
أنت تبغى الجوَّ صحواً ... حين يبغى الغيم ذاكا

---

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٦٣-٦٦ .

(٢)ديوان : أعاصير وأنسام صـ ١٨٨- ١٩١ .

أنت ترجـــو الخير حكـــراً مُـــدبراً عمَّـــن عـــداكا
ترغـــب الأقـــدار تأتـــى بالذى يُرضـــى هـــواكا(١)

والثانى يدور حول الشكوى مما جدَّ وطرأ على بنى مجتمعه من طباع شاذة، وعادات سقيمة ، وأخلاقيات سيئة ، وسلوكيات معوجة ضاق بها الشـــاعر – مثلمـــا ضاق بها ذوو النفوس النبيلة ، والمشاعر المرهفة .. يقول صان الدِّين فـــى كلمـــت علت فيها نبرة التشاؤم لديه ، وازدادت حدتها فى ناظريه :

لا أرى الإنســـــــــان إلا ثعلبـــــاً قـــــد رام صـــــيدا
ســـــارحاً بيـــــن البـــــرارى يبتغـــــى قوتـــــاً وورِدا
لا يُبـــــالى أو يُـــــراعى فـــــى أخيـــه الغِـــرِّ عهـــداً
لـــــذة الدنـــــيا اغتـــدت فى حِسِّـــه دينـــا وقصـــدا
ذاك أمـــــر ليـــــس يخفى عنـــك لـــو أحكمـــت رصـــدا
إنّ فى الإنســـــان قـــدراً مـــن جـــبلات الســـباع
جـــاءت الأديـــان تبغـــى فيـــه تهـــذيب الطبـــاع
علّهُ من وهـــدة الصلصـــا ل يســـمو فـــى ارتفـــاع
لكـــن الأهـــواء فيـــــه آثـــرت ســـقط المتـــاع
بيـــد أن الموت نصب العيـــ ن منصـــوب الشِّـــراع
ضقتُ بالإنســـــان ذرعـــا والأمـــــانى والشـــجون
وارتضيـــت العيـــش فـــى صـــمت الليـــالى والســـكون

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ١٠ ، وطليح : مُتعب مُعنًّى .

أرصـــد الأطيـــاف حولـــى		ســـــابحات كــــالظنون
هل أنا كالنـــاس طبعـــاً		كنـــت مـــن مـــاء وطـــين ؟
لم إذن لا أرتضـــى عيـــش		التجنِّـــى والمجـــون ؟!(١)

والموضوع الثالث الذى تضمنته تلك القصيدة دار مضمونه حول طائفة من الحِكم والوصايا التى يسديها الشاعر بين يدي قُرَّائه ،ومُتلقى شعره ، حيث يقول من القصيدة ذاتها :

ذاهـــل عـــن روضـــه مـــن		نـــام عـــن جنـــي الثمـــار
أحمـــق مـــن راح يبغـــى		الظِـــل فـــى جـــدب القفـــار
عابثُ من رام عـــز العيـــ		ش فـــى حُضـــن الصـــّغار
إنهـــا الدنيـــا اجتهـــاد		كـــلّ أطـــراف النهـــار
من توانى فى ارتقاء الصعـــ		ب يقعـــد فـــى انكســـار (٢)

وهكذا تبدو تلك القصيدة الوجدانية التأملية– وقد تعددت موضوعاتها ، إلا إنَّ المتأمل لها يدرك أن هناك مضموناً رئيساً ، وغرضاً أصـلياً ، وموضـوعاً أساسـاً واحداً يشمل تلك الأفكار الجزئية ، ويضمها جميعاً ، ذالكم هو التأمـل فـى حقيقة الإنسان ، وإبداء الشكوى والتبرم والضيق –إزاء ما جد وطرأ على إنسان العصر الحديث من عادات سقيمة ، وأخلاقيات سيئة ، وسلوكيات مريضة تطفح بالمفاسد والشرور ، وتغصُّ بالطغيان والغرور .. من شأنها أن تنقله من عالم الإنسان

---

(١)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٥ ، ١٦ ، وجبلات : طبائع ، ووهدة : منخفض ، وسقط: رديء .

(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٧ ، ورام بمعنى : طلب .

المأنوس إلى عالم الحيوان والوحوش .. وهكذا تبدو هذه القصيدة تكاد تتوفرُ على وحدة الفكر والشعور ، والوجدان والمضمون .

المبحث الثانى

معجم الشاعر - خلال تجاربه الوجدانية

المفردة الشعرية : هي تلك اللبنة الأكيدة ، والركيزة الأساسية فى بنيان القصيدة، فهي من أهم عناصر البناء الشعري ، وهي ركنه ، وعماده ،فاللفظة هي: " أداة الأديب فى نقل أفكاره ، ورسم صوره ، وبناء موسيقاه ، وهي الوعاء الذى يصبُّ فيه الأديب ما تجيش به عاطفته من معان وخواطر ، وأحاسيس ومشاعر ، وهي بالنسبة للأديب كالألوان للرسَّام ، والحجر للمثَّال ، ومن هذه الكلمة تتكون العبارة ، وتتكون الصُّورة الأدبية ، ويتخلَّق أسلوب الأديب الذى يُعرف به ، وينسب إليه ، ومن الكلمة تتكون الموسيقى اللفظية فيما تقرؤه من شعرٍ موزون ، وفيما نقرؤه من جُمل لها توقيع منغوم"[(١)] ، والكلمة البليغة الدَّالة هي مقياس نجاح الأديب، ودليل على تفوقه وإحسانه ، وهي مؤشر إلى مهارته وإجادته وإتقانه :" فبقدر ما يبرع

(١) فى ميزان النقد الأدبي : د/طه مصطفى أبو كريشه – صــ ٢١ – ط المليجي – ١٩٧٦م .

الشاعر فى تعامله مع الكلمات يكون حظه من الفنّ والشاعرية ، ويحكم له أو عليه على هذا الأساس" (١) .

حيث تكمن مهارة الشاعر فى استعماله اللفظة فى الشعر استعمالاً شعرياً دقيقاً يدلُّ على مهارةٍ وفن ، فعلى الشاعر أن يستخدم ألفاظاً مُوحية ؛ لأن الكلمة الموحية أهم عناصر الصياغة الشعرية (٢) .

فالشاعر هو :" ليس أقوى النَّاس عاطفة ، وأحدهم مزاجاً ، وأكثرهم تأثراً بما فى الكون من معان وجمال ، ولكنه أقدر الناس على التعبير ، وأكثرهم جرأة على الكشف عن ذات نفسه بهذه الألفاظ المنعمة السِّحرية " (٣) .

ومن ثم فهذه المهمة – أعنى اختيار الأديب لألفاظه ، وإنتقاءه لعباراته – ليست بالمهمة اليسيرة ، ولا هي من السهولة بمكان ، فلا يضطلع بها إلا من وهب طبعاً شعرياً سمحاً ، وموهبة أصلية مُواتية ، ومقدرة فنية عالية تمكنه من الإبداع والابتكار فى لغته ، وتطويعها لمراميه ومقاصده فى غير ما ضعف ، ولا ركاكة ، ولا إسفاف ، ولا ابتذال ، ولا وحشية ، ولا غرابة ، ولا تعقيد ، ولا إبهام .. حيث تتوفر مفرداته : " على الدِّقة والإيحاء ، والسهولة ، والألفة ، والرِّقة " (٤) .

---

(١) مقال بعنوان : المعجم الشعري عند حافظ إبراهيم – أ/ أحمد طاهر حسين – مجلة فصول – المجلد الثالث – صـ ٢٩ –إصدار عام ١٩٨٣م .

(٢) النقد الأدبي فى مذاهبه وقضاياه – د/ عبد الفتاح على عفيفي – صـ ٩٤- بتصرف – ط- سنة ١٩٨٧ م .

(٣) مقال بعنوان : الشاعر محمد عبده عزام – مجلة الثقافة – العدد مائة واثنان وسبعون – صـ ٢٢ – ١٩٤٢م .

(٤) أسس النقد الأدبي عند العرب ، د/ أحمد أحمد بدوى – صـ ٤٥٢ – ط نهضة مصر للطباعة والنشر – الفجالة – القاهرة – الطبعة الأولى – سنة ١٩٧٩م.

والمتأمل فى المعجم الشعري لصان الدِّين – خلال تجاربه الوجدانية – يجده يستخدم ألفاظاً سهلة ، سمحة ، واضحة المأتى ، قريبة المأخذ .. تجنح إلى السهولة والبساطة والوضوح ، وتبرأ – فى معظمها – من الغموض والتعقيد والخفاء .. حيث لا تحتاج فى الكثير الغالب منها – فى فهم معانيها ، وإدراك مراميها إلى الغوص والتنقيب عنها فى معاجم اللُّغة ، ومع سهولة ألفاظ الشاعر ووضوحها – خلال وجدانياته– إلا أنها لم تهو إلى درك السطحية والسذاجة .. فقد عُنى شاعرنا بألفاظه ، وأولادها اهتماماً كبيرا ، وحاول جهده انتقاءها واختيارها ، – خلال تجاربه الوجدانية فجاءت مُوحية بمعانيه ، دالة على مقاصده ، ملائمة لأغراضه خلال تلك التجارب ، منسجمة مع حالته النفسية والشعورية ، مُصورة لها .. حيث تتسم – فى مجملها – بالرِّقة والعذوبة والوضوح والسهولة .. وغير ذلك من الأوصاف التى تتناسب مع ما ترد فيه من تجارب وجدانية ، لاسيما ما كان منها فى الغربة والحنين ، والشكوى والأنين .

ويلحظ المطالع لمعجم صان الدِّين – خلال تجاربه الوجدانية – اتسامه فى الكثير الهائل منه بصحة وسلامة لغته ، باستثناء بعض الألفاظ التى جنح فيها الشاعر إلى العامية ، مستخدماً ألفاظاً شعبية –هي وليدة الحياة اليومية فى مجتمعه .

والآن نحيا مع بعض تجارب الشاعر – خلال وجدانياته ؛ لنقف سويًّاً على مدى كون ألفاظه ومفرداته دالة مُعبرة ،مُوحية مُجسِّدة ، لاسيما ماكان منها فى إبداء ما يسيطر على الشاعر، ويلفُّه من مشاعر الشكوى والألم ، والحنين والغربة ، وما أشرك فيه الطبيعة – بمظاهرها المتنوعة – فى تجسيد مشاعره وأحاسيسه الثرّة الفياضة تلك..

حيث نلتقى بهذه الأبيات التى يُمعن الشاعر – من خلال كلماتها الدالة ، ومفرداتها المُعبِّرة – فى تجسيد ما ينتابه ويُوخزه من مشاعر الحيرة والقلق ، والحزن والألم إزاء واقعه الذى يُحسُّ بتصادمه معه ، ويشعر بأنه يحيا فيه غريباً وهو وسط لداته ، وبين أترابه من بنى وطنه ومعاصريه .. حيث يقول من قصيدته ذات العنوان الدال المُعبِّر: " حائر "

يا أولى الألباب إنىِّ — حائر قد ندَّ حلمى
واختفت عنِّى طريقى — فى غيابات الخضمِّ
أين شرقى أين غربى — والسَّوافى الهُوجُ تُعْمى؟!
خبِّرونى كيف أخطو — فى ضباب تحت غيم ؟!
فوق أشواك وصخر — فى طريق العيش تُدمى
ضاع أمنى وائتناسى — بين غيلان ورُقم
إننى أحيا غريباً — وسط أقرانى وقومى
أغتدى فيهم وأمُسى — فوق جمر النار رغمى
راحل عنهم بحسِّى — حاضرُ فيهم بجسمى (١)

.. وهكذا نرى الشاعر يُضمِّن أبياته المذكورة هنا الكثير من المفردات الدالة المُجسدة ، والكلمات المُعبّرة المُصوِّرة التى وُفق فى التعبير بها عما يشعر ويحسُ به من حيرة وقلق وتيه وألم وغربة ،وضياع ، حتى وهو بين أهله وذويه ، وأترابه ومعاصريه من مثل : حائر ، ندّ ، اختفت ، غيابات ، الخضمّ ، السوافى ، الهوج ، تُعمى ، ضباب ، غيم ، أشواك ، صخر ، تُدمى ، ضاع ، غيلان ، رُقم ، غريب ،

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٨ ،٥٩ .

جمر ، النار .. وغير ذلك من المفردات الدالة التى كثّف الشاعر بها تجربته الشجية الشاكية الرقيقة تلك ، والتى وُفِّق من خلالها فى تجسيد ما تشعر وتُحس به نفسه المحزونة المصدومة من قلق وضياع ، وغربة وحيرة تُقلق ساكنها، وتُنغِّص عليها هناءتها ، وتُذهب بأنسها ودعتها ، وتجلب عليها وحشتها وغربتها ، متقدة بتلك النار رغماً عنها .. بجانب أسلوب النداء الذى صدّر به الشاعر أبياته هنا ، والذى ينادى فيه أولى العقول اللبيبة ، والألباب الفطنة ،وليس كل الناس ، : يا أولى الألباب .. وأساليب الاستفهام التى ضمَّتها التجربة هنا ، حيث تجسد تلك المظاهر جميعاً ما يسيطر على الشاع، ويتملكه من مشاعر الحيرة والذهول والألم والقلق والحزن والضياع .. وقد جاءت مفردات تلك التجربة –فى جُلِّها –واضحة المعنى ، قريبة المأتى ، جلية المضمون ،باستثناء كلمتي : " غيلان ورقم" الواردتين فى البيت قبل الأخير منها .. حيث بدتا غامضتين غريبتين بعض الشئ ، ومع ما يشوبهما من غموض وغرابة إلا أنهما كانتا فى غاية الدلالة والقوة الإيحاء والجودة ، حيث أكدت مع غيرها من المفردات المذكورة هنا ، وجسَّدت ما تعانيه وتقاسيه وتلاقيه نفس الشاعر من سعير الغربة ، ونار الوحشة إزاء واقعه الصادم ،وعدم التكيف والانسجام مع ذلك الواقع المائج بالمفاسد والشرور ، الفائض بالكواسر والوحوش التى لا تجود إلا بالهلاك والثبور .. وهكذا حفلت تلك الأبيات بالألفاظ المعبِّرة ، والمفردات الدالة ، والعبارات المجسِّدة التى تناسب مثل تلك االتجارب الرقيقة المؤثرة وتلائمها هنا .

وفى واحدة من تجارب الشاعر التى أبدعها من وحي الغربة الحقيقية عن وطنه ، والتى يجسِّد خلالها ما تفيض به نفسه من مشاعر الحُب والحنين واللهفة والشوق الدَّفين إزاء ربوع مصر الحبيبة ، بعد أن استبدَّ به الشوق وأخذ منه الحنين مأخذه .. فى تلك التجربة الرقيقة يطالعنا الشاعر بكلمات جدّ دالة رقيقة ، من شأنها

أن تفي بذلك الموقف المؤثر ، وتجسده وتدلّ عليه .. حيث يقول مُجسِّداً مشاعره إزاء ربوع مصر العزيزة الغالية على نفسه :

تَعُجّ بقلبـــــى حَرُور الجـوى	**ويهفو بروحى حنـين النَّـوى**
فأبكى ولكـــن بغيـر دموع	**وأظمأ لكـن بـدون ارتـوى**
كأنـى فطيـــم قيبـــل الأوا	**ن جفته المراضع حتـى ذوى**
إلى منبتى مصـر كل الحنيـ	**ن وما من سُلو وما من سـوى**
فيا مصـــر إنِّى غريب الديا	**ر مشوق الفؤاد مريد الهـوى**
وأنتِ الرِّواء لذاك الغليــــ	**ل وأنت الدواء لهذا الدَّوى (١)**

وهو – أي الشاعر – يُضمِّن تجربته الشجية المؤثرة تلـك – كمـا نـرى – الكثير من الألفاظ والمفردات الدالة المعبِّرة التى وُفِّق من خلالها فـى تجسـيد ذلـك الموقف الصادق المؤثر الذى يقفه هنا من مثل : تَعِجُّ – بقلبى – حرور – الجـوى – تهفو – بروحى – حنين – النوى – أبكى – أظمأ – فطيم – جفته – ذوى – منبتى – غريب – مشوق – مريد – الرواء – الغليل – الدَّواء – الدَّوى .. وغير ذلـك مـن المفردات الدالة المُشعَّة التى تُحلِّق فى فضاء تلك التجربة الرقيقة المـؤثرة .. حيـث تجسد جميعاً ما تفيض به نفس الشاعر من مشاعر الحب الفائض ، والحنين الـدائب، وما يسيطر عليه، وما كاد يُوهن قواه ، ويُضعف من عزمه ، وتخور به عزيمته إزاء مصر : منبته وسلواه ، ومُراده ومُبتغاه ، ودوائه من علَّته ، وشفاه – بجانـب تلـك الصورة الفنية الدالة المُعبِّرة الواردة فى البيت الثالث– خلال تلك التجربة ،والتى مـن شأنها أن تتضام مع تلك المفردات الدالة فى تجسيد وتصوير ما ينتاب نفس الشـاعر

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٦١ ، ٦٢ .

من أحاسيس ومشاعر فى موقفه الصادق المؤثر هنا إزاء مصره الحبيبة .. وكأنى بالشاعر فى تشبيه نفسه هنا بالفطيم قبيل أوان فطامه يعنى : بُعْدَه واغترابه عن أمِّه مصر .. وحرمانه من رفدها وعطائها ، ودفئها وحنانها .

وفى تجربة جيدة بين تجارب الشاعر التأملية حيث قصيدته : " أيتها النفس "– تلك التى أكد من خلالها كيف أن النفس الإنسانية مهما قيل عنها ، ووضع بشأنها من نظريات فستبقى سراً خفياً مبهماً ، وغوراً سحيقاً مُظلماً يستحيل الوصول إلى معرفة مداه ، وإدراك حقيقته .. حيث لا تعدو تلك النظريات سوى رجم بالغيب .. وظن به ، وتخمين .. فى هذه التجربة يطالعنا الشاعر بالكثير من الألفاظ والمفردات الدالة المعبِّرة التى تفى بهذا المضمون الذى تعالجه التجربة هنا ، وتُجسِّده وتدلُّ عليه أيمَّا دلالة .. حيث يقول :

يا أيُّها السِرُّ الخفي المُبهَمُ — يا أيُّها الغور السحيق المظلم
كيف السبيل إلى اكتناهك والـ — غطاء عليك ضافٍ مُحكم؟!
كم طوَّفت من حولك الأوها — م لاهثة تروم السِرَّ وهو مكتم
كم باحث فى التيه عنك منقب — ظنَّ الخيال حقيقة تتجسم
ومضى يشيِّد بالفُروض جواسقاً — فوق الجروف الهاريات فتهدم
هل جاء فى اسفارهم متناقضاً — إلا حديث بالظنون مُرجَّمُ (١)

ويتبدى لنا خلال تلك الأبيات الكثير من الألفاظ والمفردات الدالة المُعبِّرة ،والتى يُمعن الشاعر من خلالها فى إضفاء الغموض والخفاء على حقيقة النفس

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٩١ ، ومعنى اكتناهك: معرفة مداك وحقيقتك ، وجواسقاً : قصوراً ، والهاريات : المنهارة المتهدمة .

الإنسانية من مثل : السرّ – الخفي – المُبهَم – الغور – السحيق – المُظلم – اكتناهك – الغطاء – ضاف – مُحكم – الأوهام – مكتم – التِّيه – منقِّب – الخيال – الفروض – جواسقاً – بالظنون – مُرجَّمُ .. فهذه الألفاظ والمفردات .. والتى هي فى أغلبها صفات تُؤكِّد جميعاً ،وتجسِّد كلها ما تقوم عليه حقيقة النفس الإنسانية من الغموض والخفاء .. حيث لا تعدو فى النهاية سوى كونها سرّاً قد استأثر الله سبحانه بعلمه ، ولم يُطلعه على أحد من خلقه .. وهذه الألفاظ والمفردات – بجانب كونها – دالة مُعبِّرة عن مضمون التجربة هنا سهلة المأتى ، واضحة المأخذ ، قريبة المرمى، باستثناء تلك الكلمات الواردة فى البيت قبل الأخير من الأبيات المذكورة : جواسق ، الجروف – الهاريات .. حيث تبدو غريبة يشوبها الخفاء والغموض .. وكأنى بالشاعر وقد شاكل هنا بين الصياغة الخفية الغامضة ، وبين ما ترد للتعبير عنه هنا، والتأكيد عليه من مضمون يتمثل هنا فيما يحوط النفس الإنسانية، ويكتنفها، ويقوم عليه عالمها من الغموض والخفاء .

وللشاعر – كما ذكرت آنفاً – تجارب وجدانية وظف فيها مظاهر الطبيعة ، وأشركها فى تجسيد مشاعره ، ونقل أحاسيسه المتنوعة .. فرحة هانئة كانت ، أم حزينة منكسرة .. وقد أكثر فيها صان الدِّين من استخدام المعجم الرومانسي، حيث الألفاظ والمفردات التى تتصل بعالم الطبيعة .. متأثراً فى ذلك بالشعراء الرومانسيين فى معجمهم الشعري .. ولنا أن نقف مع واحدة من تلك التجارب ، حيث قصيدته ذات العنوان الحالم الآمل : " حُلم شاعر "– تلك التى ضمَّنها الكثير من الألفاظ والمفردات المستمدة من عالم الطبيعة ، المأخوذة من مظاهرها ، ومجاليها الساحرة المتنوعة –تلك التى جسَّد من خلالها ما ينتابه من مشاعر الحيرة والقلق والإحباط واليأس بعد أن أحسَّ وشعر بتصادمه مع الواقع ، وعدم تكيفه وانسجامه مع أبناء زمانه الذين ذاع بينهم الزيف والنفاق والتملُّق والخداع ، مما تُبغضه نفس الشاعر

الرقيقة، وتكرهه ذاته المُرهفة .. ومن ثم رأيناه يهرع إلى الطبيعة ، ويفـزع إليهـا ، مُعتزلاً العقلاء ، هارباً منهم إلى الطبيعة ، حيث الصفاء والنقـاء ، والسـلامة مـن الزيف والخداع ، والشنآن والبغضاء .. يقول صان الدِّين :

يا حبذا العيش الوديع بواحــة — شجراء قد ناءت عـن العُمـران!!
فى عزلة ما شاهدتها أعيــن — أبداً ولا خطرت بهـا قـدمان
يُضفى عليها الطُّهر روعة حُســ — نه فتخالها من جنة الرضوان!
وهناك فى حضن السُّكون أعدُّ من — سعف النخيل ويابس الأغصـان:
كوخاً تحفُّ به الزهور ويكتسى — بقشيب ظل الدَّوح والأفنـــان
يُهدى النســيم إليه فى غدوا — ته رَوح الحياة ونفحة الرَّيحـان
وتُردِّد الأطيـار فى أفنــانها — لحن الصفاء فينتشى وجـدانى
والماء يعدو فى الجداول بعدما — أرخت له الغدران فضل عنـان
ينساب فى ظلّ الخمائل حالماً — حتى يضلَّ هناك فـى الكثبـان
والنخل يضرب فى السما متمايلاً — بين الأثيـر تمايـل النشـوان
فأظلّ يومـــي هـانئاً متنقلاً — ما بـين ظـل وارفٍ وأغـان
وأطالع الآيات فى سفر الوجو — د فأجتلى إشراقة الرحمن (١)

وهكذا تذيع وتشيع خلال تلك الأبيات الألفـاظ والمفـردات الدالـة المُعبَّـرة المُستمدة من المعجم الرومانسي ، حيث الطبيعة- بمشاهدها المتنوعـة ، ومجاليهـا الثرية ، وغير ذلك من الألفاظ الحالمة ، والمفردات الآملة، والكلمات الدَّالة المُعبّـرة

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ٣٩ ، ٤٠ .

التى تفى بطبيعة التجربة ، وتدل عليها ، وتجسدها هنا من مثل : العيش الوديع – واحة – شجراء – عُزلة – الطُّهر – جنّة – السكون – سعف النخيل – يابس الأغصان – كوخاً – الزهور – ظل – الدَّوح – الأفنان – النسيم – غدواته – روَح – الحياة – نفحة – الريحان – الأطيار – أفنانها – لحن الصفاء – فينتشى – وجدانى – الماء – الجداول – الغدران – ينساب – – الخمائل – حالماً – الكثبان – النَّخل – السماء – متمايلا – هانئاً – وارف – أغان – إشراقة .. وغير ذلك من الألفاظ والمفردات التى تتصل بالطبيعة ، وتستمد وتنبع من عالمها الفسيح ، حيث غدت تلك الألفاظ والمفردات مُكوِّناً رئيساً من مكونات التجربة هنا .. بجانب ما تضمنته تلك الأبيات من صور فنية دالة رائقة .. وشاعرنا فى استخدامه لذلك المعجم الرُّومانسي المستمد من حقل الطبيعة البديع ، المأخوذ من مشاهدها البديعة ، ومجاليها الساحرة ، وهو فى اتكائه على مظاهر الطبيعة فى تجسيد إحساسه الرومانسي – شاعرنا فى ذلك كلِّه متأثر بالشعراء الرومانسيين إذ : "إن من خصائص هذا الاتجاه – [يقصد : الاتجاه الابداعي : الرومانسي] – التعبيرية خاصة تتصل باللفظة المفردة ، وهي الإكثار من استعمال الألفاظ المرتبطة بالطبيعة، حيث يُكثر الشعراء الرومانسيون من استعمال أسماء المظاهر ، والمشاهد الطبيعية ، وتشيع فى معجمهم" (١) .

ولا يخفى على القارئ الكريم تأثر الشاعر– خلال تجربته هنا بالرومانسيين سواء فى معجمها ، أم فى مضمونها .

"فالرومانسيون يندمجون فى الطبيعة ، ويتخذون من مشاهدها أدوات فنية لصياغة مشاعرهم ، وتبيان مكنونات أنفسهم ، وهذا الاندماج كان وراءه هذا الإحساس الدامي

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب العالمية الثانية – د/ أحمد هيكل – صـ ٣٤١ – ط دار المعارف – الطبعة الخامسة – ١٩٨٧م .

بالاغتراب الزماني والمكاني ، لذلك ينتاب الرومانسيين حنين جامح إلى الماضــى ، وإلى الحياة الفطرية النقية بعيداً عن حياة المدنية الزائفة " (١) .

ولاشك فى أن شاعرنا غدا فى تجربته الحالمة هنا واحداً من هؤلاء الشعراء الرومانسيين الذين عناهم النص السابق بتلك الأوصاف المذكورة فيــه ، ســواء فــى صياغتهم ، أم فى مضمونهم .

وهكذا تنبئ تلك النماذج – بما تتوافر عليه من الصياغة الســهلة الواضــحة الرقيقة الدالة الموحية ، وبما تتسم به من الصحة ، والفصاحة والســلامة اللغويــة .. هكذا تنبئ تلك النماذج المذكورة هنا عن طبيعة بقية تجارب الشاعر الوجدانية ، حيث تتسم فى الكثير الهائل منها بما اتسمت به التجارب المذكورة ، باستثناء بعض الألفاظ والمفردات التى جنح فيها الشاعر ومال إلى الغرابة والغموض ، أو تلك التى تُوصف بالأعجمية الوافدة إلى لغتنا العربية الجميلة – وهي أي – المواضع التى تحقق فيهــا ذلك من القلّة بمكان ، والندرة بحال .. إذا ما قيست وقورنت بغيرها من الكثير الهائل من الألفاظ والمفردات السهلة الواضحة الرقيقة المألوفة القريبة المأنوســة الفصــيحة التى تجرى على سنن مقاييس العرب ، وأساليبهم الصحيحة .

ومن هذه المواضع التى تتسم فيها مفردات شاعرنا –خلال وجدانياته بالغرابة والغموض ما جاء فى إحدى قصائده التأملية : " البعث حقيقة " ،والتى يتأمل خلالهــا فى عالم الأموات ، حيث القبور ، وما يئول إليه الأحياء من الموت والإيداع فى تلــك القبور القديمة قدم الأرض ، وما يصير إليه حال الإنسان بعد الموت ، حيث يســتحيل عظماً قد رُمّ ، وتراباً قد بلي ، وذهبت عنه الرائحة الكريهة، بعد أن خلا من اللحــم

---

(١) التجربة الإبداعية فى ضوء النقد الحديث – دراسات وقضايا – د/صابر عبد الدايم يونس صـــ ٦٩، ٧٠ – الطبعة الثانية ١٤٣٠- ٢٠٠٩م .

والأحشاء .. لقد كان هذا التراب فى يوم مُستودعاً فى إنسانٍ وسيم الهيئة ، ناعم الملمس ، مرهف الإحساس ، حسن الصوت .. ثم استحال بعد ذلك إلى تلك الهيئة التى هو عليها فى قبره .. يقول صان الدِّين مُتأملاً عالم الأموات ، حيث يقول :

طفتُ يومـاً فى خشـوع عنـد أرمـاس قديمـهْ
عَـرَّت الأريـاح منـها أعظمـاً فيهـا رَمِيمَـهْ
بعضـها قد صـار تربـاً ذهبـت عنـه الزَّهُومَـهْ
كـان هـذا التـرب يـوماً جسـم هيئـات وسـيمهْ
ناعمـات مرهفـات ذات أصـوات رخيمـهْ(١)

حيث تطالعنا – خلال تلك الأبيات كلمتا: "أرماس" وهي : جمع رَمـس أي : قبور ، و" الزهومة" : ويُقصد بها : الرائحة المنتنة.. وقد شابهما – فى فهم معناهما – كما نرى – الغموض والخفاء .

وقد عبَّر الشاعر فى القصيدة ذاتها بكلمة : " رمس " أيضاً ، ويعنـى بهـا : القبر .. حيث يقول مُؤكداً حقيقة البعث ، وأنه – أي البعث – موجود لا مرية فيه :

وانطـراح فـى سريـرٍ كانطـراح بين رَمـسٍ(٢)

حيث يُشبه الشاعر رقدة الإنسان ونومته فى الدنيا .. والتى يستيقظ بعـدها – إذا ما قدر الله سبحانه له الحياة .. برقدته فى القبر حيناً ، ثم يبعثه الله حيث الحساب .. ففى الأمرين حياة بعد موت ، واستيقاظ بعد رقدة .

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٧٧ – والأرماس : القبور ، والزَّهُومة : الرائحة المنتنة .
(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٨١ .

وفى قصيدة تأملية للشاعر غاص خلالها فى أعماق النفس الإنسانية ، وبكى فى ختامها نفسه، ورثاها فى رحيلها عن الحياة – تلك التى لم يطب له المقام فيها ، ولم يحمد الثواء بين أهلها ، حيث يقول فى رثاء نفسه ، وبكاء ،وتأبين جسده :

وداعاً أيها الناسوت إنى سأرحل والفؤاد به غليل
فلم أحمد مقامى فيك يوماً وهل حُمدت لدى حُرٍّ كبول
فعُد للتُّرب موطوءاً مَهِيناً كذا كل لمعدنه يؤول[(١)]

حيث تبدو كلمة :" الناسوت"،والتىُ يراد بها: الجسم ،غريبة يشوبهاهنا – كما نرى – الخفاء ، ويكتنفها الغموض ، حيث يحتاج فى فهم معناها إلى الغوص والتنقيب عنها فى معاجم اللغة .

وبجانب هذه المفردة الغريبة الغامضة النادرة فى نتاج الشاعر الوجداني وردت مفردة أعجمية تكاد تكون الوحيدة –خلال تجارب شاعرنا الوجدانية ، تلكم هي كلمة :" ديكور " التى كانت عنواناً لإحدى قصائده التأملية ، والتى وردت فى ثناياها .. حيث ينتقد شاعرنا فيها أناساً يقيمون فى بيوتهم مكتبات يملأونها بثمين الكتب المُذَّهبة المُحلاّة المُرصَّعة على الرفوف التى عملت فيها يد التنسيق والتنميق، ومن أسف فقد اكتفى هؤلاء بتزيين تلك المكتبات ، وتنميقها ، دون أن يفيدوا من علومها ومعارفها ، ولا أن يطَّلِعوا على كنوزها وثرواتها ، فغدت من ثم للزهو والديكور ، والمخيلة والرِّياش بين أثاث البيت ومتاعه .. يقول صان الدِّين :

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٤٣ ، والناسوت : الجسم .

فـــى بيـــوت مكتبـــــات بثـــيمن الكتـــب غُصَّـــت
مذهبـــــــات ، حاليـــــات كــــالعروس البكـــر زُفَّـــت
فى رفـــــوف قابعـــــات بيـــــد التنســـيق رُصَّـــت
علمــــها فى جوفــــها عن راغــبٍ فــى البحــث أخفـت
إنــــــها للزهـــو والديـــــ ــكور فى قصر أُعِـــدّت(١)

حيث تطالعنا فى البيت الأخير خلال تلك الأبيات كلمـــة : "ديكـــور"– تلـــك الكلمة الأعجمية الوافدة إلى اللغة العربية ، وتعنى : الزخرفة ، وبقليل من التأمل تبدو تلك الكلمة هنا دالة بليغة مُعبِّرة تفى بالمقام ، وتنسجم مـــع الســياق ، حيـــث يجســد الشاعر من خلالها حقيقة هذا المسلك المعيب الذى يتعامل فيه نفر مـــن النـــاس مـــع أوعية الثقافة وكنوز المعرفة على أنها مجرد حِلية ، وزينة :" ديكور " ، يزيِّنون بهـــا بيوتهم ، ويحلُّون قصورهم دون أن يُعْنَوا بلُبابها .. ومن ثم تبدو كلمـــة : " ديكـــور " فى مكانها المناسب قد اقتضتها طبيعة التجربة ، واستدعاها سياقها هنا ، حيث تلائـــم ما تقوم عليه التجربة هنا من سخرية وانتقاد لاذعين إزاء هذا التصـــرُّف المُعـــوج ، والمسلك المعيب .. وباستثناء هذه المواضع النادرة جداً والتى لا يكاد يوجـــد غيرهـــا تقريباً يتسم معجم الشاعر – خلال وجدانياته بالصحة ، والسلامة اللغوية.

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٣٨ ، والديكور : كلمة أعجمية تعنى : الزخرفة .

المبحث الثالث

من خصائص التراكيب فى أساليب الشاعر

- خلال تجاربه الوجدانية

الأسلوب هو بمثابة البصمة التى بها تُعرف شخصية المُبدع ، ومن خلالها يتوصلُ إلى طبيعتها ، ويُتعرف على سماتها وخصائصها .. فهو – أي الأسلوب : " طريقة المتكلم الخاصة فى نقل أفكاره إلى الناس ، وصوغها فى جمل وعبارات روُعي فيها تحقيق ما ينبغى فى صياغة الصُّور والخيالات الجزئية ، كما روعي فيها تنظيم أجزاء الموضوع ، وحُسن تنسيقها " (١) .

(١) فى النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري : د/ محمد طاهر درويش – صـ ٢٣٧- طبعة مكتبة الشباب -١٩٧٨م.

وهو – أي الأسلوب – أيضاً : " المزاج الفــردي ، والطــابع الشخصـــي ، والجانب الأصيل من الأديب وأدبه ، وبلغ تخصيص الأسلوب لصاحبه أن قالوا : أنه كنبرة الصوت لهذا الإنسان ، أو ذاك [١] .

كما أنه –أي الأسلوب– بالنسبة للشاعر : " صــورته ، ودليــل شخصـــيته ، وكذلك يُعطى انطباعاً عن مقدرته الفنية ، من حيث كونه يُمثل الوثيقة الفنيــة علـــى ذات الشاعر ، ويوضح مدى ارتباطها بالتجربة لديه " [٢] .

هذا وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أنه :" ليس المقصود بالأسلوب طُــرق الأداء اللغوية فحسب ، بل المقصود منحى الكاتب العــام ، وطريقتــه فــى التــأليف والتعبير والتفكير والإحساس على السواء ، بحيث إذا قلنا إن لكــل كاتــب أســلوبَهُ ، يكون معنى الأسلوب كلّ هذه العناصر التى ذكرناها" [٣] .

حيث يُقصد بالأسلوب لدى المبدعين ، شعراء كانوا ، أم نــاثرين :" طريقــة الكتابة ، أو طريقة اختيار الألفاظ ، وتأليفها للتعبير بها عن المعانى ؛ قصد الإيضـــاح أو التأثير ، أو الضرب من النظم والطريقة فيه " [٤] .

---

(١) مقدمة فى النقد الأدبي – د/ على جواد الطاهر – صــ ٣١٠ – ط الموسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٧٩ م .

(٢) مناهج البحث الأدبي – دراسة تحليلية تطبيقية – د/ سعد ظلام – صــ ١٩٩ – ط مكتبة نهضة الشرق – القاهرة – الطبعة الثانية ١٤١٦هــ – ١٩٩٦م .

(٣) فى الأدب والنقد : د/ محمد مندور – صــ ٩ – طبعة نهضة مصر – ١٩٨٨ م .

(٤) النقد الأدبي فى آثار أعلامه : د/ حسين الحاج – صــ ٤٨ – ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – ١٩٩٦.

والمُتصفح لأساليب شاعرنا صان الدِّين – خلال وجدانياته – يجد لثقافته الأصيلة ، والمتعمقة الغزيرة التى استمدها من نبع القرآن الكريم الفائض الهتَّان ، وبيان النبي صلى الله عليه وسلم فائق الحُسن ، ونادر المثال ، حيث دراسته فى رحاب الأزهر الشريف ، وتشرُّبه منذ نعومة أظفاره – حلاوة وطلاوة لغة القرآن الكريم ، وتمرُّسه بأساليب البديع والبيان .. وامتلاكه من ثم ناصية القول ، وزمام الكلام .. المُتصفِّح لأساليب صان الدِّين – خلال تجاربه الوجدانية يجد لهذه الثقافة الأصيلة المتعمقة أثراً ملحوظاً ، ووجوداً ملموساً .. بجانب أنها – أي أساليب الشاعر – قد جاءت صدى وانعكاساً لشخصيته– تلك التى تتسم بالصراحة والوضوح ، والجد والالتزام ، ومن ثم فإن المُطالع لأساليب شاعرنا يجدها فى الكثرة الهائلة منها – قد جمعت بين الصحة والسلامة اللغوية ، والجزالة والرصانة الأسلوبية ، والمتانة والدقة والإيحائية ، بعد أن وافقت التقاليد الموروثة للصياغة العربية .. ويجدها أيضاً سالمة من الغموض والتعقيد ، وبريئة من الخفاء والتعمية ، حيث تتجلى فيها شخصية صان الدِّين المسلمة المُلتزمة الأزهرية ، ذات الوضوح والجدّ والشفافية .. كما يلحظ المُطالع لأساليب الشاعر تنوعها بين الإنشائية والخبرية .. ومجيئها فى جُلِّ الأحايين مُنسجمة مع ما ترد فيه من أفكار ، وموائمة لما تؤدِّيه من مضامين .. وغير ذلك من السمات والخصائص– مما ستوضحه وتكشف عنه السطور المقبلة من تلكم الدراسة –بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه.

عود على بدءٍ أقول من الطبيعي أن تتنوع أساليب شاعرنا صان الدِّين – شأنه فى ذلك شأن غيره من المُبدعين – بين الأساليب الخبرية والإنشائية ، حيثما يستدعيه المعنى ، ويقتضيه المقام ، ويُناسبه الغرض ، كل فى موطنه ، وموضعه من التجربة .. حيث ينسجم الأسلوب الخبري – عادة – مع تلك التجارب التى تقوم –

بطبيعتها- على رصد الحقائق ، وسرد المشاهد ، وتجسيد المواقف ؛ بقصد تثبيتها فى أذهان المُتلقين ، وترسيخها فى كيانهم .

ومما يتحقق فيه ذلك من بين تجارب شاعرنا الوجدانية ما جاء فى قوله يُشير إلى موقف الرثاء ، وموطن البكاء إزاء أمِّه الراحلة ، مجسداً حزنه ، ومُبدياً تحسُّره إزاء الرحيل – ذلك الذى حدث وهو بعيد غريب عنها ، مُظهراً مالها عليه من أياد وأفضال ؛ دفعته لأن يدعو لها بالفوز بمرضاة الله سبحانه ، والتنعم بنعيمه السرمدي ، مُصوراً فى أثناء ذلك ما كان يتنازعه هو ووالدته من مشاعر الحُبِّ والشوق واللهفة والحنين ، بعد أن استبدَّ بهما البعاد ، ونالت من نفسيهما الفراق ، ومن أسف فقد رحلت أمُّه وهو غريب الديار ، مشوق الفؤاد ، مريد الهوى ، لطالما ارتجى رؤياها ، وحلُم باللقاء بها بعد أن تخيل أعوام النوى وقد أدبرت ، ومضى يحث ما بقي من الليالى على الرحيل ، والمضي سريعاً ؛ حتى يتسنى له الإياب والمثول من ثم بين يدي والدته العزيزة الغالية ، ولكن وواحزناه !! فقد بادرتها المنون ، فأطاحات بالآمال ، حيث لا لقاء ، ولا هناء :

طيرى بآفاق الضياء وحلِّقى وإلى رُبا الفردوس خفِّي واسبقى!!
رفافة كالنور فى هالا ته نشوى بغفران السماء المغدق
صنعت يمينك فى الحياة معارجاً تفضى إلى آلاء ربك فارتقى!!
وهناك فى ظل الخلود تربعى فوق الأرائك بين روض مُونق!!
تمشين بين الحور باسمة المُحيَّا فى أرقِّ سناً وأبهى رونق
تلقاك ألوان التحايا كلَّما شارفت نهراً أو خطرت بجوسق!
يهنيك يا أمّ الخصال الزاكيات الخلدُ فى هذا النعيم المطلق!

قد كنت يا أمَّاه تشكين الجوى ... لوحيـــدك النـــائى بـــواد مُغلـــق
وتصـــارعين الدَّاء فى غلـــوا ... ئه وتغـــالبين يـــد الحمـــام المُحـــدق
أملاً يداعب منك قلباً ذاويـــــاً ... ويمـــد جَـــذْب الـــرُّوح فيـــك بريِّـــق
علّ الغريب يعـــــود فى إبــــا ... ن ويُمِـــرِّغُ الخـــدَّيْن عنـــد المفـــرق
فتشيمنى عنيـــاك الحـــــاضر ... ين لدى الوداع بطرفهـــا المُغـــورورق
والله يعلم ما بقلبك من أســـى ... مُتـــــأجج بـــــين الحنايـــــا مُوبـــــق
ووحيدك النائى تكبِّله الحـــيا ... ة بحكمه مـــن فـــوق جمـــرٍ مُحـــرق
يهفو إليك فــــؤاده مسترحما ... كجـــريح طيـــر بالحبائـــل موثـــق
لكنه والوجد يعصـــر نفســـه ... يحيـــا علـــى أمـــل اللقـــاء الشـــيق
ويخال أعوام النوى قد أدبرت ... فمضى يحث من الليـــالى مـــا بقـــى
لكن وواحزناه بادرت المنـــــو ... ن فطوَّحت منـــي بفـــض الزئبـــق!!
فرحلتِ يا أمَّاه ظمأى مهجـــة ... عـــن هـــذه الـــدنيا ولمَّـــا نلتـــق
ورحلت يا نبع الحنـــــان الثر ... ر يا موج السَّخاء الغـامر المُتـــدفق
وبقيت مشبوب الأسى فى غربتى ... أبكى بقلـــب فـــى الضـــلوع مُصَـــفِّق
لا أرتجى رؤياك إلا حــــالماً ... مُسترجعاً صورالماضى مُشْرق(١)

فهذه الأبيات – باستثناء تلك التى دعا الشاعر – من خلالها – لروح والدتـــه الذاهبة بأن تُحلِّق مُهرولة ، وتخفَّ مُسرعة إلى حيث معارج الرّحمـــة والرضـــوان ، والنعيم والغفران .. حيث يأتى فيها الأمر بقصد الدُّعاء والرجـــاء : طيـــرى بآفـــاق الضياء ،وحلِّقى ! ، وإلى ربا الفردوس خفِّى واســـبقى !!.. فـــارتقى .. تربَّعـــي !!،

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـــ ١٨٩ ، ١٩٠ وتشيمنى : تنظر فى ترقُّب .

باستثناء تلك الأبيات التى ألبسها الشاعر حُلة الأسلوب الإنشائي هنـــا .. حيــث تــدلّ أفعال الأمر المذكورة خلالها على التماس الدُّعاء والرجاء .. باستثناء تلك الأبيـــات ، فإن تلك التجربة تقوم– فيما تقوم هنا على الأسلوب الخبري ، حيث يجتهد الشاعر فى تجسيد ما يقفه من موقف الرثاء هنا ، وموطن البكاء إزاء أمِّه الراحلة ، مُصوراً فـــى أثناء ذلك ما كان يتنازعه وأمُّه فى أثناء غربته وبعاده عنها من مشاعر الحُبِّ واللهفة والحنين الثرة الفياضة ، وما كان يرتقبه من أمل اللقاء بها ، لولا أنّ الموت قد قضى بالفراق بينهما دونما لقاء ؛ مما جعل الشاعر : " الابن" يتحسَّر إزاء هذا الرحيل ، فقد رحلت والدته – نبع الحنان الفائض ، وموجُ السخاء الدافق ، على نحو ما يبــدو فـــى قول الشاعر يستعظم المصيبة فى فقد أمَّه : ورحلتِ يا أماه .. ولما نلتق !! ، ورحلتِ يا نبع الحنان الثرِّ .. يا موج السخاء الغامر المُتدفق .. فهو أي شاعرنا يُمزج– مـــن خلال أسلوبه الخبري هنا– بين إظهار التحسُّر على عزيز غالٍ " "والدته الراحلـــة " ، والبكاء عليه ، وبين إظهار فضل المخاطب والثناء عليه : " والدتـــه أيضـــاً " .. ولا يخفى أنّ هذين الغرضين المذكورين هنا ضمن الأغراض البلاغية التى يخرج إليهـــا الأسلوب الخبري ، ويدلُّ عليها .

ويلحظ الباحث أنَّ الشاعر قد مازج فى تجربته هنا – كمـــا نـــرى – بـــين استعمال الأساليب الخبرية والإنشائية ، ولا شك فى أنَّ هذا التنويع فى الأساليب مـــن شأنه أن يُحرِّك الأذهان ، ويبعث فيها الحيوية والنشاط .. وتمـــازُج تلـــك الأســـاليب واختلاطها كثيراً ما يحدث فى النصوص الأدبية .. حيث : " تتضامن معاً فى التعبير عن إحساسات الأديب وخواطره وأفكاره ، هذا ويجب أن نعرف أنَّ تغيُّر الصيغة فى

الأسلوب من الخبر إلى الاستفهام إلى الأمر إلى النهي .. إلى غير ذلك من أساليب الإنشاء مما يُحدث نشاط السامع ، ويثير شعوره ، ويُحرِّك انتباهه " (١) .

ولهذا الأسلوب – الأسلوب الخبري – أغراض بلاغية أخرى يخرج إليها ، ويدلُّ عليها ، من مثل : النصح والإرشاد .

وقد بدا هذا الغرض متحققاً – خلال وجدانيات شاعرنا – فى واحدة من قصائده التى تقف على طبيعة الإنسان ، وتغوص فى أعماقه، وتنقب عن جبلَّته .. حيث يشير فى خماسيتين منها إلى ما يقع فيه الكثير من الناس من آفة حُب النفس ، واتباع الهوى والأثرة والأنانية ، مُصوراً تلك الأدواء فى صورة بغيضة تنفر منها، ومن أصحابها مُهيباً بالمتلقين أن يتخلقوا بخلق الإيثار ، فيحبون لإخوانهم ما يُحبونه لأنفسهم ، ويرضون لهم ما يرضونه لأنفسهم ،لافتاً أنظارهم إلى أن كل شيء يقع فى مُلك الله سبحانه إنما هو وفق إرادته جل وعز ، وليس وفق هوى ورغبة ومُراد عباده ، ساخراً فى النهاية، ومُستهزئاً بمن يعتقد فى الكواكب والأنواء ، مرتقباً أن تأتي إليه بالأنباء .. ها هو ذا شاعرنا صان الدِّين يشير إلى تلك المعانى والمضامين فى أسلوب خبري يعمد منه إلى تثبيت ما بصدده من حقائق ، وترسيخ ما بإزائه من مضامين فى ذوات وكيانات أولئك الذين يوجِّه الكلام إليهم ، ناصحاً ومُقوِّماً ، حيث يقول مُكرراً مخاطبتهم ، مؤكداً من خلال ذلك التكرار نصحه وتوجيهه ، ومُلحاً عليه :

أنت ترضى عن أمورٍ ... ليس يرضاها سواكا
أنت تبغى الجوّ صحواً ... حين يبغى الغيم ذاكا

(١) علم المعاني : د/درويش الجندي – صـ ٦٦، ٦٧ – ط دار نهضة مصر للطبع و النشر .

أنت ترجو الخير حكـــــراً   مـــــدبراً عمـــن عـــداكا
ترغــــب الأقــــدار تأتــى   بالـــذى يُرضـــى هواكــــا
إنمــــا الأهــــــواء شَــرُ   يُـــورد الـــدُّنيا الهلاكــــا
كل شيء فى الوجــود الرحــ   ـــــب يجـــرى بحســـاب
وفـــق تقديـــــر حكــيم   لـــيس وفقـــاً للرغـــاب
ذلـــك الإنســــان يأتـــى   كـــل أســـباب الخـــراب
والذى يخشى من الأهـــوا   ل يبـــدو فـــى اقتـــراب
واســأل الأنــواء والأنبــا   ء تظفـــرْ بالجـــواب[١]

ويطيب لى أن أقف فى السطور المُقبلة مع تلك الأساليب– خـلال تجـارب الشاعر الوجدانية– بإذن الله وبتوفيقه سبحانه .

أقول – مستعيناً بربى سبحانه – إن الناظر فى الأساليب الخبرية التى وظفها الشاعر – خلال وجدانياته – وأسهمت فى بناء وتشكيل تجاربه فيها يجدها تتنوع بين أساليب : القصر والقسم والتكرار والشرط والجواب والحـوار .. حيـث تـرد تلـك الأساليب– خلال وجدانيات الشاعر –بنسب متقاربة .

أما عن أسلوب القصر– ذلك اللون من الأساليب الذى يصل إلى المضمون ، ويؤيِّد الفكرة ، ويبرزها من أقرب طريق ، وأقصر سبيل .. " فهو طريق من طـرق

(١) ديوان الإنسان فى الميزان – صــ ١٠ .

الإيجاز ، حيث تكون جملة القصر فى قوة جملتين ، ومن أغراض القصر أنه : يقصد به تمكين الكلام ، وتقريره فى الذهن ؛ لدفع ما فيه إنكار وشك " (١) .

أمَّا عن ذلك الأسلوب فيتحقق فى مواضع كثيرة خلال شعر صان الدِّين الوجداني .. وقد استعمل الشاعر من بين طرق القصر المتنوعة : النفي والاستثناء ، وإنما ، وتعريف الطرفين ..

ومن بين المواضع التى أتى القصر فيها عن طريق النفي والاستثناء ما جاء فى قول الشاعر يستجلى معالم قدرة الله عز وجل ، ومظاهر إبداعه – فى كونه الفسيح المتعدد المشاهد ، المتنوع الصور، والتى تلتقى جميعاً فى الحسن والبهاء ،والجمال والرِّواء :

من بهاء الله كان الحُسـ ـن فى هذا الوجود
أينما وجهت عينى فى هبوط أو صُعُود
فى رياضٍ أو بحار فى وهاد فى نجود
فى صباح فى مساءٍ فى سكونٍ فى رُعُودِ
لا أرى إلا جمالاً فى طريف أو تليد (٢)

فقد قصر الشاعر – خلال بيته الأخير عن طريق النفي والاستثناء –كما نرى– "الجمال والحُسن والبهاء " على هذه المشاهد ، وتلك المجالى التى عدَّدها خلال تلك الأبيات ، والتى لا يحدث تقابلها وتطابقها تنافراً ولا نشازاً ، وإنما يُحدث ذلك

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة : للسكاكي –شرح وتحقيق الشيخ عبد المتعال الصعيدي – ج٢ – صـ ٣ – ط صبيح القاهرة – الطبعة الثانية .د.ت .
(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٢٧ .

تناسقاً وائتلافاً ، فمن يرجع البصر فى هذا الوجود فسوف تقع عيناه على كل جميل سواء فى هبوط أو صعود "، فى رياض أو بحار ، فى وهاد أو نجود ،–فى صباح فى مساء ، فى سكون فى رُعود ، فى طريف أو تليد .. لا يرى فى ذلك إلا جمالاً ، وحُسناً وبهاءً .

وفى قصيدته التأملية التى غاص خلالها الشاعر فى عالم : " حواء" ، واستكنه واستخلص بعض أسراره اللامتناهية ، رأيناه يستخدم مثل تلك الطريقة من القصر :" النفي والاستثناء" – وهو بمعرض حديثه عن المرأة ، حيث يخاطبها مُشبِّهاً إياها بلجة البحر العميق الذى بلاضفاف :

ما أنت إلا لجة البَحْـــ ـــر العميق بلا ضفاف (١)

وهو _ أي الشاعر – يُؤكد ويمعن من خلال هذا التشبيه – بجانب أسلوب القصر عن طريق النفي والاستثناء – ما يقوم عليه عالم المرأة من الألغاز والأسرار العميقة المتباعدة اللامتناهية التى يحار فى كنهها ، والوقوف على حقيقتها أولوا العقول ، وذووا الألباب ، مثلها فى ذلك مثل البحر العميق الخِضمّ الذى بلاضفاف .. وهو – أي الشاعر – يقصر حواء – فيما يقوم عليه عالمها من الغموض والإلغاز ، والعمق والخفاء .. على لجة البحر العميق الذى بلا ضفاف ، مُجلياً من خلال القصر بطريقة النفي والاستثناء ذلك المضمون ، ومؤكداً إياه .

وقد استخدم الشاعر من بين طرق القصر أيضاً :" إنما " .. ومن المواضع التى تحققت فيها هذه الطريقة من القصر – خلال وجدانيات الشاعر ما جاء فى قوله يؤكد ويُجلِّى ما للأهواء .. واتباع المرء هوى نفسه ، وإطلاقه لها العنان .. من خطر داهم ، وهلاك مُحَقَّق ، وشر مستطير يورد صاحبه لا محالة موارد التهلكة ، وينزلق به نحو الأخطار :

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٧٢ .

إنمـــــا الأهــــــواء شر   يورد الدنـــيا الهـــلاكا[١]

فقد قصر الشاعر " بإنما " الأهواء – كما نرى – على الشر ، فبدت وكأنهـــا هو .. حيث يؤكد من خلال أسلوب القصر هنا – في إيجاز شديد– كيف أنَّ الأهواء هي السبيل إلى الشرِّ ، والطريق نحو الهلاك بعد ذلك ، لا غيرها .

وفى معرض انتقاد الشاعر لمسلك بعض من ينشغلون بالذكر والتسبيح ، وما يصاحب ذلك الذكر من هزِّ الجانب ، وإمالة الرقبة، والتمتمة بكلمات غير مفهومـــة، والصراخ والعويل والتمايل والتراقُص على أوتـــار الطبـــول ، وأنغـــام المزاميـــر ، والتقاعس عن كسب العيش ، والضرب فى الأرض ابتغاء الرزق الحلال ، وتحصيل الكسب الطيب .. مما يجعل ذلك الفعل لهواً لا ذكراً .. فى معرض انتقـــاد الشـــاعر لذلك المسلك المعيب يوقفنا على الصورة المُثلى للذكر– من خلال القصـــر:" بإنمـــا" حيث يقول :

إنما الأذكــــار معنــــــاها   خشـــــــوع للجليـــــــــل
واكتساب الرزق بالمجهـــــو   د فى المســــــعى النبيل[٢]

وهو يقصر الذِّكر فى صورته الصحيحة المُثلى – على ما يصاحبه من خشية من الله سبحانه ، وخشوع فى أثناء التلبُّس بذكره تعالى .. وأيضاً من خلال ضـــرب الذاكر فى الأرض ، وسعيه ومشيه فى مناكبها؛ ابتغاء الـــرزق الحـــلال ، والكســـب الطيب ، لا أن يتقاعس عن ذلك ، راضياً لنفسه ذُلَّ الحاجة والسؤال .. ساعتها يكون العبد لاهياً لا ذاكراً .

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ١٠١.
(٢)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٥٩.

وها هو ذا شاعرنا يحثنا على عُلوِّ الهمم ، ونُبل المقاصد في كسب الطموحات ، وتحقيق الآمال والغايات .. حيث يقول فى كلمات موجزة بليغة ألبسها الشاعر فى ثوب الحكمة البديع .. من خلال قصره الدنيا على السعي والاجتهاد :

إنما الدنيا اجتهاد كلّ أطراف النهار(١)

ومن مواضع القصر بتلك الطريقة أيضاً ما جاء فى قول الشاعر يقصر الليل – فى صمته وهدوئه الذى يشمل الكون ، ويلفُّه جميعاً فيذهب ما بالشاعر من تعب وعناء ، ويحيله إلى راحة وهناء .. ها هو ذا شاعرنا يقصر الليل فى ذلك على المراح " الدَّعة والهناءة":

إنما الليل مراح صمته يشفى اللغوبا(٢)

والشاعر فى نظرته الآملة المتفائلة تلك لليل ابتعد عن نظرة الشعراء الرومانسيين له ، حيث يعدونه مصدراً للوحشة والكآبة ، أما هو فينظر إليه نظرة الشاعر المسلم الملتزم ، حيث كان بعيداً عن نظرة التشاؤم واليأس والإحباط– كما رأينا –من خلال كلماته الحالمة المتفائلة هنا .

وأختتم حديثى عن المواضع التى تحقق فيها ذلك الأسلوب بما جاء فى قول الشاعر –وقد قصر الشعر على الأنس فى حياته البائسة القلقة، بل إنه – أي الشعر– هو الحياة روحها ، ومصدرها ، ونبعها بالنسبة للشاعر :

يا شعر أنت الأنس فى دنيا الشقاء الغامر

أنت الحياة وروحها السَّارى بكون دائر(٣)

---

(١)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٧.

(٢)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٢٥.

(٣) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٢٣ .

فقد قصر الشاعر – كما نرى – الشعر على الأنس الذى يُبدد الشقاء ، ويجلب الهناء .. وأيضاً على الحياة فى روحها ونبعها .. منتقلاً بذلك من الخصوص إلى العموم .. مؤكداً من خلال ذلك الأسلوب مدى أهمية الشعر البالغة ، وضرورته المُلحة فى حياة الشاعر .

وكان لأسلوب القسم – ذلك اللون من الأساليب الطريفة والمثيرة فى الكلام؛ حيث ترد فيه بقصد إيضاح أمر مهم ، وتأكيد شيء ذى بال ، أو تحذير وتنفير منه .. وغير ذلك من المواطن التى يكون المُقسم عليه فيها أمراً مُهماً ، وشيئاً ذا بال وخطر .. بحيث يغدو موضع اعتناء الأديب ، ومحور اهتمامه .. كان لذلك الأسلوب وجود وتحقق هو الآخر – بين تجارب الشاعر الوجدانية .. لاسيما تلك التى يُناسبها ذلك الأسلوب ، ويستدعيه مقامُها وسياقها .. كتلك التجربة التى أبدعها الشاعر من وحي الغربة والبعاد عن وطنه الحبيب مصر .. حيث رأيناه يكثِّف خلال التجربة هنا من استخدام ذلك الأسلوب ، ويكثر منه كثرة ملحوظة ، ولا يجد الشاعر ما يقسم عليه هنا أهم من التعبير عن حُبه لوطنه ، وتجسيد حجم ذلك الحُب وتأكيده .. حيث بدا ذلك المضمون– من أهميته محوراً لتجربته هنا ، وغدا شيئاً مُهماً ، وأمراً ذا بال .. يقول صان الدِّين – وقد أكثر من استخدام أسلوب القسم ، مُكثِّفاً به تجربته ، ومؤكداً به ما هو بصدده من مضامين مهمة هنا :

يا قادماً من أرض مصر بلادى حيَّاك قلب فى الجوانح صاد!!
وهفت إليك الروح هائمة كما يهفو الفراش على شذا الأوراد
بالله عرِّج وانزلن عندى برحب فى رياض محبتى ووِدادى وتدان منى
– قد فديتك إنى استاف منك أريج جو بلادى!!
وأدر على سمعى حديثاً مُسهباً عن مصر ذات السحر والأمجاد

وأعده مثنى أو سُبــاع مُردداً فحـــديثها يحلـــو مـــع التـــرداد

....

أواه يا مصر الحبيبة إننـــى مذبنت عنك حُرمـتُ طيـب رقــادى

وفقدت أنس الرُّوح بين جوانحى فى نقطة المسعى وفى إخلادى تالله ما

فتر الحنـــــين بمهجتــى أبـــداً ولا أغفـــت عيـــون فـــؤادى!!

أستغفر الحُبَّ المُقدَّس فى دمى ممـــا أهـــوِّم فـــوق مهـــد قتـــاد

لا والذى أعلاك ذكراً خالـــداً فـــى آيـــه يبقـــى مـــع الآبـــاد!

ودحاك للإنسان سهلاً يانعـــاً تهـــوى إليـــه مشـــاعر القصَّـــاد

لا أرتضى وطناً سِواك وإن شأى فى الحــُسن والإمتاع جنة عاد!(١)

فقد ضمن الشاعر– خلال تجربته الرقيقة هذه كثيراً من الأقســام .. تلتقــى كلها حول إبراز وتأكيد شيء واحدٍ ، إنه حُب الشاعر الصادق الشديد لوطنه الحبيــب مصر .. حيث تلحُّ عليه هنا مشاعر اللهفة والشوق والحب والحنــين إزاء ربوعهــا الغالية على نفسه ، ومعاهدها الحبيبة إلى قلبه ، وأول هذه الأقسام حلفه بالله ســبحانه بين يدي ذلك القادم من أرض مصر ، والذى يُشتم منه رائحة وطنه الزكية الطيِّبــة ، وتهفو إليه نفسه المشتاقة ، وتنجذب إلى حديثه عنها انجذاب الفراش على شذا الطيب ، وأريج العبير المنبعث من الورود والزهور – قسمه بالله بين يدي هذا القادم المقبــل عليه راجياً منه ، ومُستحلفاً إياه بأن ينزل بساحته ، ويطيل المكــث والنــزول ، وأن يدنو منه ويقترب ، وأن يدير على مسامعه حديثاً مُطولاً عن بلده مصر ذات السِّــحر

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـــ ٦٣ – ٦٥ ، وأستاف: أشتم ، وشأى : فاق وزاد .

والأمجاد ، وأن يُعيد هذا الكلام مراتٍ ومراتٍ ؛ فالحديث عن مصر كما قال : يحلـو مع الترداد .

وثانى هذه الأقسام نلتقى به- خلال تلك التجربة فى قول الشاعر :

تالله ما فتر الحنين بمهجتــى أبداً ولا أغفت عيون فؤادى!

حيث يُقسم الشاعر بالله –سبحانه- على عدم توقف قلبه عن الحُب والشـوق واللهفة والحنين- إزاء ربوع وطنه العزيز ، فما ينفك فؤاده ، ولا ينقطع قلبه قط عن الحُب والحنين .. ولم لا؟ وقد جعل من ذلك الحُب شيئاً مقدساً يسـرى فـى دمـه ، ويجرى فى كيانه .

والقَسَم الثالث نلتقى به هنا فى قول الشاعر :

لا والذى أعلاك ذكراً خالـــداً فى آيه يبقى مع الآباد!

.. الخ الأبيات

حيث نراه يُقسم بالله سبحانه الذى بسط أرض مصر وسوَّاها ، وأفـاء عليهـا بالخصب والنماء ، والنضرة والبهاء ، فغدت من حسنها كعبة القصَّاد ، وقبلة الأنظار .. يقسم الشاعر بذلك كله على أنه لا يرتضى وطناً سواها ، ولا يقنـع ولا يرضـى بأرضٍ غيرها ، مهما كان حُسنها ، وفاق جمالها.. حيث تبقى مصـر هـي هويتـه وهواه ، ومُراده ومبتغاه.

.. وهكذا تدور هذه الأقسام ،وتلتقى حول مضمون واحدٍ ، وتؤكده جميعـاً ، إنَّه حُب الشاعر الصادق ، وحنينه الدافق ، وشوقه العارم- إزاء مصر الحبيبة.. ولا يخفى أن هذه الأحلاف قد وردت هنا بصدد شئ مهم ذى بال وخطر ، وأثر كبيـر ، ودور محوري – خلال التجربة هنا –مما يناسبه استعمال ذلك الأسـلوب ، ويلائمـه الإكثار منه ، والإلحاح عليه – مثلما بدا خلال تلك التجربة هنا .

وأسلوب التكرار كذلك كان من بين الأساليب الخبرية التى أفاد منها الشاعر ، ووظفها فى أداء معانيه ومضامينه ، وتجسيد انفعالاته وأحاسيسه –خلال وجدانياته .. وهو –أى ذلك الأسلوب يأتى فى الكلام لتأكيد معنى بذاته ، وترسيخ فكرة بعينها فى ذهن المُتلقى للسيطرة عليه ، ودفعه إلى أن يشارك المُبدع فى عواطفه وانفعالاته ، فهو –أي التكرار : " من الوسائل اللغوية التى يمكن أن تؤدي فى القصيدة دوراً تعبيرياً واضحاً ، فتكرار لفظة : " ما " ، أو عبارة ما يُوحى بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر المُكرَّر ، وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره ، ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق فى أفق رؤياه من لحظة لأخرى "(١) .

تُرى هل وفق الشاعر فى توظيف ذلك الأسلوب ؟ وما مدى كون اللفظة المكررة وثيقة الصلة بالتجربة التى ترد فيها ، وشديدة الارتباط بمضمونها الرئيس .. هذا ما ستكشف وتنبئ عنه السطور المُقبلة –بإذن الله تعالى وبتوفيقه– من خلال المواضع التى تحقق فيها ذلك الأسلوب فى وجدانيات الشاعر .

وهاهو ذا الشاعر يأتى فى قصيدته الوجدانية الشاكية التى تُجسد فيها ما ينتابه، ويسيطر عليه من شعور وإحساس أليم ناتجين عن غربته النفسية عن مجتمعه ومعاصريه ، واصطدامه بواقعه المائل المُعوج المائج بالمتناقضات والمفاسد ، وعدم انسجامه إزاء ما طرأ على أبناء زمانه من سلبيات ومثالب –لطالما آلمت نفس الشاعر ، وأحزنت قلبه ، وأدمت فؤاده ، وجعلته يشعر بالحزن والأسى ، ويحس بالحيرة والقلق .. ها هو ذا شاعرنا يأتى فى قصيدته الشاكية ذات العنوان الدَّال : " حائر " بكلمة " : أنبئونى " مُكرِّراً إياها فى قوله يخاطب لدَّاته وأقرانه ، ومعاصريه وأترابه :

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة – د/ على عشرى زايد – صـ ٦٠ – ط دار الفصحى للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٧٨م .

يـــا لذَّاتــــى كلُّ شــــيء حــــال لونـــاً مثل طعـم
أنبئـــــونى أنبئـــــونى واكشفـــوا بالعلـم هَمِّى[١]

حيث يقع التكرار هنا فى موقعه ، ويصادف أوانه .. فهــو – أي الشــاعر – وهو الحزين الحائر المصدوم هنا يُجسِّد –من خلاله– ما يلفُّه ويسيطر عليه من القلق والحيرة الشديدين إزاء ما تبصره عيناه فى مجتمعه من مفاسد ومتناقضات فى ظــل واقع مُتردٍ انقلبت فيه الموازين ، واختلت القيم ، واهتزت المعايير .. كلُّ ذلــك يبــث فيه شعوراً بالقلق والحيرة ، ويحمله على أن يتساءل مُلحاً فى تســاؤله ، ومُشــركاً المُتلقِّين فى حيرته وتساؤله .

وفى قصيدة صان الدِّين التأملية : " أيتها النفس "– تلك التى غــاص خلالهــا فى أعماق النفس الإنسانية ، وحاول أن يستكنه بعض أســرارها اللامتناهيــة .. وأن يسبر بعض غور عالمها السَّحيق ،وعالمها البعيد المترامى الذي هــو كــالبحر بــلا شطآن ليصل فى نهاية المطاف ، مُعتقداً فى أن النفس سرُ خفي مُبهم ، وغور سحيق مظلم .. استأثر الله سبحانه بعلمه ، واختص بالإحاطة به .. أما الخلائق فمهما طوّفواْ حولها ، ومهما بحثوا ، ونقبوا عنها ، فإن تطوافهم ، وبحثهم وتنقيبهم عنها لا يعــدو سوى ظنون وتخمينات ، وأخيلة وتهويمات لا ترقى أبداً إلى الحقائق والمُســلَّمات .. شاعرنا وهو– فى أثناء عرض تلك الفكرة –رأيناه يستخدم التكرار،حيث يُكرر : " كم " الخبرية التى تفيد التكثير ؛ ليؤكد من خلال ذلك التكرار كثرة هؤلاء الباحثين عــن حقيقة النفس ، وتوقهم الشديد إلى فتح مغاليقها ، وكشف حُجبها ، ورغبتهم الأكيدة فى الوقوف على كُنهها وحقيقتها ، دون أن يصلوا إلى شيء من ذلــك الســرِّ العميــق ، والغور السحيق :

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٥٩ .

يا أيها السِرُّ الخفي المُبهم — يا أيها الغور السحيق المُظلم
كيف السبيل إلى اكتناهك والـ — غطاءُ عليك ضاف مُحكم؟!
كم طوَّفت من حولك الأوها — م لاهثة تروم السرَّ وهو مُكتم
كم باحث فى التيه عنك مُنقب — ظنَّ الخيال حقيقة تتجسم
ومضى يُشيِّد بالفروض جواسقاً — فوق الجروف الهاريات فتهدم
هل جاء فى أسفارهم مُتناقضاً — إلا حديث بالظنون مُرجَّمُ؟![1]

فتكرار الشاعر كلمة : " كم " هنا يؤكد ما تقوم عليه التجربة ، وتتمحور حوله من مضمون يتمثل فى أن النفس الإنسانية تبقى فى النهاية سراً استأثر الله سبحانه به ،واختص بعلمه وحقيقته ، وأن ما يضعه الخلق- مهما أكثروا من نظريات بشأنها إنما هي رجمُ بالغيب ، وظنون وأوهام .

ولأنَّ نظم الشعر كان مسيطراً على ذات الشاعر ، مُهيمناً على كيانه ، ومُتغلغلاً فى وجدانه ، وسارياً فى أعماقه ، وجارياً كالدم فى عروقه ، مادَّاً إياه بالحياة والانطلاق فلم يستطع أن يطيل التوقف عن إنشاده ، والإحجام عن التغريد به .. حيث كان قد تركه حيناً ؛ لشعوره بعدم تقدير فنَّه من قِبل القائمين على الإبداع آنئذٍ ، لم يستطع شاعرنا مقاومة تلك الرَّغبة الشديدة المُلحَّة فى داخله للشدو والتغريد بالشعر .. ليعود الهزار مرة ثانية إلى دوحة الغناء .. وهنا يتجه الشاعر إلى قريضه مخاطباً إياه ، مُكرراً مخطابته ، مُلحاً فى ذكره ، متلذذاً بتكراره إياه ، مؤكداً من خلال ذلك التكرار مدى ما يُمثِّله الشعر بالنسبة للشاعر من أهمية بالغة ، وضرورة مُلحَّة ، وفائدة عظيمة ، وقيمة كبيرة ، تلتقى جميعاً فى إمداده بالحياة والانطلاق .. حيث يقول :

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٩١ ، والجواسق : القصور ، والهاريات : المنهارة المتهدمة.

يا شـــــعر أنــــت مُترجـــم خفقـــات قلـــب الشـــاعر
يا شـــعر أنـــت مصـــور حُســـن الوجـــود البـــاهر
أنت الذى يهـــب الـــورى لحن الخلـــود الساحر[1]

وإنما كرَّر الشاعر عبارة : " يا شعر " ، وألحَّ فى تكرارها هنـا ؛ لسـيطرة الشدو والتغريد على ذهنه ؛ وللدلالة على عنايته – كما ذكر صاحب المثل السـائر – بالشيء المُكرَّر : " الشعر " هنا ؛ مبالغة منه فى مدحه والثناء عليه ، والتأكيد علـى أهميته ، وضرورته بالنسبة للشاعر .. ذلك الذى يحث المُتلقين ، ويدفعهم هنـا إلـى مشاركته فى أحاسيسه ومشاعره .. ولا يشك مشكك ، ولا يرتاب مرتاب فـى كـون تلك العبارة المكررة هنا : " يا شـعر " كانـت وثيقـة الصـلة ، شـديدة الارتبـاط بالتجربةهنا .

وهكذا رأينا الشاعر وقد أجاد فى توظيف ذلك الأسلوب ، وَوفِّق فى استعماله إياه– خلال المواضع السابقة .. فلم تكن الكلمات التى كررَّهـا فيهـا متكلفـة .. ولا مبتذلة .. وإنما جاءت وثيقة الارتباط بالمعنى العام للتجربة ، شديدة الصـلة بلبهـا ، قوية العلاقة بمضمونها .

وأسلوب الشرط والجواب كان أيضاً من بين الأساليب الخبرية التـى وظفهـا الشاعر ، وأفاد منها فى بناء وتشكيل بعض تجاربه –خلال وجدانياته .. وهـو مـن الأساليب المثيرة الشائقة التى تثير انتباه المُتلقين ، وتحرِّك كوامن التفكير فى داخلهم، حيث لا يخفى ما يُحدثه ذكر الشرط وإيراده من إثارة فى النفس ، وترقُّب شديد منهـا إلى الجواب الذى به يتمُّ المعنى ، وتكمل الفائدة ؛ مما يكسب الكـلام جـدّة وحيويـة

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٢٣ .

وطرافة وإثارة ، ويُباعد به عن الملل والرتابة .. " فهو طريقة وإن لم تكن جديدة ، ولكنها تقطع الملل ، وتوقظ الإحساس ، وتدعو إلى الإثارة والدهشة " (١) .

والناظر فى وجدانيات الشاعر يلحظ إكثاره من استعمال هذا الأسلوب ، لاسيما فى تجاربه التأملية التى يغوص من خلالها فى الحياة والأحياء ، شاكياً مما آل إليه حال الناس فى عصره ، حيث امتلأت نفوس الكثير منهم بالمفاسد والشرور، .. مُسدياً فى أثناء تأملاته وشكواه نصحه وإرشاده للمتلقين .. مُهيباً بهم أن يربأوا بأنفسهم عمَّا هوى وتردى فيه غيرهم من مفاسد وشرور ، ممن تنكَّبوا السبيل القويم، راسماً بين يدي من ينصحهم طريق الهداية ، وسبيل الرشاد .. حيث يقول وقد أسدى نصحه وتوجيهه للمُتلقين ، مُوضّحاً بين أيديهم كيف لهم أن ينعموا بحياة طيِّبة هانئة وادعة رغدة فى ظل ذلك الواقع المُتردى الحافل بالأخطار والشرور ، والطغيان والغرور :

آهٍ لو يدرى بنو الإنسا ... ن إكسير الحياة !!
لو وعوا فى صاحب الأموا ... ج أسباب النجاة
لو سموا بالفكر والوجدا ... ن عن درك الطغاة
لاستراحوا واستظلُّوا ... بالظلال الوارفات(٢)

وقد استعان الشاعر فى إبراز فكرته ، وأداء مضمونه هنا – كما نرى – بأسلوب الشرط والجواب – ذلك الذى يلائم بطبيعته ، وما يقوم عليه من بث الإثارة والتشويق ، وتحريك كوامن التفكير فى نفوس المتلقين – يلائم بذلك مقام النصح

(١) محمود حسن اسماعيل بين الأصالة والمعاصرة : د/ صابر عبد الدايم –صـ ٦٥ –ط دار المعارف – د ت .
(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٢٠ .

والإرشاد الوارد فى ثنايا تلك التجربة التأملية الشاكية ، ويناسبه هنا- بجانب تقديم الشاعر كلمة : " آه " الدالة على النُّدبة والأسف – على أسلوب الشرط والجواب هنا، وما يمكن أن يدل عليه ذلك من توق الشاعر الشديد ، ورجائه الكبير فى تحقُّق ما يأمل فيه ، ويصبو إليه من خير ورشاد ، وحياة ملؤها الرَّغَدُ والراحة والهناءة لمُتلقِّيه- أولئك الذين بدا حبُّه الجمُّ الشديد لهم .

وقد تضمنت تلك الأبيات – كما نرى – ثلاثة أفعال شرط مسبوقة بأداة الشرط : " لو" المسبوقة بتلك الكلمة الدالة هنا : " آه " – وتلك أفعال الشرط كلها تُرشد الحيارى ، وتدل التائهين إلى السبيل إلى تلك الحياة التى تفيض بالراحة والهناءة ، والرَّغد والدَّعة إذا هم باشروا أسباب ومظاهر النجاة ، وسموا بفكرهم ووجدانهم عن غيِّها وشرورها وطغيانها ومفاسدها .. ساعتئذٍ سينعمون بحياة ملؤها الراحة والهناءة والرَّغَدُ والسعادة .

ويزيد شاعرنا هذا الشأن إيضاحاً وتأكيداً فيورد بعد أن أتى بجواب الشرط هنا بيتاً يُجلِّى فيه الطريق المُعبَّدة ، والسبيل المذللة إلى الحياة الطيبة الهانئة ، والعيشة الرَّغدة الوادعة ، وأنها تتمثل فى التمسُّك بأهداب الدِّين ، والتشبث بعُرى الإيمان .. حيث يقول – وقد أشار إلى السبيل إلى تحقق تلك الحياة الطيِّبة .. مُلقياً باللائمةعلى ذلك الغافل عن تلك السَبيل المُقيم :

إنّها فى الدِّين والإيمان يا أعمى الحصاة!! (١)

وها هو ذا شاعرنا يلتقط – من خلال تجربة أخرى من بين تجاربه التأملية – بكاميراه الناقدة ، وعدسته النافذة بعض المشاهد السلبية التى هي أثر من آثار الحضارة المدنية فى الحياة المعاصرة .. حيث يشير إلى ما فعله بعض الناس–ممن

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٢٠ ، والحصاة : العقل .

توهموا أنهم قادرون على الدنيا ، مستولون على مقدراتها ، ممسكون بمقاليدها .. هاهو ذا شاعرنا يُشير إلى توظيف هؤلاء – ومن أسف – قدراتهم ونفوذهم فيما يعود على البشرية من دمار وهلاك ، وفساد وأخطار .. فراحوا من ثم يزرعون الألغام والقذائف ، بدلاً من السنابل والأزاهر:

أترى ابن آدم قد غدا ... فى كفِّه حبل المصائر؟!
إن كان ذلك فقل على الدُّنْـ ... ـيا العفاء ولاتكابر
ويح الحياة إذا توهـ ... ـهم أنه فى الأرض قادر!!
فالفتك فيه طبيعة ... مذ كان يحيا فى المغاور
ويعايش الحيَّات فيها ... والقشاعم والكواسر
لكنه حين ارتقى ... وغدا يُدبِّر فى المقاصر
ساس الطبيعة واجتلى ... منها المُخبَّأ والسَّرائر
فقد استعاض الذَّر ... ر والنترون عن حدِّ الأظافر
زرع الحقول قذائفاً ... بدل السنابل والأزاهر (١)

ونأتى بعد ذلك إلى يت القصيد هنا ، حيث نرى الشاعر يستخدم أسلوب الشرط والجواب .. ذلك الأسلوب المثير الذى يُحرِّك فى نفوس المتلقين مشاعر اليقظة والانتباه ، لافتاً أنظارهم ، ومهيباً بهم – من خلال ذلك الأسلوب – إلى ما ينبغى عليهم أن ينهجوه ويصنعوه فى هذه الحياة .. بعد أن ملكوا مقدراتها ، وظنُّو أنهم قادرون عليها .. حيث يستعيضون عن تلك المهالك والأخطار والشرور

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٦ ، ٣٧ ، والقشاعم : النسور المُسنَّة .

والأضرار بالعمل على ما فيه النجاة والخير ، والنفع والرَّاحـة ، والهنـاءة لسُّـكّان البسيطة .. يقول صان الدِّين متحدثاً عن هؤلاء :

لو أنفقوا فى الخير معشا ر المبدَّد فى الذخائر
لغدا يباب الأرض يذ خر بالثمار وكُلّ ناضر
ولراح سُكّان البسيـ ـطة ينعمون بكلِّ وافر (١)

وهو يقرر– من خلال ذلك الأسلوب الطريف المثير – أسلوب الشرط والجواب –ماذا يحدث إذا ما وظف هؤلاء الطَّاغون الباغون المغترون قدراتهم ، واستغلُّوا طاقاتهم وإمكاناتهم فى إحداث الخير والخصب والنماء ، حتى ولو كان معشار ما يبذلونه فى الشر والبغي والهلاك .. حتماً سيعود ذلك على الحياة والأحياء بالخير كلِّ الخير .

وكأنِّى بالشاعر هنا يدعو إلى إعمار الأرض ، وملئها بالخير والخصب والنماء –من خلال الاستظهار بأسباب الحياة ، ومباشرة مظاهر التقُّدم ، ومعالم المدنية ، لا إلى ملئها بالفساد والدّمار ، والخراب والهلاك– كما هو حال وواقع هؤلاء الطاغين المغترين.

وفى قصيدة الشاعر الغنائية الرقيقة التى بعنوان : " يا شعر " يُقرر ويؤكد من خلال أسلوب الشرط والجواب – وهو بصدد توصيفه للشعر الجيِّد الثمين الذى يرمى إلى تحقيق الغايات النبيلة ، والمقاصد الشريفة .. والشعر الرديء الغث المنعدم القيمة والجدوى .. ها هو ذا شاعرنا يُقرر ويؤكد – من خلال ذلك الأسلوب – وفى

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٧ .

هذا السياق – حقيقةً مفادها أنّ من علا إحساسه ، وسما ذوقه ، فإنه يغدو للفن العابث الرديء ، والإبداع الهابط المسُفّ مُبغضاً وكارها ، ومنه نافراً ، وعنه مُعرضا:

ومن يحظ بالــذوق الرفيــ ـــع فإنه يكون لسفساف القريض خصيما[١]

حيث تتوق وتهفو النفس التى تحظى بالذوق الرفيع إلى الشعر الــذى ســمت معانيه ، ونبلت غاياته ، وشرفت مقاصده .. وتربأ بالضرورة وتنأى عــن سفســاف القريض ، وهابط الإبداع ، حيث يغدو ذلك ، ويبدو لها عدوا لدودا ، وخصماً أكيدا.

وأسلوب الحوار – الذى هو من الظواهر الأسلوبية التى تمنح التجربــة بُعــداً سردياً ، وتضفى عليها ملمحاً قصصياً ، حيث لا يخفى ما لذلك الأسلوب مــن أثــر جذاب ، ودور فعّال فى الشعر والنثر ، فهو مظهر فني يُضفى على العمــل الأدبــي حيوية وتجديداً ، ويُبعد عنه ما يمكن أن يعتريه من ملالة ، ويشوبه من رتابة ، فهــذا الأسلوب من شأنه أن يقطع الملل ، ويوقظ الإحساس ، ويدعو إلى الإثارة والدهشــة [٢].

ذلك الأسلوب كان لتجارب الشاعر الوجدانية حظ ونصيب منه قليل ، فالناظر فى تجارب الشاعر الوجدانية يجد ذلك الأسلوب متحققاً خلال تجــربتين وجــدانيتين للشاعر تقريباً ، وكان للحوار فيهما الأثر الطيب ، حيث أكســبهما صــفات الحيويــة والتجديد ، وصبغهما بصبغة الشعر القصصي – ذلك الذى يقوم على الحوار الماتع ، والحديث الشائق ، والمضمون الذى يحمل القيمة ، وينطوى على الفائدة .. وغير ذلك

---

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٢٢ .
(٢) محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة : د/صابر عبد الدايم يونس / صـــ ٦٥ – بتصرف يسير .

من المظاهر التى تُضفى على التجربة حيوية وتجديداً ، وتبعث فى مُتلقيها نشاطا وتشويقاً .

ويُلحظ أن هاتين التجربتين تنضويان تحت التجارب التأملية ، حيث نرى الشاعر يقيم -خلال تجربته التأملية الأولى التى بعنوان : " شعوذة ودجل" حواراً شائقاً دار بينه وبين أحد العرَّافين الذى ادَّعى أنه يعلم الغيب ، ويدرى ما استتر وتوارى من الأنباء ، ولما أبدى شاعرنا تعجبه -عن طريق الحوار- إزاء ذلك أخبره العراف أنه يستمد الغيب من الجنِّ فيفحمه الشاعر عن طريق الحوار أيضاً ، موكداً له عجز الجنِّ ــ وعيَّه عن علم الغيب ، وكشف الحُجُب ، ورأينا شاعرنا أيضاً - خلال قصيدته هذه وقد أقام حواراً شائقاً بينه وبين واحد من مريدى ذلك العَرَّاف ممن يعتقد فى صحة ما يذهب إليه ويدَّعيه ، وهذا الحوار كان على شاكلة حوار الشاعر مع العرَّاف – مُدِّعى علم الغيب ، حيث يقوم الشاعر بتفنيد باطل ، وزعم ذلك المُريد ، ودحض كذبه ، وردَّ إفترائه ، داعياً عليه بالتوقف عن الكلام ، وواصفاً إياه بالغرِّ المخدوع ؛ ليؤكد فى النهاية تلك الحقيقة الدامغة التى تنطق بأن الغيب لله تعالى لم يُطلع عليه أحداً ، ناصحاً المتلقين أن ينتبهوا فلا تنطلى عليه خِدَع الآفَّاقين ، ولا حيل الكذَّابين ، يقول صان الدِّين:

قُلت للعرَّاف فى جوّ ... و التجلِّى والبخور
والتهاويل التى قد ... خدَّرت وعي الحضور
كيف تدرى ما توارى ... طي غيب عن بصير ؟!
قال : إنّ الجنَّ يأتيـ ... ـنى بأنباء الدُّهور
قلت : إنَّ الجنَّ مثلى ... عَيَّ عن كشف المصير
فانبرى لى ذو فتون ... من مريديه يقول:

إنَّ علم الشيـــخ سِـــرُّ لـــيس تدريـــه عقـــول
كـم وكـم مــن مُعضـــلات منـــه وافتهـــا الحلـــول
عنـــده للغيـــب كشـــف إنَّـــه شـــيخٌ جليـــل
قلـــتُ : فـض الله فـــا ك أيهُّـــا الغِـــرُّ الجهـــولُ
مـــا نبـــيُّ أو رســـولُ خـــاض فـــى علـــم بغيـــب
إنَّ مـــا بثـــوه وحـــي عنـــه نـــور الحـــق يُنبـــى
أيُّهَـــا الإنســـان حكِّـــم فـــى القضـــايا شـــرع ربِّـــى
إنـــه الينبـــوع يـــروى مـــن نميـــر كـــلَّ قلـــب
لا تكـــن فـــى العيـــش غِرَّاً لعبـــة فى كـــفِّ خبِّ (١)

وهكذا يصل الشاعر – من خلال حواره الشائق الذى عقده هنا مـــع العـــرَّاف ومريديه وأتباعه المُتعصبين .. هكذا يصل الشاعر إلى تقرير تلك الحقيقة التى تنطق بأن الغيب لله سبحانه .. مؤكداً من خلال ذلك الحوار كيــف تنطلــى خِــدعُ وحيــلُ العرَّافين والدجَّالين على أصحاب النفوس المريضة –ممن ضعُف ديــنهم ، وســقمت عقيدتهم ، مُحذِّراً ومُنبِّهاً فى النهاية مُتلقيه أن لا ينخدعوا بحيــل هــؤلاء الآفـــاقين ، وأكاذيب أولئك الدجَّالين .

ومثلما أقام الشاعر تجربته السابقة على الحوار مع أولئك الأفاقين المخـــالفين له فى الراي .. فقد أقام تجربته الثانية – تلك التى تقوم على التأمل فى عالم الموتى .. على الحوار – ذلك الذى عقده الشاعر مع من ينكرون حقيقة البعث والنشــور بعــد البلى والفناء .. مُصوراً مدى تعجُّب هؤلاء المنكرين من إمكان حدوث تلك الحقيقــة،

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـــ ٣٣ ، وانبرى : اعترض ، ونمير : عذب، وخبٌّ: خداع.

ومؤكداً استبعادهم لتحققها ، لافتاً أنظارهم ، ومُهيباً بهم أن يتأملوا فيما حولهم من مشاهد مُعاينة ، ومظاهر مرئية رأي العين تنطق كلها بحدوث تلك الحقيقة ، وعدم استبعاد حدوثها، حيث يغدو الإنسان فى صيرورته من حال الموت والفناء إلى حال البعث والحياة مثل النبات الذى يبدو شاحباً مُصفرا مُؤذنا بالبلى والفناء ، ثم يستحيل بعد ذلك غضّاً مُستوياً على سوقه يفعم بالحياة .. وغير ذلك من المشاهد التى التقطها الشاعر ليضعها بين يدي ذلك المُنكر الجاحد لحقيقة البعث ؛ كي يردَّه عن جحوده ، ويقنعه بأن يعترف بتلك الحقيقة.

يقول الشاعر وقد أقام تجربته هنا على أسلوب الحوار المُثير الشائق الذى عقده مع ذلك الجاحد المُنكر ، عارضاً لدعوى ذلك المُنكر ، واستبعاده وقوع تلك الحقيقة : "حقيقة البعث " ، سائقاً (أي شاعرنا) من خلال ذلك الحوار بين يدي ذلك المُنكر المُرتاب الأدلة والبراهين الساطعة القاطعة التى تنطق بصحة ما يذهب إليه الشاعر ، ويعتقد فيه كل مسلم من وجود تلك الحقيقة .. حقيقة البعث بعد الموت :

طفتُ يوماً فى خشوع عند أرماس قديمه
عرّت الأرياح منها أعظماً فيها رميمه
بعضها قد صار ترباً ذهبت عنه الزهومه
كان هذا الترب يوماً جسم هيئات وسيمه
ناعمات مرهفات ذات أصوات رخيمه
واستهلت من عيونى فوق صحن الخدِّ عَبرَه
ذى حياة ثم موت واندثار بين حُفَره
ثم نشر وانبعاث حين يلقى الله أمره

ثم خلـــد فى جحيـــم أو جنـــات مُســــتقره
يا بنى الدنــيا أفيـــقوا إنَّ فـــى هـــذا لعبـــره!!
فانبـــرى لى ذو فتـــون فـــى ازدراء أو يزيـــد
قال لى فى نبـــرة قـد هـــالنى منهـــا الجحـــود
أي مـــرءٍ مُستنيـــر ضـــمَّه هـــذا الوجـــود؟!
لا يـــرى فى بعـــث عظـم أنّ ذا رجـــع بعيـــد !!
كـــل شـــيء إن تلاشـــى فـــى فنـــاء لا يعـــود!
فى دياجـى المـــوت يخفى النـــاس فـــى ليـــل طويـــل
مـــا رأينـــا أنّ ميّتـــاً عـــاد مـــن بعـــد الرَّحيـــل
مـــا سمعنـــا غير قـــول لـــم يُؤيَّـــد بالـــدليل
عن نشـــورٍ بعد مـــوت ســـاغ فـــى الفكـــر الكليـــل
أي برهـــان لدعـــوى ردَّهـــا راقـــى العقـــول؟!
قُلت : يـــا هـــذا تأمّـــل ذلـــك الغُصـــن الرَّطيبـــا
وانظـــر الأزهـــار فيـــه تمـــلأ الأجـــواء طيبـــا
كـــان من عـــهد قريـــبٍ يابســـاً يؤســـى القُلوبـــا
ليـــس فيـــه من حيـــاة لا تـــرى إلا شـــحوبا
ماله قـــد عـــاد غضّـــاً يرتـــدي ثوبـــاً قشيبا؟!(١)

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـــ ٧٧ –٧٩ .

وهكذا تقوم تلك التجربتان التأمليتان فيما تقومان على أسلوب الحوار .. ذلك الذى أحدث فى نفوس القُرَّاء إثارة وتشويقاً ، وحملهم على الإصغاء ، وأغراهم بالمتابعة ، وباعد عنهم ما كان يمكن أن يعتريهم من سأم وملالة ، فى حال ما لوسيق الكلام سوقاً مباشراً ، وصيغ صياغة تقليدية ، بعيدة عن أسلوب الحوار الماتع المُثير الذى يُضفى على التجربتين هُنا بُعداً دراميًا مُحبَّباً إلى النفس .

وقد كان للأساليب الإنشائية – تلك التى ترد فى الكلام بقصد إثارة انتباه المُتلقين ، وتحريك أذهانهم ، ولفت أنظارهم ،وجذب نفوسهم إلى ما يكون بصدده المُبدع من معان ومضامين .. حيث يتسنى له أن يُنفس بتلك الأساليب عن آلامه وأحزانه ، وأن يصوِّر عن طريقها آماله وأفراحه .. قد كان لتلك الأساليب– هي الأخرى –وجود وتحقق خلال تجارب الشاعر الوجدانية .. حيث تذيع وتشيع –خلال تلك التجارب– أساليب الاستفهام والنداء ، بجانب التعجب الذى يرد فى وجدانيات الشاعر بقلَّة، ويأتى فيها على استيحياء .. حيث تبدو مواضعه قليلة ونادرة إذا ما قيست بالمواضع الغزيرة الكثيرة التى تحقق فيها أسلوبا الاستفهام والنداء– خلال وجدانيات صان الدِّين ، حيث نرى الشاعر وقد أكثر من استعمال الاستفهام – بما يدل عليه من المعانى البلاغية المتنوعة من مثل : التعجب والإنكار والتوبيخ والاستبعاد والنفي والتقرير .. وغير ذلك من المعانى والمضامين المجازية التى قد يخرج إليها ، ويدلّ عليها الاستفهام ، والتى يوظفها الشاعر ، ويفيد منها فى تجسيد مشاعره وانفعالاته المتنوعة ، مُثيراً من خلال ذلك الأسلوب انتباه المُتلقين ، ومُحركاً أذهانهم ، ومسترعياً أنظارهم إلى ما هو بصدده من مواقف للشاعر تتولد منها معان ومضامين تحمل مشاعره المتنوعة، وأحاسيسه المختلفة – على نحو ما سيبدو لنا خلال تلك السطور المُقبلة من الدراسة –بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه سبحانه .. هذا بجانب دلالة ذلك الأسلوب– أي الاستنفهام – على معناه الحقيقي وهو : طلب الفهم .

والناظر فى تلك المواضع الكثيرة جداً ،والتى تحقق فيها أسلوب الاستفهام – خلال تجارب الشاعر الوجدانية يلحظ للوهلة الأولى إكثار الشاعر من استعمال الاستفهام بمعانيه الدالة على التعجب والتوبيخ والإنكار .. حيث تبدو نفسه– خلال تلك التجارب حائرة قلقة مضطربة مشدوهة مصدومة إزاء ما تحيا فيه من واقع يموج بالمفاسد ، ويمتلأ بالشرور ، ويعجُّ بالسلبيات ، ويجود بالنقائص ، ويفيض بالمثالب ، حيث انقلبت فيه الموازين ، واختلت المقاييس ، مما تصطدم به نفس الشاعر الرقيقة ، ولا تنسجم معه ذاته النبيلة .

ويبدو ذلك مُتحققاً – بجلاء – فى قصيدة الشاعر ذات العنوان الدال المُوحى: " حائر " ، حيث يؤكد – خلالها – كيف أنه يحيا غريباً – وهو وسط قومه وأقرانه .. حيث توخزه نار الغربة ، ويؤلمه سعير الوحشة ، ويتقد فى داخله وقود الضياع .. بعد أن شعر وأحسَّ بعدم انسجامه مع بنى مجتمعه .. فراح من ثم يُحس ويشعر بالقلق ، وبدا فى صورة الغريب – وهو ماثل بين أهله وذويه .. فرأيناه –خلال تجربته الرقيقة الشاكية الآسية تلك يكثر من استخدامه لأسلوب الاستفهام الدال على التوبيخ والتعجب والإنكار ، مُلحاً فى استخدامه ، مُظللاً به سماء تجربته ، منفساً به عن آلامه وآهاته ، ومخففاً من أحزانه وأوجاعه ، كاشفاً من خلاله عن مظاهر شكواه، ودواعي آلامه .. حيث يقول وقد اعتمد – بجانب تلك التساؤلات الكثيرة المتتابعة التى كثف بها تجربته هنا – اعتمد بجانب ذلك على النداء والتكرار فى تجسيد ما ينتابه من مشاعر القلق والحيرة هنا:

يالذَّاتى كل شيء ... حال لوناً مثل طعم
أنبئونى أنبئونى ... واكشفوا بالعلم هَمِّى
هل صحيح ما أرا ... ه أم تهاويل لوهمى؟!

مـــــن أمـــور غامضـــات ... حـــار فيهـــا كـــل فهمـــي؟!
هل يكون الفضل فى الإنـــــ ... ـــسان مـــدعاة لـــذمِّ؟!
والتـــزام الحـــق جُرمـــاً ... فـــى نزيـــهٍ .. أي جُـــرم؟!
والصريـــح الـــقول فظـــاً ... يرتـــدى جلبـــاب شـــؤم؟!
هل يكـــون السُّـــمّ شـــهداً ... والحصـــى بـــراق نجـــم؟!
هل يصـــير المَيْن صـــدقاً ... بعـــد تزويـــق ووشـــم؟!
والمجـــون الجهـــر ظرفـــاً ... عبقريـــــاً أي نظـــــم؟!
ذاك مـــــا يطفـــو علـــى ... ســـطح الحيـــاة المُـــدلهمِّ
يـــا رفـــاق العيـــش ماذا ... غيـــر مـــا أحصـــاه كلمـــى
هل أصبـــتُ الحكـــم فيـــ ... ـــه أم تراه جار حُكمـــى(١)

وهكذا نرى الشاعر يُكثر من تساؤلاته الإنكارية من خلالها فى تجسيد طبيعة ذلك المجتمع الذى تصطدم به نفسه الرقيقة بعد أن اختلّت فيه الأوضـــاع ، وانقلبـــت الموازين ، وفسدت الأذواق ، وسقمت الطباع – على نحو ما بدا متحققاً– خلال تلـــك التساؤلات الغزيرة المتتابعة –خلال التجربة هنا.

وفى معرض شكوى الشاعر ، وبصدد تألمه مما جدَ وطرأ على أبناء مُجتمعه من مفاسد وشرور ذهبت بأغلى ما يمتلكونه إنها مشاعرهم الإنســانية – تلـك التــى أودت بها المطامع فأجدبت منها النفوس ، وأظلمت بها البصــائر .. فــى معــرض شكوى الشاعر ، وبصدد تألمه من ذلك رأيناه يستخدم أسلوب الاستفهام الــدال علــى التعجُّب والإنكار، حيث يقول :

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٥٨ – ٦٠ .

أتُرى المطامع فى بنى الإنسان حجَّرت المشاعر؟!
هل أجدبت تلك النفوس وأظلمت فيها البصائر؟!(١)

وهذان التساؤلان لا شك فى أنهما يُجسِّدان ما ينتاب الشاعر ، ويتملَّكه من مشاعر الأسى والحسرة والحزن والأسف هنا إزاء ما آل إليه حال أبناء المجتمع آنئذٍ .. حيث استحالوا آلاتٍ جامدة ، منعدمة الإحساس والشعور !!.

وها نحن أولاء نلتقى- خلال وجدانيات الشاعر أيضاً بطائفة من التساؤلات التى كثَّف بها واحدة من تجاربه الوجدانية ، وظَلَّل سماءها بها .. مُؤكداً من خلالها كيف أنَّ النفس الإنسانية لغز حار فى كنهه العقلاء ، وسرُ عجز عن إدراك حقيقته العلماء .. حيث يقول من قصيدته التأملية :" وما أدراك ما النفس ؟ مُتسائلاً عن حقيقة النفس الإنسانية ،مُلحاً فى تساؤلاته عن طبيعتها تلك التى يكتنفها الغموض ، ويشوبها الخفاء:

يا خبير النفس قل لى مُفصحاً فى غير عُسر
إنه فى لغزها قد حار وجدانى وفكرى
هل لها كنه وأوصاف على الإدراك تجرى؟
هل لها فى الجسم حرزُ أو مقرُ عنه ندرى؟
هل هي الرُّوح التى فى نابض الأجسام تسرى؟! (٢)

ولا يخفى أن الشاعر يرمى من وراء تلك التساؤلات إجابة تزيل عنه بعض الغموض والخفاء إزاء ذلكم العالم- عالم النفس الإنسانية اللامتناهى الأسرار .. حيث

---
(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٧ .
(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان : صـ ٦٠ .

يؤكد- من خلال تلك التساؤلات ما تقوم عليه حقيقة النفس الإنسانية من الخفاء والغموض ، وأنّ ما توصّل إليه الفلاسفة بشأنها من أسرار ونظريات لا ترقى إلى درجة العِلم واليقين ، ولا تعدو سوى ظنٍ وتخمين .. ومن ثم رأيناه يتساءل مُنكراً ومتعجباً إزاء ذلك الذى يدَّعى علمه بحقيقة وطبيعة النفس الإنسانية ، مؤكداً بين يديه أنَّ ما يعلمه بشأنها لا يعدو سُوى أحكام ظنية تقوم على الحدس والتخمين عن شيئ بالغ فى الستر والخفاء ، وقائم على الحُجب والغطاء .. يقول صان الدِّين :

يا عليم النفس فى حلمٍ أجبنى أو فقل لى:
كيف تدرى طب شيء غاب عن حِسٍ وعقلِ؟!
كيف بالأحكام تخمينا على المحجوب تُدلِى؟! (١)

ويؤكد الشاعر مضمون التجربة السابقة عن النفس الإنسانية .. عن طريق الاستفهام الدَّال على التعجبُ والاستبعاد ، والذى يؤكد من خلاله ما يقوم عالم النفس الإنسانية من الغموض والخفاء ، وما يكتنفها من الستر والغطاء -خلال هذين البيتين، حيث يقول من قصيدته التأملية : " أيتها النفس " :

يا أيها السِرُّ الخفي المبهَمُ يا أيها الغور السحيق المُظلم
كيف السبيل إلى اكتناهك والغطاء عليك ضاف مُحكمُ؟!(٢)

وبجانب الاستفهام الدال على التعجب والاستبعاد هنا قام النداء الوارد فى البيت الأول ، والذى ألحَّ الشاعر فى استعماله .. بالإضافة إلى ما تضمَّنه هذان

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٦١

(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٩١ .

البيتان من مفردات دالة ، وكلمات مُعبِّرة .. كل ذلك جسَّد مضمون التجربة ، وأكده هنا .

ومثلما أكثر الشاعر من تساؤلاته الواردة فى التجربة السابقة ، حيث حديثه عن حقيقة النفس الإنسانية ، وتأكيده –من خلال تلك التساؤلات ما يقوم عليه عالم النفس من غموض وخفاء ، فإنه يكثر هنا من تساؤلاته تلك التى يُجسد من خلالها حيرته الشديدة إزاء حقيقة الإنسان وجبلَّته ، وإلى أي جنس من الخلائق ينتمى ؟ أ إلى الآنس المأنوس منها ؟ أم إلى المُستوحَش ؟ أم أنه منهما جميعاً .. حيث يقف شاعرنا فى النهاية حائراً إزاء حقيقة وجبلَّة الإنسان .. والتى تبقى فى النهاية سِرّاً عميقا ، وغوراً سحيقا .. يقول صان الدِّين :

أيُّها الإنسان أفصِح فيك حار الدّهر فِكرُ
يا ترى هل أنت قط مُؤنسُ أم أنت نمر؟!
أنت عصفور وديع ساجع أم أنت صقرُ؟!
أم من الجناس طراً فيك يا مجهول قدر؟!
أيها المخلوق فى نطق ووعي أنت سِرُ (١)

ونرى الشاعر خلال قصيدته الرقيقة الشاكية : " صمت الطيور " يُسائل الطيور – فى حسرة وتعجبٌ : ماذا دهاها ؟! وما أصابها ؟! فتوقفت عن الشدو والتغريد والطير والتحليق فى وقت الصباح والبكور ؟!، بل أين هي بقية النهار ؟! لقد انزوت وانطويت ولاذت بالصمت الرهيب ، واستسلمت لأنه القلب الحزين ، فاستحال شدوها وتغريدها بكاءً وعويلاً ، بل صمتا رهيباً .. حيث يقول :

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٧٠ ، وطرّا : جميعا .

لِم لم تُغنِّـــــى يا طيـــــور لم لا تطيـري فـى البكـور؟!
مالى أراك قـــد انطـــويــ ت فـلا رفيـف ولا ظهـور؟!
وركنــــت للصمـت الحزيــ ن وأنّة القلـــب الحسير؟!(١)

وتساؤلات الشاعر الواردة خلال هذه الأبيات تدلّ – بجانب التعجب على ما ينتاب الشاعر ، وتُجَسِّد ما يسيطر عليه من مشاعر الحزن والحسرة إزاء ما آل إليه حال الطيور من صمت رهيب ، وكآبة شديدة .. مُتخذاً من ذلك معادلاً موضوعياً لذاته المثخنة ونفسه الموجعة بالآم التصادم مع واقع الحياة المُتجهِّم .. حيث يسكب مشاعره تلك على الطائر ، متحدثاً بلسانه– مثلما هو عند الشعراء الرومانسيين ، وإن كنت أرى أنه لو عبَّر الشاعر بكلمة : " لا " بدلاً من : " لم" الواردة فى قوله : لم لم تغنى يا طيور ؟! لكان أكثر موافقة وأشد مناسبة للمعنى هنا .. حيث يُعطى التعبير :" بلا" فسحة زمنية أرحب وأوسع .. مثلما فعل فى الشطرة الثانية حين قال يُسائل الطيور : " لم لا تطيرى فى البكور؟!" وهذا لم يكن ليتحقق لو أنه عبَّر :" بلم"– مثلما فعل فى الشطرة الأولى .

وفى قصيدته : التأملية الناقدة : " شعوذة ودجل" تلك التى ينتقد فيها الشاعرمسلكاً معيباً ، وأمراً محرَّماً .. يقع فى براثنه كثير من المخدوعين– مِمَّن ضعف إيمانهم ، ورقَّ دينهم ، ووهيت إرادتهم ، وخارت عزائمهم ، ذلك هو تصديق العرَّافين والدجَّالين فيما يدَّعونه من علم الغيب ، والتنبؤ بما فى المستقبل وغير ذلك مما اختص الله سبحانه بعلمه ، وأيضاً الاعتقاد فى تنبؤات النجوم والأفلاك .. فى معرض حديث الشاعر عن ذلك رأيناه يسائل – فى سخرية واستهزاء ، وتعجّب وإنكار – عيون النجم عن حقيقة علمها الغيب ، واطلاعها على أخبار الملأ الأعلى

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٢ .

.. مُلحاً فى تساؤله إياها ، جاعلاً – على سبيل السخرية والتهكم – من نفسه جاهلاً وحائراً يبغى منها الجوابا .. حيث تجيبه النجوم بلغة الصمت الرَّهيب ، وتعيي عن الجواب عن شافى المقال .. ليخلص شاعرنا فى النهاية ، ويصل فى الختام إلى بيت القصيد ، حيث يصف بالسَّفه والضلال كُلَّ من يعتقد فى أن الأفلاك تنبى عن مآل ، وتخبر عن حال ، يقول صان الدِّين منادياً عُيون النجم ، ومسائلاً إياها فى تهكم وإنكار ، وسخرية واستهزاء :

يا عيون النجم هل تدريـ ... ن ما تُخفى الليالي؟!
هل قرأتِ اللَّوح عند الـ ... عرش فى نور الجلال؟!
هل أجبت السائل الحير ... ان عن قصد السؤال؟!
أم لزمت الصمت والإعيا ... ء عن شافى المقال؟!
ضلَّ عقل يحسبُ الأفلا ... ك تنبى عن مآل![1]

وهكذا نرى الشاعر – وقد جسَّد من خلال تساؤلاته التعجبية التهكمية الإنكارية هذه سخريته المريرة ، وتهكمه اللاذع- إزاء عيون النجم ، مُفحماً إياها ، ومُؤكداً عيَّها وعجزها عن علم الغيب ، مستخلصاً من ذلك بيت الحكمة البليغ الذى يقول فيه :

ضلَّ عقلٌ يحسبُ الأفلا ... ك تنبى عن مآل!

وأسلوب النداء كان هو الآخر من بين الأساليب الإنشائية التى وظفها الشاعر، وأفاد منها فى تجسيد انفعالاته المختلفة ، وتصوير عواطفه المتنوعة ..

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٤ .

والذى يطالع المواضع التى تحقق فيها أسلوب النداء خلال وجدانيات الشاعر يجـدها قليلة بعض الشيء إذا ما قورنت بالمواضع الغزيرة التى تحق فيها الاستفهام، وهو _ أي شاعرنا – قد أفاد من أسلوب النداء خلال تلك المواضع : حيث وظف مـا يـدل عليه ذلك الأسلوب – بجانب طلب الإقبال – من معانٍ وأغـراض ودلالات محازيـة تتفق وبواعثه النفسية ، والوجدانية والشعورية ، وتسهم بشـكلٍ كبيـر فـى تشـكيل تجاربه، وإبراز مضامينه ، وتجسيد أحاسيسه وتصوير انفعالاته .. ويلحـظ المُطـالع لتلك المواضع التى تحقق فيها أسلوب النداء – خلال وجدانيات الشاعر – أنها جميعاً ذات قيمةٍ وبالٍ ، ولها شأن مهم فى التجربة ، على نحو ما سيبدو لنا– خـلال تلـك النماذج التالية من شعر صان الدِّين الوجدانى .

فها هو ذا شاعرنا يُنادى خِلَّه الوفيّ ، وصديقه الأثير : " شعره " ، ويناجيـه مُلحّاً ومُلحفاً فى ندائه ، ومناجاته إياه ، مؤكداً من خلال تلك النداءات مكانة وعظمـة وأهمية الشعر بالنسبة للشاعر ، فهو ظِله ومرآته، وهناءته وحياته ، يقول الشاعر من قصيدته " أنغام الحياة أنت " :

يـا شـعر أنت مترجـم ... خفقـات قلـب الشـاعر
يـا شـعر أنت مصـور ... حِـسَّ الوجـود البـاهر
أنت الـذى يهـب الـورى ... لحن الخلـود السَّـاحر (١)

ويُلحظ أن الشاعر قد استخدم فى هذين النداءين حرف النداء : (يا) وهـي للمُنادى البعيد – كما نعلم – والشعر لاشك فى أنه حاضر فى كيان الشـاعر ، ماثـل فى وجدانه ، وهو إذ يُناديه نداء البعيد يُشعر من خلال ذلك برفعة قـدر " الشـعر " المُنادى هُنا ، وعظيم شأنه .

(١)ديوان: أعاصير وأنسام صـ ٢٣ .

ومن المواضع التى تحقق فيها النداء –خلال وجدانيات الشاعر أيضاً ما جاء فى قصيدته التأملية : " أيتها النفس" ، حيث يُناديها وهي السِّرُّ الخفي المُبهم ، والغورُ السحيق المظلم .. مُلحًا ، ومُلحفا فى ندائه إياها ، حاثاً من خلال –ذلك النداء– المُنادَى " النفس" ، ومُغرياً إياها ، مُهيباً بها أن تُقبل على طلب الأمر الذى وجَّهه إليها الشاعر فتجيبه عن سؤله .. حيث يقول :

يا أيها السِرُّ الخفي المُبهم يا أيها الغور السحيق المُظلمُ
كيف السبيل إلى اكتناهك والـ غطاءُ عليك ضافٍ مُحكمُ؟!(١)

ويُلحظ أن الشاعر نادى على النفس هنا نداء البعيد ، حيث استخدم من بين حروف النداء حرفاً يدلُّ على البُعد ؛ تناسباً فى ذلك مع المضمون الذى يرد النداء فيه هنا ، حيث يُمعن الشاعر فى وصف حقيقة النفس ، وما تقوم عليه من السرَ والخفاء والغموض والإبهام ، وتلك صفات تؤهل المنادى هُنا "النفس" لأن يُنادى عليه نداء البعيد لا القريب .. وقد أفاد النداء بهذه الصورة هنا عظم الأمر الذى نوُدي من أجله ، وهو: كيف السبيل إلى اكتناه حقيقة النفس ، وإدراك كنهها ؟! .

وهاهو ذا شاعرنا يُجسِّد فى واحدة من تجاربه الوجدانية الرقيقة – من خلال تكراره لأسلوب النداء ، وإلحاحه عليه – ما ينتابه من حسرة ، وحيرة ، وحزن وقلق إزاء ما يرى ويشاهد من شرور ومفاسد استشرت فى أوصال المجتمع آنئذٍ ، وتمكنت من أبنائه فأحالت حياتهم إلى قتام ، واتشح لونها بالسواد ، مما جعل نفس الشاعر تحزن وتتألم وتُصدم إزاء ذلك الحال : يقول الشاعر

يا أولى الألباب إنىِّ حائر قد ندَّ حلمى
يا لداتى كلُ شيء حال لوناً مثل طعم

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـ ٩١ .

....

يا رفـــاق العـيش مــــاذا غير ما أحصـــاهُ كلمى [١]

والشاعر يلح – كما نرى على استخدام أسلوب النداء ، ويكثف تجربته به هنا ؛ دلالة فى ذلك عما يسيطر عليه من مشاعر القلق والحيـرة والحـزن والحسـرة ، وكأنى به فى ندائه أولى الألباب والمساوين له فى العمر ورفاقه يهيـب بهـؤلاء أن يشاركوه مشاعره تلك ، وأن يُقاسموه إياها ، فيُخفِّفون بذلك مـن وطـأة إحساسـه ، ووقدة شعوره . وهو – أي – الشاعر إذ يأتى بالمُنادى مقروناً بحرف النداء :" يـا " فى تلك النداءات الثلاثة المذكورة ، فإنه يلائم هنا مقـام الاسـتغاثة والصُّـراخ إزاء هؤلاء اللذين ناداهم الشاعر .. حيث يتسنى له عن طريق المدَّ الموجود فى الحرف : " يا " بأن يرفع صوته ؛ إلحاحاً منه فى طلب العون من هؤلاء اللذين هرع إليهم هنا، بالإضافة إلى ما يُشعره امتداد الصوت بهذا الحرف بما يسيطر على الشاعر هنا مـن حيرة وعناء ، وقلق وعذاب ، وحسرة واضطراب ، حيث يكون هذا الصوت الممتد : " يا" بمثابة الشيء المُنفس عن آلامه وأحزانه ، المُخفِّف من آهاته وزفراته هنا .

وطبيعي أن يكثر الشاعر – خلال تجاربه فى الغربة والحنـين مـن النـداءات ؛ حيث تأتى تلك النداءات استجابة للتعبير عن انفعـالات الشـاعر المتدفقـة ، وتلبيـة لتجسيد مشاعره الحانية .. فى مثل هذه التجارب التى تفيض بالحُبِّ الدائم ، والحنين الدائب ، والشوق العارم وما يستتبع تلك المشاعر من إحسـاس بـالحزن والحيـرة ، والألم والقلق .. فإذا ما انضمَّ إلى ذلك الموقف – أعنى موقف الغربة – موت والـدة الشاعر وهو غريب بعيد عنها – لم يحظ باللقاء بها .. فإن إحساسه بـالحزن والألـم والحيرة والقلق يزداد ويتضاعف .. مما يجعله يُكثر من نداءاته وطنه الحبيب مصر، ووالدته الرَّاحلة الغالية ، مُصوراً فى ذلك ، ومُجسِّداً ما ينتابه مـن مشـاعر القلـق

---

(١)ديوان: أعاصير وأنسام صـ ٥٨ – ٦٠ .

والحيرة والحُزن والحسرة .. على نحو ما يبدو فى قوله من قصيدته : "الحنين إلى أرض الكنانة " يُصور ما يكنه من مشاعر الحُبّ والشوق واللهفة والحنين إزاء مصر الحبيبة ؛ ففيها الرِّيُّ مما به من ظمأ ،والشفاء ممَّا به من مرض .. ولكن ومن أسف !! فقد بعدت الشقة بينه وبينها ، وأُوصدت الطرق بالحواجب والحواجز ذات القوّة والمنعة..:

فيا مصر إنى غريب الديا ر مشوق الفؤاد مريد الهوى
وأنت الرِّواء لذاك الغليـ ل وأنت الدَّواء لهذا الدّوى
ويا مصر كيف إليك السبيـ ل ودونك قيد وبيد قوى؟!(١)

فهو – أي الشاعر – قَلِق حائر متعب مشوق .. حيث ينادى مصر هنا مرتين نداء البعيد ، وفعلاً كانت بعيدة عنه ، كيف السبيل إليها ؟! ، وهي – أي مصر – فى نظر الشاعر أيضاً بعيدة الشأن ، عالية المكانة ، رفيعة المقدار ، ولم لا ؟ وهي الرّيّ لغُلته ، والدواء لعلَّته مما يقاسيه ويعانيه ، فهو مشوق الفؤاد ، مريد الهوى .. بجانب ما يمكن أن يعطيه المدّ المتوفر فى كلمة : " يا" من مساحة كافية للشاعر هنا لأن يُنفس عن آهاته الممتدة ، وآلامه المترسبة ، وأحزانه العميقة ، وأشواقه العارمة المستقرة فى كيانه وأعماقه .

وعلى نحو ما جاء أيضاً فى قصيدته الثانية ، والتى استمد تجربته فيها من وحي الغربة ، والتى بعنوان :" ورحلتِ يا أُمَّاه " ، حيث يُصور –من خلال الأبيات التالية ما تفيض به نفسه من مشاعر الحُبّ والحنين واللهفة والشوق إزاء والدته العزيزة الرَّاحلة – تلك التى رحلت عن الدنيا وهو غريب بعيد عنها ، مما ضاعف

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٦٢ ، وقوى : قفر لا أنيس فيها .

من آلامه ، وزاد من أحزانه ، فراح من ثم يُعزِّى نفسه ويُسلِّيها، مُحتسباً إياها عند بارئها سبحانه ، وصابراً على فراقها .. مُحدِّثاً بأياديها عليه ، ومُكبْراً صنيعها بين يديه .. يقول صان الدِّين – وقد أكثر من نداءاته على روح والدته الرَّاحلة، مُكثفاً بها تجربته هنا ، ومُنوَّعاً فيها بين النداء المقرون بالياء ، والنداء الغير مقرون بها ، ومرّة يناديها : " يا أم الخصال الزاكيات " ومرتين يناديها : " يا أُمَّاه " ، ورابعة : " أمَّاه " وخامسة : يا نبع الحنان ، وسادسة : يا موج السخاء .. :

يهنيك يا أم الخصال الزاكيا ... ت الخلد فى هذا النعيم المُطلق !
قد كنت يا أمَّاه تشكين الجوى ... لوحيدك النائى بواد مغلق
وتصارعين الدَّاء فى غلوا ... ئه وتغالبين يد الحمام المُحدق
....
فرحلتِ يا أمَّاه ظماى مهجة ... عن هذه الدنيا ولمَّا نلتق!!
ورحلت يا نبع الحنان الثر ... ريا موج السَّخاء الغامر المُتدفق
وبقيت مشبوب الأسى فى غربتى ... أبكى بقلب فى الضلوع مُصفق
لا أرتجى رؤياك إلا حالماً ... مُسترجعاً صور الماضى مشرق
أمَّاه عذراً فالحياة عواصف ... تأتى بكل مُروَّع ومؤرق (١)

وفى إكثار الشاعر من نداءاته لأمِّه الراحلة ، وفى تنويعه تلك النداءات وإلحاحه فى ذكرها هنا.. ما يدل على عظمة تلك الأم ، وعلو مكانتها ، وسموّ منزلتها ورفعة شأنها، وتعدُد منافعها بالنسبة للشاعر .. كما أن فى تكرار هذا النداء ما يُشعر بما يحدث للشاعر من راحة واستطابة عند ذكر أمِّه الراحلة ، ولعلّ ذلك

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـ ١٨٩ ، ١٩٠ .

متحقق فى نداء الشاعر أمّه فى قوله : يا أمَّ الخصال الزاكيات ، يا نبع الحنان الثــرِّ، يا موج السخاء الغامر المُتدفق ، ويلحظ أنَّ النداءات المقرونة بحرف النــداء " يــا " خلال تلك الأبيات المذكورة هنا هي الأكثر بين النداءات الأخــرى الغيــر مقرونــة بحرف النداء فيها .. ؛ ولعل ذلك راجع إلى عدّة أسباب منها : أن الشــاعر ينــاجى روح والدته الذاهبة البعيدة عنه فناسب ذلك أن يستعمل حرفاً يدل على البُعد ، أيضــاً فى التعبير بأسلوب النداء المقرون بحرف النداء :" يا " ما يدل على البُعــد المعنــوي للمُنادى ،ورفعة شأنه ، وعلو قدره ، وعظم نفعه .. وقــد كانــت أمُّ الشــاعر هكــذا بالنسبة له .

وكذلك فى التعبير بالنداء مقروناً بالياء ما يُعطى فُسحة للشاعر ، ومُكنة لــه فى أن يُنفس عن آهاته ، ويخفف من أحزانه .

أما النداءات الواردة – خلال تلك الأبيات – بدون حرف النــداء :" يــا " فتــأتى ؛ لتؤكد شدة دُنوِّ المُنادى " الأمّ هنا ، وقُربها ، وحضــورها ، ومُثولهــا فــى كيــان ، ووجدان الشاعر .

ويلحظ ما يتوافر هنا خلال هاتين الكلمتين : " أمَّاه .. أمّاه " من مــدٍّ يُمكِّــن الشاعر من أن يُنفِّس عن آلامه وأحزانه ، ويُخفف من أوجاعه وآهاته .

ونلتقى بالتعجب على استحياء فى بعض تجارب الشاعر الوجدانية ، لاســيما فى تلك المواضع التى تنفعل فيها نفس الشاعر بما ندر وجود مثلــه ، وقــل حــدوث نظيره فى الواقع .. حيث يُطلق التعجب فى اللغة على : " الاستغراب " ، وقيل هو : انفعال النفس بما خفي سببه ، وخرج عن نظائره ، وقد أوضح ابن يعــيش المــراد

بهذا الأسلوب فقال : " التعجب معنى يحصل عند المُتعجِّب عند مشاهدة ما يجهل ويقلّ فى العادة وجود مثله "(١) .

والمواضع التى كان لذلك الأسلوب فيها وجود خلال تجارب الشاعر الوجدانية قليلة، ونادرة للغاية .. حيث يمكن للقارئ الكريم أن يشتم رائحة التعجُّب لدى الشاعر إزاء المرأة – ذلك المخلوق الضعيف- صاحب السطوِّ والسُّلطان على نفوس وقلوب الأشداء من الرِّجال .. وذلك فى صورتين- خلال تجارب الشاعر التأملية فى ذلك العالم العميق اللامتناهى الأسرار .. عالم المرأة – حيث يُبدى فى إحداهما ما للمرأة – ذلك المخلوق الضعيف الرقيق من سطوة وسلطان وتأثير ومضاء إزاء الأشداء من الرجال ، فهو يؤثر فيهم ، وينزل عليهم تأثير ونزول السِّحر الذى يُغيِّر كيانهم ، ويشغل بالهم، ويُقلق ساكنهم .. ها هو ذا شاعرنا يُصور دهشته وتعجبه إزاء ذلك .. حيث يقول فى كلمات بليغة موجزة :

يا لمخلوق رقيق   يشغل الدنيا بعين !! (٢)

وفى الصورة الأخرى يُصور الشاعر – فى عفة وتصوُّن – إشفاقه وتعجُّبه إزاء ما بدا – عند ظهور تلك المرأة الحسناء من مظاهر الحسن ، ومعالم الجمال .. حيث غدت – فى حُسنها ، وسحرها – أشبه بالظبي الفاتن الجميل ذى السِّحر النافذ ، والتأثير الكبير :

وا رحمتاه لشادن   برزت مفاتنه رشيق!! (٣)

---

(١) من أساليب العربية : التعجب والمدح والذمِّ .. د/ إمام حسن الجبوري – ج١- صـ ١١ ، ١٢ – بتصرف – مطبعة الأمانة – الطبعة الثانية – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م .

(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٦٧ .

(٣) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٧٤ ، والشادن : الظبي عند بروز قرنيه .

حيث تشتم خلال هذين الموضعين المذكورين هنا رائحة التعجب لدى الشاعر إزاء المرأة – ذلك المخلوق الضعيف الذى يستمد قوته ، وسلطانه وسطوته من حُسنه ورقته وضعفه، وتوفُّره على معالم الحسن ، ومظاهر الجمال ..

وقد صاغ شاعرنا كلامه هنا – كما نرى- صياغة تقـوم علـى المحافظـة والتصوُّن ، وتسلم بالضرورة من الإسفاف والابتذال؛انطلاقاً فى ذلك من طبيعة نظرة الشاعر الراقية السامية إلى المرأة ، بعيداً فى ذلك عن امتهانها .

وهكذا رأينا الشاعر وقد مازج هنا فى أداء معانيـه ، وتجسـيد أحاسيسـه ، وتصوير انفعالاته المتنوعة –خلال تجاربه الوجدانية .. مازج فى أساليبه وتراكيبـه بين الخبرية والإنشائية .. كل منها فى موضعه الذى يناسبه ، وجوّه الـذى يلائمـه ، وأرضه التى يصلح فيها .

المبحث الرابع

من الظواهر البديعية فى الأسلوب- خلال تجارب الشاعر الوجدانية

الذي يطالع أساليب الشاعر وتراكيبه – خلال تجاربه الوجدانية يلحظ ندرة وجود المُحسِّنات البديعية ، ويبدو له قلتها خلال تلك التجارب .. حيث جاءت أساليب وتراكيب صان الدِّين –خلال وجدانياته– فى الكثير الهائل منها مطبوعة ، بعيدة عن الصنعة اللفظية ، والزخرفة الشكلية .. وما جاء من أساليب منها مُحلاّة بتلك الحُلَى البديعية ، وما ورد من تراكيب مُوشَّاة بأصباغها البهية ، فقد وُفق الشاعر فى أن يجمع فى الكثير الهائل منها بين الإفادة والحُسن .. حيث يبدو للواقف على تلك المواضع التى تحققت فيها تلك الحُلَى البديعية – خلال تجارب الشاعر الوجدانية – أنها جاءت – فى جُلِّها – عفو الخاطر ، ودون قصد أو تعمدٍ من الشاعر الإتيان بها .. فلم يقسرها قسراً ، ولم يأت بها عنوة فبرئت من ثم من التكلّف ، وسلمت من التعسُّف ، بعد أن تطلبها المعنى ، واقتضاها المضمون .. لتجمع بذلك بين الإفادة والحُسْن .. حيث تخدم الشكل بتزيين الأسلوب ، وتجميل العبارة وتحسينها ، وتخدم المضمون بإبرازه وتأكيده ، وتجسيد ما تقوم عليه التجارب الواردة فيها تلك الحُلَى البديعية من انفعالات وأحاسيس ومشاعر .. وهذا من شأنه أن يضفي على الشعر آنئذٍ صفات الحُسن والقوة والجودة والبراعة .. وإلا فإنَّ جلب هذه المُحسِّنات ، واستدعاءها ، والإتيان بها قهراً وقسراً بدون أن يحتاج إليها المعنى ، ويفتقر إليها المضمون مما يُفسد الشِّعر ويُهجِّنه ، ويذهب بقوته ، ويَّضعفه .. حيث يغدو هكذا معرضاً للزينة والتأنّق فى ظاهره فقط ، فإذا ما بحثت عن لبابه ، وفتَّشت عن جوهره لم تجد شيئاً .. فالمحسِّنات البديعية : " هي ألوان وأصباغ يحاول بها الأديب أو الشاعر أن يُوشي بها أدبه أو شعره ، فيزيِّن بها اللفظ، أو يُحسِّن بها المعنى ، بعد أن يكون قد أتمَّ بناءه الأدبي ، أو الشعري من حيث الفكرة والنظم .. والأديب أو

الشاعر الحقّ هو الذى يصرف همَّه فى عملية البناء هذه ، فيعنى أولاً ببناء شعره من حيث حُسن الأداء ، ووضوح المعنى ، وفصاحة اللفظ ، ومتانة التركيب ، ولا يشغله -بحال من الأحوال – الجري وراء هذه الأصباغ والألوان ، فيحاول البحث عنها ، والإتيان بها أحيانا – فى تكلُّف واعتساف – حتى لنرى كثيراً من الشعراء يحاول ترتيب المعانى وفق ما أتواْ به أولاً من مُحسِّنات بديعية ، وكأن المسألة عندهم: بديع ونظم ، لا معنى ونظم ، إذ يصرف جهده كلُّه فى عملية البحث عن هذه المُحسِّنات ، وفى ظنِّه أنَّ حظه من الشاعرية يزداد بمقدار ما يكثر فى شعره من هذه المُحسِّنات ، ولا يعنى هذا الكلام أن يترك الشاعر هذه المُحسِّنات ، أو يتغافل عنها ، لا بل عليه أن يُحسِّن شعره ، وينمِّقه بها ؛ شريطة أن يأتى ذلك عفو الخاطر دون قصد أو تعمُّد ؛ أو أن يأتي ذلك لخدمة الفكرة ؛ أو للإحاطة بالمعنى " (١) .

والناظر فى وجدانيات الشاعر يجده قد وشَّى وزيَّن ذلك القليل النادر منها بالطباق والمقابلة ، مُؤكداً فى الوقت ذاته ، ومُجسِّداً من خلالها ما يَرِدان فيه من معاني ومضامين ، ومشاعر وأحاسيس .. حيث يلحظ المطالع لتلك التجارب كيف أنَّ الشاعر قد تعامل مع تلك الحُلَى البديعية بقدر وحذر ، وغدا فى ذلك كمن يتعامل مع الملح والسُّكر .. على نحو ما سيبدو لنا خلال تلك السطور المقبلة- بإذن الله تعالى وبتوفيقه ، حيث نقف مع تلك المواضع التى تحققت فيها هاتان الظاهرتان البديعيتان- خلال تجارب صان الدِّين الوجدانية .

حيث نلتقى بالطباقات الكثيرة المتتابعة التى كثَّف بها الشاعر إحدى تجاربه الوجدانية التى أبدعها من وحي الشكوى والألم المُمضِّ من أثر ما يحسُّ ويشعر به من غربة نفسية أحالت الحياة فى ناظريه سوادا ، وجعلتها قتاما ، حيث نرى نبرة

---

(١) مروان بن أبي حفصة – شاعريته وشعره – د/ محمد عارف محمود حسين – صـ ٢٧٤ – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى – ١٣٠٤هـ – ١٩٨٣م .

الشكوى والألم ، هنا تتصاعد وتعلو حدتها لتصل إلى حدِّ التشاؤم الشديد ، واليأس الكبير الذى يتوارى أمامه التفاؤل ، ويذوى الأمل .. ها نحن أولاء نلتقى بتلك الطباقات البليغة المُجسِّدة لتلك الأحاسيس والمشاعر المُسيطرة على الشاعر هنا ، والمؤكدة لها .. حيث يقول من قصيدته الشاكية ذات العنوان الدال : " زفرة " :

هذى الحياة نعيمها وشقاؤها أين اختفى عن ناظري بهاؤها؟!
سيان عندى حلوها ومريرها إرواءها فى مهجتى إظماؤها!!
أنسامها لفح السموم يُمضُّنى وصباحها فى ناظري مساؤهانعماؤها
جمر يُلذِّع خاطرى صاب يدور بمهجتى صهباؤها
يا ويح روح الحياة سقيمة يارب أين ترى يكون شفاؤها؟!
ما كنت إلا عندليباً كاسفاً ضاقت علىَّ فجاجها وسماؤها[1]

فقد طابق الشاعر – كما نرى – بين كلمتى : " نعيمها" ، "وشقاؤها" الواردتين فى البيت الأول ، وبين : " حلوها ، ومريرها " ، وبين " إرواؤها ، وإظماؤها" الواردة فى البيت الثانى ، وطابق أيضاً بين كلمتي : " صباحها ومساؤها" فى البيت الثالث ، كما طابق بين كلمتي : " سقيمة وشفاؤها " الواردتين فى البيت قبل الأخير .. بجانب ذلك الطباق المجازي الذى طابق فيه الشاعر بين كلمتي : " نعماؤها، وجمر " ، وكلمتي : "صاب" التى بمعنى : " مُـرّ" ، "وصهباؤها " التى بمعنى : " الخمرة" ، وأيضاً بين : " ضاقت، وفجاجها" .. ولاشك فى أنَّ تلك الطباقات التى خيَّمت على سماء التجربة هنا ، والتى حاول الشاعر جُهده أن يشاغلنا بها ، ويلفت أنظارنا إليها ، بعد أن أكثر من استعمالها ، وكثّف تجربته بها، لاشك فى

---

(1) ديوان : أعاصير وأنسام صـ ٥٦ ، ويُمضنى : يُحرقنى ، وصاب: مُر وصهباؤها : خمرها .

أنها جميعاً تتضام فى تجسيد ما يسيطر على الشاعر، ويلفّه ويشمله هنا من إحساس بالألم الشديد ، والشكوى المُمضة ، والتشاؤم الحاد الذى بلغ ذروته ،ووصل إلى منتهاه هنا ؛ مما جعل التجربة تتشح بوشاح السَّواد ، وتصطبغ بلون القتام ؛ تناسباً فى ذلك مع عنوانها الدَّال :" زفرة " .. حيث أسهمت تلك الطباقات جميعاً فى إبراز وتجسيد تلك الزفرة " الناتجة عن إحساس الشاعر بالحيرة الشديدة ، والحسرة المُمضة، والألم البالغ إزاء ما يحياه من واقع مائج .. شاعرنا غريب عنه ، وغير منسجم معه تماماً .

وفى تجربة وجدانية أخرى قريبة –فى طبيعتها ومضمونها من التجربة الشاكية السابقة نرى الشاعر وقد وظَّف الطباق ، واستعان به ، وأفاد منه فى إبراز وتجسيد ما ينتابه من مشاعر الحيرة والضياع ، والقلق والاضطراب ، والذهول والشرود من أثر ما يحس ويشعر به من غربة نفسية مُمضَّة تحزنه وتصيبه بالحيرة والحسرة ، وتُقلق ساكنة ، وتُنغِّص عليه هناءته .. حيث يقول من قصيدته : " حائر " :

يا أولى الألباب إنّى ... حائر قد ندَّ حلمى
واختفت عنِّى طريقى ... فى غيابات الخضمِّ
أين شرقى؟ أين غربى؟ ... والسوافى الهوج تعُمى؟!
....
إننى أحيا غريباً ... وسط أقراني وقومى
أغتدى فيهم وأُمسي ... فوق جمر النار رغمى
راحل عنهم بحسِّى ... حاضر فيهم بجسمى [1]

(1) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٨ ، ٥٩ .

وقد استهل الشاعر تجربته هنا بندائه أولى الألباب ، وأصحاب النُّهى ، مُهيباً بهم أن يدركوه فيخففون عنه بعض ما يُلاقى ويقاسى من آلام الاغتـراب النفسـي ، ويواسونه فى مصابه ، ويقاسمونه بلواه ، حيث يُجسِّد النداء هنا ما يُـوخز الشـاعر ،ويؤلم نفسه من قلق وحيرة شديدين .. بجانب تلك الطباقات الكثيرة .. الحقيقي منهـا والمجازي التى تتوفر فى تلك التجربة .. حيث رأينا الشاعر قد طابق بـين كلمتـي : "شرقى ، وغربى" ،وكلمتي : " أغتدى وأمسى " ، وكلمتي :"راحل وحاضر " .. كمـا طابق بين كلمتي : " بحسِّى – تلك التى يُراد بها هنا: " بروحه" ، وبجسمى " .

بالإضافة إلى الاستفهام الوارد فى البيت الثالث ، والذى يُجسِّد –هو الآخـر– ما يسيطر على الشاعر ، وينتابه هنا من مشاعر الحيرة والاضطراب ، حيث تُجسِّـد تلك الطباقات ، بجانب أسلوبي النداء والاستفهام الواردين خلال تلك التجربة .. تُجسِّد تلك الوسائل جميعا طبيعة التجربة التى يعانيها ويعايشها الشاعر هنا ، حيث يُمعن من خلال تلك الوسائل فى إبراز وتأكيد ما يلفه ويشمله من مشاعر الحيـرة والحسـرة ، والقلق والغُربة ، والذهول والضياع .. إزاء ما يرى ويشاهد ويُعـانى ويُقاسـى مـن مفاسد ومتناقضات استشرت فى أوصال مجتمعه ؛ مما يجعله يشـعر بغربـة نفسـية وأخلاقية ، حيث يصطدم بذلك الواقع المائل المتجهِّم المتعكر الآسن .. فينشد من ثـم عالماً مثالياً خالياً من تلك الشوائب ، والأدران الأخلاقية .

وفى تجربة وجدانية تأملية أنعم الشاعر نظره – من خلالها – فـى صـفحة الكون الفسيح .. مُطيلاً التأمل فيه ، مُجليًّاً معالم قدرة الله عز وجل ، مُعدِّداً فى أثنـاء ذلك ما يتوفر عليه ملكوت الله الواسع من مظاهر الحُسن ، ومجالى الجمال ، منـتقلاً فى ذلك من عالم إلى عالم آخر .. فى تلك التجربة، وفى مشهد من مشاهدها المتنوعة رأينا الشاعر يُعدِّد ويبرز – عن طريق الطباق – بعضاً من ظواهر الكـون – تلـك التى تبدو فى ظاهرها متناقضة ، ولكن بشيئ من التأمُّل تبدو غير ذلك ، حيث تتسـم

بالتناغم والتوازن .. ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت .. وذلك التناغم والتوازن يكمن فى تنوع تلك المظاهر، واختلاف طبائعها ما بين : رياض ، وبحار ، ومُنخفضات ، ومرتفعات ، وصباح ومساء ، وسكون ورعود .. كل ذلك من شأنه أن يُحدث فى الكون حُسْناً وبهاءً ، ويُضفى عليه جمالاً وانسجاماً .. يقول صان الدِّين :

من بهاء الله كان الحُسن فى هذا الوجود
أينما وجَّهْتُ عينى فى هبوط فى نجود
فى صباح فى مساءٍ فى سكون ورعود
لا أرى إلا جمالا فى طريف أو تليد (١)

والشاعر يجتهد خلال أبياته هذه – كما نرى – فى استجلاء ما يتوافر عليه ملكوت الله سبحانه الفسيح من الحُسن والجمال ، والرونق والبهاء ، وذلك من خلال تعداده –عن طريق الطباق– تلك المشاهد التى تبدو – فى ظاهرها – مُتناقضة من مثل : هبوط ، وصعود ، ووهاد "منخفضات" ، ونُجود : " مرتفعات" ، صباح ، ومساء ، سكون، ورعود ، طريف، وتليد .. لكن كما ذكرت بشيءٍ من إنعام الفكر ، وقليلٍ من إدامة النظر يبدو للمُتلقِّى مدى ما بين هذه المظاهر من تناغم وائتلاف ، وتناسق وائتلاق ـ وتزاوج وانسجام .. حيث يصلح الكون ، وتعمر الأرض ، وينعم الخلق بذلك التنوُّع والاختلاف ، وبدون ذلك تفسد الأرض ، وتستحيل الحياة .. فالأمر كما قال الشاعر فى نهاية تطوافه وترحاله بين تلك المجالى والمظاهر المتنوعة التى تبدو كما قلت – فى ظاهرها متناقضة ، وما هي بمتناقضة :

لا أرى إلا جمالا فى طريفٍ أو تليد

---

(١)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٢٧ .

وبجانب ذلك الأثر المعنوي الذى أحدثه الطباق هنا يأتى أثره الشكلي- ذلك الذى يتمثل فى إحداث النغم العذب ، والإيقاع الآسر الذى يُحدث فى النفس هزَّة وتشويقاً ، وفى الفكر إثارة وتحريكا .. حيث لا يخفى ما بين تلك الكلمات التى وقع بينها الطباق هنا من تساوٍ فى الوزن يحدث ذلك التناغم والتساوق : هبوط ، صعود، صباح ، مساء ، سكون ، رعود ، طريف ، تليد .. ومن ثم فيكون الطباق قد أحدث فى تلك التجربة تناغماً وتساوقاً مرتين الأولى فى مضمونها ، والثانية فى شكلها ؛ مما يُكسب الطباق هنا جودة وبلاغة ، ويضفى عليه بهاءً وجمالاً.

والمقابلة كان لها هي الأخرى نصيب ووجود خلال وجدانيات الشاعر .. حيث وشَّى بها بعضاً من تجاربه الوجدانية .. وقد تحقق فى تلك المواضع صفات المقابلة البليغة الجيدة .. على نحو ما سيبدو متحققاً -خلال السطور المقبلة -بإذن الله- سبحانه .

ففى قصيدة الشاعر التأملية التى يغوص خلالها فى أعماق النفس الإنسانية ، ويسبر بعض أغوارها ، ويستكنه جزءاً من أسرارها وألغازها اللامتناهية .. رأيناه يُوظِّف المقابلة ، ويفيد منها ، مُمعناً عن طريقها – فى إضفاء صفات الخفاء والغموض والتقلّب وعدم الثبوت على النفس .. حيث يشبهها هنا بالبحر العميق الذى لا يقرُّ له قرار ، ويجود بالعديد والعديد من الأسرار ، محتفظاً فى النهاية بسرِّ تلك الأستار .. يقول صان الدِّين من قصيدته التأملية : " أيتها النفس " :

النفس بحر لا يشق عُبا به فيه العجائب والعجائب جمة تتزاحم
غِيَر وأحوال تعاوره فما يدرى به إلا الخبير الأعظم
بينا تراه صفحة مصقولة فإذا به مُتكدِّر يتجهَّم

ويفيض بالخيرات وهو مُوادع حينـــاً وحينـــاً بالشـــرور يُدمـــدم
أما متـــى أو كيـــف ذاك فإنــ ـــه سرُ بأستار الغيـــوب مُلثَّم؟![1]

فقد قابل الشاعر – كما نرى – بعد أن شبَّه النفس الإنسانية – فـــى تقلبهـــا ، وعدم ثباتها بالبحر العميق ذى العجائب الجمَّة ، والأسرار المتزاحمـــة ، والأحـــوال المتقلبة ، والأجواء المتغيِّرة ، والأحداث المتباينة ، مما لا يقف علـــى حقيقتهـــا ، ولا يدرك كنهها إلا ذووا الخبرة العظيمة من الناس .. قابل الشاعر – كما نـــرى – بـــين أكثر من حال تتعاور البحر ، وتطرأ عليه .. فبينما يكون موجهُ ساجياً ، وتبدو للعيان مياهه من شدّة هدوئها وصفائها .. إذ به يثـــور ويهـــدر ، ويزمجـــر ، ويغضـــب .. فتتلاطم من ثم أمواجه ، وتتكدَّر مياهه ، وبينما تراه فـــى حـــال ســـكينته ودعتـــه ، ورضاه وقرارته يجود بالخير ، ويفيض بالخصب .. إذ به فى وقت آخر يبدو غاضباً مُزمجراً يُلقى بالحِمم ، ويرمى بالشرور ، وينذر بالهلاك .. كل هذا يحدث من البحر مثلما يحدث من الإنسان .. أما متى وكيف يحدث ذلك فسيبقى هذا سراً وغيباً مُحوطاً بالغموض والخفاء ، لا قرار لعالمه، ولا نهاية لحقيقته ، ولا أبعاد لغوره .

وتُشتم رائحة المقابلة أيضاً فى قول الشاعر من إحـــدى تجاربـــه الوجدانيـــة التأملية فى عالم الإنسان ، واستكناه بعض طباعه .. حيث يُشبه صان الدِّين –خـــلال أبياته التالية –الإنسان – فى تقلُّب أحواله ، وعدم ثبات فكره على حـــال بـــالبحر ، الذى يبدو للعيان ساجياً ، هادئة أمواجه ، رحبَة مترامية ضفافه ، ثم لا يلبـــث إلا أن يثور ويغضب فتعلو وتهدر من ثم أمواجه ، ويغدو فى غضـــبته وقســـوته ووحشـــته وصلابته مثل الجبال .. يقول الشاعر من قصيدته التأملية : " الإنسان مُحيَّر " :

([1]) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٩٢ ، ٩٣ .

ليس للإنســـــان لـــــون ثابـــــت فـــــى كـــــلِّ حـــــال
فكـــــره كالرِّيـــــح تأتـــــى مـــــن جنـــــوب أو شـــــمال
قـــد رأيـــت البحـــر يبـــدو ســـــاجياً رحـــــب المجـــــال
فجـــــأة يطغـــــى ويعلـــــو ثائـــــراً مثـــــل الجبـــــال(١)

فقد قابل الشاعر – كما نرى – بين حالين مختلفين يتعاوران على البحر ، حاله فى أثناء هدوئه واستقراره كما ورد فى البيت الأول ، وحاله فى أثناء ثورته وغضبته وطغيانه ، مُشبهاً فى ذلك الإنسان فى تقلبه ، وعدم ثباته على حال .

وفى واحدة من قصائد الشاعر التأملية فى النفس الإنسانية ، وفى معرض حديثه عن ذلك الصراع الذى يحتدم داخل الإنسان بين أن تعرُج نفسه فى مراقى السموِّ الإنساني ، وترقى إلى مراتب الكمال الرُّوحى ، حيث تسمو على رغبات ونوازع النفس الإنسانية ، وتعلو على شهواتها ونزواتها وحماقاتها .. حيث يتغلب جانب الرُّوح على البدن : " المادة" ، وبين أن تخلُد نفسه إلى الأرض ، وتهوى إلى الحضيض ، وتسقط فى براثن رغبات النفس وشهواتها .. حيث يتغلَّب عنده جانب المادة : " البدن " على الرُّوح آنئذٍ .. هاهو ذا شاعرنا يشير إلى طبيعة ذلك فيقول :

أفكلما رمتُ النهوض إلى العُلا وبسطتُ من صفوى جناحي طائر
ألفيتنى برغاب نفسى مُوقــراً تهوى تراب الأرض جلُّ عناصرى(٢)

فبين البيتين المذكورين – كما نرى – مقابلة فى معنييهما .. حيث قابل الشاعر فيهما بين حاله –حين يعزم على الارتقاء بنفسه ، والنهوض والسموِّ والتحليق

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٧ .
(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٠٢ .

بها إلى حيث معارج الطُّهر والفضيلة ، وحاله –حين تتثاقل نفسه عن ذلك الارتقاء والنهوض والسُّموِّ إلى حيث معارج الطُّهر والفضيلة ، حيث تقف حاجات البدن ، وشهوات النفس ، ورغبات الجسم حجر عثرة أمام ذلك السموِّ والتحليق ، وتغدو سجناً كئيباً يحول دون الوصول إلى مراتب الكمال والفضيلة .. ولنا أن نتأمل ما قامت به المقابلة وأدته هنا من دور محوري صوّر فيه الشاعر وجسَّد تلك الحالة التى يكون عليها كل إنسان ، وما يدور فى أعماقه من صراع بين الطين والروُّح .

وفى قصيدتين تأمليتين للشاعر فى عالم حواء .. حيث يستبطن فيهما طبيعة ذلك العالم ، ويستكنه بعض أسراره الجمَّة الغير متناهية .. نلتقى فيهما بصورتين للمقابلة البليغة الجيدة ، حيث استدعاها المعنى ، واقتضاها المضمون هنا .. ها هو ذا صان الدِّين يغوص فى إحدى هاتين التجربتين التأمليتين فى عالم المرأة ، محاولاً قدره – أن يغوص فى ذلك العالم ؛ ليستكنه بعض أسراره العميقة ، ويستبطن طرفاً من أغواره السحيقة .. حيث يشير من خلال مخاطبته حواء – إلى أنها لغز تحار فى كنهه العقول ، وتعجز عن إدراكه الأفهام .. متسائلاً – فى تعجب وحيرة – عن حقيقة ذلك المخلوق الضعيف ، مُميطاً اللثام عن بعض ما يحيط به من الغموض والخفاء .. حيث يقول :

أنت يا حواء لُغز مالـه فى العقل حلٌّ
يا ترى هل أنت شيطان يدنيانا يحل؟!
أم ملاك منه فوق الـ أرض أنسام وظلٌّ

عنــد سُخــطٍ أنــت وعــــرُ فــــى رضـــاءٍ أنـــت سَــــهلُ
أي عمــــلاق مهـــــــيب حيـــن يدنــــو منــك طِفلُ[١]

فقد قابل الشاعر من خلال أبياته هذه – كما نرى – بـين حـالين مختلفـين للمرأة، مُتسائلاً فى حيرة وتعجُّب إلى أي واحد منهما تنتمى .. هل هي شيطان رجيم يُشيع فى الأرض الغواية والضلال ؟! ، أم أنها ملاك رحيم يشيع فى الأرض الـدفء والوئام ، والحقُّ إنها فى – نظر الإسلام – إن صلحت – شقيقة الرجال ، وريحانـة لهم خلقت ، لا شيطانه .

وقابل شاعرنا أيضاً بين حالين مختلفين يجسدان طبيعة ذلك المخلوق الرقيـق : " المرأة " ، ويكشفان عن حالته المزاجية .. فهي – أي المرأة تكون فى حال سـخطها وفى أثناء غضبها فظَّة غليظة ، صعبة المراس .. شرسة تستعصى على الترويض . بينما هي فى حال رضاها تبدو رقيقة وادعة تُلتمس عندها السكينة والمودة والرَّحمـة على نحو ما يبدو فى قول صان الدِّين يُقابل بين هذين الحالين : " المعنيين " :

عنــد سُخــط أنــت وعــرُ فى رضــاءٍ أنــت ســـهل

والبيت الأخير من هذه الأبيات المذكورة– ذلك الذى يُجسِّد فيه الشاعر مـا للمرأة من سحر نافذ ، وسلطان شديد على الرجال .. حيث يقول :

أي عمــــلاق مهـــــــيب حيـــن يدنــــو منك طِفلُ!!

هذا البيت تشتم فيه رائحة المقابلة – كما نرى – حيث يبدو العملاق المُهـاب من الرِّجال إذا دنا من المرأة طفلاً رقيقا ، وحملاً وديعاً .

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان : صــ ٦٧ .

وفى تجربته التأملية الأخرى نرى الشاعر يُصوِّر ما للمرأة- ذلك المخلوق الضعيف من سطوة وسلطان ونفوذ وتأثير على قلوب ونفوس الرِجال .. حيث تُروِّض بسحرها ودلالها وحُسنها وفتنتها الرجال الأشداء أولى البأس الشديد ، والطبع العنيف فيستحيل طبعهم الجامح العنيف هذا إلى رقة طبع ، ولين جانب .. ويغدو إزاءها الجلف العنيف ذلك الحمل الوديع ، ويستحيل الليث فى يديها كالهِرِّ الأليف ، والقط الوديع .. حيث يقول الشاعر :

روضت حواء طبع الجا ... مح الجلف العنيف
كان ليثاً فى يديها ... صار كالهرِّ الأليف
طيعاً مستسلماً ما ... بال ذى القلب الرهيف؟!
لفته أو بسمة أو ... همسة مثل الحفيف
تجعل الجبار رب الس ... سيف فى درك الضعيف[1]

فقد قابل فى البيت الثانى – كما نرى – بين : " كان " ، و" صار " ، وقابل أيضاً بين : " ليثا" وما تدل عليه تلك الكلمة ، وتُعبِّر عنه من الغلظة والشدة والشراسة والقسوة ، وبين : " الهرّ" الذى وصفه الشاعر هنا بالأليف .. حيث يُقابل الهرّ الأليف – بما يدل عليه من الإلف والألفة والدَّعة والرِّقة بالليث فى دلالته على الوحشة .. ولنا أن نتأمل كيف جلَّت المقابلة مضمون التجربة ، وأبرزته هنا ، والتى قبلها ، حيث أكدت ما للمرأة – على ضعفها – من سحر نافذ ، وسلطان ماضٍ ، وتأثير كبير إزاء قلوب الرجال ، وقدرة فائقة على ترويضهم ، حيث تُرقِّق، وتُلين – برقتها ودعتها وحُسنها وفتنتها مشاعر وطباع من قست مشاعره ، وصلبت طباعه منهم ..

(1) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٧١ ، والحفيف : صوت الشجر والنسيم عند التحرُّك .

فيغدون بين يديها حملانا وديعة ، وقططاً أليفة .. بعد أن كانوا ليوثاً شرسة .. مما يجعل المقابلة – هنا جيدة وبليغة ، حيث تتسم بأنها مطبوعة غير متكلفة ولا مصنوعة فلم يجلبها الشاعر بقصد تلوين كلامه بزخارف البديع ، وإنما اقتضاها المعنى ، واستدعاها المضمون ، فغدت من ثم ذات أثر فاعل، ودور بنَّاء فى بُنيان التجربة المعماري ، وبنائها الدلالي .

المبحث الخامس

الصورة الفنية – خلال تجارب الشاعر الوجدانية

الصورة الفنية هي الشُّريان الرئيس الذى يَمُدُّ الشعر بالحياة ، ويضمن له البقاء ، فما أشبه الشِّعر بالغرس والزرع !! ، وما أشبه الصورة بالماء والرِّي!! ، حيث يستحيل وجود الشعر بدون الصورة ، وإلا فإنه يغدو بدونها جسداً بلا روح .. فهي : " أي الصورة :" الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة " [١] ..وهي " الجوهر الثابت والدائم فى الشعر [٢] .

والصورة هي السمة الحاسمة ، والعلامة الفارقة للشعر عن غيره من بقية الفنون ، حيث :" لا يمكن أن يُسمَّى الشعر شعراً مالم تدخله الصناعة الفنية الدقيقة ؛ لتبرز معانيه ، وتضعها فى صور رائقة مُعجبة يُضفى عليها الخيال ألواناً جذَّابة ، فتعلق بالنفوس ، وتناط بالعقول ، ويحس الإنسان معها بمتعة الحسِّ ، ولذة القراءة والتفكير معاً " [٣].

وتبدو أهمية الصورة للشعر ، ويتمثل أثرها البارز ، ويأتى دورها الفاعل بالنسبة للشاعر فى كونها وسيلة أكيدة فى نقل مشاعره ، وتجسيم عواطفه ، وتجسيد أفكاره .. حيث :" تُعطيه القدرة على الإيحاء والتأثير ، والشعر يكتسب أهميته ودوره

---

(١) النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمى هلال – صـ ٤٤٢ – ط دار العودة – بيروت – ١٩٧٣م.
(٢) الصورة الفنية عند النابغة الذبياني – خالد محمد الزاوي – صـ ١ ط الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان – دار نوبار للطباعة – الطبعة الأولى ١٩٩٢م .
(٣) اتجاهات الشعر العربي فى القرن الثانى الهجري :د/محمد مصطفى هدارة – صـ ٥٦٦ – ط دار المعارف – القاهرة ١٩٦٣م .

وغناه منها (أي من الصورة) ؛ لأنها هي التى تُعطى الألفاظ المؤلّفة للغة قدرتها الإيحائية فى الدلالة ، فنرى الكلمات التى مستها الصورة تغدو ينبوعاً لا ينضب للإمكانات الدلالية والصوتية " [١] .

ويُقصد بالصورة الأدبية فى الشعر :" هي (ذلك) التركيب القائم على الإصابة فى التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التى ينتقيها وجود الشاعر – أعنى – خواطره ومشاعره وعواطفه – المطلق من عالم المُحسات ؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى فى إطار قوى نام محسّ مؤثر ، على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر فى الآخرين[٢].

والصورة هي : " ابنة الخيال الشعري – الممتاز الذى يتألف عند الشعراء من قوى داخلية تفوق العناصر ، وتنشر المواد ، ثم تعيد ترتيبها وتركيبها ؛ لتصبها فى قالب خاصٍ حين تريد خلق فن جديد متحد مُنسجم [٣].

على أنه ينبغى أن يُفطن إلى أنَّ : " الخيال ليس زينة كزينة الحُلي والرياش، فإن من أخطر الأشياء على الأديب أن يستعمله وشياً وتطريزاً لأدبه ، وأن يصبح كالأصداف التى تغرّ البصر ببريقها ، دون أن تضفى إلى رمز أو دلالة تؤدِيها .. والخيال الجيِّد ليس الذى يشطح ويشط ويأتى بالأوهام والمُحالات ، وإنما الذى يجمع طائفة من الحقائق ، ويربط بين أشتاتها ربطاً مُحْكماً لا ينكره الحسُّ ، ولا العقل [٤].

---

(١) التحرير الأدبي: د/ حسين على محمد – صـ ٣٨٢ – ط مكتبة العبيكان – الطبعة الخامسة– ١٣٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

(٢) البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر – د/ على على صبح – صـ ١١ الناشر المكتبة الأزهرية للتراث – ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

(٣) الصورة الفنية فى شعر أبى تمام :د/ عبد القادر الرباعي – صـ ١٤ – ط الأردن – ١٩٨٠م.

(٤) فى النقد الأدبي: د/ شوقي ضيف – صـ ١٧٣-١٧٥ ، ط دار المعارف – الطبعة السادسة ، د.ت .

تُرى كيف هي الصورة الفنية عند شاعرنا صان الدِّين – خلال تجاربه الوجدانية؟ ما حالها وسماتها ؟ وكيف كان تعامله معها ؟ وما عناصرها ، ومصادرها ؟ . هذه التساؤلات وغيرها – مما يتعلَّق بالصورة الفنية خلال تجارب الشاعر الوجدانية ستجيب عنها الصفحات المقبلة من تلكم الدراسة– بإذن الله تعالى، وبتوفيقه.

الذى يقف على عناصر الصورة لدى الشاعر – خلال تجاربه الوجدانية يلحظ أنه استخدم لونيها المعروفين الجزئي – الذى يتكون من صورة فنية مفردة ، حيث يُعنى بتجسيد مشهد صغير ، أو فكرة محدودة عن طريق التشبيه مثلاً ، والاستعارة والكناية وغيرها من صور المجاز .. والكلي – ذلك الذى يُعنى بتجسيد لوحة فنية مكتملة العناصر ، مستوفية الأجزاء ، حيث تتجاور فيه وتتضام وتتآزر تلك الصور الفنية المفردة مع غيرها من مكونات الصورة وعناصرها الأخرى– تلك التى تتمثل فى الصوت واللون والحركة والدقة والإيحاء والإيقاع والموسيقى ؛ لتكوِّن فى النهاية مشهداً فنياً كلياً ، ولوحة بديعة تروق الناظرين ، وتستهوى المُتلقِّين .

والذى ينقِّب عن المصادر التى استقى منها الشاعر صورة ، واستمد أخيلته يجدها مستمدة من تأملاته فى النفس الإنسانية ، والمرأة ، وغوصه فى أسرارهما اللامتناهية ، وتنفسُّه عن دقائقهما الخفية ، وتأملاته أيضاً فى الحياة والأحياء ، لاسيما ما يصدر عنهم من سلوكيات مُعوجَّة ، وتصرُّفات مائلة تحيد عن الجادة ، وتبعد عن الصَّواب .. وهي – أي صوره نابعة أيضاً من تأملاته فى مجالى الطبيعة ، ومحاولته استجلاء معالم قدرة الله عز وجل فيها من خلال تنقله بين مشاهدها التى تفيض بالحُسن الرائق ، والجمال النادر ، واشراكه إياها فى تجسيد مشاعره الذاتية ، وتصوير انفعالاته المتنوعة الثرية ، كما تُستمد صور الشاعر وأخيلته أيضاً من شكواه وتألمه وصدمته إزاء ما جدَّ وطرأ على أبناء مجتمعه من عادات سقيمة ، وطباع شاذة ، وسلوكيات معوجة ، وتصرفات غريبة ، وتجربة الغربة والحنين تلك

التى عاناها الشاعر ، وقاسى شدائدها وويلاتها ، لاسيما بعد أن رحلت والدته وهو بعيد عنها غريب – تلك التجربة غدت واحدة من منابع الصورة الفنية التى ألفها خيال الشاعر .. بجانب اعتماده على الرمز فى أداء معانيه ، وتجسيد انفعالاته – مثلما فعل فى قصيدته : " صمت الطيور " .. تلك التى جعلها معادلاً موضوعياً لذاته المثخنة بآلام الحرمان ، والمترعة بأوجاع الصِدام مع واقع الحياة المتجهم ، حيث يسقط حالته الشعورية تلك على الطائر ، ويتحدث بلسانه .. وهكذا تغدو تلك الأبعاد ذلك المنهل الفيّاض ، والمنبع الخصب الذى متح منه الشاعر ، واستقى الكثير من صوره وأخيلته الجزئية منها والكلية .. على نحو ما ستوضحه وتبينه الصفحات المقبلة من تلكم الدراسة ، بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه – سبحانه.

أولاً: الصُّور الجزئية فى تجارب الشاعر الوجدانية :

الناظر فى وجدانيات صان الدِّين يجده قد أفاد فى صوره الجزئية من التشبيه والاستعارة والكناية ، متخذاً منها وسائل فى أداء مضامينه ، وتجسيد أحاسيسه ، وإبراز انفعالاته .

والتشبيه الذى هو :" وسلية من وسائل التقريب بين المعانى من خلال ما يقوم عليه من تصوير شيء بآخر ، أو إلحاق معنى بغيره " (١) .

ذلك اللون من التصوير الجزئي قد أفاد منه ، واستعان به الشاعر فى تجسيد الحالة الشعورية المسيطرة عليه ، وإبراز ما بخبيئة صدره ، ومكنون فؤاده من انفعالات وأحاسيس متباينة ناتجة عما بصدده من مواقف مختلفة ، وتجارب متنوعة

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية – دراسة تحليلة لعلم البيان :د/ محمد إبراهيم شادى – صـ ٩٧ الطبعة الأولى – طبعة دار والى الإسلامية ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م .

.. ويلحظ الناظر فى تلك المواضع التى تحقق فيها التشبيه ما تتسم به – فى أغلبها – من الجودة والبراعة .. حيث نجح الشاعر ، وَوُفِّق من خلالها فى التأثير فى نفوس المتلقين والاستيلاء على مجامعهم فـ :" نجاح التشبيه ؛ بما يُحققه من تأثير ولفت وسيطرة على الحِسِّ والشعور " (١).

فها هو ذا شاعرنا صان الدِّين يطالعنا بتلك الصورة التشبيهية التى تغيَّا بها إبراز المعقول وتجسيده فى صورة محسوسة ، وهيئة مدركة ؛ إمعاناً وتأكيداً منه فى إثبات وجوده وتحققه ، حيث نرى الشاعر يتحدث فى واحدة من قصائده التأملية فى النفس الإنسانية ، وما يستتبعها من حديث عن حقيقة البعث والنشور بعد الموت والأفول ،مُؤكداً وجودها وتحققها من خلال إشارته إلى ما يحدث للإنسان من نوم يُعَدُّ موتاً ، يعقبه صحو تُوهَبُ معه الحياة ثانية ، وتشبيهه فى أثناء ذلك رقدة الإنسان على سريره فى الدنيا ، ومفارقة روحه الحياة فى أثناء نومه ، برقدته فى قبره ، وانطراحه فى رمسه ، بجامع الموت والفناء فى الحالين .. حيث يقول من قصيدته التأملية : " البعث حقيقة " ، مُهيباً بهذا المُنكر الدَّعي ، ولافتاً نظره إلى بعض المشاهد المحسة والمدركة التى تؤكد وجود تلك الحقيقة " حقيقة البعث" :

حين تُمسى فى سبات ... دون إدراك وحسِّ
صرت مُلقى فى فراش ... لست تدرى أين تمسى؟
ثم تصحو فى دبيب ... بين أتراح وعُرس

(١) أساليب البيان – د/ محمد إبراهيم شادى – صـ ٩٧ .

إنــــه مـــوت وبعـــــث كـــــل يـــوم دون لـــــبس
وانطـــــراح فى ســــرير كانطـــــراح بين رَمْـــسِ (١)

فقد تضمن البيت الأخير من هذه الأبيات – كما نرى – صورة تشبيهية دالــة مُعبِّرة ، من شأنها أن تُجسِّد تلك الحقيقة – حقيقة البعث من بعــد المــوت ، وتؤكــد وجودها وتحققها– بما لا يدع مجالاً لتشكيك مُشكِّك ، ولا إنكار مُنكر .. فقد بدا جليــاً أن النوم موتُ ، وأنَّ الاستيقاظ من بعده حياة من بعد الموت .

وفى قصيدة أخرى من قصائد الشاعر التأملية فى النفس الإنسانية رأيناه يشبه تلك النفس – فيما يشوب عالمها من غموض وخفاء ، وما يتعاور عليها من أحــوال وأجواء تحار إزاءها العقول والأفهام .. رأيناه يُشبه النفس الإنسانية فى ذلك بــالبحر الذى لا يتوصَّلُ إلى قراره ، حيث يفيض بالعجائب ، ويجود بالأســرار ، وتتنــاوب عليه الأحوال والأجواء .. تلك التى لا يدرى كنهها إلا العقلاء أولوا النهى والألبــاب .. يقول صان الدِّين من قصيدته : " أيتها النفس " :

النفس بحر لا يشق عبـــا به فيه العجائب جمة تتزاحم
غِيَرُ وأحــوال تعـــاوره فما يدرى به إلا الخبير الأعظم(٢)

ويلحظ أن الشاعر قد حذف من التشبيه أداته هنا ، ثم راح يُعدِّد خلاله صفات المشبه به : " البحر" ؛ قاصـــــداً من وراء ذلـــك أن يُســوِّي بــين المشـــــبه " النفس"، والمشبه به :"البحر" تسوية تامة ، مُفسحاً بذلك للمتلقى المجــال فــى تخيــل الصفات المشتركة بين الطرفين غير تلك التى ذكرها هنا ، بجانب مجيئه بالمشبه بــه

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صــ ١٣٢ .
(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ٩٢ .

نكرة هنا :"بحر" ؛إمعاناً فى الدلالة على الشمول والعموم ، ودلالة على عدم تناهى الصفات المشتركة بين الطرفين هنا ، وكأنهما شيء واحد ، ومن ثم يمكن أن يُطلق على التشبيه هنا بليغاً حذفت منه أداة التشبيه ، ومُفصَّلاً ذُكر فيهه وجه الشبه ، حيث تلك الصفات التى عدَّدها الشاعر للمشبه به هنا : " البحر" .

ومن وحي تجربة الغربة والحنين – تلك التى عانى الشاعر شدائدها ، وقاسى ضناها ، وذاق مرارتها نلتقى بثلاث صور للتشبيه فى ثلاث قصائد .. وهي – أي تلك القصائد جميعاً – تُجسِّد بالغ حُبّ الشاعر ، وشدة شوقه ، ودائب حنينه وقلقه إزاء ربوع وطنه العزيز ، ووالدته الغالية الراحلة فى أثناء غربته ، كما أنها – أي تلك التشبيهات – تُجسِّد عميق إحساس الشاعر بالحسرة والأسى والألم والضنى ، حيث نراه فى قصيدته الأولى التى بعنوان : "الحنين إلى أرض الكنانة " يُمعن فى تجسيد ما ينتابه من مشاعر الحُبّ والحنين واللهفة والشوق الدَّفين إزاء ربوع وطنه الحبيب ، وما يقاسيه من آلام الغربة ، وضنى البعاد ، حيث يجمد الدمع ، ويجفُّ فى عينيه من شدة حزنه ، وبالغ ألمه ، وعميق أساه ، وهو دائم الظمأ لايجد ما يروى ظمأه ، ويبلّ صدى وغُلَّة شوقه ، مشبهاً نفسه فى معاناتها ومقاساتها تلك الآلام والشدائد التى لا قِبل له باحتمالها بالطفل الذى فُطم قبل أوان فطامه ، فتراه من ثم – وبعد أن جفته المراضع – ذاوياً واهياً لا قوة به ولا حراك، بعد أن ذهب ألم الحرمان بنضرته وروائه ، وأتى على جماله وبهائه ، حيث يقول :

تَعُجُّ بقلبى حرور الجوى ويهفو بروحى حنين النَّوى
فأبكى ولكن بغير دموع وأظمأ لكن بدون ارتوى
كأنى فطيم قبيل الأوا ن جفته المراضع حتى ذوى[1]

---

(1) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٦١ .

ويلحظ أن الشاعر قد آثر فى صورته التشبيهية تلك التعبير : " بكأن " بـــدلاً من الكاف ؛ إمعاناً هنا فى الدلالة على شدة الشبه بينه وبين ذلـــك الطفـــل الرضـــيع الذى حُرم من الرضاعة قبل أوان فطامه ، فالاثنان يجمعهمـــا إذن الألـــم والضـــنى والحزن والأسى من أثر البُعد والوحشة والحرمان .. هذا بجانب ما تُجسِّـــده ، وتـــدلُّ عليه : " كأن " هنا من كبر حجم المأساة ، وعِظم وفداحـــة المعانـــاة التـــى يقاســـيها الشاعر تماماً ، مثلما هو حجمها عند الطفل الرضيع الذى جفته المراضع حتى ذبـــل وذوى .

بينما نراه يشبه نفسه فى قصيدته الثانية :" أشواق مُغترب" فى شـــدة حُبِّهـــا ، وبالغ شوقها ، ودائب حنينها إزاء ربوع مصر – بلاده – بالفراش الـــذى يتهافـــت ، منجذباً نحو شذى الزهور ، وأريج الورود .. هاهو ذا شاعرنا يُصوّر تلك المعـــانى، ويشير إليها من خلال ندائه ذلك القادم من أرض مصر الحبيبة ، حيث يُجسِّـــد بـــين يديه تلك المشاعر والأحاسيس التى تنتابه ، وتُسيطر عليه فيقول :

يا قادماً من أرض مصر بلادى حياك قلبٌ فى الجوانح صـــاد!!
وهفت إليك الرُّوح هائمة كما يهفو الفراش على شذا الأوراد!![1]

ويلحظ أن الشاعر قد انتقل خلال صورته التشبيهية تلك من المعقول .. حيث الحديث عن حُبِّه الكبير لوطنه ، وتعلّقه الشديد به ، وحنينـــه وشـــوقه الـــدائبين إزاء ربوعه الغالية إلى المحسوس ، حيث الفراش المتطاير الذى ينجذب ويهوى مُقبلاً من كل مكان إلى حيث أريج العطور ، وعطر الزهور ، منتقلاً – أي – الشاعر بذلك من الخفاء إلى الجلاء ، ومن الغموض إلى الظهور ، مُحققاً فى ذلك الغاية الأساسية مـــن التشبيه ، وهي إفادة الظهور والبيان .

---

(1) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٦٣ .

وفى قصيدة الشاعر الثالثة التى أبدعها من وحي الغربة والبعاد التى بعنـــوان : " ورحلت يا أُماه : نراه يُجسِّد من خلال التشبيه ما يقاسيه من آلام الغربة ، وعـــذابات البعاد عن أمه ووطنه ، حيث تحول بينه وبينهما قيود مُوصدة ، وتفصل مسافات جـدّ بعيدة ، وهو – أي الشاعر – لا يستبدُّ به اليأس فى اللقاء بوالدته ، حيث يظل فـؤاده يهفو إليها ، وتبقى نفسه مُعلقة بها : تحيا على أمل اللقاء الشيق .. يقول صان الـــدِّين من قصيدته المشار إلى عنوانها آنفاً :

ووحيدك النـــائى تُكبّله الحيـــا ... ة بحكمها من فوق جمر مُحرق
يهفو إليك فـــؤاده مسترحـــماً ... كجريح طير بالحبـــائل مُوثـــق
لكنه والوجد يعصـــر نفـــ ... ـــسه يحيا على أمل اللقـــاء الشَّيِّق[1]

وهو – أي الشاعر – يُشبِّه فؤاده – وهو الابن الوحيد – فى شدة حُبِّه وحنينه لأمه ، وبالغ تعلقه بها .. يشبه نفسه فى ذلك كله بالطائر الجريح المُكبَّــل بـــالقيود ، الموثَّق بالحبائل التى تعوقه عن الطير ، وتمنعه من التحليق ، والقاسم المشترك بـــين الطرفين هنا يتحقق فيما بين الشاعر فى مقاساته ومعاناته من أثر غربته وبعاده عـــن أمِّه ، وبين ذلك الطائر الكسير الجناح الذى يعجز عن التحليق فى جـــوِّ الســـماء .. وغير خاف ما يدلُّ عليه ويجسده وصف الشاعر للمشبه به :" الطائر" هنـــا بـــالجريح المُوثق بالحبائل من الإشارة إلى شدة مقاساة الشاعر ، وبالغ معاناته من أثـــر غربتـــه وبعاده عن أُمِّه هنا .. حيث يشترك شاعرنا فى حالته هنا مع ذلك الطائر المجـــروح الكسير الجناح ، المُوثق بالقيود فى الألم والحزن ، والعجز ، وتعذُّر الوصـــول إلـــى الغاية والهدف .

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٨٩ ، ١٩٠ .

والاستعارة هي الأخرى كان لها وجود وتحقق خلال وجـدانيات الشـاعر ، حيث غدت مكوناً من مكونات صوره الجزئية ، والناظر فى تلـك المواضـع التـى تحققت فيها الاستعارة يجدها تكاد تقوم جميعا على تشـخيص المعـانى المجـردة ، ومجالى الطبيعة الصامتة ، ومظاهرها الجامدة فى صورة كائنـات تحـسُّ وتتحـرك وتنبض بالحياة ، وتصويرها فى صورة عقلاء- من خلال خلعـه صـفات العقـلاء عليها، فتبدو وكأنها شخوص تعى وتدرك ما يعيه ويدركه العقلاء .. وغير ذلك مـن السمات والصفات التى هي سبيل الاستعارة المكنية .. هذا بجانب موضـع أو اثنـين خلال وجدانيات الشاعر تحقَّقت فيهما الاستعارة التصريحية -على نحو ما ستوضحه السطور المقبلة- بإذن الله وبتوفيقه سبحانه ..

وها هو ذا صان الدِّين يطالعنا فى واحدة من قصائده الوجدانية : " سأشـدو" تلك التى افتخر فيها الشاعر بشعره ، وتغنَّى بشاعريته .. حيث صوَّر إبداعـه وقـد جاوز فى عُلّو قدره ، ونفاسة قيمته السَّحاب ، فتجاوبت من ثم معـه الكواكـب فـى الفضاء ، وصغت إليه النجوم فى السماء .. مُنبئاً عن منهجه فى الإبداع مـن خـلال غيرته عليه ممن ينحون منحى التدنِّى والإسفاف ، واعتزازه بذاته ، واعتداده بنفسه ، حيث يربأ بهما أن يعرض شعره على من يجهل قدره ، ويبخل به عن الغِرِّ الذى لـم يخبر شأنه .. ها هو ذا صان الدِّين يطالعنا فـى تجربتـه (الغنائيـة) تلـك بـأربع استعارات ، ثلاث منها مكنية ، وواحدة تصريحية .. وكلها- كما سنرى – أسـهمت فى أداء وإبراز مضمون التجربة هنا .. حيث يقول :

أغار على عذارى الفكر مِمَّن تدلَّى عنـد أقـدام القيـان
وأخفى الدُّرَّ عن أنظـار غِـرّ وأبخل بالعقـود من الجُمـان

وحسبى أن تصيخ لي الدرارى ويُصغى فى السماء الفرقدان[١]

ففى قوله : أغار على عذارى الفكر – وحسبى أن تصيخ لـي الـدَّرارى .. ويُصغى فى السماء الفرقدان .. استعارات مكنية تبعية فى الأفعال : تُصيخ ، يُصغى ، أغار .. شخص فيها الشاعر تلك الجمادات فى صورة أحياء عقلاء ، فهل عهد القارئ الكريم الكواكب تصيخ ؟! ، وهل عهد الفرقدين – هذين النجمين المعروفين – يُصغيان ؟! وهل عذارى الفكر مما يغارُ عليها تماماً مثل عذارى النساء ؟! ، فضلاً عن أن يوصف الفكر بتلك الصفة الدالة المُعبِّرة هنا ؛ حيث يبدو وكأنه حسناء عذراء فى خدرها تستأهل من حبيبها أن يغار عليها ممن يحاولون النيل منها .. والحال ذاته متحقق عند الشاعر إزاء الشعر الذى يهوى به أنصاف المُبدعين وأشباههم وأقزامهم إلى حيث درك التدنِّى والإسفاف .. إنه التخيل الرائع الذى يبث الشاعر –من خلاله فى تلك الجمادات الحياة ، ويمنحها صفات العقلاء ؛ مما يؤكدِّ مضمون التجربة هنا ، ويزيده وضوحاً وجلاءً .. وهذا هو طبيعة الاستعارة المكنية ، وتلك وظيفتها .. حيث تثير خيال المتلقِّين ، وتوقظ فيهم نوازع التخيل والتفكير .

وقد استعار الشاعر كُلاً من : كلمة : " الدرِّ ، وكلمات : العقود من الجمان الواردة فى البيت الثانى لشعره– كما نرى– حيث يقول :

وأخفى الدُّرَّ عـن أنظـار غِرّ وأبخل بالعقـود من الجُمـان

حيث شبَّه شعره هنا بالدّر ، وبالعقود من الجمان ، وصرح بالمشبه به : الدّر ، والعقود من الجمان ، بعد حلول المشبه فيه ، واتحاده وامتزاجه به .. مُجسِّداً من خلال تلك الصورة الاستعارية التصريحية ما لشعره من قدر وقيمة كبيرين ، وشأن

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٤ ،. والقيان: الإماء ، والغِرُّ : الذى لم يُجرب ، والجمان : اللؤلؤ ، وتصيخ : تستمع ، والدرارى: الكواكب ، والفرقدان : نجمان .

وشأو عظيمين ، ونفاسة ومكانة فذين ، تماماً مثلما هو متحقق فــى ذلــك الجــوهر النفيس من الدّرّ، وغيره من العقود من الجُمَان .. وبجانــب هــذين النــوعين مــن الاستعارة المكنية منها والتصريحية ، هنا نلتقى بالكناية فى قوله : "ممن تــدلَّى عنــد أقدام القيان" ، حيث كنى بذلك الكلام عن صفة هي : الإسفاف فى الإبداع ، والتــدنِى من خلاله فى مزالق الهوى ، والتدلِّى حيث درك العبث والفساد الأخلاقي .

والحال ذاته من التشخيص للمعانى المجردة ، وخلع صــفات العقــلاء علــى غيرهم .. ذلك الحال متحقق بذاته فى قول الشاعر مــن قصــيدته التــى بعنــوان : "الحارس اليقظان"- تلك التى يتحدث فيها عن ذلك الرقيب الداخلي الــذى يُمثِّــل لــه الوازع والرّادع والمُقوِّم والمُوجِّه والمُبصِّر والواقى من الزلل ، والعاصم من الخطــأ .. إنه ضميره .. ذلك القاضى الذى لا يميلُ ، والحاكم الذى لا يجور .. هــا هــو ذا صان الدِّين يتحدث بتلك النعمة : صحوة ويقظة ضميره :

رقيب ضمن ذاتى لا يحــــور وقــاض لا يميــل ولا يجــور

وسلطان تحكَّــم فى كيـــانى بقسطاس يُقال لـــه الضــمير

جليل حكمه فى الناس مــاضٍ ولا قلـــم يخـــطُّ ولا صــرير

تدين له الجـــوارح طائعــات وتمضى فى الحياة بما يُشــير

يُبصرنى طريقى فى الدَّياجـــى ويعصمنى إذا ارتكس الشعور[١]

حيث نرى الشاعر – خلال أبياته تلك يخلع على ضميره – ذلــك الحــارس اليقظان صفات هي –فى مجموعها– يمكن أن يتصف بها العقلاء من مثل : رقيــب، لا يحور ، قاض لا يميل ولا يجور ، سلطان تحكَّم فى كيانى .

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٢٥ ، وارتكس : انقلب وفسد .

والبيتان الرابع والخامس يتضمنان جميعاً صفات أثبتها الشاعر وأسندها للضمير ، وذلك على سبيل التخيل وعن طريق الاستعارة المكنية .. وهي أي تلك الصفات تدلُّ على أنَّ الشاعر قد رزق نفساً لوَّامة ، وضميراً يقظاً هما العاصم له من الزلل ، والواقى من الخطر .

وعلى سبيل التخيل أيضاً ، ومن قبيل تشخيص مظاهر الطبيعة ، وتجسيدها فى صورة عقلاء ، وتعامله معها وكأنها شخوص تعى وتدرك ما يُوجِّهه الشاعر إليها من نداء وسؤال ، مُنتظراً منها أن تجيبه عن سؤاله .. وغير ذلك مما- هو سبيل الاستعارة المكنية ، وطريقها المعهود .. حيث نرى الشاعر يُنادى عيون النجم مُسائلاً إياها فى سخرية ، وإنكار، وتهكم واستهزاء ، هل لديها علم بما تخفيه الليالى ، وما استأثر بعلمه ذو الجلال والإكرام .. ثم يعاود مساءلتها ثانية ، مؤكداً بذلك صمتها وعيَّها وعجزها عن علم الغيب ، ناطقاً فى النهاية بالحكمة التى تنطق بأن الغيب لله سبحانه ، واصفاً بالغي والضلال كل من يعتقد فى إنباء النجوم بالغيب والمآل .. يقول صان الدِّين من قصيدته : شعوذة ودجل :

يا عيون النجم هل تدريـ ... ن ما تُخفى الليالي؟!
هل قرأتِ اللَّوح عند الـ ... عرش فى نور الجلال؟!
هل أجبت السائل الحير ... ان عن قصد السؤال؟!
أم لزمت الصمت والإعيا ... ء عن شافى المقال؟!
ضلَّ عقل يحسبُ الأفلا ... ك تنبى عن مآل!(١)

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٤ .

وهكذا يخلع الشاعر على عيون النجم صفات العقلاء ، وسمات البشر هنـــا .. حيث يناديها ويسائلها واصفاً إياها فى النهاية بالغي والعجز والصمت .. ثم إنه جعــل للنجم عيوناً يرى ويُبصر بها .. كل ذلك على سبيل التخيل والتشخيص والتجســيد ؛ مما يؤكد مضمون التجربة هنا ، ويضفى عليها مزيداً من الجلاء والوضوح ، ويثيــر فى الوقت ذاته خيال المُتلقِّين ، ويُحرِّك فى داخلهم نوازع التخيل والتفكيــر .. فــذلك هو فضل الاستعارة ، وتلك مزيَّتها .. فــ " من الفضــيلة الجامعــة فيهــا (أي فــى الاستعارة) أن يبرز هذا البيان أبدا فى صورة مستجدة ، تزيد قدره نُبلا ، وتُوجب به بعد الفضل فضلا" [١] .. " ومن شأنها : " أي الاســتعارة " أن تلغــي الحــدود ، وأن تحطم الفواصل، فيندمج طرفا التشبيه فى صورة واحدة حتى ولو كانــا منفصــلين أو متناقضين ، كما تظهر إمكاناتها فى قدرتها على نقل أفكار الشاعر ومشاعره المُعقَّدة، وكذلك تشخيص المعانى المجردة ، ومظاهر الطبيعة الجامدة فى صورة كائنات تُحِسُّ وتتحرك وتتبض بالحياة "[٢] .

والكناية والتى هي فن من فنون البيان ، وركن من أركانه الأساسية ، والتى تستمد قيمتها من الغايات التى تقوم بها ، والتى التفت إليها القــدماء ، ولحظــوا مــن شواهدها أنها فن متميِّز لا يلتبس بالتشبيه ولا بالاستعارة [٣] .. ذلك اللون البياني كان كثير الورود ، ذائع الوجود فى وجدانيات الشاعر .. وقد تنوعت الكناية عنــده بــين التى عن صفة ، والتى عن موصوف .

---

(١) أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر الجرجاني – جــ١ – صــ ١٣٦ ، ١٣٧ – تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجي .

(٢) شعر ابن حبوس دراسة فنية – رسالة دكتوراه – للباحث : عبد الحافظ إبراهيم – صــ ١٠٤ – مكتبة كلية الآداب – جامعة القاهرة – ١٩٨٨م .

(٣) أساليب البيان والصورة القرآنية –بتصرف: د/ محمد إبراهيم شادى – صــ ٣٨٩ .

فها هو ذا شاعرنا فى قصيدته الرقيقة ذات العنوان الدَّال : " أزف الرَّحيـــل " – تلك التى رثى فيها نفسه الذاهبة ، وبكى شبابه الغارب .. ها هو ذا صـــان الـــدِّين يكنِّى فى أبياته التالية – عن دنوِّ أجله ، واقتراب نهايته ، وأزوف رحيله عـــن هـــذه الحياة ، حيث يقول :

أعنِّى أيها الجسـم العليـــل ... أعنـــى أيهـــا القلـــم الكليـــل
لأُخرج ما بقلبـــى مستجيـــباً ... لفكرى أيُّهـــا القلـــم الكســـول
وذا ضوء السراج إلى خفوت ... فمـــا فـــى زيتـــه إلا القليـــل
وشمس العمر ترعش فى خطاها ... وقد أوهـــى أشـــعتها الأصـــيل
سأقفل راجعاً من حيث جئنـــا ... وما موت الفتى إلا قفـــول (١)

ففى البيتين الرابع والخامس من هذه الأبيات كنايتان عن صفة واحدة هي : " دنو أجل الشاعر ، وقرب نهايته، وأفول نجمه .. حيث يكنى عن ذلـــك فـــى البيـــت الرابع بخفوت ضوء السراج بعد أن كاد ينضب زيته ، وأوشك أن ينفد وقوده ، كمـــا يكنى عن ذلك أيضاً – أعنى : عن دنوِّ أجله ، وقرب نهايته " بشمس عمره – تلـــك التى ترتعش خطاها مثلما هي شمس النهار حين تكون فى طرفه جانحة للغـــروب .. حيث تبدو عليها الشحوب والنضوب بعد أن أوهى أشعتها ، وأوهن مُحيَّاهـــا ، وأتـــى على بهائها ونضرتها وقت الأصيل – ذلك الذى يُؤذن بقرب الغروب ، ودنو الأفول، ومن ثم بموت النهار ، وانعدام الحياة ، وذهاب الحركة ، وخلـــود الكائنـــات للنـــوم والسكون .. وللقارئ الكريم أن يتأمل فى ذلك الأثر الكبير ، والدور المحوري الـــذى

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٤١ .

أدته ولعبته هاتان الصورتان الكنائيتان فى إبراز وتأكيد مضمون التجربة هنا، حيث جسَّدت وأكدت دنو أجل الشاعر ، وقرب نهايته ، وأزوف عمره بالرحيل .

ويلحظ الباحث أن الشاعر يكثر من استخدام الكناية فى أثناء حديثه عن عالم الشعر والفكر والإبداع ، حيث نراه يشير إلى ما يئول إليه حال الفن والإبداع حين تفسد أذواق الناس ، وتستقيم طباعهم ، ويمرض إحساسهم فيستوى من ثم فى أنظارهم الغث والردئ من الإبداع مع الثمين الجيِّد منه .. حيث يقول صان الدِّين من قصيدته : " أدعياء الشعر " يوقفنا على حال وطبيعة الإبداع فى أيامه :

أدعياء الشعر ظنواْ	**أن نظم الهذر شعر**
فاعلات أو فعولن	**وزنها شعر أغرٌّ**
بئس نظم القول والأذ	**واق والنقد المقر!!**
إن تساوى فى عيون النا	**س حَصباء ودرٌّ** (١)

وقد كنى الشاعر – كما نرى – عن لونين متباينين من الإبداع هنا ، حيث كنَّى بالحصباء عن الإبداع الوضيع المُسفِّ المُتردِّى فى مهاوى الهذر والهذيان ، والساقط فى حمأة السخف والبهتان ، المنعدم الجدوى والقيمة .. فله من اسمه هنا :" حصباء أي : " تراب " أعظم النصيب ، وكنى الشاعر فى المقابل بالدِّر عن الإبداع السامى الراقى النفيس النبيل ، العالى القدر ، الرفيع الشأن ، العظيم الجدوى والقيمة، شأنه فى ذلك شأن : " الدُّرِّ " .. وهكذا أدت الكناية القائمة على المقابلة هنا الدور المنشود ، والأثر المرجو منها فى إبراز وتأكيد مضمون التجربة هنا .

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٨٤ .

وفى قصيدة أخرى للشاعر نوَّه فيها عن حال وطبيعة الشعر والإبداع .. حيث يشكو من طرفٍ خفى من تجاهل دور النشر فى مصر ، والقائمين على أمر الثقافة والفكر فيها لإبداعه – هذا الذى افتخر وزها به ، وظل كاتماً لروائعه حيناً ، فعاش من أسف – عيشة المغمورين ، وحيا حياة الصامتين المنزوين .. ها هو ذا صان الدِّين يشير إلى ذلك المضمون فى كلمات وعبارات تكثر فيها الكنايات ، حيث يقول :

أؤفصح أم أموت بما أُعانى وأمضى بين تيار الزَّمان؟!
وفى قلبى أناشيد عذاب وفى الوجدان أبكار المعانى
أنا قيثارة قد أغفلتها يَدُ العزَّاف إبَّان الأوان
وكم من باهر كالطيف ولَّى ولم يَلمح سناه الناظران
وكم فى القاع من دُرٍّ يتيمٍ خفي لم تلامسه يدان
كتمت روائع الأنغام دهراً وقيَّدت الشوارد فى جنانى
وعِشتُ كما يعيش الغمر فدما حليف الصمت معتقل اللسان(١)

وهذه الأبيات تحفل – كما نرى – بالكثير من الكنايات ، وهي كلها كنايات عن موصوف واحدٍ – وهو الشعر الجيد النفيس– ذلك الذى تدور حوله التجربة ، وتنطلق من خلاله هنا ، حيث كنَّى عنه بتلك الكلمات والتراكيب : باهر ، دُرّ يتيم ، روائع الأنغام – الشوارد : " أي القصائد " .. حيث انقطع الشاعر عن التغريد بالشعر رَدْحاً من الزمن ؛ لشعوره بعدم تقدير دور النشر لإبداعه ، ولكنه لم يستطع بعد ذلك

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣١، ٣٢ .

مقاومة تلك الرغبة فى الشدو والتغريد ، حيث يمثل له ذلك الحياة فيجد فى ذلك نفسه، ويحقق به كيانه .

وفى قصيدة ثالثة عن حال الفكر والإبداع فى عصره ينتقد الشاعر واقع الحياة الثقافي والفكري آنئذٍ ، حيث يتساءل – فى تعجب وإنكار ، وحسرة واستغراب ما الذى آل إليه حال روض الفكر ؟! حيث أضحى فى ذبول وشحوب .. بعد أن غصَّ بالغربان، وامتلأت جوانبه بنعيقها ، وتردَّد فى ربوعها صخبها ونعيبها .. فى حين خلا ذلك الروض من عنادبه وبلابله ، فذوى وتراجع من ثم غناؤها ، واختفى عن مرهف الأسماع شدوها .. وهنا ينادى الشاعر ديار النشر ، مُلقياً باللوم والعتاب والنعي عليها ، مُسائلاً إياها : أين الإبداع السامى؟! ،والفن الراقى ؟! الذى يعظم نفعه، وتتضاعف قيمته ، وتكبر جدواه .. يقول صان الدِّين مُتسائلاً فى تعجب وحسرة وإنكار :

مالِ روضِ الفكر أضحى فى ذبولٍ وشحُوب ؟!
حلَّت الغربان فيه صاخبات بالنعيب
فاختفى عن مرهف الأسماع شدو العندليب
يا ديار النشر قولى أين إبداع الأديب ؟!
إنما المقروء والمسموع مرآة الشعوب[1]

وهو – أي الشاعر – قد كنى بكلمة : " الغربان " الواردة فى البيت الثانى – كما نرى – عن أولئك الأدعياء الزنماء .. أدعياء الفنِّ ، وزنماء الإبداع ، وأنصاف وأقزام المُبدعين ، مِمَّن تردوا فى مزلق السخف والهذيان ، وسقطوا فى حمأة الزيف

(1) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٤٣ .

والضلال ، فراحوا ينعبون بذلك نعيب الغربان .. ومن أسف فقد امتلأ روض الفكر بهم ، بعد أن رحَّبت دور النشر بنعيبهم ، وروَّجت لِهُرائهم ، فى الوقت الذى خلا الرَّوض – ذلك الذى استعاره الشاعر هنا للمطروح من فكر وإبداع على الساحة " من شدو العنادب ، وتغريد البلابل ، حيث يكنى الشاعر عن العنادب هنا بأولئك المُفكرين الأصلاء ، والأدباء النجباء ، والمُبدعين الجادين الذين ينشدون الفضائل ، ويرسخون للقيم ، ويتخذون من إبداعهم رسالة يتغيون منها بناء ونهضة وإصلاح الأمم .. ومن أسف فقد تراجع – كما ذكر الشاعر – هؤلاء عن الساحة ، فخلا الروض منهم ، وتلاشى من ربوعه شدوهم ، وغاب عنه غناؤهم .. ومن ثم رأينا الشاعر يُنادى ديار النشر، مُبدياً تعجُّبه وإنكاره وتحسره واستغرابه إزاء ذلك ، حيث يقول :

يا ديار النشر قولى أين إبداع الأديب ؟!
إنما المقروء والمسموع مرآة الشعوب

ثانياً: الصورة الكلية فى تجارب صان الدِّين الوجدانية

آن لى الآن أن أتحدث عن اللون الثانى من ألوان التصوير فى وجدانيات صان الدَّين ، ذلكم هو الصُّورة الكلية ، تلك التى تتألف من عدة صور جزئية مُنسجمة متضامة متآخية ، بحيث تتكون منها فى النهاية لوحة فنية كاملة تكمن فى المشهد الذى يُزمع الشاعر على تجسيده ، ويقصد إلى تصويره : " فهي : (أي الصورة الكلية) تعتمد على جزئيات مؤتلفة لو نظرت إلى كل منها مفردة لم تجد لها دلالة نفسية متكاملة الجوانب " [1] .

---

(1) الشعر العربي المعاصر – روائعه ، ومدخل لقراءته: د/ الطاهر أحمد مكي – صـ ٨٢ ، ط دار المعارف – القاهرة – ١٩٨٦ م .

وليست الصورة المفردة وحدها هي القادرة على تشكيل الصورة الكلية ، بل تتآزر معها الكلمات الدالة على اللون والصوت والحركة ، وكذلك الكلمات ذات الدلالة الموحية .. كل هذه العناصر مجتمعة هي القادرة على رسم اللَّوحة الفنية المتكاملة من جميع جوانبها (١).

حيث تتكون تلك الصورة الكلية من : " صور جزئية ، وهذه الصور ليست أكواماً مختلطة لا يجمعها جامع ، أو لا تخضع لنسق ، بل إنَّ الصورة تتشكل فى نحو تفرضه التجربة الشعورية ، وما تنتجه من عواطف (٢).

وهي – أي – الصورة الكلية أكثر خصباً وثراء من الصور الجزئية ؛ لأنها :" أشق تركيباً ، وأدل على المقدرة والافتتان من صورة جزئية تقع فى تشبيه مفرد بمفرد ، أو فى استعارة تصريحية أو مكنية ، ولسنا بذلك نضائل من القيمة الفنية للصورة الجزئية ، فهي جُهد أدبي له تقديره ؛ لأن المجاز – أيا كان نوعه – يرتكز على أساس عكسي آخر " (٣) .

حيث يجب أن تتناغم تلك الصورة الجزئية المكونة للصورة الكلية ، وإلا :" فإذا انفصلت الصورة الجزئية عن مجموعة الصُّور الأخرى المكونة للقصيدة فقدت

---

(١) رسائل القاضى الفاضل – دراسة تحليلية د/ محمد عبد الرحمن عطاالله – تقديم د/ محمد زغلول سلام – صـ ٢٢٨ – الناشر دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .

(٢) التصوير الشعري – رؤية نقدية لبلاغتنا العربية: د/ عدنان حسين قاسم – صـ ٢٤٧ – ط مكتبة الفلاح – الكويت – الطبعة الأولى– ١٩٨٨م .

(٣)البيان النبوي: د/ محمد رجب البيومي – صـ ٢٤٢ – ط دار الوفاء – المنصورة – الطبعة الأولى ١٤٠٧ – ١٩٨٧م .

دورها الحيوي فى الصورة العامة ، أما إذا تساندت مع مجموعة الصور الأخرى ؛ أكسبها هذا التفاعل الحيوية والخصب" (١) .

والناظر فى وجدانيات شاعرنا صان الدِّين يجد هناك لوحات فنية متكاملة .. والمُتتبِّع لتلك اللوحات يجدها نابعة ومستوحاة من مجالى عدّة هي : النفس الإنسانية ، والمرأة ، والطبيعة ، حيث لا تخرج صور الشاعر الكلية عن كونها تُجسِّد تأملاته فى النفس الإنسانية والمرأة ، واستبطان بعض حقائقهما الجمَّة الغزيرة، وسبر أغوار عالمهما اللامتناهى الأسرار ، والطبيعة- تلك التى يُجلِّى الشاعر – من خلال لوحاته فيها – معالم قدرة الله عز وجل ، ويكشف عن بديع صنعه سبحانه ، مُستدلاً من خلال عرضه لبعض مشاهدها، ومرائيها البديعة المتنوعة على ثبوت بعض الأمور الغيبية ، وتأكيد وجودها من مثل : حقيقة البعث والنشور بعد الموت والفناء ، وأيضاً إشراكه إياها – أي مجالى الطبيعة ، ومشاهدها البديعة المتنوعة فى تجسيد أحاسيسه ، وتصوير عواطفه ، وسكبه مشاعره المتباينة عليها ، واتخاذه منها أحياناً معادلاً موضوعياً لذاته فيما تحس به وتشعر ، مثلما هو الحال فى قصيدته : " صمت الطيور " – تلك التى ترد فى أثناء حديثى عن تصوير الشاعر بالرمز " بإذن الله تعالى وبتوفيقه سبحانه .

وها هو ذا شاعرنا يقف فى إحدى لوحاته الكلية على حقيقة النفس الإنسانية ، محاولاً سبر أغوارها ، واستكناه بعض حقائقها ، وذلك من خلال تشبيهها بالبحر الذى لا تُدرك أعماقه ، ولا يتوصل إلى قراره ، ولا تنتهى أسراره ، ولا تنفد عجائبه .. وهو أي البحر لا يقرُّ على قرار ، ولا يثبت على حال .. حيث تتعاور عليه الأجواء المختلفة ، والأحوال المتباينة- تلك التى يعجز عن إدراكها الكثير ، ولا

---

(١) عضوية الخيال فى العمل الشعري (رؤية تحليلية نقدية) :د/ عبد اللطيف محمد الحديدي – – ص ٢٣٤- ط مكتبة المدينة – الأردن – الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

يدرى بها إلا الخبير .. فبينما تبدو صفحته نقية صافية فى حال سكون أمواجه ، وهدوء رياحه ، إذ بصفحته تشوبها الصُّفْرة والكُدرة ، مُعبِّراً فى ذلك عن ثورة أمواجه ، وهياج رياحه .

وهو – أي البحر كالنفس أيضاً فى تقلبها وتذبذبها بين الخير والشرّ .. حيث يفيض بالخيرات ، ويجود بالعطاءات –فى حال هدوئه ودعته واستقراره ، بينما يُلقى بالشرور ، ويدفع بالأخطار فى حال غضبته وتقلُّبه وهياجه .. ويبقى شأنه – أي البحر – فيما تتناوب عليه من أحوال مُتناينة يبقى شأنه فى نهاية الأمر سراً بأستار الغيوب ملثَّم .. إذا علم الناس عنه شيئاً جهلوا أشياء ، مثلما هو الحال مع النفس الإنسانية .. يقول صان الدِّين :

النفس بحر لا يُشق عبابه فيه العجائب جمة تتزاحم
غِيرُ وأحوال تعاوره فما يدرى به إلا الخبير الأعْظمُ
بينا تراه صفحة مصقولة فإذا به متكدر يتجهَّمُ
ويفيض بالخيرات وهو موادع حيناً وحيناً بالشرور يدمدم
أما متى وكيف ذاك فإنه سرُ بأستار الغيوب ملثمُ؟![1]

وهذه اللَّوحة البديعة تقوم – كما نرى – على عدّة صور جزئية مختلطة ممتزجة ، تنسجم وتتناغم جميعا فى إتمام المشهد الكلي هنا ، حيث نرى الشاعر يُشبِّه –عبر لوحته الكلية تلك – النفس بالبحر .. ولم يكتف بذلك ، وإنما راح يُعدّد أوصاف المشبه به .. تلك التى تشترك بين الطرفين هنا .. من مثل : كون البحر عميقاً ، بعيد الغورْ ، حافلاً بالأسرار ، مليئاً بالعجائب ، متقلباً غير ثابت على حال، مذبذباً بين أن

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٩٢ ، ٩٣ .

يفيض بالخير ، أو أن يدمدم بالشرِّ .. وفى النهاية ما يكتنف ما يقوم عليه حال البحر وشأنه من الغيب والخفاء ، ولاشك فى أن تلك الأوصاف المدركة والمُحسّة والمُشاهدة التى خلعها الشاعر على البحر هنا ، مما زاد الصورة إيضاحاً، وأضفى عليها بهاءً ، حيث كشفت بعض جوانب حقيقة النفس الإنسانية ، وأوقفتنا على بعض طبائعها ، لاسيما بعد أن حُذفت من التشبيه أداته هنا ، حيث يدلّ ذلك على قوة وتأكُّد الشبه بين الطرفين النفس والبحر ، وبجانب تلك الصورة التشبيهية الرائقة البليغة نلتقى خلال تلك اللوحة ببعضٍ من الاستعارات المكنية ، حيث نرى الشاعر يخلع على البحر هنا عدّة أوصاف هي –فى مجموعها – صفات عاقل .. من مثل : وصفه :" البحر" هنا بأنه :مُتكدِّر يتجَّهم .. يفيض بالخيرات وهو موادع ، بالشرور يدمدم .. وذلك على سبيل التشخيص والتجسيد من خلال خلع وإثبات سمات العقلاء على مظاهر الطبيعة مُتمثلة فى البحر هنا .. ينضم إلى تلك الصور المجازية التى تضمنتها تلك اللوحة الرائقة ما قامت عليه من كلمات ومفردات تدل على اللون والصوت والحركة ،حيث يتمثل اللون فى وصف الشاعر البحر فى حال هدوئه واستقراره بقوله : بينًا تراه صفحة مصقولة ، فإذ به متكدر.. بجانب ما يمكن أن يُدل عليه التركيب الثانى من حركة وصوت واضطرابٍ للبحر ؛ مما يجعل صفحته المصقولة الصَّافية تبدو مُتكدرة مُتغيرة .

بينما يدل على الحركة والصوت قول الشاعر عن البحر : يفيض بالخيرات وهو مُوادع حيناً ، وحيناً بالشرور يدمدم .

بجانب ما تضمنته تلك الأبيات من مفردات دالة ، وكلمات مُعبِّرة عن مضمون التجربة هنا ، من مثل : العجائب .. جمّة ، تتزاحم ، غَيرُ – أحوال ، تعاوره ، سر – أستار ، الغيوب – ملثم ... حيث تشترك تلك الكلمات جميعاً بين النفس ، وبين البحر المشبه ، والمشبه به هنا .

وهكذا تسهم هذه العناصر – مجتمعة ومتآخية فى إتمام تلك اللوحة التأملية البديعة التى غاص الشاعر خلالها فى أعماق النفس الإنسانية .. ولا شك فى أنها – أي تلك العناصر – قد أماطت اللثام بعض الشيء عن حقيقة النفس الإنسانية ، وكشفت هنا عن بعض جوانبها وأسرارها وأحوالها اللامتناهية .

وفى لوحة تأملية أخرى فى عالم النفس والإنسان .. نرى الشاعر يشير إلى تقلب فكر وأحوال الإنسان ، وعدم قرارها على قرار ، وثبوتها على حال ، مُشبهاً الإنسان فى ذلك بالرِّيح التى تأتى من هنا وهناك .. وبالبحر فى عدم ثباته واستقراره على حال .. حيث يقول :

ليس للإنسان لون	**ثابت فى كلِّ حال**
فكره كالرِّيح تأتى	**من جنوب أو شمال**
قد رأيت البحر يبدو	**ساجياً رَحب المجال**
فجأة يطغى ويعلو	**ثائراً مثل الجبال (١)**

وهو – أي الشاعر يشبه الإنسان – فى تقلب أحواله ، وعدم ثبات أفكاره – بصورتين : الأولى : صورة الريح فى أثناء هبوبها ونشاطها .. حيث تأتى من هنا وهُناك : من جنوب أو شمال .

والثانية : صورة البحر – ذلك الذى يبدو ساكناً هادئاً ، ولا يلبث أن يغدو طاغياً مجاوزاً حدَّ الاعتدال ، غاضباً ثائراً مثل الجبال .

ويلحظ أن الشاعر قد شبَّه البحر فى تعدِّيه وطغيانه حدَّ الاعتدال ، وعلو وارتفاع أمواجه بالجبال هنا .. وأرى أنه لم يكن مُوفقاً فى هذه الصورة التشبيهية ،

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٧ .

إذ إن وجه الشبه بين البحر فى حالته هذه ، وبين الجبال بعيدُ جداً ، حيث يرمز بالجبال عن الثبات والرسو والرسوخ ، فقد جُعلت الجبال – كما نعلم – للأرض بمثابة الأوتاد .. والبحر:"المشبه به هنا" غاضب هائج متحول غير ثابت ، فكيف يجمع الشاعر بين هذين الطرفين المتقابلين هنا ؟! .

وهذه الصورة الكلية كانت قريبة فى مضمونها من الصورة السابقة .. وهو أي الشاعر قد انتقل فيهما من المعنويات إلى المحسوسات ، حيث كان البحر– فيما يستودعه فى باطنه من عجائب وأسرار ، وما يتناوب ويطرأ عليه من غِيَرٍ وأحوال .. كان البحر فى هاتين الصورتين الفنيتين قاسماً مشتركاً .. وغدا فى ذلك الطريق إلى الوقوف على طبيعة المُشبَّه :" النفس ، والإنسان " ، والسبيل إلى التعرُّف على بعض حقائقهما هنا.

والصورة الأولى بدت أكثر تأنقاً وتفنُّناً من الثانية .. حيث توافر فيها مجموعة عناصر منسجمة متآخية تمثلت فى التشبيه والاستعارة والمفردات المُوحية ، والكلمات الدَّالة على اللون والصوت والحركة .. فى حين أن الصورة الفنية هنا تقوم على التشبيه ، بجانب ما ورد فيها كلمات دالة من مثل : ساجياً ، يطغى ، يعلو ، ثائراً .. ، وما تحقق من كلمات تدلُّ على الصوت والحركة .. وهي ذاتها الكلمات المذكورة هنا .

وها هو ذا شاعرنا ينتقل بنا من لوحتين فنيتين غاص وتأمَّل خلالهما فى عالم النفس والإنسان إلى لوحة تأملية أخرى غاص و تأمل من خلالها فى عالم المرأة – ذلك المخلوق الرقيق الضعيف الذى شغل الدنيا ، وملأها حديثاً عنه ، وكلفاً وتعلُّقاً به .. حيث يشير إلى ما للمرأة عموماً من سحر نافذ ، وتأثير كبير على نفوس وقلوب الرجال ، لاسيما لو أبدت زينتها ، وفارقت عفتها ، وألقت بحيائها ، وتخلَّت عن

حشمتها.. هنا تبدو وتغدو كلأ مُباحاً ، وعُشباً متاحاً تتطلع إليها الأنظــار ، وتهــوى إليها الأبصار ، تماماً مثل الأزهار التى تسحر النفوس ، وتجلب الألباب ، ويتجــاذب عليها النحل والفراش ، حيث يشتهى منها رحيق أو عبير فى كل وقــت وحــين ، إلا أنها – أي الأزهار تذوى وتذبل وتذهب نضرتها ، وينضب ماؤها ، ويجــفّ معينهــا كلما غزاها ، ووقع عليها نحلُ وفراش .. هي فى ذلك كــالمرأة الســافرة المُبتذلــة المُبدية لزينتها ، حيث تبدو سهلة المنال ، سرعان ما تفقد حُسنها وبهاءهــا ، وينفــد رونقها وجمالها تماماً مثل الماء الذى ينقص إذا ما شرب منه الظامئون .. فهــي أي تلك المرأة السافرة المبتذلة تغدو – فى ســفورها ، وابتــذالها – وردة متاحــة دون أن تُحاط بشوك يمنعها ، ويرد عنها أذى المعتدين ، وعبث العابثين ، وقطف القاطفين ، يقول صان الدِّين :

أنتِ مخلــوق بديــــع　　　فيــك ســحر كيــف كنــتِ!
فى إحمرار أو بيــاض　　　أو ســــمار أنــــتِ أنــــتِ
كلّ نحـــل أو فــراشٍ　　　منــــك يــدنو إن ســـفرتِ
هكذا الأزهـــار تبــدو　　　فتنـــة مـــن غيـــر لفـــت
يُشتهى منها رحيـــق　　　أو عبيـــر كـــل وقـــت
غير أن الزهر يـــذوى　　　حينمـــا يغـــزوه نحـــلُ
والمعين العذب يفنـــى　　　مَـــاءَهُ السلســـال نَهْـــلُ
لا تصون الحُســـن إلاَّ　　　مـــن لهـــا حـــزم وعقـــل

إن ورداً دون شـــوك قطفـــه المعشـــوق سَـــهْلُ
كل إنســان إزاء الغيــ ــد صـــــبُ فيه جَهْلُ (١)

ويبدو من مضمون تلك اللوحة أن الشاعر يريد أن يرسم من خلالها للمــرأة طريق العِفَّة والتصوُّن والحياء والحِشمة والإباء .. وأن ذلك فيه الشرف والعزة لهــا .. حيث تبدو من خلال تزيُّنها بزينة الحجاب ، وتحلِّيها بحلية الحياء ، وتخليها عــن حُلة التبرج والسفور ، ونزولها فى ذلك على هدي العزيز الغفور .. تبدو فى ذلك كله تلك الدُّرّة المكنونة ، واللؤلؤة المصونة ، والوردة المُغلَّفة بسياج يحــول دون قطفهــا وابتذالها، ويقف حجر عثرة أمام المفسدين والعابثين والمعتدين .

وقد تضافر فى تجسيد وإتمام تلك اللوحة عدة عناصر بدت – كمــا نــرى – ممتزجة مُنصهرة مُترابطة منسجمة ، كل عنصر فيها يؤدِّى دوره المنشود ، ويقــوم بوظيفة المُبتغاة هنا ، حيث رأينا الشاعر وقد عبَّر بكلمات دالة ، وعبارات موحية من مثل : بديع ، سحر ، يدنو – سفرتِ – فتنة – رحيق – عبير ، يغزوه – يفنى – نهل – قطفه – سهل .. وغير ذلك من الألفاظ والمفردات التى تُجسِّد ما للمرأة من ســحر ماضٍ ، وتأثير نافذ ، وفتنة شديدة ، لاسيما وإن أبدت زينتها ، وتخلّت عن عفتها .

ولنا أن نتأمل تلك الألفاظ والمفردات الدالة أيضــاً علــى اللــون والصــوت والحركة– خلال تلك اللوحة .. حيث نلتقى بهذه الكلمات الدالة على اللون من مثــل : احمرار ، بياض ، سمار .. سفرت ، يذوى .. كما نلتقى بتلك الكلمات الدالــة علــى الحركة هنا من مثل : يدنو ، يغزوه ، نهل – قطفه .. وبجانــب ذلــك نلتقــى بتلــك الصور المجازية الرائقة البليغة– والتى من شأنها أن تجسِّــد مضــمون التجربــة ،

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٧٢ .

وتبرزه وتؤكده هنا ، وتكمل مع غيرها من العناصر الأخرى أجزاء تلـك اللوحـة ، وتعمل على إتمام المشهد الذى تقوم عليه هنا .. حيث رأينا الشاعر يصور المـرأة – فى سفورها وابتذالها ، وإبداء زينتها بالأزهار التى تبدو مُباحة ، وفتنـة للنـاظرين ، ولا تسلم من عبث العابثين ، ولا إفساد المُفسدين .. والتى تذبل وتنضب بوقوع النحل عليها المرة بعد الأخرى– بجامع وقوع الضرر ، وجلب وتحقـق الخطـر ، وتـيقن الهلاك لدى الطرفين المرأة والأزهار هنا .

ولنا أن نتأمل أيضاً تلك الصورة الاستعارية الرائقة البليغة التى تقـوم علـى التجسيد والتشخيص هنا .. حيث ينسب الشاعر للنحل – على سبيل التخيُّل – صـفة من صفات العقلاء هي الغزو فى قوله يُصوِّر ما يحدث للزهر حـين يعـاود النحـل السقوط ، والتردُّد عليه :

غير أن الزهر يذوى حينما يغزوه نحلُ

فما أبلغ أن يجعل الشاعر من النحل هنا غازياً ، والمغزو هو الزهر المُبـاح، والورد المُتاح .. وفى التعبير بتلك الكلمة المشـعة :" يغزوه" دلالة على كثرة النحـل : " الجيش " ، ونشاطه ودأبه فى التتابع والتوافد والإقبال على الرحيق والعبيـر مـن كل مكان ، وهذا يبرز ، ويؤكد بدوره ذلك الخطر الدَّاهم ، والضرر المُحقَّق الواقـع على المرأة إن هي أشبهت الزَّهر – ذلك الكلأ المُبـاح ، والعُشـب المتـاح – فـى سفورها ، وإبداء زينتها .

وكأنى بالشاعر وقد صوّر المرأة هنا أيضاً فى سفورها وإبداء زينتها بالمعين العذب – الذى ينضب معينه ، ويقل ماؤه كلّما شرب منه ظـامئ بجـامع النضـوب والذبول والفناء فى الطرفين ، حيث يقول :

والمعين العذب يفنـــــى مَاءَهُ السلسال نَهْلُ

ولا يفوت شاعرنا فى نهاية لوحته تلك أن يؤكد ما يدعو إليه المرأة ويحثهـــا، ويُرغبها فيه هنا من اتسامها بالحشمة ، وتحلِّيها بالعفة ، وتزيُّنها بالحيـــاء .. حيـــث رأيناه يمتدح ذلك اللون من النساء ذوات الصَّون والإباء من خلال أسـلوب القصــر بطريق النفي والاستثناء ، حيث يقول :

لا تصون الحُســـن إلا من لها حزم وعقل!!

وفى الوقت ذاته يُحذِّر الشاعر المرأة من التبذُّل والسفور ؛ حيث تقع بذلك فى شباك المحتالين ، ولا تسلم من عبث العابثين .. ها هو ذا صان الدِّين يختــتم لوحتــه الكلية الرائقة تلك بإشارته إلى ذلك المضمون –من خلال تلك الصورة الرائقة للــورد الذى بلا شوك ، حيث يغدو يسير المنال ، ويبدو سهل القطف .. يقول الشاعر :

إن ورداً دون شـــوك قطفه المعشوق سَهْلُ

فكأنى بصان الدِّين – وقد شبه المرأة –فى سـفورها ، وتبرُّجهـــا ، وإبـــداء زينتها ، وما يجلب ذلك عليها من الأضرار والأخطار هنا بذلك الورد الذى بلا شوك قطفه المعشوق سَهْلُ.

ومن اللوحات الكلية البديعة ، والصور الفنية الرائقة التى استوحاها الشـــاعر من عالم الطبيعة ، وبدا خلالها واحداً من الشعراء الرومانسـيين –فـــى إيثـــارهم ، وتبنيهم حُبّ الخلوة ، واعتزال الناس .. حيث نـــراه يلـــوذ – فـــى تلـــك اللَّوحـــة – بالطبيعة، ويفرُّ ويجأر إليها ، ويهنأ ويأنس بها بعد أن ضاق بصخب المدنية الزائف ، واصطدم بضجيج التحضُّر المزعوم ، حيث يرى فيها بديلاً آمناً ، ومـــلاذاً هانئـــاً ، وعوضاً نفسياً كافياً عن أحلامه وآماله– تلك التى تحطمـــت علـــى صـــخرة واقعـــه

الاجتماعي الصادم لنفسه الرقيقة ، والمؤلِّم لمشاعره الرهيفة ،مُؤثراً الوحدة والعُزلة ، واجداً فى الحياة بين مظاهر الطبيعة البديعة ، والعيش وسط مجاليها الفسيحة الأُنس والإيناس ، والراحة والهناءة ، والطمأنينة والسلامة من الشرور والأضغان : " حيث وقع الشعراء الرومانسيون تحت ضغط ذلك الصراع النفسي بين عالمهم المادي الذى يعيشون فيه ، وبين ما يرجونه من عالم منشود ، فتغنوا بالطبيعة وسحرها ، وتمنوا أن يعيشوا فى عزلة ، بعيداً عن هذا العالم المادي الموبوء بين أحضان الطبيعة يعيشون عيشة هادئة لا يشغلهم فيها غير الفن والجمال، ومن ثم آثروا حياة الريف التى تجد فيها العواطف والأحاسيس تربة صالحة للنمو والانطلاق ، وهم كذلك يرجعون إلى الأحاسيس الفطرية الأولى التى تتحد فى الريف بجمال الطبيعة الخالدة .. فهم يهربون إلى الطبيعة من زحام الحياة، وأعبائها ، وآثام العلاقات الاجتماعية إلى الصفاء والنقاء بين أحضان الطبيعة ، فيبقون مع أنفسهم يتفكرون ويتأملون .. ويجدون العزاء من آلامهم فى صفو الطبيعة " [١].

ولا يبتعد صان الدِّين – فى لوحته الكلية تلك – عن ذلك المضمون المذكور .. حيث نراه ينطلق فيها من خلاله ، بعد أن بدا فى صورة ذلك الشاعر الرومانسي الذى يحنُّ إلى الرجوع إلى الحياة الفطرية– بصفائها ونقائها وسلامتها من الأوشاب والأكدار .. ويبث بين يديها همومه وآلامه وأحزانه وأشجانه ، متخذاً من الطبيعة أماً حانية ، مُرتمياً فى صدرها ، ولائذاً بدفئها .. وممتزجاً بمظاهرها ، مُتوحِّداً مع مشاهدها ، هارباً إليها ، بعد أن ضاق بعالمه المادي الموبوء ، فراراً من لهيب الحياة، وقسوة الأحداث .. فها هو ذا شاعرنا يُجسِّد ما ينتابه من حلم مثالي هانئ– لطالما تاقت نفسه المرهفة ، وذاته المُعنَّاة المثقلة المصدومة من آلام الاغتراب

(١) الطبيعة الرومانسية فى الشعر العربي الحديث : د/ أحمد عوين – تقديم : د/ سعيد حسين منصور – صـ ١٤٦– الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الطبعة الأولى– ٢٠٠١م .

النفسي المُمضّ ، وزيف المدنية ، ومثالب وسلبيات التحضُّر المزعوم .. لطالما اشتاقت نفس الشاعر ، واشتاقت إلى تلك الحياة الفطرية الهانئة ، وذلك العيش البسيط الوديع فى أحضان الطبيعة ، بعيداً فى ذلك عن العُمران– بصخبه وضجيجه .. حيث تلك العُزلة عن مجتمع الناس والهروب منه إلى مجالى الطبيعة بسكونها ودَعتها ، وبساطتها وهدوئها .. فى ظل كوخ يُؤسِّسه من سعف النخيل ، ويابس الأغصان تحفُّ يه الورود والزهور ، وتُظلِّل سقفه الأوراق والغصون ، يُهدى النسيم إليه الحياة فى الرواح وفى الغداة ، وتتجاوب معه الطير فى أفنانها فتشدو بلحن الصفاء ، فتُسرُّ بذلك نفس الشاعر ، وينتشى من ثم وجدانه ، وهذا الماء يجرى زلالاً رقراقاً منسابا بعد أن أرخت له الغدران فضل عنان ، وتحفُّ تلك الدَّوحة نخل باسقات ترنو – بروؤسها– إلى السماء .. ويظل شاعرنا يهنأ وينعم بذلك الجمال والبهاء منتقلاً فى فرح ومَرح ودعة وانطلاق ما بين ظل وارف وأغان ، مستخلصاً من خلال ما يرى ويشاهد من آيات الله البينات الباهرات فى الوجود والكائنات ، ومُجلِّياً فيها معالم قدرة الله سبحانه – وبديع صُنع الرحمن – يظل الشاعر يهنأ وينعم بذلك الحُسن والبهاء– ما دامت الشمس فى السماء تمدُّ الكون بالحركة والحياة فإذا ما آذنت شمس النهار بالغروب ، وراح النهار يُلملم أذياله ، مُؤذناً بالأفول والسكون ، حيث يُقبل الليل على الأكوان فتسكن الخلائق وتنام .. وهو أي الشاعر إذ يخلد للنوم ، ويسلم للراحة فإنه يأوى إلى بيته الفطري البسيط هذا : " كوخه " الذى ابتناه من عناصر الطبيعة يأوى إليه فى دعة وطمأنينة ، وتؤدة وسكينة ، حيث يضمه ذلك البيت فى حُب ورفق وشفقة وحنان ، مفترشاً أرضه ، متخذاً من عُشه فراشاً ووطاءً ، فينام هانئ البال ، ولم لا ؟ وهو يعيش آمناً من الشانئين والمُبغضين واللئام من اللَّدَّات والأقران .. يقول صان الدِّين :

يا حبذا العيش الوديـــع بواحـــــة شجراء قد ناءت عن العُمران!!
فى عزلة ما شاهدتـــــها أعيـــن أبداً ولا خطـرت بهــا قــدمان
يُضفى عليها الطُّهر روعة حُســ نه فتخالها من جنــة الرضــوان
وهناك فى حُضن السكون أُعد من سعف النخيل ويابس الأغصــان:
كوخاً تحف به الزهور ويكتســى بقشيب ظـل الــدّوح والأفنــان
يهدى النســيم إليــــه فى غدوا تـــه روح الحياة ونفحة الريحــان
وتُردِّد الأطيــار فـــى أفنــانها لحن الصفاء فينتشــى وجــدانى
والماء يعدو فى ظل الخمائل حالماً حتى يضل هنـــاك فــى الكثبــان
والنخل يضرب فى السما متمايلاً بــين الأثيــر تمايــل النشــوان
فأظــل يومــي هانئــاً مُتنقـــلاً مـــا بـــين ظــل وارف وأغــان
وأطالع الآيات فى ســفر الوجــو د فـــأجتلى إشـــراقة الـــرحمن
حتى إذا ولج النـــهار بغمـــــده وغزت جيوش الليل كــلّ مكــان
وتلاشت الأصداء فى صمت الدُّجى والنـــوم راح مـــداعباً أجفـــانى
آوى إلى كوخى وئيــداً وادعـــــاً فيضــــمُّنى بترفُّـــق وحنـــان
وأنام فوق العُشب يغمرنى الكرى والقلب فى مهد الجوانح هــانى
وكذا أعيش فلا لئيــماً شـــانئاً ألقـــى ولا خـــل بها يلقـــانى(١)

وإلى هنا تتسم تلك اللَّوحة البديعة بالفرح والمرح والبشر والتفــاؤل المنبعثــة من نفس وأعماق وكيان الشاعر إزاء الطبيعة .. حيث بــدا شــاعرنا مُنســجماً مــع مظاهرها ، متحداً بها ، مُعبِّراً عن سروره وسعادته ودعته وهناءته بالعيش فى ظلهــا ، والحياة بين جنباتها .. حتى إذا ما وصل إلى ختام لوحته تلك ، فإنه يختتمها بمختتم

(١)ديوان: أعاصير وأنسام – صــ ٣٩ ، ٤٠.

جنائزي باك تشاركه فيه مظاهر الطبيعة ، وتتجاوب معه من خلاله ، حيث يبكى الشاعر نفسه ، ويرثى ذاته ، مُؤكِّداً من خلال ذلك التجاوب والانسجام والتفاعل النفسي ، وتلك المشاركة الوجدانية بينه وبين مظاهر الطبيعة فى تلك الدَّوحة الشجراء وعناصرها التى تحيط ببيته الفطري البسيط : " كوخه" وما حوله .. وذلك من خلال إشارته إلى بكاء جماعات الطيور حزناً على فقده ، وترنُّمها بألحان الأسى على موته .. وهذا الأيك : " الشجر " الكثير الملتفِّ ينثر زهره حول جسم الشاعر ، ويصنع من ورقه كفنه .. وتلك الرِّياح المُحمَّلة بالتراب تحاول جهدها فى الرَّواح وفى الغداة أن تستر بدنه ، فتواريه فى ترابها ، وتلك الكائنات تهتف فى أسى وشجى وحنو وإشفاق – تعبيراً فى ذلك كله عن اتحاد نفس الشاعر ، وامتزاجها بالطبيعة ، وانسجام مشاعره معها ، تعبيراً فى ذلك عن تجاوب الشاعر الشديد مع الطبيعة ، واتحاد وامتزاج نفسه بها هنا .. حيث يقول :

فإذا سراج الرُّوح أطفأه الرَّدى … والموت أفعم كأسه وسقانى
وقفت زرافات الطيور حزينة … تبكى بألحان الأسى فقدانى
والأيك ينثر حول جسمى زهر … ه ويحوك من أوراقه أكفانى
وتروح حولى السافيات وتغتدى … حتى يوارى فى الثَّرى جسمانى
والكائنات هناك تهتف ههنا … مثوى غريب من بنى الإنسان[1]

وهكذا نرى الشاعر – خلال لوحته البديعة تلك – يرى الطبيعة أمّاً رءوماً، وصدراً حنوناً يرتمى فى أحضانها ، ويبثها أحزانه ، ويتحد ويمتزج بها .. حيث تتحقق هنا المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين الطبيعة بعد أن وجد فيها العوض

(1) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٤٠ .

والعزاء والمُنفِّس والسلوى ، مما يُقاسيه من ويلات الغربة والانفصال النفسي عن مجتمعه وواقعه آنئذٍ ، وما يسببه له ذلك من ألم وضيق .

وإذا كان لى من وقفة تأملية متأنية مع تلك اللَّوحة الكلية الرائقة فإننى أشير فى بداية حديثى هنا إلى ما تحفل به وتغصُّ وتمتلأ تلك اللَّوحة من صور حزينة بدت ممتزجة منسجمة مع مضمون التجربة هنا ، وعملت على إبراز وإتمام المشهد الكُلي الذى يزمع الشاعر على تشخيصه وتجسيده –خلال تجربته تلك من مثل : تلك الصورة التشبيهية الرائقة التى شبَّه الشاعر فيها : " النخل"– ذلك الذى يجاور كوخ الشاعر ، والذى يرفع برأسه إلى السماء .. يُشبهه – فى تمايله من كثرة ما يحمل من ثمار حين تُقبل عليه الريح الهوجاء بتمايل النشوان – بجامع الحركة والميل والاهتزاز ؛ فرحاً وطرباً وسروراً فى غير ما شدة ولاقوة .

ومن مثل تلك الصورة المجازية الرائقة التى خلع الشاعر فيها على النسيم صفة من صفات العقلاء ، حيث جعله عاقلاً يَهدى – كما يُهدى العقلاء .. وهو هنا يُهدى لهذا الكوخ الذى يعيش فيه الشاعر رَوْح الحياة ، ونفحة الريحان .. حيث يقول :

يُهدى النسيم إليه فى غدَوَا ... ته روح الحياة ونفحة الريحان

ومن مثل تلك الصورتين الاستعاريتين المكنيتين اللتين شخَّص الشاعر فيهما كلاً من النهار والليل فى صورة العاقل ، مُجسِّداً فى هاتين الصورتين المعنويات والمعقولات فى صورة مُحَسَّة مُدرَكة مُشاهدة للعيان .. حيث يجعل الشاعر – على سبيل التخيل – من النهار سيفاً يدخل فى غمده : " جرابه" ، يقصد أنه يدخل فى الليل، وعلى سبيل التخيُّل أيضاً يجعل الشاعر من الليل جيوشاً تغزو الكون فتجهز على النهار ؛ ليخيِّم من ثم الظلام على الأكوان ، ولعلَّ فى تعبير الشاعر بكلمة :" جيوش " فى قوله:وغزت جُيوشُ الليل كُلَّ مكان .. بدلاً من كلمة "جيش" المفردة ما

يناسب الليل فى رهبته وظلامه ، وطوله وامتداده ، واشـتماله واحتوائـه الكائنـات جميعا.

ومن مثل جعله من الكوخ :" مسكنه البسيط الذى يحلم به ، وتتوق نفسه إلـى العيش فيه – " شخصاً عاقلاً – على سبيل التخيل أيضاً – يُحسن وفادتـه ، ويكـرم مثواه ، ويُرحِّب بوجوده ، ويحنو عليه ، ويرفق به ، ويضمُّه إلى صدره فـى حُـبٍ وحنان .. حيث يقول :

آوى إلى كوخى وئيداً وادعاً فيضمنى بترفق وحنـــان

حيث يثبت الشاعر لكوخه البسيط هنا – على سبيل التخيل ، وعـن طريـق الاستعارة المكنية صفات الضَمِّ والرفق والحنان .. وتلك صفات يتسـم بهـا العقـلاء والأحياء من غير العقلاء .. ولا شك فى أنَّ تلك الصورة تجسِّد لنـا مـدى تكيُّـف الشاعر وانسجامه مع تلك الحياة الفطرية ، وتُؤكد لنا سروره وسعادته البـالغين فـى ظلها الظليل ، حيث يلمس فيها الأم الرءوم ، والصدر الحنون .

ثم نلتقى خلال تلك اللوحة الكلية بصورتين مجازيتين للكناية عـن صـفة .. حيث نرى الشاعر يكنى عن الموت وانقضاء الأجـل ، ونهايـة العمـر بصـورتين محسوستين ، ومشهدين مرئيين نشاهدهما فى قوله :

فإذا سراج الرُّوح أطفأه الرَّدى والموت أفعم كأسه وسقانى

فهو – أي الشاعر – يصور العمر – فى انقضائه ، والأجل فـى مجيئـه ، والرُّوح فى– ذهابها إلى بارئها بالسِّراج الذى ينطفئ نوره ، مُؤذناً بنضوب زيتـه ، ونفاذ وقوده ، وهنا : الردى أي : " الموت" هو الذى يَطفى سراج الـرُّوح ، مُؤذنـاً بالموت والفناء .

والشطرة الثانية تقوم على التشخيص والتجسيد – كما نرى – حيث يُصوِّر الشاعر فيها الموت بإنسان ملأ كأساً وسقاه منها ، مُكنِّياً من خلال ذلك عن انقضاء عمره ، وانتهاء أجله ، كل ذلك على سبيل التخيُّل ، وخلع سمات العقلاء على غير العقلاء ، وتجسيد المعنويات والمعقولات ، ونقلها من مجالها التجريدي إلى مجال آخر حسي مُشاهد ؛ بقصد تأكيد المضمون ، وتقريبه للمُتلقين هنا .

والأبيات الأربع الأخيرة – تلك التى تتشح بوشاح الحزن والبكاء المشترك بين الشاعر ، وبين مظاهر الطبيعة من حوله – تلك الأبيات تقوم – فيما تقوم –على التشخيص والتجسيد هي الأخرى – حيث يخلع الشاعر من خلالها على مظاهر الطبيعة سمات العقلاء .. فيثبت لمجاليها على سبيل التخيل – صفة الحزن والبكاء من قِبل الطيور ، حيث تبكى تأثراً برحيله ، والأيك – ذلك الشجر الكثير الملتفّ يهمُّ –هو الآخر– بالتعبير عن حُبِّه للشاعر ، وحنوه عليه ، وتأثره بفقده ، فينثر حول جسمه المُسجَّى زهره ، ويحوك من أوراقه أكفانه ؛ ستراً لجسده ، ومواراة لبدنه .. والرياح المُحمَّلة بالتراب تقوم بدورها –هي الأخرى – لتعبِّر عن حُبِّها وحنوِّها ووفائها إزاء الشاعر الفقيد – فتجتهد فى مواراة سوءته، وستر عورته ؛ بما تجلبه من تراب : رمل وحصى ، وكائنات الطبيعة من حول الشاعر تهتف مترنمة بصوت شجي تُخبر من خلاله عن مثوى ومرقد ذلك الغريب من بنى الإنسان .. يقول صان الدِّين :

فإذا سراج الروح أطفأه الردى — والموت أفعم كأسه وسقانى
وقفت زرافات الطيور حزينة — تبكى بألحان الأسى فقدانى
والأيك ينثر حول جسمى زهره — ويحوك من أوراقه أكفانى

وتروح حولى السافيات وتغتدى حتى يوارى فى الثَّرى جسمانى
والكائنات هناك تهتف ههنا مثوى غريب من بنى الإنسان[١]

وهكذا يسند الشاعر لمظاهر الطبيعة هنا تلك الصفات التى يتسم بها العقلاء، مُجسِّداً –من خلالها– شدة حُبِّ وحنوِّ الطبيعة إزاء الشاعر ، وتجاوبها وتفاعلها معه ومشاركتها إياه فى أحاسيسه ومشاعره .. حيث شاركته وجدانياً من خلال ما فعله كل واحدٍ من مظاهرها ، وما قام به من دور إزاء رحيل وفقدان الشاعر هنا . فبديا – أي الشاعر والطبيعة – من اتحادهما ، وامتزاجهما شيئاً واحداً حيث : "يرى الرومانسيون فى الطبيعة المرآة التى تنعكس على صفحتها صور نفوسهم – بما يعتمل داخلها من مشاعر وأحاسيس ، وفى هذه المرآة – تبدو النفس والطبيعة شيئاً واحداً ؛ لأن الشاعر يرى مظاهر الطبيعة مُلوَّنة بما تحمله نفسه ، فإذا كانت هذه النفس مثقلة بالأسى انعكس ذلك الأسى على صورة الطبيعة التى تُلوِّنُها القصيدة " [٢].

فهم أي الشعراء الوجدانيون :" الرومانسيون " يمعنون فى استخدام وتوظيف مظاهر الطبيعة ، ويغرقون فى التغنى بحبّها فى تجاربهم وابداعاتهم : " حتى لتصبح (أي الطبيعة) عندهم الأمّ الرؤوم ، والملاذ الذى يجدون السكينة فى جواره ، بعيدين عن زيف المدنية ، وصخب المدينة ، وهم لا يقبلون عليها واصفين ، ولا يصفون مادحين ، إنما يندمجون فى روحها ، ويعانقونها عناق الأحباب ، ويصفون إحساسهم، وكذلك مشاعرهم نحوها أكثر مما يصفون مشاهدها الجميلة ، وهذا الاتجاه اتجاه رومانسي واضح ، فالرومانسية تدعو إلى أن يستلهم الشاعر فنّه من الطبيعة

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٤٠ .
(٢) القصيدة الرومانسية فى مصر من ١٩٣٠إلى ١٩٥٢م – : د/ يسرى العزب – صـ ٥٥ ، ٥٦ .

والعاطفة الإنسانية .. والشعراء الرومانسيون يفرون من المدينة إلى الريف، ويلقون بأنفسهم فى أحضان الطبيعة ، ويترنمون بجمالها الخالص ؛ لأنهم يعتزون بالحرية ، ومن ثم كرهوا قيود المدينة ، ولجأوا إلى الريف الحُرّ البسيط يستلهمونه أعذب ما ينظمون من أناشيد ، وقصائد فى وصف الطبيعة "(١).

وكأنِّى بالشاعر يؤمئ من خلال تجاوب وتفاعل مظاهر الطبيعة معه ، وإحساسه نحوها بالإلف والانسجام هنا .. كأنى به فى ذلك يومئ ويشير إلى افتقاده تلك المشاعر من الحُبِّ والألفة والحنو والعطف والوفاء والإشفاق فى دنيا العقلاء – تلك التى ضاق بها الشاعر ، باحثاً عن السعادة فى ظل عالم غير العقلاء ، حيث الريف البسيط ، والطبيعة البديعة ، والحياة الفطرية وقد وجد فى ذلك بغيته ، وتحقق أمله ، ونال مُراده .

وبجانب تلك الصور المجازية الدالة المعبِّرة التى تضمنتها تلك اللوحة ، وما يقوم عليه بعضها من التشخيص والتجسيد – نرى تلك اللوحة البديعة تفيض بالكلمات الدالة ، والمفردات المُوحية ، والتراكيب المُعبِّرة سواءُ تلك التى جسَّدت مشاعر وأحاسيس الشاعر الفرحة المرحة الهانئة المتفائلة ، أو تلك التى جسَّدت نهايته المتخيلة وما اكتنفها وصاحبها من حزن وبكاء وتأثر وانفعال من قِبل ظواهر الطبيعة وكائناتها هنا .. حيث أسهمت تلك الألفاظ والمفردات والتراكيب فى التعبيرعن هذين الحالين ، وجسدتهما جميعاً ، فغدت من ثم تُمثِّل لبنة أكيدة فى بناء تلك اللوحة المعماري من مثل : يا حبذا – تلك الكلمة التى استهل بها الشاعر تجربته هنا ، والتى يُراد بها المدح والاستحسان ، العيش الوديع ، واحة شجراء ، الطُّهر ، جنة الرضوان، حضن السكون ، سعف النخيل ، يابس الأغصان ، النسيم، روح الحياة ،

(١) مجلة أبولو – المجموعة الكاملة المُجلَّد الأول – دراسة وتحقيق : د/ عبد العزيز شرف ، د/محمد عبدالمنعم خفاجى –صـ ٢٢ – ط ٢٠٠٣م .

نفحة الريحان ، لحن الصفاء ، ينتشى وجدانى ، تمايل النشوان ، هانئاً ، ظل وارف ، أغان ، صمت الدُّجى ، فوق العشب ، والقلب فى مهد الجوانح هانى ، سراج الـــروح أطفأه الرَّدى ، زرافات الطيور ، حزينة – تبكى – ألحان الأسى – فقدانى ، الأيـــك ، أكفانى ، يُوارى فى الثرى جسمانى ، مثوى غريب من بنى الإنسان .. وغيـــر ذلـــك من الألفاظ والمفردات والتراكيب التى تُجسِّد حال وطبيعة ذلك العالم الفطري فى ظل مظاهر الطبيعة البديعة، ومجاليها البهيجة تلك التى وجد فيها الشاعر سكينة الـــنفس ، وراحة البال ، وقرارة العيش ، بالإضافة إلى ما تضمنته تلك اللَّوحة الكلية من ألفـــاظ تدل على اللون والصوت والحركة من مثل كلمات : جنة الرضوان ، ظـــل وارف ، ومن مثل ما ورد فى قول الشاعر– خلال لوحته تلك يُصوِّر حركة الماء ومجراه فى الجداول بعد انتقاله من الغدران :

والماء يعدو فى الجداول بعدما أرخت له الغدران فضل عنـــان
ينساب فى ظل الخمائل حالماً حتى يضلَّ هُناك فى الكثبـــان

حيث تجسِّد كلمات : يعدو ، أرخت ، ينساب .. يضل هناك .. حركة المـــاء وجريانه فى الجداول فى سهولة وانسيابية .. ونلتقى عبر تلك اللوحة بتلـــك الكلمـــات التى تدل على الحركة أيضاً ، من مثل كلمة : "مُتنقلاً " فى قوله :

فأظل يومي هانئاً متنقلاً ما بين ظل وارف وأغان

وكلمات : ولج ، وغزت ، وتلاشت فى قوله :

حتى إذا ولج النهار بغمــد ه وغزت جيوش الليل كلّ مكان

وتلاشت الأصداء فى صمت الدُّجى والنوم راح مداعباً أجفـــانى

كما نلتقى خلال تلك اللوحة بكلمات أخرى تـدل علـى الحركـة والصـوت الصادرة من ظواهر الطبيعة والمنبعثة منها ؛ تعبيراً عـن تفاعلهـا مـع الشـاعر ، ومشاركتها إياه فى أحاسيسه ومشاعره ، حيث يقول الشاعر:

والأيك ينثر حول جسمى زهر ... ه ويحـوك من أوراقه أكفـانى
وتروح حولى السافيات وتغتدى ... حتى توارى فى الثرى جسمانى

بجانب الطباق الوارد بين كلمتي : " تروح وتغتدى " ، والذى يبرز المضمون ويًجسده ، ويؤكده هنا ، حيث يمعن الشاعر – من خلاله– فى تجسيد حُبِّ الريـاح – بصفتها إحدى عناصر الطبيعة التى تشاركه هنا وجدانياً – الشديد للشاعر، وحنوهـا عليه ، وتأثره بفقده ، فهي تجتهد فى الغداة والرَّواح فى ستر بدنه ، وموارات جسده ؛ بما تجلبه من حصى ورمال من كل مكان .. وهكذا تحفل تلك اللوحة البديعة بـالكثير من الصور المجازية المفردة المؤتلفة ، كما تحفل بالكثير مـن الألفـاظ والمفـردات والتراكيب الدَّالة الموحية ، بجانب ما دلَّ منها على اللون والصوت والحركة ، وممـا أكسب تلك اللوحة الكلية هنا مزيداً من الجمال والطرافة والحيوية والإثارة قيامها فـى جل أجزائها على عنصر التشخيص– ذلك الذى :" يمنح الشاعر (فيه) المعنى حيـاة آدمية ، ويبعث فى الفكرة حركة نابضة ، وتسرى (من خلالـه) –أي التشـخيص– الألوان الشاخصة ، والأشكال الإنسانية ، وتلتهب المـواد فـى الطبيعـة بالعوامـل البشرية، وتفيض مظاهر الحياة بالوجدان المُتدفق ، والانفعال القوي ، ويصير غيـر الأحياء من الناس أناساً يتعاطفون ويتجاوبون ويعشقون ويحبُّون ، وبذلك تتحد مظاهر الحياة فى طيَّات سر الوجود .. فالتشخيص للمواد الجامدة ، وخلع الحياة على مظاهر الكون ، وبث الرُّوح فى مُحسَّات الطبيعة، فتتحول الجمادات والمظاهر فيها إلى أناس

أحياء فى وجدانهم وعواطفهم وانفعالاتهم وخوالجهم ، وتصير الجمـــادات شاخصـــة حاضرة تموج بالحركة المتطورة ، والتعاطف الإنساني ، والحُبّ السامى "[١].

فالناظر فى تلك اللوحة يبدو له أن عنصر التشخيص هذا قد بدا مُحلقــا فـــى فضاء التجربة هنا ، ومخيِّماً على سمائها ، حيث بدت ظواهر الطبيعة ومجاليها هنـــا شخوصاً عاقلة خلع الشاعر عليها سمات البشر ، ونسب إليها وأثبــت لهــا صـــفات العقلاء .. فقد جعلها تتفاعل وتتجاوب معه ، وتستشعر بوجوده ، وتحزن على فقــده، بل وتتحد بذاته ، وتمتزج بكيانه ، وتتعانق معه تعانق الأحباب .

حيث يُلحظ على الشاعر أنه قد استمد من مظاهر الطبيعة البديعة ، ومشاهدها الأخاذة هنا صوره وأخيلته ولغته ، حيث تبدو وتغدو الطبيعة – خلال لوحتــه تلــك مصدراً أكيداً من المصادر التى استقى الشاعر صوره منها ؛ جرياً فى ذلك على واقع وعادة الشعراء الوجدانيين :"الرومانسيين" : " فالطبيعة – بما تنطوى عليه من أشـــياء وجزئيات وظواهر هي المصدر الأساسي لإمداد الشاعر بمكونات الصورة "[٢] .

وشاعرنا فى لوحته الكلية البديعة تلك التى أقامها على ذلك الكــوخ الفطـــري البسيط الذى يرمز– بفطرته وبساطته للرِّيف والحياة الفطرية بين أحضان الطبيعـــة ، وفى رحاب ربوعها الساحرة ، ومظاهرها البديعة ، مُلتمساً فـــى الإيـــواء إليـــه –أي الكوخ وما حوله من ربوع وظواهر الطبيعة – الدفء والحنان ، والطمأنينة والســـلام .. شاعرنا فى ذلك كان متأثراً بالشاعر محمود حسن إسماعيل حـــين : " لجـــأ إلـــى كوخه يُغنِّى له ، ويذوب فيه ، ذلك الكوخ الذى يُمثِّل عنده رمـــزاً للرِّيـــف والحيـــاة

---

(١) البناء الفني للصورة الأدبية فى الشعر: د/ على على صبح – صـــ ١٨٧، ١٩٢ .
(٢) الصورة والبناء الشعري : د/ محمد حسن عبد الله – صـــ ٣٣ – ط ١٩٨١ م .

الفطرية بين أحضان الطبيعة ، فهو يُعرِّج عليه ، ويتخذ مأواه فى ظله ، ملتمساً منه نور الهدى والرشاد .. فإن فى حمى الكوخ خبايا للنفس يتبدد بها الظلم والفساد :

بعثِّر عليه الدمع ما صفقت ... فى قلبك الألحان يا شاعر
واحرِق له الأجفان ما مسَّها ... بَرْحُ الضنى والحزن يا ساهر
عرِّج عليه ساعة واتِّخذ ... فى ظِلِّه مأواك يا عابر
وَطُف حوالي ركنه والتمس ... نور الهدى والرشاد يا حائر
هنا خبايا النفس مطمورة ... غشى عليها الزمن الجائر

ويضم هذا الكوخ بين أحضانه الفلاح الفقير ينعق البوم حُزناً عليه ، ويحسُّ به الحمام ، لكنه يحيا حياته السعيدة بين أصدقائه وسُمَّاره : النجم والأنعام :

ضمَّت حواشيه على عابدٍ ... محرابه من فاقةٍ دائر
ينعى عليه تحت جنح الدُّجى ... شيخ اللَّيالى بومها الصافر
ويشتكى بلواه رأد الضُّحى ... حمامه المسترحم الذاكر
سُمَّاره فى الليل أنعامه ... والنجم والنابح والخائر
تُمليه من وحي الوفا حكمه ... ألوى عليها دهره الغادر
هذى تناغيه وذى تجتلى ... من صوته ما يجتلى السامر(١)

(١) الطبيعة الرومانسية فى الشعر العربي الحديث: د/أحمد عوين – تقديم د/سعيد حسين منصور – صـ ١٤٧ ، ١٤٨ – وتنظر أبيات الشاعر محمود حسن إسماعيل المذكورة فى ديوانه : أغانى الكوخ وقصيدة الكوخ– صـ ١٥ – طبعة- ١٩٣٥م.

ومحمود حسن إسماعيل :" يشترك فى ذلك مع بقية شعراء :" أبولو" الذين رأواْ الطبيعة أماً حانية يرتمون فى أحضانها ، ويبثونها أحزانهم .. بعد أن حلواْ فيها، وامتزجوا بها " [١].

" وهو نفس الإحساس الذى شعر به الرومانتيكيون الغربيون وشعراء المهجر "[٢].

وقد كان شاعرنا– فى امتزاجه بعناصر الطبيعة ، وتوحُّده وتفاعله مع مظاهرها ، وإشارته– خلال لوحته الفنية الكلية البديعة تلك – إلى مشاركتها: "أي عناصر، وظواهر الطبيعة" إياه وجدانياً ، حيث تعاطفت معه ، فقاسمته أفراحه وأتراحه ، وراحت تجتهد فى إبداء حزنها على فقده ، وتألمها إزاء رحيله .. كل ظاهرة منها لها دور تقوم به ؛ مُعبِّرة فى ذلك عن قيمة الحب والوفاء التى افتقدها الشاعر فى دنيا العقلاء .. على نحو ما يبدو لنا –خلال قول صان الدِّين:

فإذا سراج الروح أطفأه الرَّدى — والموت أفعم كأسه وسقانى
وقفت زرافات الطيور حزينة — تبكى بألحان الأسى فقدانى
والأيك ينثر حول جسمي زهر — ه ويحوك من أوراقه أكفانى
وتروح حولى السافيات وتغتدى — حتى يوارى فى الثرى جسمانى
والكائنات هناك تهتف ههنا — مثوى غريب من بنى الإنسان

---

(١) شعر محمود حسن إسماعيل – دراسة فنية : د/ محمد على هدية – صـ ٣١ ، ٨٧ – ط مكتبة مدبولى – ١٩٨٤م .
(٢) تطوُّر الشعر العربي الحديث فى مصر من ١٩٠٠– ١٩٥٠م – د/ ماهر حسن فهمى – صـ ١٩٣ – ط مكتبة نهضة مصر بالفجالة – ١٩٥٨ م.

شاعرنا كان فى ذلك شبيهاً بشاعر أبولو الشهير أحمد زكى أبى شادى –حين امتزج بالطبيعة ، واتحدت معها مشاعره ، حتى إنه ليتمنى أن يكون كفنه – حين يُوارى الثرى من أغصان الياسمين ، آملاً فى أن تنثر أزهار الياسمين ، وتطير على قبره ، فتبدو بمثابة النجوم المضيئة على ذلك القبر ، وتغدو رائحتها الزكية عزاه وسلواه ، وفى نور الياسمين شفاه " ، آملاً أيضاً فى أن يشدو البلبل – الذى كان يشدو بشعره –فى الدنيا – ويترنم شاجياً يبكيه ، ويذرف الدمع عليه بصوته العذب الشجي ، حيث يقول :

كفِّنونى بأغصن الياسمين	**إنَّ فى طيبه عزاء الدَّفين**
وانثرواْ زهره نجوماً بقبرى	**علَّ من نوره شفاء العيون**
وادفنوا جانبى رسائل حُب	**كم شجتنى بأوقع التلحين**
وَدَعُواْ البلبل المُغنِّى بشعرى	**يتولَّى رثاء قلبى الحزين (١)**

ولعلّ فيما سبق عرضه وتناوله من تفصيل وتحليل لأبعاد تلك اللوحة الكلية ما يؤمئ ، ويشير إلى توفيق الشاعر من خلالها فى نقل ما بداخله ، وتجسيد ما بأعماقه من أحاسيس ومشاعر فى صدق ومهارة واقتدار ؛ مما يسم تلك اللوحة بالقوة والجمال والروعة هنا : فـ" مقياس الصورة هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة ، فالصورة هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية ، وهذا هو مقياسها ، وكل ما تصفها به من جمال وروعة وقوة إنما مرجعه إلى هذا التناسب بينها وبين ما

(١) الطبيعة الرومانسية فى الشعر العربي الحديث – د/ أحمد عوين – تقديم الدكتور : سعيد حسين منصور – صـ ١٤٣ ، وتنظر الأبيات المذكورة لأحمد زكى أبى شادى – فى ديوانه أنين ورنين، وقصيدته التى بعنوان :" متى مِتُّ " صـ ١٥٤ – مطبعة التعاون – الطبعة الأولى ١٩٣٣م . وتنظر هذه الأبيات أيضاً فى ديوان أبى شادي : الشعلة ،وقصيدته :" قبرى" صـ ١٣٥– مطبعة التعاون – الطبعة الأولى ١٩٣٣ .

تُصوِّره من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد فيه روح الأديب ، وقلبه ، بحيث نقرؤه كأنما نحادثه ، ونسمعه كأنما نعامله " (١) .

وغير خافٍ أن تلك اللوحة موضوع الدراسة هنا قد تحقَّق فيها ذلك ، حيث غدت بمثابة المرآة التى انعكست عليها صورة وحالة الشاعر ، وظهرت فيها قسمات مزاجه ووجدانه .

ثالثاً: التصوير بالرمز

الرمزية هي :" طريقة فى الأداء الأدبي التى تعتمد على الإيحاء بالأفكار والمشاعر ، وإثارتها بدلاً من تقريرها أو تسميتها أو وصفها ، ولم تعرف الرمزية على هذا الوجه الإيحائي إلاَّ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر "(٢) .

ويُقصد بالرمز : " الإيحاء والتعبير غير المباشر عن النواحى النفسية المُستترة التى لا تقوى على أدائها اللغة فى دلالاتها الوضعية ، والرمز هو الصلة بين الأشياء والذات ، بحيث تُولد الإحساسات عن طريق الإثارة النفسية ، لا عن طريق التسمية والتصريح ، ويُقصد بالرمزية : الإيحاء بأفكار وعواطف باستعمال

---

(١) أصول النقد الأدبي – أحمد الشايب – صـ ٢٤٩، ٢٥٠ – ط مكتبة النهضة المصرية – الطبعة العاشرة – ١٩٩٩م .

(٢) الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر :د/ محمد فتوح أحمد – صـ ٣ ط دار المعارف – الطبعة الثالثة -١٩٩٤ م .

كلمات خاصة ؛ لنقل المعنى بتأثير خفي أو غامض ، بحيث ينطلق المعنى من آفـــاق واسعة " [١] .

والشاعر المتمكن من أدوات فنّه وإبداعه هو من : " يقول كلمته ، ثم يمضى لا يلوى على شيء ما دام مطمئناً إلى استخدام الرمز استخداماً يُغنى لغة الوجــدان ، ويُنفِّس عن النفس ، ويُفرِّج الكبت ، ويشف عن دلالته فى جلال يُباعــد بينـــه وبــين اللغز ، ويحتفظ لنفسه– بغموضه الشفَّاف ، وإبهامه الرقيق "[٢] .

والناظر فى وجدانيات صان الدِّين يجده قد استعمل الرمــز ، وأفـــاد منـــه ، واستعان به فى بناء وتكوين بعض صوره وأخيلته فى واحدة من وجدانياته تقريباً .

ولنا أن نطالع قول الأستاذة جليلة رضا الذى تكشف فيه عن حـــال وطبيعـــة الرمز عند شاعرنا صان الدِّين ، وسبب استعماله إياه فى صـــوره وأخيلتـــه : "وقـــد حرص الشاعر (تقصد : صان الدِّين) على ألا يتجه إلى التعابير الرمزية الغامضـــة التى قد لا تساعده على إبراز مضمونٍ ، أو بلورة الصـــورة وتطويرهـــا وتنميتهـــا ؛ وليكثر من وهج المعنى الذى يريد أن ينقله إلى وجدان القارئ "[٣] .

ولأن شاعرنا صان الدِّين يغلب على شخصيته الصراحة والوضـــوح ؛ فقـــد انعكس ذلك على صفحة شعره ، حيث اتسم فى الكثير الهائل منه بالسلاسة والوضوح ، وقلل الشاعر من ثم فى شعره من استخدام الرمز ، وما جاء من شعره الوجـــداني

---

(١) فى النقد الأدبي الحديث: د/ محمد عبد السلام صقر – صـــ ٤٦ – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى – ١٤٢٠– ١٩٩١م .

(٢) الاتجاهات الأدبية والنقدية فى الشعر العربي المعاصر فى المنظور النقدي :د/ محمود محمد لبدة – صـــ ١٨٦ – ط دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة –الطبعة الأولى –١٤٠٦هـــ– ١٩٨٦م .

(٣) مجلة القافلة – صـــ ٤٦ ، عدد ابريل – ١٩٨٨م .

متحققاً فيه ذلك اللون من التصوير لم يكن من النوع الغامض المُوغل فى الغمــوض المُغرق فى الإبهام الذى تتعقد فيه الدلالات ، وتشط المعانى، وتبتعد المضامين – كما أشارت إلى ذلك آنفاً الأستاذة الشاعرة جليلة رضا .

حيث يتسنَّى لمُتلقِّى التجربة التى نحا فيها الشاعر منحى رمزياً أن يقف على أبعــاد المضمون فيها ، وطبيعة التجربة –على نحو ما ستبينه وتوضحه السطور المقبلة– بــإذن الله تعالى ، وبتوفيقه سبحانه ، وذلك من خلال وقوفى على قصيدة الشاعر الرامزة : " صـمت الطيور"- تلك التى رمز بصمتها عن صمته هو ، وتوقفه عن الشدو والتغريــد بالشــعر ، حيث يسائلها عن أسباب ودواعى صمتها ؛ لتجيبه عن ذلك إجابة كان سيجيبها هو لو سُـئل نفس السؤال ، فهو أي الشاعر يجعل من صمت الطير هنا معادلاً موضوعياً لذاته المرهفــة المثخنة ، ونفسه المعُنَّاة المُثقلة بآلام الوحشة والتجاهل والحرمان ، المُترعة بأحزان الغربــة والصدام –إزاء الواقع المائل المائج بالمفاسد والشرور ، ساكباً مشاعره الحزينــة الفياضــة تلك على الطيور ، ومتحدثاً بلسانها– مثلما هو الحال عن الشعراء الرومانسيين –فى تعاملهم مع الطبيعة ، وامتزاجهم واتحادهم بها..

ها هو ذا شاعرنا يسائل الطيور– تلك التى كانت تنطلق فى مرح وفــرح ، وتغــدو وتروح ، وتعلو وتهبط ، فصارت واجمة حزينــة ، اســتحال فرحهــا ومرحهــا وشــدوها وتغريدها إلى حزن وأنين ، وقلق وزفير ، وصمت رهيب ، وتحولت حركتها إلــى خلــود وسكون .. هاهو ذا شاعرنا يسائل الطيور عن حقيقــة ذلــك الصــمت ، ولمــاذا آثرتــه ، ورضيت به ؟! ، ولماذا توقف عن شدوه العندليب ؟! وتوارى فى الــروض غنــاء البلبــل الغريد ؟! ، ولماذا البكاء والأنين والزفير ..حيث يقول:

لِم لم تُغنِّـــى يا طيـــور لــم لا تطيــرى فــى البكــور؟!
مالى أراك قــد انطــويــ ت فـــلا رفيـــف ولا ظهـــور؟!
وركنــت للصمــت الحزيــ ن وأنّة القلــــب الحسـير؟!

إنِّـــى عهـــدتك تصدحيـــــ ـــــــن بكـــل ألحـــان الســـرور!
وترفرفيـــن علــى الخما ئـــل والجـــداول والجســـور!
وتغازليـــن مع الصَّبــا ح فتَّـــــــان الزهـــــور!
وتبادليـــن الشمــس فى ســـــبحاتها كـــأس الحبـــور!
حتـــى يواريـــها المســا ء وراء مســــدول الســــتور!
فتحلِّقين على المروج الســ ــاجيات إلـــى الوكـــور!
حيــث الــوداعة والأمـــا ن ودفـء مضجعك الــوثير!
فإذا احتــواك العُــشُّ نِمــ ت كنومــة الطفــل الغريــر!
مـــاذا دهـــاك فصـــر ت دامية المدامع والشـعور؟!
وتحـــوَّل المَـــرَحُ الــ جميـلُ إلى أنيـنٍ أو زفـير؟![(١)]

فتجيبه الطير عن التساؤلات التى تمسُّ شغاف قلبه ، وتتعلق بنياط فـؤاده ، والتـى يعلم هو جوابها ، حيث يُعانى ما تعانى منه الطيور ، وتصـطدم نفســه -بمـا اصـطدمت الطيور به من طبيعة ذلك المجتمع الذى يموج بالمفاسد والمتناقضات ، ويغـصُّ بالشـرور والأشرار ، فأنى للطيور إذن الشدو والتغريد ، والطير والتحليق فى ريـاض مقفـرة يـبس شجرها ، ونضب بهاؤها ، وغاض وأسن ماؤها ؟! ثم أنى لها أن تحلّـق أو تطيـر فرحـة مرحة فى جوِّ السماء ، وقد ملئت بأسراب الجوارح والصقور- تلك التى أمسـكت بمقاليـد الأمور .. حيث غدا قانون الغاب هو السائد الشهير ؟! وأنى لهـا – أي للطيـور – الفـرح والمرح والأمن والدَّعة ، والانطلاق ، والأرض قد امـتلأت بفتـاك الأفـاعى والنُّمـور ؟! والعيش تحكمه قوانين المخالب والغرور ؟! ، والأمر أمر الجاثمين على الجماجم والصـدور !! ، فلا بقاء فى ظل ذلك لوديع مرهف الحِسِّ ، رقيـق الشـعور .. حيـث تـئن وتضـجُّ

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ٥٢ ، ٥٣ .

الضعفاء تحت مطارق الظلم المُغير ، وحيث سواجع الطير الوديع .. نحيلة الجسم الصــغير .. يقول صان الدِّين :

فسمعــت صـــوتاً ينبرى ... مـــن بـــين أنـــات الطيـــور
يا غافـــلاً عمــا اســتجد ... د وذاهـــــلاً عمّـــا يـــدور
أنَّـى أُغــرد أو أنقـــ ... قـــر فـــى مجـــالى أو أطيـــر
والروض صوَّح أيكه والـــ ... مـــاء غـــاض مـــن الغـــدير
والأرض قـــد غـــصَّت ... بفتـــاك الأفـــاعى والنمـــور
والجـو قد ملكتــه أسرا ... ب الجـــــوارح والصـــــقور
والأمن فى المأهـــول قد ... غالتـــه أنيـــاب الشـــرور
وقـــوارع الأصـــوات تنـــ ... ذر بـــــالبوائق والثبـــور
والقـــوة الهوجـــاء تعـــ ... صـــف بالجليـــل وبـــالحقير
والعيش تحكمـــه قوانيـــ ... ن المخالــــب والغـــرور
والأمـــر أمـــر الجاثميـــ ... ن علـــى الجمـــاجم والصـــدور
فتضوَّر الضعـــاف تحـــ ... ت مطـــارق الظلـــم المُغيـــر
وسواجع الطيـــر الوديـــ ... ع نحيلـــة الجســـم الصـــغير
هـــذى هـــي الدنـــيا كما ... وضـــحت لأعمـــى أو بصـــير
فلجأت ألتمـــس السكيـــ ... نـــة والأمـــان إلـــى القبـــور
وقنعت من عيشـــى بظلـــ ... لٍ شـــاحبٍ بـــين الصـــخور
أتســـقط القطـــرَ الشرو ... د وأمضـــغ العُشـــب المريـــر
حتَّى يوافينى الحِمَامُ وألـــ ... فـــظ الـــنَّفَسَ الأخيـــر

وتطير أجنحـــة المـــلا ئـــك بـــى إلـــى خُلـــدِ المصـــير
فأبـــث ثمَّ شكـــايتـــــى فى ســـــاحة العَـــدل القـــدير(١)

وهذه الإجابات من الطيور لاشك فى أنها تُكشف عن مُراد الشاعر من سؤاله إياها تلك الأسئلة الكثيرة ، حيث يرمز بها ، ويرمى من ورائها تصوير ما يَسُود فـــى مجتمعه من شرور وأشرار ، وما يملأ أرضه من أفاع ونمور ، وجوارح وصـــقور ، وما يتهدد أمنه من خطر محدِق ، حيث اغتالته أنياب الشرور ، وما يســتولى علـــى مقاليد الأمر فى ذلك المجتمع من الجوارح والصقور والأفاعى والنمور .. كلٌّ هـــذه الأسباب والمظاهر هي ما جعلت الطيور تفعل ما فعلـــت مـــن الصـــمت والانـــزواء والإحجام عن الشدو والغناء .. وهي ذاتها ما جعلت الشـــاعر يتوقـــف عـــن الشـــدو والتغريد بالشعر حيناً من الدهر ، وآلت به وبالطيور إلى الانزواء والانطواء والقناعة من العيش بالكفاف والرِّضا بالقليل ، حتى يوافيهما الموت والأجل المحتوم ، ويلفظـــا نفسيهما الأخير ، فيبثان من ثم شكايتهما فى ساحة العدل القدير – سبحانه .

وهكذا يتخذ الشاعر من الطيور معادلاً موضوعياً لحالته الكئيبـــة المتشـــائمة المحبطة هنا من أثر تألمه واصطدامه إزاء ما جدَّ وطرأ على مجتمعه مـــن ســـلبيات ومفاسد انهارت فى ظِلِّها القيم ، وتهاوت بها المُثل ، وتبـــدّلت المـــوازين ، واختلـــت الأذواق– مما آلم نفس الشاعر المرهفة ، وأحزن ذاته الرقيقة ، وجعله يصطدم بذلك الواقع ، فراح من ثم يؤثر الاعتزال والانزواء عنه إلى حيث القبـــور ، آنســـاً فيهـــا السلامة والدَعة ، والسكينة والهناءة ، بعيداً فى ذلك عن صـــخب المدنيـــة الزائـــف، وضجيج المجتمع الصادم .

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـــ ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

وهذه القصيدة ترمز فى النهاية إلى ما كان يحس به الشاعر من ضيق وإحباط ناتجين عن خوفه وتوجُّسه من أن يُقابل إبداعه بالتجاهل ، وعدم التقدير ممن يعرضه عليهم آنئذ ، مما دفعه إلى أن يُمزق ما لديه من شعر فى الأربعينيات [١]. ويتوقف عن الشدو والتغريد ليعود إليه بعد ذلك حين ألحَّت عليه دواعيه ، ولم يَعُد يقدر على هجر قوافيه .

وهو – أي الشاعر كان فى استخدامه للرمز هنا ، وحديثه فيه على لسان الطيور قريباً من صنع أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصائده التى أبدعها على لسان الطيور والحيوانات ، وإن كان مضمون تجربة الشاعر هنا تختلف عن مضامين أحمد شوقى فى قصائده التى قالها على ألسنة الطيور : " حيث كانت (يعنى قصائد شوقى فى ذلك الشأن) –فى مجموعها– مُنبِّهة قوية أيقظ بها من كان نائماً ، ودلَّ من كان ضالاً ، ونبَّه الوعي القومي ، وأثار الشعور الوطني ضد المُستعمرين والأجانب الطامعين ، وهي أهم قضية شغلت بال المجتمع المصري فى عصر شوقى " [٢] .

ولنا أن نتأمل فيما أودعه الشاعر– خلال تجربته الرقيقة الرامزة هنا– من ألفاظ دالة ، ومفردات مُعبِّرة ، وتراكيب بليغة ، وصور رائقة جسَّدت حالين مختلفين

---

(١) وقد أشار الشاعر إلى هذا الأمر فى قصيدته : " سأشدو " ، حيث ينطق مضمونها بما حدث من الشاعر إزاء شعره ، ومن قبل يدلُّ على ذلك ، ويشير إليه كلمات الشاعر النثرية التى قدَّم بها قصيدته تلك ، وذكرها قبل الشروع فى أبياتها .. حيث يقول : فى مرحلة من العمر هجرت الشعر ، ومزَّقت ما نظمت من أشعار لأسباب ، ولكنى لم أستطع مقاومة الرغبة فنظمت هذه القصيدة "... وها هي ذى بعض أبيات تلك القصيدة تشير إلى ذلك ، حيث يقول الشاعر :

أؤفصح أم أموت بما أعاني وأمضى بين تيار الزمان؟!
وفى قلبي أناشيد عِذاب وفى الوجدان أبكار المعانى

إلى أن يقول :

كتمت روائع الأنغام دهراً وقيدت الشوارد فى جناني
وعشت كما يعيش الغُمر فدماً حليف الصمت معتقل اللسان..

إلى آخر أبيات تلك القصيدة .. تُنظر فى ديوان : أعاصير وأنسام صـ ٣١– ٣٤ .

(٢) الاتجاهات الأدبية والنقدية فى الشعر العربي المعاصر فى المنظور النقدي : د/ محمود محمد لبدة – صـ ١٩٢.

تناوبا على الطيور هنا .. حالها فى أثناء سرورها وحبورها ، ودعتها وانطلاقها ، وفرحها ومرحها وملئها الدنيا شدواً وتغريداً –والشاعر معها من مثل : ألحان السرور ، ترفرفين تغازلين – كأس الحبور ، تُحلِّقين – الوداعة – الأمان – دفء مضجعك الوثير – نومة الطفل الغرير .. وحالها فى أثناء حُزنها وأساها ، وتأملها وشكواها ، وما يمكن أن تجسِّده الكلمات فى ظل ذلك ما ينتاب الطيور والشاعر معاً من يأس وإحباط ، وضيق وانقباض ، من مثل : الصمت الحزين – القلب الحسير ، دامية ، المدامع والشرور ، وأنات الطيور ، فتاك الأفاعى والنمور، أسراب الجوارح والصقور ، غالته ، أنياب الشرور – المخالب والجماجم ، نحيله الجسم الصغير ، ظل شاحب – العشب المرير – الحِمام – ألفظ – النفس الأخير – أبثُّ – شكايتى ..

وشاعرنا – بدا خلال لوحته الرقيقة الرامزة تلك– واحداً من الشعراء الوجدانيين : " فى إحساسهم بوطأة الحياة ، وتمنيهم أمنيات خيالية تنأى بهم إلى عالم جميل من السلام أو الحرية أو الجمال ، وهي أمنيات مألوفة فى الشعر الرومانسي الأوربي ، وفى الشعر العربي الوجداني يلتمس الشاعر فيها هذه المعانى فى آفاق الطبيعة ، ومشاهدها ، ويتخذ من بعض عناصر الطبيعة وأحيائها رموزاً لها كالطير والرِّيح والموج والشعاع .. والفراش وغيرها ، مما يُوحى بالحرية والانطلاق والسلام والجمال" [١].

فهم – أي الشعراء الوجدانيون – : " فى تطلعهم إلى الحرية يفرُّون من أنفسهم ومجتمعهم إلى الطبيعة ، ويجدون– فى صفائها وجمالها ورحابتها ما يفتقدونه فى حياتهم الباطنية الحافلة بالصراع ، وفى حياتهم الاجتماعية المليئة بالتناقض ،ويتخذون من بعض مشاهدها وأحيائها رموزاً لمعانى الحرية الشاعرية ، والانطلاق

---

(١) الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر : د/ عبد القادر القط – صـ ٢٤٠ .

البريء .. فالفراشة والزئبقة والبلبل وغيرها تُمثِّل لديهم الانطلاق فى رحاب الجمال بهدي من الفطرة ، ووحي من السماء"[١].

وهو – أي الشاعر يتطلع – خلال لوحته الرامزة تلك– إلى المثال ، حيث يأمل فى الخلاص– مما يجد من معاناة الحياة ، ومخالطة الناس ، أو التحرّر من الصراع المحتدم فى وجدانه بين الرغبة والطهارة ، أو الواقع والمثال"[٢] .

ولا يخالج القارئ الكريم أدنى شك فيما تحقق فى تلك اللوحة من سمات ومظاهر وأفكار ومضامين الشعراء الوجدانيين المشار إليها فى تلك النصوص المذكورة هنا .

وهكذا رأينا الشاعر– وقد استعان بالطبيعة الحيّة مُمثَّلة هنا فى الطيور ؛ ليسكب عليها مشاعره الحزينة ، ويُسقط أحاسيسه الواجمة ، رامزاً بها عمَّا يُعانيه ويقاسيه من مواقف حياتية مؤلمة صادمة .. على نحو ما سبق بيانه ، وإيضاحه – فى أثناء تحليل تلك القصيدة الرامزة هنا .

(١) الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر : د/ عبد القادر القط – صـ ٣٠٠ .
(٢)الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر : د/ عبد القادر القط – صـ ٢٨٩ .

المبحث السادس

عاطفة الشاعر -خلال تجاربه الوجدانية

العاطفة بالنسبة للشِّعر كالرُّوح بالنسبة للجسد ، فهي ماؤه ورِواؤه ، ونضرته وبهاؤه ، وهي شقيقة روحه ، وتوءم وجدانه .. بها يُعرف ويتميَّز ، وهي – أي العاطفة – الشاحذ الذى يخلق الشِّعر ، والمُحرِّك الذى يدفع بوجوده .. حيث يُقصد بها تلك :"القوة المُحرِّكة فى الحياة ، وهي للشعر بمكانة النُّور والنَّار ، وحياة الشِّعر

فى الإبانة عن حركات تلك العاطفة ، وقوَّتهُ مُستخرجة من قوتها ، وجلاله من جلالها "(١).

وهي- أي العاطفة - الواسطة بين الأديب وبين المُتلقِّى :"فهي للأديب مبعث لخواطره ، وشحذ لأدبه ، وهي للقارئ أوتار حساسة يجد فى رنينها ونغماتها المعاني الحافزة ، والمتعة الآسرة التى تملك فؤاده ومشاعره"(٢).

وهي- أي العاطفة – إن اتسمت بالقوة والعُمق غدت مُؤشراً إلى قوة وجودة الشِّعر :" فالشعر الجيّد يمتاز قبل كل شئ بأنه مرآة لما فى نفس الشاعر من عاطفة تُمثِّل فيها هذه العاطفة تمثيلاً فطرياً بريئاً من التكلف والمحاولة ، فإذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يُمثِّلها مرآة فليس هناك شعر ، وإنما هناك نظم لا غناء فيه" (٣) .

ثم إنَّ : " أي نظم يسمى شعراً ، لن يستحق هذه التسمية – [كما ذكر أحمد زكى أبو شادى]- إذا ما تجرَّد عن العاطفة ، فهي العنصر الذى يخلق الشعر ، وهيهات للشاعر الموهوب أن يسفّ – مهما كان الدافع إلى قرضه الشعر ما دام وليد عاطفة حارة ، سواء اقترنت أم لم تقترن بفكرة ، وإنما يأتى الإسفاف حتى من مشاهير الشعراء – حينما ينظمون بدافع غير وجداني مصطنع ". (٤)

وفى المقابل فإن ضعف العاطفة ، وتكلفها يودى بالشعر ، ويذهب بوهَجِه ، ويأتى على روحه ورِوائه ، ويهوى به إلى درك السطحية ، فينعدم من ثم تأثيره فى

---

(١) أثر النقد الانجليزي فى النقاد الرومانسيين فى مصر : د/جيهان السادات – صـ ١٤٣ – ط دار المعارف- ١٩٩٢م.
(٢) الأصول الفنية للأدب : د/عبد الحميد حسين – صـ ١٩٠- ط مكتبة الانجلو المصرية- د.ت .
(٣) حافظ وشوقى :د/طه حسين – صـ ١٢٨- ط مكتبة الخانجى – بدون تاريخ.
(٤) أثر النقد الانجليزي فى النقاد الرومانسيين فى مصر : د/ جيهان السادات – صـ ١٣٩ .

نفوس المُتلقِّين ، ولا يستولى بالضرورة على مجامعهم .. فـ :" نقاد العرب يُطلقون على مثل هذا الشعر الذى قلَّت فيه العاطفة ـ أو انعدمت – أنه قليل الماء والرونق ، يريدون به أنه ضعيف الحيوية ، لا يبعث فى النفس نشاطاً ولا بهجة ، إذا إنّ الحيوية الدافقة ، والنشاط والبهجة من آثار العاطفة والوجدان .. ونقاد العرب مُحقُّون عندما أطلقوا على مثل هذا الشعر الذى يخاطب العقل وحده أنه شعر قليل الماء ؛ بمعنى أنه جاف لا ينبض القلب عند سماعه ، وإن أدرك العقل معناه ". (١)

وحتى يتحقق للنص الأدبي صفات البقاء والخلود لابد وأن يقوم على عاطفة صادقة قوية شريفة نبيلة سامية .. تتغيا وتمجِّد الفضيلة ، وتبعث فى المتلقين شعوراً إيجابياً ينهض بهم فى القيام بواجباتهم الفردية والاجتماعية .. تُرى ما حال عاطفة شاعرنا صان الدِّين – خلال تجاربه الوجدانية ؟ وما مدى تأثيره – من خلالها – فى نفوس قُرَّائه ومُتلقيه؟ وهل كان شعر صان الدِّين –خلال وجدانياته كثير الماء والرونق – مثلما أطلق الأدباء والنقاد على الشعر الجيِّد الذى قويت فيه العاطفة ، وفاضت ، وأمرعت ، وأخصبت ، وأنتجت ، فاستحال ذلك وانسحب على تجاربه ، فغدت قوية الحيوية ، تبعث فى نفوس المُتلقين النشاط والبهجة ، وتغرس فى أعماقهم شعوراً بالرَّاحة والإقبال؟ ، أم أنه كان من النوع قليل الماء والرونق ، بعد أن ضعفت فيه العاطفة ، وشابها الزّيف والتصنُّع والتكلُّف ، فباتت من ثم تخاطب العقل وحده ، بعد أن اتسمت بالجفاف ، والجمود ، والنضوب ، فراح القلب يتوقف عن النبض إزاء سماعها ومتابعتها ، وإن أدرك العقل مرماها ومقصودها .. ثم ما مدى اتسام عاطفة الشاعر – خلال تجاربه الوجدانية – بسمات السموِّ والشرف والصِّحة والقُوة والثبات والعمق من عدمه .. تلك التساؤلات وغيرها مما يتعلق بسمات وأجواء العاطفة

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب : د/ أحمد أحمد بدوي – صـ ٥٠٨ – طبعة مكتبة نهضة مصر – بالفجاله – الطبعة الثانية – ١٩٦٠م .

ستتولى الصفحات المُقبلة من الدراسة الإجابة عنها ، وذلك من خلال التعـــايش مـــع وجدانيات صان الدِّين – بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه سبحانه.

وإننى أستهل حديثى عن حال عاطفة الشاعر بإشـــارتى إلـــى طبيعـــة تلـــك التجارب التى تتناولها الدراسة هنا ، حيث تندرج تحت ذلك اللـــون الوجـــداني مـــن الشعر الذى هو أشدُّ اتصالاً ولصوقاً بالنفس ، وأقرب من غيره إليها ؛ ممَّا يحدث فى نفوس مُتلقِّى تلك التجارب انطباعاً ، ويُعطى لهم منذ البداية مؤشراً إلى ما يمكـــن أن تتسم به تلك التجارب الوجدانية الشديدة اللُّصوق بنفس ووجدان وكيان مُبـــدعها مـــن سمات القوة والصدق والحرارة والانفعال والتدفق والجيشـــان .. حيـــث تنبـــع تلـــك التجارب عادة من إحساسٍ صادق ، ومعاناةٍ حقيقية إزاء مواقف حياتية ذاقها الشـــاعر ، وأحس وشعر بها ، بعيداً فى ذلك عن التكلُّف والتصنُّع ؛ مما يكسب عاطفة الشاعر – خلال وجدانياته هنا – صفات القوة والجودة والعمق والتأثير ، وإن كـــان هـــذا لا يمنع بالضرورة من أن تكون هناك تجارب وجدانية فى نتاج الشاعر قد شابها التكلُّف ، ونال منها الضعف ، فبدت فاترة ، وأتت هادئة ، وجاءت رزينة لا تفـــى بالمقـــام ، ولا تضطلع بالموقف الذى تأتى لتجسيده ، والتعبير عنه .

وإذا كانت تلك التجارب – أعنى تجارب الشـــاعر الوجدانيـــة – موضـــوع الدراسة هنا – قد اتسمت بطبيعتها – فى الكثير الهائـــل منهـــا – بالصـــدق والقـــوة والجودة والعمق والتأثير فى نفوس المُتلقين .. تُرى ما مدى اتسامها بعد ذلك بســـمات الصحة والسموّ والشرف والثبات وعدم الانقطاع ؟ وهل اتسمت عاطفة الشاعر – فى بعض الأحايين بالسقم والمرض ؟ .. هذه التســـاؤلات ســـتتولى الصـــفحات المقبلـــة الإجابة عنها ، وتقوم بإيضاحها –من خلال وجدانيات صان الدِّين.

أقول إنّ للشاعر تجارب فى الشكوى والألم صورّ فيها ، وجسَّد من خلالها ما ينتابه من أحاسيس الألم والضيق ، ومشاعر الحسرة والحُزن المُمضَّة إزاء ما جدّ وطرأ على أبناء زمانه ، وظهر واستشرى فى أوصال مجتمعه من سلوكيات مُعوجَّة سقيمة ، وتصرُّفات شاذة مريضة ، تصطدم ، ولا تنسجم معها نفس الشاعر الرقيقة وتحزن وتتألم وتتحسَّر إزاءها أحاسيسه الرهيفة ، فرأيناه من ثم يجأر بالشكوى والألم ، مُنفِّساً من خلال ذلك عن آهاته وأحزانه ، ومُسرِّياً عن نفسه – فى أوجاعها وصدامها ؛ مما يَسِم عاطفة الشاعر – خلال تجاربه الرقيقة المؤثرة فى ذلك الشأن – منذ البداية – بسمات الصدق والقوّة والعمق والتأثير فى نفوس ومجامع المُتلقِّين ، بعد أن أثَّرت فى نفس وكيان صاحبها أولاً ، إلا أنه تبقى بعد ذلك لكل تجربة من تلك التجارب سمة تَسِمُها ، وخاصة تميّزها عن غيرها .. حيث نجد بعض تلك التجارب فى الشكوى والألم تتسم العاطفة فيها بسمات الصِّحة والإيجابية ، حيث لا تصل درجة الشكوى فيها لدى الشاعر إلى حدِّ التشاؤم المقيت الذى يُفضى بصاحبه إلى اليأس والقنوط ، والنظر إلى الحياة تلك النظرة السوداوية القاتمة .. ، وإنما هو – أي الشاعر – يُبدى شكواه – خلال تلك التجارب – مشفوعة بإبداء أسباب شكواه ، ومصحوبة بتجسيد ما ينتابه من مشاعر الحزن والألم والحسرة المُمضَّة إزاء ما يشكو منه من انهيار القيم ، وتهاوى المُثُل واختلال الموازين ، واضطراب المعايير وسقم الأذواق ، وفساد فى الطباع ، لافتاً أنظار مُتلقَّيه إلى مكمن الدَّاء ، مُقترحاً بلسان الحال كيف يكون الدَّواء .. مثلما هو الحال فى تجربته التأملية الشاكية – تلك التى شكا فيها من تدنِّى أخلاقيات بنى عصره ، وانهيار القيم ، واختلال المقاييس ، وانقلاب الموازين فيما بينهم – مِمَّا آلم نفس الشاعر وأحزانها ، وجعله يهيب بزمانه ، ويلتمس منه أن يرفق به ، ويحنو عليه ، فلا يصيبه بمزيد من العناء .. فلم يَعُد فى قلبه ركن للمزيد ، رادَّاً ذلك التدنىِّ الأخلاقي ، والانهيار القيمي – الذي ساد بنى جلدته ، واستشرى فى أوصال مجتمعه آنئذٍ ، وكاد ينخر عوده ، ويهدّ كيانه إلى

ذيوع الظلم والاستبداد ، وسيادة البغي والطغيان ، وسقم الفكر والوجدان ، وقيام ذلك المجتمع على الفتك والأطماع، حيث يقول صان الدِّين :

عصـرنا عصـر التدنِّـى	**والتلاحِـى والجحـود**
والدَّعـاوى فـى عُتـو	**حيَّـرت عقـل الرشـيد**
والرُّؤى أطيـافها قـد	**كـذبت رأي الشـهود**
واللئيم الطبع بـاع الحُـر	**ر فـى سـوق العبيـد**
يا زمانى لم يَعُد فى القلـ	**ـب ركـن للمزيـد!**
أي داءٍ قد أصـاب النـا	**س يسـرى فـى العـروق؟!**
فأسـاء الظـنَّ كـلُ	**فـى خليـلٍ وصـديق**
وأراب الـداء حتـى	**فـى قريـب وشـقيق**
بقلـوب واغـرات	**سـار كـلُ فـى طريـق**
سابحـاً فى الهـمِّ فرداً	**فـى اضـطراب كـالغريق**
من جحيم الشـرّ هبَّـت	**تخنـق الـدنيا سـموم**
أي جمـع أي فـرد قد	**تغشـته الهمـوم**
هل دَهَى الإنسـان باغ	**أم هـو البـاغى الظلـوم؟!**
إنما أودت به الأطمـا	**ع والفكـر السقـيم!**(١)

ولعله من نافلة القول ، وفضل البيان أن أشير هنا إلى ما تتسم بـه عاطفـة الشاعر خلال تجربته المذكورة هنا من سمة الصدق .. حيث نراها تُجسِّـد مشـاعر

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٧ ، ١٨ ، والتَّلاحى : التلاوم ، والجحود : الإنكار وقلة الخير ، وأراب : شكك ، وواغرات : حاقدات – غاضبات .

أحسَّها الشاعر ، وتُصورِّ أحاسيس شعر بها ، ومواقف ذاقها ، وتجارب عاناها بنفسه .. وبجانب كون العاطفة تتسم بالصدق هنا ، فإنها أيضاً قوية وعميقة ، من شأنها أن تؤثر فى نفوس المُتلقِّين ، وتستولى على مجامعهم، بعد أن أثَّرت فى نفس صاحبها ، واستولت على مجامع مُبدعها .. وقد بدا هذا من خلال ما تضمنته التجربة هنا من ألفاظ دالة ، وتراكيب بليغة من شأنها أن تُجسِّد ، وتنقل لنا طبيعة وحجم تلك الشكوى والألم ، ومظاهر ذلك وأسبابه .. حيث نلتقى فى هذه التجربة بكلمات : التدنِّى – التلاحى – الجحود – الدَّعاوى – عتو – حيَّرت – كذَّبت – داء – أساء – قلوب واغرات– الهم– اضطراب – جحيم الشر – تخنق – سموم– تغشته – الهموم – دَهَى – باغ – الظلوم – أودت – الأطماع – الفكر السقيم .

كما نلتقى خلالها بأساليب عديدة دلَّت على مضمون التجربة ، وجسَّدت طبيعتها هنا أيّما دلالة وتجسيد ، من مثل : نداء الشاعر زمانه – هذا الذى شهد ذلك التردِّى الأخلاقي ، والانهيار القيمي ، آملاً منه أن يرفق به ، ويحنو عليه فلا يثقل كاهله بمزيد من الآلام والأحزان ، بعد أن ضاق صدره بتحمُّل ذلك :

يا زمانى لم يعد فى القلـــ ـــب ركن للمزيد !!

وهو – أي الشاعر– يُجسِّد من خلال ندائه الزمان – الذى يجعل منه عاقلاً هنا ما ينتابه ، ويمتلأ به صدره ، ويعتلج بنفسه من مشاعر الألم والحزن والحيرة والحسرة والضيق إزاء ما أصاب بنى مجتمعه ، وما جدَّ وطرأ على زمانه من سلوكيات شاذة ، وتصرُّفات سقيمة ضاق بها ، ولم يعد يتحملُّها، ومن مثل ذلك الاستفهام الدال على التعجب والاستغراب والدَّهشة والذهول إزاء ما آل إليه حال بنى عصره ، وما أصاب أخلاقهم فى مقتل :

أي داءٍ قد أصـــاب النــــا س يســــرى فـــى العـــروق؟!
فأســـــاء الظـــــنَّ كـــلُ فى خليـــــــلٍ وصديـــــــق

وذلك الاستفهام الدال المُعبِّر هنا الذى ينطق بظلم الإنسان لنفســـه ، بعـــد أن يحيـــد ، ويتنكب عن طريق الهدى والرشاد:

هل دَهَى الإنســـــان باغ أم هو البـــــاغى الظلوم؟!

ونلتقى خلال تلك التجربة أيضاً بأسلوب القصر الدال البديع الذى يكمن فيـــه الداء المسئول عن ذلك التدنِّى الأخلاقي ، والانهيار القيمي ، حيث يقصر فيه الشاعر الهلاك على ذيوع وسيادة الفتك والأطماع ، وسقم الفكر والطباع فى دنيا الناس فـــى ذلك الأوان:

إنما أودت به الأطمــــــا ع والفكـــــــر السقـــيم!

بجانب التراكيب البليغة التى لم تعدمها تلك التجربة من مثل قـــول الشـــاعر يؤكد انقلاب الموازين ، واختلال المقاييس ، وانهيار القيم فى عصره :

واللئيم الطبع بـــاع الحُــر ر فى ســـــــوق العبيد

ثم ما أبلغ قول الشاعر يُجسِّد حال وطبيعة مجتمعه آنئذٍ:

من جحيم الشـــرّ هبَّـــــت تخنق الـــــدنيا ســـــموم

حيث يشير إلى أن ذلك التردِّى الأخلاقي ، والانهيار القيمي الذى استشـــرى فى أوصال مجتمعه آنئذٍ ، وغدا بمثابة الجحيم الذى تهب منه الشرور والسموم التـــى تُفنى المجتمع ، وتهلكه ، وتأتى عليه ، وتنهش كيانه ، وتنخر عوده .. ولاشك فى أن

صدق وقوة وعمق العاطفة هنا هو ما حدا بالشاعر ودفعه لأن يُعبِّر بتلك الألفاظ الدَّالة ، والمفردات المعبِّرة ، والتراكيب البليغة التى جسَّدت حاله ، وصوَّرت مشاعره ..

كما تتسم العاطفة هنا بسمات الصحة والإيجابية ، وتسلم بالضرورة من السقم والسلبية ، بعد أن ابتعد فيها عن التشاؤم والسوداوية ، حيث يتغيا الشاعر فى تجربته تلك غاية تهذيبية تغرس فى نفوس المُتلقِّين شعوراً إيجابياً يقفون من خلاله على مكمن الداء فى شكواه هنا .. ومن بعده كيف يكون الدواء من هذا الدّاء .. حيث نرى الشاعر يضع أيدى مُتلقِّيه ، ويدلُّهم على ذلك ، فيقول :

هل دَهَى الإنسان باغ — أم هو الباغى الظلوم؟!
إنما أودت به الأطما — ع والفكر السقيم!!

ومثل ذلك اللون من العاطفة التى تتسم بالصدق والقوة والعمق والتأثير فى نفوس المُتلقِّين ، والصحة والإيجابية نلتقى به فى قول الشاعر فى واحدة من تجاربه، حيث يتساءل فى لهفة وشوق شديدين أين ذهبت الأخلاق ؟ وذوت بين أبناء عصره ، مُصوراً أسفه وتحسره إزاء انزوائها ، وذهاب الكثير منها :

أين أخلاقُ لها عطر — كأنفاس الزُّهور؟!
تجعل الإنسان يحيا — فى أمان وحبور
ليس يخشى حيث يسعى — من أحابيل وزور
لهف نفسى لم يّعُد منها — سوى النزر اليسير!!(١)

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٤٩.

ويبدو صدق وقوة وسمو وشرف وصحة العاطفة – من خلال ما تعالجه تلك التجربة من مضمون نبيل ذى قيمة كبيرة هنا .. وقد كان لصدق وقوة وعمق العاطفة أثره وصداه هنا ، حيث نرى الشاعر يُصدِّر تجربته بذلك التساؤل الدَّال على اللهفة والشوق والحزن والحسرة- إزاء انزواء الأخلاق – تلك التى تُعبِّق برائحتها الزكية الأرجاء – مثلما ذلك العطر الذى ينبعث من أنفاس الزهور فيضمِّخ عبيره فى الأنحاء، وتضمن لأصحابها السعادة والسرور ، والأمن والحبور .. حيث يأمن الإنسان فى ظلها ، ولا يخشى حين يسعى من أحابيل وزور ، وخِداع وشرور .

ثم نرى الشاعر يختتم أبياته تلك بمختتم بليغ يدل على قوة وصدق عاطفته أيضاً ، حيث يُصوِّر لنا أسفه، وتحسّره إزاء انزواء الأخلاق ، وضياع الكثير منها فى دنيا الناس فى عصره :

لهف نفسى لم يّعُد منها سوى النزر اليسير!!

وعاطفة الشاعر هنا صحيحة إيجابية سامية من شأنها أن تغرس فى نفوس المُتلقين شعوراً إيجابياً ، وتُولِّد فيهم انفعالاً صادقاً ، وإحساساً مُفعماً إزاء الأخلاق ، وضرورتها البالغة ، وأهميتها الشديدة فى بناء ونهضة المجتمعات .. على نحو ما بدا مُتحققاً – خلال تلك التجربة الصادقة التى يُبدى فيها الشاعر أسفه وحزنه وتحسُّره إزاء ضياع الأخلاق ، وذهابها من دنيا الناس فى عصره .

وإذا كانت التجربتان السابقتان للشاعر فى الشكوى والألم تتسمان بسمات القوة والصدق والصحة والإيجابية ، فإننا نلتقى باثنتين من تجاربه الوجدانية فى الشكوى والألم أيضاً تتسم عاطفة الشاعر فيهما بسمات القوة والصدق ، دونما الصحة والإيجابية ، حيث تتسمان بدلاً من ذلك بسمات المرض والسقم والسلبية ، بعد أن بلغ

بالشاعر الضيق فيهما ذورته ، ووصلت الشكوى لديه خلالهما إلى حدّ التشاؤم واليأس والإحباط ؛ مما يسم عاطفة الشاعر فيهما بالسقم ، ويصفها بالمرض، ويخلع عليها صفة السلبية ، حيث تغرس فى نفوس مُتلقِّيها مشاعر سقيمة، وتصيبهم بالانهزامية والاستسلامية ، وتُباعد بهم عن الإيجابية والحيوية ، مما يتنافى مع وظيفة الأدب الأساسية ، ورسالة الإبداع السامية .

أولاهما : تجربة الشاعر القوية ذات الأثر العميق ، والعنوان الدَال على الشكوى والألم : " زفرة " ، وقد أبدعها من وحي ما يحس ويشعر به من غربة نفسية ممضة أحالت الحياة فى ناظريه سوادا ، وصبغتها قتاماً .. حيث نرى نبرة الشكوى والألم تتصاعد وتتفاقم ، وتعلو حدتها هنا ، حتى إنها لتصل إلى حدٍّ التشاؤم ، والضيق ، واليأس الشديد ، والضجر الكبير ، فيتوارى من ثم أمامها التفاؤل ، ويذوى الأمل ، وتتراجع الإيجابية ، وتُقبل السلبية .. حيث يقول :

هذى الحياة نعيمها وشقاؤها … أين اختفى عن ناظري بهاؤها؟!
سيَّان عندى حلوها ومريرها … إرواؤها فى مهجتى إظماؤها !!
أنسامها لفح السموم يُمضنى … وصباحها فى ناظري مساؤها
نعماؤها جمر يُلذِّع خاطرى … صاب يدور بمهجتى صهباؤها
ما كنت إلا عندليباً كاسفاً … ضاقت علي فجاجها وسماؤها
إن أشرقت شمسُ الضّحى وهاجة … ينساب فى الوادى السعيد ضياؤها
أو فاض نبع البشر ينتظم الورى … ورُبا الرِّياض تغرَدت ورقاؤها
كلٌّ الخلائق تنتشى إلا أنا … وكأن نفسى جفَّ منها ماؤها
لا النَّبْعُ يروى من فؤادى غُلّة … أبدا ولا روحى يبيد عناؤها
والشمس لا تسطيع فى إشراقِها … إيناس نفس أظلمت أرجاؤها

يا ويح روح الحياة سـقيمة يا ربّ أين ترى يكون شفاؤها؟![١]

ولا يخالج مُتلقى تلك التجربة أدنى شك فيما تتسم به عاطفة الشاعر خلالها من التشاؤم والتجهُّم ؛ مما يجعلها تبدو سقيمة وسلبية هنا ، حيث فارقتها بعض سمات العاطفة الجيدة من مثل : الصحة والإيجابية ، بعد أن بدا جلياً ما يسيطر على مُبدعها من إحساس بالضيق والضجر واليأس والألم ، والإحباط والعبوس .. وهذا لا ينفى كونها أي العاطفة هنا قوية صادقة عميقة مفعمة جيَّاشة متدفقة ثابتة ومستمرة ، حيث تفيض تلك التجربة بالألفاظ والمفردات والتراكيب الدالة المُعبِّرة التى وُفِّق الشاعر – من خلالها – فى تجسيد تلك الزفرة التى زفرها هنا – وهو مصدوم مشدوه مذهول محزون ، غير منسجم مع مجتمعه وأبناء زمانه آنئذٍ .. من مثل تلك الكلمات المُتطابقة التى يُحدث تطابقها إبرازاً وتأكيداً لما ترد فيه من مضمون هنا : نعيمها ، شقاؤها حلوها – مريرها ، إرواؤها – إظماؤها ، صباحها – مساؤها ، نعماؤها – جمر ، صاب – صهباؤها ، ضاقت – فجاجها وسماؤها ، سقيمة – شفاؤها .

بجانب ما تضمنته تلك التجربة الصادقة القوية المؤثرة هنا من تراكيب دالة، وعبارات بليغة استطاع الشاعر– من خلالها أن يؤثر فى نفوس المُتلقين ، وأن يستولي بها على مجامعهم فينقل إليهم ما أحسَّ وشعر به هنا، من مثل : ذلك الاستفهام الوارد فى البيت الأول ، والذى يدلّ على التعجُّب والحسرة ، والذُّهول والدهشة إزاء انزواء نعيم الحياة ، وغياب نضرتها ، وبهجتها عن ناظريه ، حيث يقول :

هذى الحياة نعيمها وشقاؤها أين اختفى عن ناظري بهاؤها؟!

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٦، ٥٧ ، ويمضنى: يحرقنى ، وصاب : مُرٌّ ، صهباؤها: خمرها ، ورقاؤها : حمامتها، غُلة: حرّ الظمأ .

ومن مثل تلك التراكيب الدالة البليغة التى يُجسِّد ، ويؤكد الشاعر من خلالها ما ينتابه ، ويسيطر عليه من مشاعر متجهمة ، وأحاسيس مُحبطة ، تجعله ينظر للحياة تلك النظرة المتشائمة ، لدرجة أنه يستوى فى ناظريه كلُّ أحوالها وأجوائها .. حيث يقول :

سيَّان عندى حلوها ومريرها إرواؤها فى مهجتى إظماؤها !!

بل إنَّ أنسام الحياة تستحيل فى ناظريه لفح السموم – تلك التى يكتوى بحرِّها، ويتلظى بنارها قلبه المُعنَّى المُثقل هنا بالهموم والأحزان .

ثم تساؤله الدَّال على الحسرة والحيرة والشقاء إزاء تلك الأسقام التى تجثم على صدره ، وينوء بحملها فؤاده .. وتشوقه وتلهفه من ثم إلى النجاة والشفاء من تلك الأسقام :

يا ويح روح الحياة سقيمة يا ربّ أين ترى يكون شفاؤها؟!

ثم ها هو ذا الشاعر يؤكد لنا تلك النظرة المُتجهِّمة المتشائمة منه إلى الحياة ، من خلال قوله :

نعماؤها جمر يُلذِّع خاطرى صاب يدور بمهجتى صهباؤها

وذلك الأسلوب الذى ألبسه الشاعر ثياب القصر عن طريق النفي والاستثناء ، والذى يُصوِّر عن طريقه ، ويؤكد من خلاله كيف أنه وحده كاسف البال ، محزون الفؤاد ، حبيس الشدو والغناء ، تضيق الدنيا – على سعتها ورحابتها – عليه ، وتصغر فى ناظريه :

ما كنت إلا عند ليباً كاسفاً ضاقت علي فجاجها وسماؤها

ولم يكتف الشاعر بوصف نفسه بتلك الصفات السوداوية القاتمة المتشـــائمة ، وقصرها عليه وحده .. بل رأيناه يُمعن ويُغرق فى المبالغة فى ذلك ، حيث نجد نبرة التشاؤم والإحباط تصل إلى ذروة حدتها لديه ، وذلك حين يُقرِّر بأنّ الخلائق جميعـــاً فرحة هانئة إلا هو ، وكأنَّ نفسه قد جفَّ منها ينبوع السعادة ، ونضـــب منهـــا مـــاء الهناءة .. حيث يقول :

كلُّ الخلائق تنتشـــى إلا أنا وكأن نفسى جفَّ منها ماؤها

ولنا أن نطالع خلال تلك التجربة هنا ذلك البيت الذى يبالغ فيه الشـــاعر فـــى تشاؤمه ، ويغرق ويُمعن فى تجهمه :

والشمس لا تسطيع فى إشراقِها إيناس نفس أظلمت أرجاؤها

فما أبلغ تلك الكلمات التى تضمنها هذان البيتان فى الدلالة على شدة تجهُّـــم ، وتشاؤم الشاعر ، ونظرته للحياة – تلك النظرة السوداوية المتجهّمه المتشائمة!.

ورأيناه – أي الشاعر – يختتم تجربته القوية المثيرة تلـــك – بـــذلك التســـاؤل الدَّال على الحيرة والحسرة من أثر ما يُلاقيه ويُعانيه من غربة وضياع وجداني هنا ، ومن ثم تلهفَّه وتشوُّقه إلى النجاة والخلاص من تلك الأسقام التى تنخر فـــى كيانـــه ، وتنذر بفنائه :

يا ويح روح الحياة ســـقيمة يا ربّ أين ترى يكون شفاؤها؟!

وهذه الوسائل التعبيرية التى تفيض بها التجربة هنـــا مـــن شـــأنها أن تؤكـــد وتُجسد صدق وقوة وعمق وبالغ تأثير العاطفة فى نفوس وأعماق المُتلقِّـــين – خـــلال تلك التجربة ، حيث تتسم بحرارة الانفعال ، وعمـــق الإحســـاس بـــالموقف ، وقـــوة الشعور، والتأثير فى المُتلقين .. ، بيد أن عاطفة الشاعر هنا يشوبها السُـــقم ، وينـــال

منها المرض ، بعد أن جعلها الشاعر تتشح بوشاح السواد ، وتُصبغ بلـون القتـام ، حيث تغرس فى نفوس المُتلقِّين شعوراً سلبياً يصلون معه إلـى اليـأس والإحبـاط ، والتجهم والتشاؤم ، مثلما هو مسيطر على نفس وكيان الشاعر هنا ؛ تعبيراً فى ذلـك عن إحساسه بالحيرة الشديدة ، والحسرة المُمضَّة ، والألم البالغ إزاء ما يحيـاه مـن واقع مُعوج يموج بالسلبيات والمتناقضات ؛ مما يجعل شاعرنا غريباً عنـه ، وغيـر منسجم معه بالمَرَة.

وما قيل فى تلك التجربة يمكن أن يُقال فى التجربة الثانية التالية حيث يغلـب على العاطفة فيها -هي الأخرى- التشاؤم والتجهُّم والإحباط واليأس ، فتفقد مـن ثـم صحتها وإيجابيتها ، وتغدو بذلك مريضة سلبية ، حيث يقـول فـى كلمـات تنضـح بالتشاؤم والضيق ، والتجهُّم والإحباط ، واليأس والانكسار ؛ فتغرس من ثم فى نفوس المُتلقين شعوراً باليأس والضيق والتجهم والعبـوس ، وتُـورث فـيهم إحساسـاً بالاستسلام والضعف والانهزامية :

لا أرى فى الإنسـان إلا ... ثُعلبـاً قـد رام صـيدا
سـارحاً بيـن البـرارى ... يبتغـى قوتـاً ووردا
لا يُبـالى أو يُـراعى ... فـى أخيـه الغِـرِّ عهـداً
لـذة الدنـيا اغتـدت فى ... حِسِّـه دينـا وقصـدا
ذاك أمـر ليـس يخفى ... عنـك لـو أحكمـت رصـدا
ضقتُ بالإنسـان ذرعـا ... والأمـانى والشـجون
وارتضيـت العيـش فـى ... صـمت الليـالى والسـكون
أرصـد الأطيـاف حولـى ... سـابحات كـالظنون

هل أنا كالنـــاس طبعـــاً	كنـــت مـــن مـــاء وطـــين ؟
لـــم إذن لا أرتضـــى عيـــ	ـــش التجنـــى والمجـــون؟!
لا تحـــدِّثنى بشـــيء	مـــن أســـى الـــدنيا جديـــد
حســـب نفســـى ما ثوى	فيهـــا مـــن الهـــمِّ التَّليـــد!
إنَّ فى قلبـــي جـــروحاً	نـــاغرات بالصـــديد
قد بلـــوتُ العيـــش والأحوا	ل فـــى شـــتى العُهـــود
مـــا رأت عينـــاي إلاَّ	الشـــرَّ خفَّـــاق البنـــود(١)

وتفوح هنا رائحة التجهُّم والتشاؤم والضيق والإحباط واليــأس والانــزواء ، حيث نرى الشاعر يقصر الإنسان عموماً فى صورة الثعلب الماكر المخادع المخاتــل الذى لا يُراعى فى أخيه القليل التجارب عهداً ولا ذمّة .. مُتخذاً من خداع الآخــرين، ومراوغتهم ديناً وقصدا ، وهذا السلوك جلي ليس يخفى علــى الفَهِــم ؛ ممــا جعــل الشاعر يضيق بالحياة والناس ذرعاً ، فــآراً مــنهم ، ولائــذاً بالصــمت والانــزواء والسكون .. مُتسائلاً – فى تعجُّب – لماذا ضاق بالناس ؟! ولم يرتضِ عيش التجنــى والمجون؟! مع أنه مخلوق مثلهم من ماء وطين ، مُهيباً بصاحبه ألا يُحدِّثه عن شــيء من أسى الدنيا جديد .. فحسب نفسه ما أقام وثوى فيها من الهمِّ القديم ، وحسب قلبــه ما فيه من جروح تغلى بالصديد ، مُقرِّراً فى النهاية أنَّه بعد أن خَبر العــيش ، وبلــي أحوال الناس فى شتى العهود أدرك أن ألوية الشرّ هي –وحدها خفَّاقة البنود!!.

ولاشك فى أن هذا من شأنه أن يَسِمَ العاطفة هنا بسمات المــرض والســلبية ..حيث يبدومرضها وسلبيتها –بجلاء– فى أكثر من موضع فى هذه التجربــة القويــة

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان: صــ ١٥ ، ١٦ .

المثيرة الصادقة .. ففى مستهلها يؤكد الشاعر عن طريق القصر كيف أن عينيه لا ترى إنسان عصره إلا ثعلباً قد رام صيداً ، واجداً فى ذلك هناءة ولذّة ، مُتخذاً من الختل والخداع والمراوغة ديناً وقصداً :

لا أرى فى الإنســـان إلا ثعلبـــاً قد رام صيـــدا

وتفوح تلك الرائحة المتشائمة العابسة المُتجهِّمة أيضاً فى قول الشاعر :

ضقتُ بالإنسان ذرعـــا والأمـــانى والشجون

ونرى تلك المشاعر التى تفيض بالتشاؤم والعبوس والضيق والتجهُّم والإحباط تصل إلى ذروتها ، وتبلغ منتهاها- خلال تلك التجربة، حيث يقول صان الـدِّين فى مختتم تجربته هنا:

قد بلـوتُ العيـــش والأحوا ل فـــى شـــتى العُهـــود
مـــــا رأت عينـــــاي إلاَّ الشرَّ خفَّـــاق البنـــود!!

فقد قرّر الشاعر وأكد – كما نرى – عن طريق القصر بالنفي والاستثناء كيف ساد وذاع وراد الشر و الأشرار فى عصره!! فباتت ألويتهم وحدها هي الخَفَّاقة- دون غيرها من ألوية الخير والأخيار ؛ تعبيراً فى ذلك عن نظرته السوداوية القاتمة للحياة والأحياء هنا.

وكان يمكن للشاعر أن يُباعد عاطفته عن السقم والمرض والسلبية هنا ، لو أنه احترز فى تعبيره ، ودقَّق فى صياغته ، فقال مثلاً : أرى فى الإنسان ثعلباً قد رام صيداً .. أو : أرى فى بعض الإنسان ثعلباً قد رام صيدا ، بدلاً من استخدامه لأسلوب

القصر الذى أكد الشاعر ، وجسَّد- من خلاله- شدة ضيقه ، وحِدّة تشاؤمه، وبالغ يأسه ، ومُنتهى إحباطه .

ولو قال فى البيت الأخير من تلك التجربة :رأت عيناي الشرَّ خفَّاق البنود بدلاً من استخدامه أسلوب القصر فيه لسلمت عاطفته من السقم ، وبرئت من المرض، ولَغَدت إيجابية ، لا سلبية- كما هي هنا.

ولا يمنع من كون العاطفة سقيمة سلبية هنا كونها صادقة قوية مثيرة ، هي وليدة مواقف حقيقية ، وتجارب ذاتية ذاقها الشاعر ، وعاناها بنفسه ؛ ولعل هذا هو ما حدا بالشاعر ، ودفعه لأن يُعبِّر هنا بتلك الصياغة البليغة التى نجح- من خلالها فى تجسيد ما يختلج بصدره ، ويعتلج بفؤاده من أحاسيس ومشاعر- صوّر من خلالها ضيقه بالحياة والأحياء ، لاسيما العقلاء ، ومن ثم فراره منهم ، وانزواءه عنهم ، مُبالغاً فى تصوير ذلك الضيق ، وعدم الانسجام ، واصلاً فيه إلى حد التشاؤم والإحباط واليأس والتجهُّم – كما رأينا .

ومن وحي الغربة بنوعيها :النفسية: " المجازية " ، والمكانية: " الحقيقية" نرى الشاعر يُصوِّر- فى صدق وقوة ما يعتمل بذاته ، ويختلج بصدره ، ويستقر فى كيانه ، ويكمن فى أعماقه من مشاعر الحزن والقلق والحسرة والحيرة- إزاء ما يحسّ به ، ويُقاسيه من غربة نفسية مُمضة ، وأيضاً من مشاعر الحُبّ والحنين واللهفة والشوق الدَّفين إزاء وطنه العزيز مصر وربوعه الغالية .. على نحو ما سنرى ، ونحيا معه – من خلال بعض تجارب الشاعر الوجدانية فى ذلك الشأن – أعنى الغربة بنوعيها .

فها هو ذا شاعرنا يقول من قصيدته ذات العنوان الدال المُعبِّر عمَّا يحس به ويشعر من ألم الغربة النفسية وأنينها هنا : " حائر" ، حيث يُجسِّد ما ينتابه- خلال

تجربته تلك ، ويُسيطر عليه فيها من مشاعر الحيرة والقلق والوحشة والألم والحسـرة إزاء مجتمعه الذى يحيا فيه غريباً- وهو وسط أقرانه، وبين قومـه .. ضـاع أمنـه وائتناسه ، وراح يكتوى بحرِّ نار الغربة فى الغداة والعشي ، حيث يحضر بين أقرانه ، ويمثل بين ذويه بجسمه ورسمه ، ويرحل عنهم بروحه وحِسِّه .. وقد غـدا فـؤاده مُوجعاً ، وبات قلبه مقتولاً بعد أن نفدت إلى أعماقه سهام الثلـب، ورمـاح الفسـاد المُصوَّبة إلى روحه وكيانه؛ مما لا تروق معها نفس الشاعر الرقيقـة ، ولا تنسـجم إزاءها مشاعره الرهيفة، وتصيبُ تلك السموم قلبه الحُرَّ فى مقتل ، فيستحيل من ثـم كل شيء- فى ناظريه إلى سواد وقتام:

يا أولـى الألبـاب إنّـى — حـائر قـد نـدَّ حلمـى
واختفـت عنِّـى طريقـى — فـى غيابـات الخضـمِّ
أين شرقـى؟ أين غربـى؟ — والسـوافى الهـوج تعُمـى؟!
خبِّرونـى كيـف أخطـو — فـى ضـباب تحـت غـيم؟!
فوق أشـواك وصخـر — فـى طريـق العـيش تُـدمى
ضـاع أمنـى وائتنـاسى — بـين غـيلان ورُقـم
إننـى أحيـا غريبـاً — وسـط أقرانـى وقـومى
أغتـدى فيهـم وأُمسـى — فـوق جمـر النـار رغمـى
راحـل عنهـم بحـسِّى — حاضـر فيهـم بجسـمى

كم سهـــــام مُرشـــــــقات في فؤاد الحُـــرّ تُصمـــــى
يـــا لدّاتـــــى كل شــيء حـــال لونـــاً مثــل طعم (١)

ثم نرى الشاعر يُؤكد عبر تجربته تلك ما ينتابه من مشاعر القلــق والحيــرة والوحشة من أثر ما يُحس ويشعر بــه مــن غربــة نفسـية مُمضــة إزاء مجتمعــه ومعاصريه ..

ها هو ذا الشاعر يلحّ على تلك الفكرة – من خلال تعداده لأوجه الاعوجــاج، ومظاهر الفساد التى ذاعت واستشرت فى أوصال مجتمعه .. حيــث ســقمت طبــاع الناس ، ومرضت ذائقتهم ، وتبدّلت معاييرهم ، وتهاوت، وانهارت تحــت ضــغوط المدنية الزائفة قِيمُهم ، وانقلبت موازينهم ، فباتت المحامد والفضائل مذاماً ، ورذائل ، وغدا الالتزام بالحق جرماً أي جرم ، وبدا الكذب والزور بعد تزويقه وتأنيقه صدقاً وحقاً ، وبات الفحش والسقوط والهذيان والكلام الهُجر هو عين الإبداع !! ، والــنظم أي نظم !! فتئن وتتألم من ثم نفس الشاعر الرهيفة ، ويُصْدَمُ قلبه الحُــرُّ ، ويحــزن ويحار ويقلق ، شاعراً فى النهاية بالتصادم إزاء تلك المتناقضات ، وعــدم التكيّــف والانسجام معها .. يقول صان الدِّين :

أنبئـــــونى أنبئـــــونى واكشفـــوا بالعلـــم هَمِّـــى
هــــل صحـــــيح ما أراه أم تهاويـــــل لــــــوهمى؟!
مــــــن أمـــور غامضـــات حـــار فيهـــا كــل فهمـــى؟!
هل يكون الفضل فى الإنــــــ ـــــسان مــدعاة لـــذمِّ؟!

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٥٨ ، ٥٩ ، ونَدّ : شرد ، ورُقم: حيَّات منقطة شرسة ، وتُصـــمى: تُصيب مقتلا .

والتـــزام الحـــق جُرمـــاً فـــى نزيـــهٍ .. أي جُـــرم؟!
والصريـــح الـــقول فظـــاً يرتـــدى جلبـــاب شـــؤم؟!
هل يكـــون السُّـــمّ شـــهداً والحصـــى بـــراق نجـــم؟!
هل يصـــير المَيْن صـــدقاً بعـــد تزويـــق ووشـــم؟!
والمجـــون الجهـــر ظرفـــاً والخنـــا تفـــريج هـــمٍّ
والكـــلام الهُجْـــرُ نظمـــاً عبقريـــاً أي نظـــم؟!
ذاك مـــا يطفـــو علـــى سطح الحياة المُـــدلهمِّ(١)

ولا يخفى ما تدلّ عليه ، وتجسِّده تلك الاستفهامات التعجبية الإنكارية الكثيرة من سيطرة مشاعر الحيرة والقلق والحسرة والحزن على كيان ووجدان الشـــاعر إزاء ما يرى من عجائب دهره ، ويشاهد من متناقضات عصره ، مما تصطدم معها نفـــس الشاعر ، وتُحِسُّ إزاءها بغربة أخلاقية اجتماعية ، ناشداً قيماً ومثلاً أخلاقية عُليـــا ، وباحثاً عن وجهٍ آخر للعالم ، حيث المجتمع المثالي الذى تحلم بـــه نفســـه ، وتتـــوق وتهفو إليه .

وهكذا تبدو تلك التجربة شحنات انفعالية ، ودفقات شعورية يُفرغ الشـــاعر- خلالها شُحنة تلو أخرى فى نموٍّ وتلاحق ، وغزارة وتتابع ، وتنام وتصاعُد .. ؛ ممـــا يسم عاطفة الشاعر هنا بسمات القوة والصدق والسموّ والحرارة والانفعال والجيشـــان .. وآية ذلك ما تغصُّ به وتفيض وتمتلأ تلك التجربة من وسائل تعبيرية متنوعة ثرية من شأنها أن تُجسِّد لنا تلك السمات جميعاً .. من مثل تلك الألفاظ الدالة ، والمفـــردات المُعبِّرة : حائر ، نَدَّ ، اختفت – غيابات – الخضم – السوافى ، الهـــوج – تُعمـــى –

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٥٨ ، ٥٩ ، والمين : الكذب ، والخنى : الفُحش .

ضباب – غيم – أشواك – صخر – تُدمى – ضاع – غريباً – جمر النار – سهام – مُرشقات تُصمُى .. وغيرها من الألفاظ والمفردات التى تنطق بصدق وقوة وجيشان عاطفة الشاعر هنا.

بجانب تلك الأساليب البليغة ، والتراكيب الدالة التى تفيض بها التجربة هنا ، من مثل تلك النداءات التى جسَّدت ما يسيطر على الشاعر من قلق وحيرة شديدين إزاء ما يرى فى مجتمعه من غرائب ، وما يشاهد فيه من متناقضات ؛ مما تصطدم معها نفس الشاعر السوية ، ولا ينسجم إزاءها طبعه السليم .. حيث يُنادى أولى العقول ، وأصحاب النُّهى :

يا أولى الألباب إنِّى حائر قد ندَّ حلمى

وما أبلغ هذا التعبير : " ندَّ حلمى" فى الدلالة على ما يحس ويشعر به هنا من قلق وحيرة وشرود وذهول !!.

ونرى الشاعر فى موضع آخر من تجربته تلك يستعمل أسلوب النداء ، حيث ينادى فى هذه المرة لداته ومعاصريه ، مُبدياً لهم ما ينتابه من قلق وحيرة ، وحزن وحسرة ، حيث استحالت الحياة فى ناظريه سوادا ، وبدت قتاماً :

يالدَّاتى كل شيء حال لوناً مثل طعم
أنبئونى أنبئونى واكشفوا بالعلم همِّى

ولا يخفى تكرار الشاعر لـ كلمة : " أنبئونى" الواردة فى البيت الثانى وما تدل عليه وتجسده هي الأخرى من ذلك الشعور بالحيرة والقلق المسيطرين على كيان ووجدان الشاعر هنا .

ونرى الشاعر يختتم تجربته الصادقة القوية المثيرة تلك بندائه رفاق عيشـــه ، وسؤاله إياهم ، مُؤكداً بذلك ما ينتابه من حيرة وقلق شديدين ، حيث يقول:

يـــا رفـــاق العيـش ماذا غيـــر مـــا أحصـــاه كلمـــى
هل أصبـــتُ الحكـــم فيــــــ ــه أم تُراه جـار حُكمـــى ؟!

فإذا ما عاودنا النظر فى تلك التجربة الصادقة القوية المفعمـــة فإننـــا نجـــدها تفيض وتمتلأ بأساليب الاستفهام الدالة على التعجُّب والإنكار ، والتى تُجسِّد جميعا ما يلفّ الشاعر ، ويسيطر على نفسه من مشاعر الحيرة والقلـــق ، والحـــزن والألـــم ، والوحشة والحسرة – إزاء ما يُحس ويشعر به هنا من غربة نفسية مؤلمة مُمضَّة .

حيث يُطالعنا الشاعر فى بداية تجربته تلك بهذه التساؤلات التى تُجسِّد حيرته وقلقه ، وحزنه وتحسُّره :

أين شرقـــى؟ أين غربى؟ والســـوافى الهـــوج تعُمـــى؟!
خبِّرونـــى كيـــف أخطـــو فى ضبـــابٍ تحت غيـــم ؟!

بينما نلتقى فى ختام تلك التجربة بطائفة كبيرة من أساليب الاستفهام التى تدل على الإنكار والتعجُّب ، حيث يُجسِّد الشاعر من خلالها كيف تهاوت القيم ، وانقلبـــت الموازين ، واختلت المقاييس ، وسقمت الأذواق ، ومرضت الطباع فى عصره .

وهكذا تبدو تلك التجربة وقد صدرت من نفس منفعلـــة ، ونبعـــت مـــن ذات شاعرة صادقة الشعور ، حيث غدت تلكم القصيدة، وبدت هنـــا شـــحنات انفعاليـــة ، ودفقات شعورية يُفرغ الشاعر– خلالها– شحنة تلو أخرى– فى نمـــو، وتلاحـــق ، وغزارة ، وتتابع ، وعُلوٍّ، وتصاعد .. ولعل القارئ الكريم قد لحـــظ معـــى – بعـــد قراءته الكاملة لتلك التجربة ما تتسم به هنا من سمات العمق والجيشـــان ، والثبـــات

والاستمرار .. بجانب اتسامها بسمات القوة والصدق والصحة والسُّموّ .. حيث رأينا عاطفة الشاعر – خلال تجربته هنا تأخذ خطاً ثابتاً من القوة والثبات والحرارة والتأجُّج والجيشان والعمق والتدفق ، فلم يتخللها ضعف ولا فتور ؛ مما يغرى المُتلقِّى، ويجذبه نحو متابعة التجربة والتجاوب والتفاعل والتواصل معها حتى نهايتها .. بعيدة فى ذلك عما قد يعتريها ويشوبها من الضعف والانقطاع داخل النص الواحد، سالمة مما يُعرف بالتفاوت العاطفي ، والبتر الوجداني الذى لا تتخذ فيه العاطفة خطاً ثابتاً ، والذى من شأنه أن يصرف المُتلقين عن متابعة التجربة ، والتجاوب والتواصل معها حتى نهايتها .

ومثل ذلك اللون من التجارب التى تتسم بصدق وقوة وعمق وحرارة وسمو وثبات واستمرار العاطفة– خلال وجدانيات صان الدِّين نلتقى به فى ثلاث تجارب من تجاربه التى أبدعها من وحي الغربة المكانية :" الحقيقية" ، حيث نراه يُجسِّد ويُصوِّر فى اثنتين من تلك التجارب ما تفيض به نفسه ، ويمتلأ وجدانه من مشاعر الحُبَ والحنين واللهفة والشوق والأنين إزاء مصر الحبيبة ، وربوعها العزيزة الغالية ، حيث تأكد حبه لها ، وازداد تعلقه بها ، لمَّا بعد عنها واغترب.. بينما نراه يُجسِّد فى الثالثة منها ما يكنُّه فى أعماقه من مشاعر الحُبِّ والتقدير ، والوفاء والإعزاز ، والإكبار والتبجيل نحو والدته– تلك التى رحلت عن الحياة – وهو بعيد عنها غريب ، مُجسِداً فى أثناء ذلك ما يُقاسيه من آلام الاغتراب ، ويُلاقيه من أوجاع البعاد .. حيث تمتزج تلك المشاعر فى تجربته تلك –على نحو ما سيبدو لنا فى أثناء الوقوف عليها بعد قليل– بإذن الله– تعالى ، وبتوفيقه –سبحانه .

والناظر فى تلك التجارب جميعاً يجدها تتسم بصدق وقوة وسموٍّ وعُمق وحرارة وجيشان وتدفق وثبات واستمرار عاطفة الشاعر خلالها من أول بيت ، وحتى آخر بيت فيها .

ولعلّ اتسام عاطفة الشاعر بتلك السمات- خلال تجاربه تلك يرجع فى المقام الأول إلى فطريتها وغرزيتها هنا ؛ حيث تقوم على تجسيد مشاعر الحُبِّ للوطن ، والتعلُّق به ، والميل والحنين إليه .. ، وتلك مشاعر فطرية غرزية موجودة فى أعماق كل كائن حي ، فضلاً عن أن يكون إنساناً مرهف الحس ، رقيق الشعور مثل شاعرنا صان الدِّين .. وقد انعكس صدق وقوة وعمق وحرارة وتدفق وجيشان وثبات العاطفة-خلال تلك التجارب على وسائل التعبير فيها فجاءت دالة بليغة ، من شأنها أن تجسِّد تلك المشاعر والأحاسيس المسيطرة على الشاعر خلالها.

ها هو ذا شاعرنا صان الدِّين يُجسِّد ما تفيض نفسه ، وتُكنُّه أعماقه من مشاعر الحُبِّ والحنين، والتعلُّق والشوق الدَفين إزاء أرض الكنانة:" مصر الحبيبة" ، وربوعها الغالية العزيزة ، حيث يقول فى قصيدته الوجدانية ذات العنوان الدَّال : " الحنين إلى أرض الكنانة"- تلك التى تفيض بالكلمات الدَّالة ، والتراكيب المعبِّرة ، والصور الرائقة المجسدة لتلك المشاعر، والأحاسيس المسيطرة على الشاعر هنا ، حيث كانت تمرُّ الأيام عليه بطيئة ثقيلة ؛ لشدة شوقه ، وحنينه إلى مصر .. ، ومن ثم كانت هذه القصيدة :- كما ذكر صاحبها فى مقدمته لها فى ديوانه :

تَعُجُّ بقلبى حرور الجوى	**ويهفو بروحى حنين النَّوى**
فأبكى ولكن بغير دموع	**وأظمأ لكن بدون ارتوى**
كأنى فطيم قبيل الأوا	**ن جفته المراضع حتى ذوى**
فيا مصر إنى غريب الديا	**رمشوق الفؤاد مريد الهوى**
وأنت الرِّواء لذاك الغليـ	**ل وأنت الدَّواء لهذا الدّوى**
ويا مصر كيف إليك السبيـ	**ل ودونك قيد وبيد قوى؟!**
ومن لى بشربة ماء رويٍّ	**من النيل تطفئ حَرَّ الجوى؟!**

أُعلِّل نفســـــى بعــود حميدٍ إذا ما زمان البعاد انطــوى
وأخشى المنيَّة قبل الإيـــا ب إذا نجم عمرى غداة هوى
وهل يستريح ابن مصر بأرضٍ سوى أرض مصر إذا ما ثوى
فجدى المسير ليالى الفرا ق بحاضر عيشى وما قد حوى
وَمُرِّى سراعاً كطيف الخيا ل فقلبى لهذا المقام احتــوى
وكيف يطيب نعيم الحيـــا ة لمرء بنار البعاد اكتــوى؟!
فأنعم بأرضك يا مصر حتَّى ولو غالنى فيك ناب الطُّوى
فلا كان دونك عيش رغيدُ ولا كان قلب سلا وارعوى!!(١)

وهكذا يجسِّد الشاعر – خلال تجربته تلك ما ينتابه ويلفُّه من مشـــاعر الحُـــبِّ المتقد ، والشـــوق المتجـــدد ، والتعلّـــق الـــدائب الكائنـــة فـــى أعماقـــه إزاء أرض الكنانة:"مصرالحبيبة"، وربوعها العزيزة.. ويلحظ المطالع لتلك التجربة أنهـــا تفـــيض بوسائل التعبير الدالة البليغة ، حيث دفع الشاعر التعبيـــر بتلـــك الصـــياغة المُعبّـــرة الحكيمة قوة وصدق وعمق شعوره وإحساسه ، وحرارة تأثره وانفعاله ، من مثل تلك الكلمات الدَّالة التى قام عليها مطلع التجربة هنا ، والتى تُجسِّد ما ينتاب الشاعر مـــن حُبّ وشوقٍ شديدين عارمين إزاء مصر وربوعها .. حيث يقول :

تَعُجُّ بقلبى حرورالجـــــوى ويهفو بروحى حنين النَّوى

ومن مثل تجسيد الشاعر لشدة وبالغ حُبِّه وشوقه وتعلُّقه إزاء وطنه ، ومن ثم بالغ حزنه وحسرته إزاء فراقه وبعاده عنه ، حيث يشير فى البيت التـــالى إلـــى أنـــه يبكى من أثر تلك الغربة والبعاد بغير دموع ، ويظمأ بدون ارتواء :

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٦١، ٦٢ ، واحتوى : كره المقام فيه .

فأبكى ولكن بغيـــردمــــــوع وأظمأ لكن بدون ارتـــوى!

فتحجُّر الدمع فى عيني الشاعر كناية – كما نرى – عن شدة ألمه ، وعميـــق حزنه من أثر غربته،وبعاده عن وطنه .. والشطرة الثانية مــن البيــت تؤكــد هـــي الأخرى بالغ حزن الشاعر ، وعميق أساه ، وشدة ألمه ، وبالغ حســرته إزاء فــراق وطنه .

ومن مثل تلك الصورة الدَّالة المُوحية المُمعنة فى الدلالة على حال وطبيعـــة حياة الشاعر فى أثناء بعاده واغترابه عن وطنه ، حيث يقول :

كأنى فطيـــم قبيـــل الأوا ن جفته المراضع حتـــى ذوى

حيث يُصوِّر الشاعر نفسه – فيما تُقاسيه من ويلات الغربة ، وعذابات البعاد، ويُعانيه من أوجاع الفقد والحرمان بذلك الطفل الرضيع الذى حُرِم من الرضاعة قبيل الأوان ، فجفته المراضع حتى ذوى ، وذبل ، وذهبت نضــرته ، ونضـــب بهـــاؤه ، وجفَّ ماؤه ، وإن كنت أرى أن الشاعر لو كان عَبَّر بكلمة : " قبل"، بدلاً من كلمـــة : " قُبيل" المُصَغَّرة هنا – لكان أنسب وأقوم للتجربة ، وطبيعتها هنـــا ؛ حيـــث يكـــون التعبير :" بقبل" أبلغ فى الدلالة ، وأمعن ، وأوقع فى التعبير عن حال وطبيعة الشاعر الحزينة ، وما يسيطر عليه من مشاعر كئيبة ، كأثر من أثار الغربة والفقد والحرمان هنا .

ومن مثل هذين البيتين شديدي الدلالة على صدق وقوة عاطفة الشاعر– خلال تجربته هنا، حيث يُبدى فيهما الشاعر ما يكنه فى أعماقه من مشاعر الحُبّ الفائض ، والحنين الدائم ، والشوق الدَّائب– إزاء مصر مسقط رأسه ، ومهوى فؤاده ، والـــرَّي لظمئه ، والدواء الناجع لسقمه:

إلى منبتى مصر كل الحنيـــ ن وما من سلو وما من سوى

وأنت الرِّواء لـــذاك الغليـــــ ل وأنت الدَّواء لهـــذا الدّوى

حيث يُشتم فى هذين البيتين معنى القصر والحصر ، فكــلّ الحُــبّ والحنــين والشوق واللهفة إلى مصر – مسقط رأس الشاعر ، ومنبتــه ، ولا يوجــد أي شــيء سواها يمكن أن يعوِّضه عنها ، أو يُنسيه ذكرها .. وهي وحدها الريُّ ممَّا بــه مــن عطش الشوق ، وغُلة الحرمان ، وهي الدَّواء لما به من علل وسقام.

ومن مثل هذين البيتين اللذين يُنادى الشاعر فيهما مصر نداء الحبيب المُتــيم فى حب محبوبته المستقرة فى حناياه ، الكائنة فى أعماقه ، برغم أنه غريب عنهــا ، حيث يتساءل مُستبطئاً : كيف السبيل إليها ، ودونهما تلك الحواجز الحصينة ، والقيود المنيعة؟!:

فيا مصر إنى غريب الديــا ر مشـــوق الفـــؤاد مريـــد الهـــوى
ويا مصر كيف إليك السبيــ ل ودونـــك قـــــــــيد وبيد قـــوى؟!

ونلتقى أيضاً خلال هذه التجربة بتلك التساؤلات – بما تدلُّ عليه مــن معــان مختلفة – والتى يُمعن الشاعر– من خلالها– فى تجسيد ما يختلج بصدره ، وتفــيض به نفسه من مشاعر الحُبِّ – إزاء مصر الحبيبة ، وربوعها العزيزة:

ومن لى بشربة مـــاء روي من النِّيل تطفئ حرَّ الجوى؟!

وهل يستريح ابن مصر بأرض سوى أرض مصر إذا ما ثوى!!

وكيف يطيب نعيم الحيـــا ة لمرء بنار البعاد اكتـــوى؟!

فهو- أي الشاعر- يُجسِّد من خلال الاستفهام الــوارد فــى البيــت الأول – والذى يدلّ على التمنىِّ – ما تتوق وتشتاق، وتنزع إليه نفسه من شربة ماءٍ من نيــل مصر تطفئ غُلّة شوقه ، وتروى ظمأه ، وتبلّ صداه ، وهو – أي الشاعر- يؤكد من خلال الاستفهام الوارد فى البيت الثانى – والذى يدل على النفى شدة حُبِّــه لمصــر ، وبالغ تعلقه بترابها العزيز ، وثراها الغالى على نفسه ، حيث يُقرر الشاعر من خلاله أن ابن مصر – مهما ابتعد عن ترابها فلن يشعر بالراحة ، ولن يحس بالهنــاءة فــى أرض سواها إذا ما مات ، وأُودع الثَرى.

والاستفهام الوارد فى البيت الثالث – بما يدلّ عليه من معنى الاستبعاد والنفي يؤكد ما يُقاسيه الشاعر من لواعج الشوق ، وتباريح الغربة ، وأوجاع البعــاد؛ ممــا يحول بينه وبين الهناءة والنعيم .

ومما يؤَّكد قوة وصدق وحرارة وجيشان وتدفق عاطفــة الشــاعر- خــلال تجربته تلك – بجانب ما ذكر هنا من مظاهر التعبير ، ووسائل البيــان – حثُّــه- أي الشاعر – ليالي الفراق على أن تمرَّ سراعاً كطيف الخيال ، حيث كره قلبه المُقام فى ديار الغربة ، وتاقت نفسه ، واشتاقت إلى المثُول فى أرض الوطن ، حيث ينعم فــى ظلِّها بالحب والوصال والدفء والوئام – وهو أي الشاعر- يطيب له المقام بــأرض مصر ، مهما لاقى وقاسى من عنت الحياة فيها ، حتى ولو اغتالــه نــاب الجــوع ، وافترسه غول الطوى.

ومثلما اتسم مطلع التجربة هنا بسمات القوة والجودة والحسن والبراعــة فقــد اتسم مختتمها أيضاً بتلك السِّمات ذاتها .. حيث كان كافياً شافياً يُحــدث فــى نفــوس المُتلقين شعوراً بالرضا والقناعة التامين بوصول التجربة إلى منتهاها ، حيث لا يبغى زيادة عليها بعد ذلك ؛ مما يؤكد اتسام عاطفة الشاعر هُنا بســمات الصــدق والقــوة

والجيشان والتدفق والثبات والاستمرار ، وسلامتها من ثم مما يُعرف بالتفاوت العاطفي ، والبتر الوجداني الذى لا تتخذ فيه العاطفة خطاً ثابتاً ، ولا تكون فى درجة واحدة من القوة والثبات ، والحرارة والانفعال ، حيث تضعف وتقوى داخل النص الواحد .. ها هو ذا شاعرنا يختتم تجربته القوية الصادقة تلك بذلك المختتم القوي الذى يؤكد فيه شدة حبه لمصر ، وبالغ شوقه لربوعها العزيزة الغالية – تلك التى لا يجد رغد العيش ، وهناءة الحياة إلا فى ظِلِّها :

فلا كان دونك عيش رغيد ولا كان قلب سلا وارعوى!

وتجربة الشاعر الثانية التى أبدعها من وحي الغربة الحقيقية اتسمت فيها العاطفة –هي الأخرى – بسمات الصدق والقوّة والسمو والانفعال والحرارة والثبات والاستمرار ، حيث نرى الشاعر يُقسم تجربته ذات العنوان الدال على الغربة هنا :" أشواق مغترب" ثلاثة أقسام ، كل قَسَم منها يُعالج فكرة فرعية تنبثق من الفكرة العامة، والتى تتمثل فى إبداء مشاعر الحبّ والشوق والتعلق والمَيْل الكائنة فى أعماق الشاعر نحو وطنه الذى بعد عنه واغترب .

تُعد كلُّ فكرة منها شحنة انفعالية ، وتُمثِّل دفقة شعورية يُفرغها الشاعر – خلال تجربته هنا ، وتظل هكذا فى نمو وتتابع وتصاعد حتى تصل إلى حدّ النهاية، دون أن يعتريها ضعف ، ولا يشوب إحساس الشاعر خلالها تكلُّف وتفاوت بين القوّة والضعف بين أفكار التجربة الثلاثة الفرعية – تلك التى تدور حول مضمون التجربة الرئيس هنا ، والذى يتمثل فى إبداء الشاعر وتجسيده ما يكنه من مشاعر الحب والشوق والتعلُّق والميل إزاء وطنه العزيز مصر.

تتمثل الفكرة الأولى فى تلك الأبيات التى يستوقف الشاعر خلالها ذلك القادم من أرض مصر بلاده، والذى يرى فيه الشاعر، ويشتم منه جو ورائحة بلاده ،

مُستحلِّفاً إياه بالله سبحانه أن يمثل بين يديه ، ويدنو من ناظريــه ، مُطــيلاً المثــول والوقوف ، مُهيباً به أن يُشنِّف أسماعه ، ويُريح آذانه بحديثه عن مصر ذات الســحر والأمجاد .. وأن يُطيل ، ويُسهب ، ويَسترسل ، ويبدئ ، ويُعيد فــى حديثــه الحُلــو العذب هذا ، حيث يحلو حديثه عن مصر مع الترداد ، ويغدو ذلــك الحــديث طــوق النجاة الذى يُخلِّصه مما يرسف فيه من أغلال الغربة، وأصفاد النَّوى .. يقول صــان الدِّين :

يا قادماً من أرض مصر بلادى حياك قلب فى الجوانح صاد !!
وهفت إليك الروح هائمة كما يهفو الفراش على شذا الأوراد!!
بالله عرِج وانزلن عندى برحب فى ريــاض محبتــى ووادى
وتدان منى – قد فديتك- إننى أستاف منك أريج جو بلادي!!
وأدر على سمعى حــديثاً مُسهباً عن مصر ذات السحر والأمجاد
وأعده مثنــى أو ســباع مُردِّداً فحديثها يحلــو مع التــرداد
إنِّى غريب قيــدته يد النّـــوى بمثقل الأغــلال والأصفــاد[(١)]

وصدق وقوة وجيشان وتدفُّق العاطفة خلال تلك الفكــرة – أمــرُ واضـــح ، وشيء جلي هنا ، حيث تنطق بذلك ، وتدلٌّ عليه ما تضمنته تلك الأبيات من مفردات دالة ، وتراكيب مُعبِّرة ، وصور رائقة من شأنها أن تُجسد ما يختلج فى صدره مــن لاعج الحُبِّ ، وبالغ الشوق ، وتباريح الهَوى والصبابة إزاء وطنه الحبيب ، وربوعه العزيزة الغالية – تلك التى رآها وتمثلها فى صورة ذلك القادم من أرض مصر بلاده ، حيث هفت إليه روح الشاعر ، وهامت به ، وانجذبت إليه انجذاب الفراش على شذا الأزهار والأوراد ، راجياً منه ، وآملاً ومُستحلفاً إياه بالله سبحانه أن يطيل المُكث بين يديه ، يسترسل فى الحديث عمَّا رأى وشاهد من مجالى السحر ، ومظــاهر الجمــال

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـــ ٦٣ ، ٦٤ .

التى تفيض بها أرض مصر ذات السحر والأمجاد؛ فيخفف عنه بذلك ما يُلاقى ويُقاسى من أثقال الغربة ، وقيود البعاد.

ثم تشرع التجربة بعد ذلك فى الحديث عمَّا تحفل به مصر- أرض السحر والأمجاد من مجالى الحُسن ، ومعالم الفتنة ، ومشاهد الجمال .. مما هو ماثل فى وجدان الشاعر ، وحاضر فى كيانه ، حيث تثير تلك المشاهد الثرية التى تفيض بها أرض مصر ذات السحر والجمال فى نفس شاعرنا- تلك التى أثقلتها أغلال النَّوى ، وقيَّدتها أصفاد البعاد- تثير تلك المشاهد فى نفس صان الدين مشاعر الحُبّ والتعلُّق والحنين .. ها هو ذا شاعرنا يعرض طائفة من تلك المشاهد البديعة الساحرة- من خلال إهابته بذلك القادم من أرض مصر- بلاده أن يصف له ما وقعت عليه عيناه من تلك المشاهد الفائقة السحر والجمال .. حيث يقول مخاطباً صاحبه ذلك :

صف لى رعاك الله ما شاهدت من	**عجب يفوق تآلف الأضداد!**
أرأيت أرض المسك قد فرشت بأخـ	**ضر دائم الإعطاء والإرفاد؟**
من عاطرٍ أو باهرٍ فى حُسـ	**نه أو غامر من ملبس أو زاد**
أمشيت بين رياضها مُتأنياً	**يشجيك فيها هادل أو شاد؟**
متغير الإحساس من سحر الحد	**يث إلى جلال مسارح الأجداد**
بين المآذن والقباب تؤمها	**زمر من النُّسَّاك والعُبَّاد**
ومعاهد العلم التى ظلت على	**كرِّ الزمان منارة الإرشاد**
أرأيت هاتيك القصور فخلتها	**قامت بأيدى الجنِّ والمُرَّاد؟**
لا تعتريك سآمة برحابها	**أبداً ولا استيحاش ضيف وفاد**
لك حيث سرت عشيرة من أهلها	**وبشاشة برئت من الأحقاد**
لله ساعات الأصيل على الضفا	**ف الساحرات تمُوج بالرُّوَّاد!!**

تترقـرق الأنســام فى خطراتـــها بـــالرَّوح لـــلأرواح والأكبـــاد
والنيل يسرى فى سكـــون حالـم سريان روح الله فـــى الأجســاد
من ذاك تهتزُّ الشـــواطئ والرُّبــا نشـــوى تتيه بأيكــها الميَّــاد(١)

ثم يَّهُمُّ الشاعر- عبر تجربته القوية الصادقة المثيرة تلك- بتصوير ما يعــتلج بصدره ، ويستقر فى أعماقه ، ويتقد فى فؤاده من مشــاعر الحــب والحنــين- إزاء وطنه الحبيب ، مُجسِّداً ما يوخزه ويؤرقه ويؤلمه منذ بان عنه وبعد ، حيــث حُــرم طيب الرُّقاد ، وفقد أنس ودعة الحياة ، مُقسماً بالله على اتقاد الشوق ، وتجدُّد الحنــين بفؤاده ، وعدم هدوئه وفتوره وتوقفه عن النبض بالشوق والحنين ، ومُقســماً أيضــاً بالذى رفع شأن مصر ، وخلّد ذكرها فى قرآنه ، ودحاها ، وجعلها مهوى الأفئــدة ، وقبلة العُشاق على أنه لم يرتضِ وطناً سوى مصر ، وإن فاق فى الحُســن والإمتــاع جنَّة عاد ، مُومِئاً من طرف خفي إلى أنه اضْطُّر إلى النأي والبعاد ، والاغتراب عنها ، حيث يصف – عن طريق الاستفهام الذى يدلّ على النفي – المُخيَّر فــى الغربــة ، غير المضطر إليها بالسَّفه ، وعدم الرشاد ، مُختتماً تجربته القوية المفعمة تلك باختتام قوي بليغ حافظ من خلاله على ثبات واستمرار عاطفته خلالها ، حيث يجأر إلى ربِّه سبحانه بالدُّعاء أن يمدَّ فى عمره ، ويُنسئ له فى أجله فيبلغه موطنه – أرض الكنانة – بغيته ومراده ، وهواه وكيانه ، حيث يغدو بالنسبة لها قطعة منهــا، وحفنــة مــن ترابها ، أبداً تَحِن إليها ، وتُنادى باسمها ، يقول صان الدِّين :

أواه يا مصـــر الحبيبة إننـــى مذبنْتُ عنـــك حُرمــتُ طيـب رقــادى
وفقدت أنس الرُّوح بين جوانحى فـــى يقظـــة المســعى وفـــى إخـــلادى
تالله ما فتر الحنين بمهجتـــى أبـــداً ولا أغفـــت عيـــون فـــؤادى!!

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٦٤ ، ٦٥ ، ومُرَّاد : جمع مارد ، وهو العاتى ، والميّاد: المتمايل.

أستغفر الحُبَّ المُقدَّس فى دمى ... مما أُهوِّم فوق مهد قتاد
لا والذى أعلاك ذكراً خالداً ... فى آيه يبقى مع الآباد
ودحاك للإنسان سهلاً يانعاً ... تهوى إليه مشاعر القصَّاد
لا أرتضى وطناً سِواك وإن شأى ... فى الحُسن والإمتاع جنة عاد
هل ناء عنك مُخيَّر فى نأيـ ... ـه إلا أخو سفه عديم رشاد؟
يا فاطر الإنسان فى وجدا ... نه يا مرسل الأرواح للميعاد
هبنى حياة تُبلِّغُنى موطنى ... أرض الكنانة بغيتى ومُرادى
هل كنت إلاَّ قطعة من تُربها ... أبداً تَحِنُّ لأصلها وتُنادى؟ (١)

ولا يُخالج قارئ هذه الأبيات أدنى شك- فيما تتسم به عاطفة الشاعر خلالها من سمات الصدق المُصاحبة للعاطفة هنا على مرآة تلك الأبيات .. وتبدو مُتحققة – بجلاء – فى كل بيت منها تقريباً ، لا سيما أساليب الندبة ، والقَسَم الذى كرره الشاعر مرتين هنا ، والاستفهام والدُّعاء ، حيث تُجسِّد وتُؤكِّد جميعاً كون تلك التجربة قد صدرت هنا من نفس منفعلة ، صادقة الشعور ، عميقة الإحساس .

ويبدو بجلاء أيضاً ما تتسم به العاطفة – خلال تلك التجربة من سمات الثبات والاستمرار ، حيث بقيت على نفس درجتها من الصدق والقوَّة والتدفق والجيشان من أولها وحتى نهايتها .. وإن كانت قد شابها الهدوء والفتور بعض الشيء فخفتت حدتها ، وهدأت ثورتها فى الأبيات التى عدَّدت التجربة فيها ما تحفل به وتفيض أرض مصر من مظاهر الحُسن ، ومشاهد الجمال .. حيث تبدو العاطفة فيها رزينة مُتعقِّلة بعض الشيء ، لاسيما إذا ما قيست بالمواضع الأخرى التى تبدو فيها العاطفة حارة

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـ ٦٥ ، ٦٦ ،وشأى : فاق وزاد .

مفعمة بالحُبِّ ، متقدة بالشوق ، ممتلئة بالحنين إزاء مصر وربوعها – مثلما هو بادٍ ومتحقِّق فى أول التجربة ، وفى آخرها هنا .

ويأتى الدَّور على التجربة الثالثة من تلك التجارب التى أبدعها الشاعر من وحي الغربة الحقيقية عن الوطن ، وإبداء ما يكنه من مشاعر الحُبّ والشوق واللهفة والتعلق والحنين إزاء ربوعه العزيزة ، وجنباته الغالية .. حيث تجربة الشاعر التى بعنوان : " ورحلتِ يا أمّاه " – تلك التى تمتزج فيها مشاعر الحُبّ واللهفة والشوق والحنين المتبادلة بين الشاعر ، وبين أمه البعيدة النائية وما يحسُّه الشاعر ، ويقاسيه ويشعر به ويعانيه هنا من آلام الغربة ، وأوجاع البعاد ، وبين مشاعر الحُبّ والإعزاز والوفاء والإكبار الكائنة فى أعماق الشاعر إزاء والدته فى أثناء حياتها ، وبعد رحيلها – وهو ناءٍ عنها غريب .. حيث رحلت أمُّه عن الحياة قُبيل أوبته إلى أرض مصر وطنه .. ولما علم بنبأ وفاتها راح يزفر تلك الزفرة الحارة من قلبه المُثقل المصدوع ، وفؤاده المُعنَّى المحزون.

وقد استهل الشاعر زفرته الحارة تلك بتجسيد مشاعر الحُبّ والوفاء والتقدير والإعزاز والتبجيل والإكبار الكائنة فى أعماق الشاعر ، والمستقرة فى حناياه ، والمختلجة فى صدره إزاء أمِّه الراحلة ذات الأيادى الطوُّلى السابغة ، وصاحبة الأفضال العظيمة غير المتناهية عليه .. حيث يدعو لروحها أن تطير مُحلِّقة ، وتخفَّ مسرعة إلى حيث الرضا والرضوان ، والفردوس والجنان ، وأن تنعم وتُسر بالرحمة والغفران ، وتتربع فوق الأرائك ، وتمشى بين الحور فى النعيم ، والجنّات باسمة المُحيَّا ، ناعمة الوجه ، راضية السعي فى أرقِّ سناً ، وأبهى رَوْنق ، تتلقاها ألوان التحايا ، وتصاحبها حيث ذهبت فى الجنة ، وسرحت ، داعياً لها فى نهاية فكرته هذه بالهناءة والخُلد فى النعيم المُقيم ، مُنوِّها بشأنها ، ومُعلياً من قدرها – من خلال خلعه عليها تلك التسمية الرفيعة : أمّ الخصال الزاكيات.. يقول صان الدِّين :

طيرى بآفاق الضياء وحلِّقــى وإلى رُبا الفــردوس خفِّــي واســبقى!!
رفافة كالنـــور فى هـــالا ته نشوى بغفران الســماء المغــدق
صنعت يمينك فى الحياة معارجاً تُفضــى إلــى آلاء ربــك فــارتقى!!
وهناك فى ظل الخلود تربعى فوق الأرائــك بــين روض مُونــق!!
تمشين بين الحور باسمة المُحيَّا فــى أرقِّ ســـناً وأبهـــى رونـــق
تلقاك ألوان التحـــايا كلَّــما شارفت نهــراً أو خطــرت بجوســق
يهنيك يا أمّ الخصال الزاكيــا ت الخلدُ فى هذا النعيم المطلــق!![١]

ثم يُجسد الشاعر – عبر تجربته القوية المثيرة تلك – ما كانت تُلاقى وتشــكو منه ، وتُقاسى أمه– إزاء غربة وبعاد وحيدها عنها– من بــالغ الضــنى ، وعميــق الأسى، وشدة الجوى ، مُصارِعة فى أثناء ذلك ما تتناوشها مــن ســقام وأوجــاع ، ويتهدد كيانها من أمراض وأخطار .. يُداعبها ويُخفِّف ويُسرِّى عنها ذلك الأمل الــذى يحدوها فى أوبة وحيدها النائى ، وعودته إلى حضنها ، وضمِّه إلى صدرها ؛ فتشفى من ثم سقامها ، وتَعُود إليها حياتها ، حيث تُحدِّق عيناها ، وتنظر فى ترقُّب ، وتــديم النظر هنا وهناك ، بعد أن يعود وحيدها القاصى الغريب ، وحبيبها النــائى البعيــد ، فيمرِّغ خديها ، مُقبِّلاً إياهما عند اللقاء بها ، وتنظر إليه والدته فى ترقب تُديم النظــر إليه عند الوداع بطرفها المغورورق بالدُّموع .. حيث يعلم الله وحده ماذا فى قلبها من أسى متقد ، وجوى متأجِّج ، وحُبٍ قاتل ، وشوق مُهلك بين الحنايا والضلوع ، يقــول الشاعر:

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صــ ١٨٩ ، ومونق : جميل مُعجب ، وجوسق : قصر .

قد كنت يا أمَّاه تشكين الجوى لوحيـــدك النـــائى بـــواد مغلـــق
وتصارعين الدَّاء فى غلــوا ئه وتغــالبين يــد الحمــام المُحــدق
أملاً يداعب منك قلــباً ذاويــاً ويَمُــدُّ جــدب الــروح فيــك بَريِّــق
علّ الغريب يعــود فــى إبَّــا نه ويُمــرِّغ الخــدَين عنــد المفــرق
فتشيمنى عيناك بين الحاضر ين لدى الوداع بطرفهــا المغــورورق
والله يعلم ما بقلبك من أسى مُتأجج بين الحنــــــايا مُوبــق (١)

ثم يشرع الشاعر بعد ذلك فى تجسيد ما يعتلج بنفسه ، ويختلج بصـــدره مـــن مشاعر الحُبّ والتعلق ، واللهفة والحنين ، والحسرة والأنــين إزاء والدتــه العزيــزة الغالية ، حيث يهفو فؤاده إليها ، ولكن تحولُ الحواجز والموانع بينه وبينها ، فيغــدو من ثم كطائر جريح كسير الجناح بالجبائل مُوثق ، وهو إذ يعصر الشــوق نفســه ، ويأخذ منه مأخذه فإنه يحيا على أمل اللقاء المُرتقب المــاتع بوالدتــه ، مُمِّنيــاً نفســه بانقضاء أعوام النَّوى ، وانصرام سنوات البعاد ، وحاثاً ما بقي من ليالى الفراق على أن تمضي سراعا ؛ كي يهنأ باللقاء .. ولكن ومن أسف ، ووا حزناه !! فقــد بــادرت بأمِّه المنون ، فرحلت عن الحياة ظمأى الفؤاد لم ترتو بعْدُ باللقــاء ، وغابــت عــن الوجود ، وهي نبع الحنان الثرِّ المُتدفق ، ومصدر السخاء المُتجدِّد ؛ ليبقى وحيدها فى غربته مشبوب الأسى ، دائم البكاء ، قد استبدَّ به اليأس ، واغتالــه نــاب النَّــوى ، فانقطع رجاؤه ، وضاع أمله فى اللقاء بوالدته ، وراح لا يرتجى رؤياها إلا حالماً فى طيف خيال ، أو مُسترجعاً صورتها فيما كان بينه وبينها من ذكريات مضيئة خــوالٍ .. حيث يقول :

---

(١) ديوان أعاصير وأنسام ، صـــ ١٨٩ .

ووحيدك النائى تكبِّلُهُ الحيا ة بحكمهـــا مـــن فـــوق جمـــر مُحْـــرق
يهفو إليك فؤادُه مُسترحماً كجـــريح طيـــر بالحبائـــل مُوثـــق
لكنه والوجد يعصر نفســه يحيـــا علـــى أمـــل اللقـــاء الشـــيِّق
ويخال أعوام النوى قد أدبرت فمضى يحـث مـن الليـالى مـا بقـى
لكن ووا حزناه بادرت المنو ن فطوَّحـــت منِّـــى بفـــضِّ الزئبـــق!!
فرحلتِ يا أمّاه ظمأى مهجة عـــن هـــذه الـــدنيا ولمَّـــا نلتـــق!!
ورحلتِ يا نبع الحنان الثـرْ رِيـا مـوج السـخاء الغـامر المتـدفق
وبقيت مشبوب الأسى فى غربتى أبكـــى بقلـــب فـــى الضـــلوع مُصـــفق
لا أرتجى رؤياك إلا حــالماً مُسترجعاً صـــــور الماضى مشرق[1]

ثم يُعزِّى الشاعر نفسه ، ويُسلِّيها –فيما ألمَّ بها مـن رُزء كبيـر ، ومصـاب فادح ، حيث فقد نبع الحنان الثرِّ ، وثكل مصدر السخاء الغامر المتدفق– أمه الحبيبـة –تلك التى يُناجى روحها ، مُسلِّما الأمر إلى خالقه ، ومشيئته سبحانه فى أمر رحيلها ، راضياً بقضائه وحكمه ، مُؤكداً أنه سيظلُّ– ما بقيت الحياة يُعانى ويلات الغربـة ، ويُقاسى شدائد الفقد والثكلان ، وستظلُّ روح والدته باقية ماثلة فى حياتـه ، وسـيظل هو يراها فى كل أجوائه وأحواله ، داعياً لها أن يكون مسـتقرها جنـات الخلـود ، فتتطيَّبُ من طيبها العاطر المُعبّق ، راجياً من ربِّه سبحانه فى نهاية تجربته تلـك أن يكرمها– وهي فى رحابه ، وأن يجزيها عنه جزاء المُتقى له سبحانه ، طامعـاً فـى فضله وإحسانه ورحمته وغفرانه ، واثقاً فى أنه سبحانه لن يرد يديـه المبسـوطتين بالدعاء لأُمِّه ، وقلبه المُغرِق فى الضراعة إليه سبحانه من أجلها سـفراً خـائبتين .. فبحار فضله سبحانه لا تنفد من مُستعطٍ ، ولا تضيق بمُستقٍ .. يقول صان الدِّين :

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٨٩ ، ١٩٠ ، والزئبق : الياسمين.

أمَّاه عذراً فالحياة عواصــف تــأتى بكــل مُــروَّع ومــؤرق
ذاك الذى حَسِب الوقائع ناتجاً لمقدمات العقل غــير مُوفّـق
إنَّ الأمور رهينــة بمشـيئة عظمـى وراء العقــل فــوق المنطــق
أُمّاه قد رفع الحجاب اليوم عنــ ك وذا أنا طــوع الجنــاح فطـوّقى
أما أنا فالله يعلــم كم أظــلّ بغربــة الــدُّنيا صــريع تشــوق
أُصغى إلى خفقات روحك سارياً بــين النســيم العــاطر المترقــرق
وأراكِ فى آفاق عيشى كالملا ك تُحلقِّــين بوجهـــك المُتـــألق
وعليكِ من حُلل الجلال مُضمّخ من طيــب جنــات الخلــود المُعبــق
ربَّاه أمِّى فى رحابك فاجزها مُتكرِّمــاً عنــى جــزاء المُتَّقِــى
هذى أكفى قد بسطت مُناجياً لك من فؤادٍ فى الضراعة مُغرق
حاشاك ربِّى أن ترُدَّ تضرُّعى وبحار فضلك لا تضيق بمُستق!!(١)

وهكذا تبدو تلك التجربة – فيما تقوم عليه هنا من إكبار المعروف ، وإعــلاء الفضيلة ، وتأكيد الحُبِّ والاحترام والوفاء والإخلاص لــذوى الفضــل ، وردِّ ذلــك الفضل لذويه ، وإعطاء كُلِّ ذى حقٍ حقّه – على نحو ما صدر هنا من الشــاعر إزاء والدته ذات الأفضال والإنعام عليه .. هكذا تبدو تلــك التجربــة هنــا ضــمن الأدب الإنساني النبيل الذى ينشد المثل العليا ، والقيم الســامية مــن الأخــلاق والفضــائل الإنسانية ، والواجبات الاجتماعية ..:" فالأدب المثالي هو ما يتصل بأنبل العواطــف الحيوية ،كالإخلاص والتحاب ، والعدالة العامة ، والوحدة الإنسانية ، وهو ما يتنــاول

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ١٩٠، ١٩١ .

الحقَّ والفضائل والأعمال المجيدة من كل ما يُقوِّى صلتنا بالحياة ، وهو أيضاً الذى يبعث فينا حماسة النهوض بالواجبات الفردية والاجتماعية [١].

وهكذا تتسم عاطفة الشاعر – خلال تلك التجارب الثلاث جميعاً بسمات القوة والصدق والصحة والشرف والعمق والجيشان والتدفّق والثبات والاستمرار ، حيث حافظ الشاعر على ثباتها ، واستمرارها هكذا قوية عميقة مفعمة ؛ مما يؤثر فى نفوس المُتلقين ، ويأخذهم بألبابهم ، ويُغريهم بمتابعة التجربة منذ بدايتها ، وحتى نهايتها ، فلم يتخلّلها – أي العاطفة – خلال تلك التجارب ضعف ولا فتور .. فغدت من ثم جيدة ذات أثر كبير فى نفوس المُتلقين ، حيث تثير فيهم نفس المشاعر التى أثارتها فى كيان ووجدان صاحبها ، ويظل ذلك الأثر باقياً فى نفوسهم إلى ما بعد قراءة التجربة ، والفراغ منها ، حيث يظلون مشدودى الانتباه ، متيقظى الوجدان ، فلا ينصرفون عن متابعتها ، ولا ينشغلون عنها بغيرها ؛ لانبعاثها من نفس منفعلة صادقة الشعور ، عميقة الإحساس .. فثبات العاطفة : " يجعل القارئ يعيش فى جو الأثر الأدبي ، مُتتبِّعاً خطاه ، مشدود الانتباه ، مُتيقظ الوجدان ، مُتوثِّب القلب ، كلما عاد إليه مرَّة بعد أخرى تجدد الانفعال والإعجاب ، وتجدَّد إمتاع الرُّوح ، وذهب ما يعلوها من صدأ ، وما يتراكم عليها من غيوم وضباب فى معترك الحياة ، أما إذا كانت العاطفة مبتورة ، ولا تتخذ لها خطاً ثابتاً فتقوى وتضعف فى آن واحد ، فإنه من الصعب أن يحوز الأثر الأدبي على إعجاب القارئ ، بل إنَّ هذا يكون مدعاة لفتوره ، وعدم استمراره فى التجاوب مع ما يعبِّر عنه الأديب ، ويصوغه من أفكار "[٢] .

---

(١) أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب – صـ ٢٠٤ ، ٢٠٥ – ط مكتبة النهضة المصرية– د.ت.
(٢) فى ميزان النقد الأدبي: د/ طه مصطفى أبو كريشه – صـ ٤٤ ، ٤٥ ، ط المليجي – ١٩٧٦م .

وقوتها – أي العاطفة– " إنما تتضح بمقدار انفعال المُتلقِّـى، وتأثيرهـا فـى نفسه، فإذا حرَّك النصُّ عواطف القارئ ، وأثار مشاعره كان صادق العاطفة ، قـوي الشعور ، فالأديب لكي يثير شعور القارئ أو السامع يجب أن يكون هو قوي الشعور فى أدبه"(١).

ولا أكون مجافياً للصواب إذا ما قلتُ إن هذه التجارب الثلاث يتحقـق فيهـا ذلك ، حيث تُحدث فى نفوس المُتلقِّين ذلك التجاوب المُتجدِّد ، والتواصل المُستمر مع تلك التجارب ، لاسيما بعد أن هزَّت وجدان صاحبها ، وحرَّكـت كيانـه ، وزلزلـت مشاعره ، إذ إنَّ : " من المشكوك فيه أن يستطيع الأديب عرض العواطف القويـة أو بعثها فى نفوس قُرَائه دون أن يحسَّها فى نفسه قوية ، ثم يتـنفس عنهـا بهـذا الأدب القوي التأثير ، والشاعر لا يبكيك إلا إذا استنفذ مـاء شـئونه ، ولا يشـجيك إلا إذا استطار الهوى بلُبِّه ، فالعامل الفذُّ للظفر بالسلطان العاطفي على القُرّاء هـو انبعـاث الشعر والنثر عن نفس منفعلة صادقة الشعور"(٢) .

وانطلاقاً من نظرة الشاعر الراقية السامية إلى المرأة ، حيث يأمل ويرجو لها كلّ رفعة وسموّ ، وإباء ورقي ، فلا تزال فى مكان عالٍ تغدو وتبقى فيه تلك اللؤلـؤة المكنونة ، والدرّة المصونة ، بعيدة فى ذلك عن عبث العابثين ، واعتداء المُعتدين .. انطلاقاً من تلك النظرة الراقية السامية من الشاعر إلى المرأة رأيناه يُصوِّر فى واحدة من تجاربه القليلة فيها ما يختلج فى صدره نحوها من أحاسيس ومشاعر يمتزج فيهـا حبُّه إياها باحترامه وتقديره لها ، مُقرّاً بميله الفطري نحوها ، وتعلُّقه الغريزي بهـا ، وحاجته الضرورية إليها ، فهي – كما ذكر – قطعة أكيدة منه ، وجزء مُكمـل لـه ، وهي شغله وحديثه ، لا تغيب قط عن وجدانه ، ولا تندُّ عن ذاكرته ، ولا يجد قلبـه

(١) فى النقد الأدبي : د/ عبد العزيز عتيق – صـ ١١٢ – ط دار النهضة العربية – بيروت –١٩٧٢م.
(٢) أصول النقد الأدبي : أ/ أحمد الشايب – صـ ١٨١ .

الهناءة ، ولا تشعر نفسه بالسكينة إذا نأيت عن ناظريه ، وغابت عن عينيه ، مُبدياً ما يأمله ويرجوه لها من رفعة وسمو ، وطهر ورُقيٍّ ، ويرتضيه لها من إباء وتصوّن ، وتستر وتمنُّع ، مُبغضاً لها أن تمتهن نفسها ، وتخرج عن سياجها ، وتنزل من عرش إبائها وتصوُّنها فتهبط ، حيث تغدومن ثم كلأً مُباحاً ، وعُشباً مُتاحاً ، وسلعة معروضة للمشترين ودُمية مطلية بالحُلي والزينة تُحرِّكها أيديهم ، وتحلو فى عيونهم ، حيث تزاحم الرِّجال فسرعان ما تعركها رحى الحياة ؛ فليجدر بها إذن أن تبقى عزيزة أبيَّة ، مصونة فى خدرها ، متحصنة فى بيتها المرتفع البناء ، البعيد المنال.

ها هو ذا شاعرنا صان الدِّين يُبدى مشاعره تلك إزاء المرأة ، حيث يقول من قصيدته : " أنت منِّى ولكن " :

لا تحسبى حواءُ أنِّى عنكِ مشغولُ الجنان
هل أنت إلا قطعة منى استقلت عن كيانى
مازلت أبحث عنك فى كل الأماكن والزمان
لا يعرف القلب السكينة إنْ نأيت عن العيان
لكننى أبغيك يا حواء عالية المكان
لا .. لا أحبك سلعة معروضة للمشترينا
أودُمْية تُطلى لتحلو فى عيون الناظرينا
أو تنزلين السوق فى قيظ الحياة تزاحمينا

فالســـــوق يا حسناءُ تعــ ـــرك فى رحاهـــا المُرهفينـــا
بل أنت للعـــرش الممـّــر رد فى ســـمائك تأمريـــنا(١)

وتبدو مشاعر الحُبِّ والتقدير الكامنة فى أعماق الشاعر إزاء المرأة : " حواء بعامة " فى أكثر من موضع فى هذه التجربة ، وهي مشاعر – كما نرى – ســـامية ، وأحاسيس راقية تنبئ عن طبيعة نظرة الشاعر للمرأة ، حيث نـــراه يخاطـــب حـــواء خطاب المُحبِّ المتودِّد لها ، حيث يُصوِّر كلفه بذكرها ، وتعلّقه الشديد بشأنها، فهـــي قطعة من كيانه ، حاضرة فى وجدانه ، ماثلة فى كيانه ، مستقرة فى أعماقه ، وهـــو يخاطبها خطاب المُتودِّد لها ، المُقرِّ بميله، وحاجته إليها :.

لا تحســـبى حـــواءُ أنِّى عنـــكِ مشـــغولُ الجنـــان
هل أنت إلا قطعـــة منـــى استقلـــت عن كيـــانى

بينما تتحقَّقُ مشاعر الحُبِّ الممتزجة بالاحترام والتقدير الكائنة فـــى أعمـــاق الشاعر إزاء المرأة –خلال تجربته هذه – فى إبدائـــه مشـــاعر الحُـــبِّ والرِّضـــا ، والسعادة والهناءة إزاء المرأة – فى حال إبائها ، وتصوُّنها ، وتمنُّعهـــا ، وتحصُّـــنها بسياج الفضيلة والعفاف ، حيث تغدو بذلك اللؤلؤة المكنونة ، والدُّرَّة المصـــونة التـــى تقر هناك عالية المكان ، بعيدة عن العبث والإفساد : **لكنِّى أبغيك يـــا حـــواءُ عاليـــة المكان**

وتبدو تلك المشاعر التى يمتزج فيها الحُبّ بالاحترام والتقـــدير الكائنـــة فـــى أعماق الشاعر نحو المرأة هنا أيضاً من خلال إبدائـــه مشـــاعر الـــبغض والسُّـــخط والرفض إزاء ذلك اللون من النساء السافرات اللائى يتخلين عن حجابهن وعفـــتهن ،

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ١٧٢ ، ١٧٣ .

فيُبدين من ثم زينتهن ، ويمتهِنَّ بذلك أنفسهن ، ويعرضنها للخطر المُحدق ، والهلاك المُتيقِّن ، حيث تعركها رحى الحياة ، بعد أن نزلت من عرشها العالى المُرتفع البناء الذى تتمنع وتتحصن به .

ويُلحظ أن الشاعر كرَّر خلال تجربته تلك : كلمة " لا " ، حيث يقول :

لا .. لا أحبك سلعة معروضة للمُشترينا

وهو – أي الشاعر – إذ يُبدى ويؤكد شدة رفضه وبغضه لهذا المسلك المعيب، والتصرُّف المرفوض من المرأة ، فإنه يؤكد بذلك شدة حُبِّه واحترامه للمرأة، وحرصه على ما فيه الخير والرشاد والصون والإباء لها :

بل أنتِ للعرش المُمَرَّ رد فى سمائك تأمرينا

مما يجعل العاطفة تتسم هنا بسمات الصحة والسموِّ والشرف ، حيث تغدو تلك التجربة واحدة من ذلك النوع المثالي السامي النبيل من الأدب الذى يبغى الطُّهر، وينشد الفضيلة .

هذا بجانب تجارب الشاعر التى أشرك فيها عناصر الطبيعة ، وأسقط عليها مشاعره وأحاسيسه ، الفرحة الهانئة منها ، والكئيبة المتجهمة ، حيث يشعر مُتلقِّى تلك التجارب بتحقق المشاركة الوجدانية فيها بين الشاعر ، وبين مظاهر الطبيعة – تلك التى يجد فيها الشاعر العِوض والعزاء والسلوى عما يقاسيه من ويلات الغربة والانفصال النفسي عن مجتمعه وواقعه الذى تصطدم معه مشاعره الرهيفة ، وتضيق به نفسه الرقيقة .. مثلما هو الحال فى تجربتيه : حُلم شاعر ، وصمت الطيور .. وغيرهما مما سبق الوقوف عليه من تجارب فى ذلك الشأن –خلال تلك الدراسة .

المبحث السابع

أصداء الموسيقى الشعرية فى تجارب صان الدِّين الوجدانية

الشعر والموسيقى توءمان ملتصقان ، وصنوان لا يفترقان ، فلا حياة لأحدهما بدون الآخر، حيث: "لا يوجد شعر بدون موسيقى يتجلى فيها جوهره وجوه الزاخر بالنغم ، موسيقى تؤثر فى أعصاب السامعين ومشاعرهم بقواها الخفية التى تُشبه قوى السِّحر ، قوى تنتشر فى نفوسهم موجات من الانفعال يحسُّون بتناغم معها"(١) .

والموسيقى هي: "العماد الذى تستند عليه، وتتغذى به كلُّ العناصر الفنية المُشكِّلة للتجربة الشعرية ، وبدون هذا العنصر يتحول البناء الشعري إلى أنقاض نثرية خالية من الروح والعاطفة .. وتتفرع الموسيقى فى الشعر إلى نوعين يسيران فى خط واحد : الأول : هو الموسيقا الظاهرة التى تمثلها النغمة التى تحمل لغته فى انتظام متلائم مع حالة الكلمة فى التركيب الشعري ، وهذه النغمة المتواترة هي ما اصطلح منذ القدم على تسميته بالوزن ، وهو الذى يمدّ هذه اللغة عن غيرها بالكثير من الخصوصية التى يتميز بها الشعر عن غيره من الأنواع الأدبية ، وإلى جانب الوزن تُمثِّل القافية فى الشعر العربي ركيزة أساسية من ركائز الموسيقى الشعرية ..، أما النوع الثانى من الموسيقى فى اللغة الشعرية فهو التناغم الذى يتمُّ فى السياق بين الكلمات والحروف فتأتى فى نسق منتظم لا نتوء فيه ولا قصور ، وهو ما يمكن أن

---

(١) فصول فى الشعر ونقده :د/ شوقى ضيف – صـ ٢٨ –ط دار المعارف – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٧٧م .

يُسمَى بالموسيقى الداخلية .. ومن التضافر الذى يتم بين النوعين من الموسيقى يتشكل إيقاع القصيدة الذى يحمل التجربة الشعرية " (١) .

ولنا أن نطالع هذا الكلام الذى كتبه أحد النقاد المعاصرين يُشير فيه إلى تلك الصِّلة القوية والعلاقة العضوية بين الشعر ، وبين الموسيقى ، ويؤكد ذلك- من خلاله- حيث يقول :" والعلاقة بين المشاعر والأحاسيس التى تصبغ النصّ الشعري بصبغة الصدق الفني ، وبين موسيقاه علاقة عضوية تجعل من النصِّ صورة فنية متماسكة ، فالشاعر البارع يمكنه أن يستغل الدفقات الموسيقية ؛ لتتناسق وتتموسق فى الوقت ذاته ، بما يُصوره ويعبر عنه من إحساس مرتجف راعش ، أو نظرة متأنية متأمِّلة مُستغرقة"(٢) .

فالعلاقة بين الشعر وبين الموسيقى إذن علاقة عضوية ، والصلة بينهما قوية .. : " فالشعر فى صياغته الفنية يتكون من عدة تفعيلات تمثل وحدات موسيقية تكسب القصيدة نغماً آسراً .. ومن دواعى إقبال النفس على النص الشعري نشيطة فرحة هانئة تحلِّيه بالموسيقى ، حيث تُيسر فى حفظه ، وتضمن له البقاء ، وحين تفقد القصيدة سحر هذا النَّغم ينقطع ذلك الخيط الفني الرقيق الذى يشُدُّ المُتلقِّى إلى سماع الشعر ، فالشعر نغم وإنشاد"(٣) .

فهي- أي الموسيقى – بالنسبة للشعر ليست ترفاً ، أو شيئاً ثانوياً : " وليست حلية خارجية تُضاف للشعر ، وإنما هي وسيلة من أقوى وسائل الإيحاء ، وأقدرها

---

(١) القصيدة الرومانسية فى مصر ١٩٣٢-١٩٥٢ م : د/يسرى العزب – صـ ١٤٠، ١٤١–ط الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨٦م. .

(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور :د/ صابر عبد الدايم يونس – صـ ١٦ –ط دار الكتاب الحديث- ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م .

(٣) عضوية الموسيقى فى النصِّ الشعري : د/ عبد الفتاح صالح نافع – صـ ٣٩ –ط مكتبة المنار – الأردن ١٩٨٥م .

على التعبير عن كل ما هو عميق وخفي فى النفس ، مما لا يستطيع أي كلام أن يُعبِّر عنه ، ولذا فهي من أقوى وسائل الإيحاء سُلطاناً علـــى الـــنفس ، وأعمقهـــا تـــأثيراً فيها"(١).

ولا يخفى فى نهاية الأمر دور الصياغة الموســيقية – داخليـــة كانـــت ، أم خارجية .. لا يخفى دورها وأثرها فى بناء وتوهُّج التجارب الشــعرية .. حيـــث : " تشدُّ من أزر المعنى ، وتجعله ينفذ إلى قلوب سامعيه ومنشديه .. ، وتُـــوحى بمـــا لا يستطيع القول أن يشرحه .. وحتى ولولم يكن هناك إنشاد جهري ، فإن تمثُّل المعنـــى فى القراءة الصامتة يقتضى تمثُّل الموسيقى فى الأبيات مختلفة ، ومن المُسلَّم بـــه أن موسيقى الشعر تظلّ خاصة من خصائصه همساً أو إلقاءً "(٢) .

ترى ما حال إيقاع صان الدِّين ؟ وما شأن موســيقاه – بنوعيهـــا الخارجيـــة والداخلية – خلال تجاربه الوجدانية ، وإلى أي مدى نوَّع ، وجدَّد الشاعر فى قوالبـــه وقوافيه– خلال تلك التجارب ؟ وما مدى مواءمة تلك القوالـــب والقـــوافى لمعانيـــه ومضامينه؟ وما مدى كون موسيقاه مجسِّدة لعواطفه وأحاسيسه – خـــلال وجدانياتـــه تلك .. هذه التساؤلات وغيرها مما يتعلق بالموسيقى الشـــعرية – خـــلال تجـــارب الشاعر الوجدانية ..ستتولى الصفحات المُقبلة الإجابـــة عنهـــا ، وتقـــوم بإيضـــاحها، وتفصيل القول فيها .. حيث سترصد تلك الصفحات أصداء الموســيقى الشـــعرية – بنوعيها –الخارجية والداخلية ، واقفة وقفة مُتأنية تُوضِّح مظاهر كل نـــوع منهمـــا ،

(١) عن بناء القصيدة الحديثة :د/ على عشرى زايد – صـــ ٧٣ – الناشر – مكتبة الشباب –١٤١٧هـــ – ١٩٩٧م.
(٢) النقد الأدبي الحديث : د/ محمد غنيمى هلال – صـــ ٤٣٥– ٤٤٠– ط نهضة مصر – القاهرة –د.ت .

كاشفة عن مظاهر التجديد والتنويع الموسيقى- خلال تجارب صان الدِّين الوجدانية- بإذن الله تعالى، وبتوفيقه .

أولاً: أصداء الموسيقى الخارجية فى تجارب صان الدِّين الوجدانية :

الناظر فى وجانيات الشاعر يبدو له أنه أفرغ الكثير الهائل منها فى قوالب تراثية ، لاسيما أوزانه- خلالها ، حيث صَبَّ وجدانياته جميعاً فى أوزان تقليدية موروثة ، شادياً من خلالها ، ومُغرِّداً بألحان وأنغام البحور الخليلية المعروفة والمتوارثة فى الشعر العربي ، حريصاً على الالتزام بأوزانها- طيلة تلك التجارب .. بجانب التزامه بالقافية المُوحَّدة فى بعض وجدانياته ، ومجيئه بالبعض الآخر منها على قوافي مُتنوَّعة ، حيث رأيناه يبنى بعضاً من تجاربه الوجدانية على شكل خماسيات ، يتناول فى كل خماسية منها تقريباً فكرة جزئية بعينها ، وتتوالى الخماسيات هكذا داخل القصيدة الواحدة حتى نهايتها ؛ مُنوِّعاً بذلك ، ومجدِّداً فى قوافيه ، غير ثائر ولا مُتمرد على ثوابت الشعر العربي ، ولا خارج عن إطار قيمه وتقاليده الموروثة ، حيث كان متأثراً فى ذلك التنويع فى القوافى بالأندلسيين فى موشحاتهم ، وبالمدارس الرومانسية، والديوان وأبولو.. مما تبدو معه قوالب الشاعر فى وجدانياته تراثية تقليدية ، حافظ فيها الشاعر على قيم الشعر العربي ، وتقاليده وثوابته ، مُجدِّداً –فى رفق وأناة –فى بعضها .. على نحو ما سيبدو لنا متحققاً – خلال تلك السطور المقبلة ، حيث سأشرع الآن – مستعيناً بربِّى –سبحانه- فى رصد أصداء الموسيقى بنوعيها – الخارجية والداخلية فى القصيدة الوجدانية الصّانية ، والوقوف على ما فى بعض قوافى تلك القصائد الوجدانية من مظاهر التجديد والتنويع، وأيضاً على بعض ما وقع الشاعر فى قوالبه- خلال وجدانياته من سقطات ، وزلَّ من زلاَّت .

(أ): رَصْدُ الأوزان : " البحور العروضية" التى صبَّ الشاعر فى قوالبها تجاربه الوجدانية ، وعلاقة ذلك بمعانيه وبمضامينه .

الوزن أحَدُ ركني الموسيقى الخارجية فى القصيدة الشعرية وهو : " أعظم أركان حدَ الشعر ، وأولاها به خصوصية (١).

وهو –أي الوزن– : " أخص خصائص الشعر العربي بالذات ، وألزم لزومياته ؛ لارتباطه به منذ نشأته "(٢) .

والذى يطالع وجدانيات شاعرنا صان الدِّين يبدو له –بجلاء– حُبّ الشاعر الشديد للتراث العربي ، وحرصه التام على الالتزام بقيمه وثوابته .. حيث رأيناه يتقيَّد فى وجدانياته بأوزان عربية خليلية ثابتة غير مُتحرِّر منها ، ولا خارج عنها فى واحدة من وجدانياته ، وقد غرّد صان الدِّين وترنم وشدا فى وجدانياته بأنغام أربعة بحور خليلية عازفاً على قيثارتها ، ومُغرِّداً بموسيقاها هي : الرَّمل ، والكامل، والوافر والطويل .

ويأتى بحر الرمل فى مقدمة تلك البحور التى عزَّف الشاعر – فى وجدانياته – على قيثارتها ، وشدا بأنغامها .. حيث آثر صان الدِّين موسيقى ذلك البحر ، وأكثر من العزف على قيثارته ، فجاءت على تفعيلاته الكثير الهائل جداً من وجدانياته ..

وليس أدلّ على ذلك من استخدام الشاعر لموسيقى ذلك البحر فى ديوان كاملٍ له يُسمَّى : " الإنسان فى الميزان" .. وهو يتضمن الكثير والكثير من تجارب الشاعر

---

(١) العمدة : ابن رشيق ١/١١٥ – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط دار الطلائع للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – القاهرة – ٢٠٠٦م .
(٢) دراسات فى النقد العربي :د/عثمان موافى صـ ١٣٤ – ط دار المعرفة الجامعية – ٢٠٠٠م .

الوجدانية موضوع الدراسة هنا ، حيث تطالعنا من بين قصائد هــذا الــدِّيوان تلــك القصائد التى نحا فيها الشاعر منحىً وجدانياً : " الإنسان مُحيَّر" ، " أنت " ، " جنوح"، " الغاية والوسيلة" ، " شعوذة ودجل" ، " ديكور " ، "وخزات" ،" ذكر" أم لهو؟ ، "ومــا أدراك ما النفس"؟ ، " مع حواء " ، " حواء" ، " أدعياء الشعر " ، " يــا قريضــى " ، "جمال الكون" .. ولعل طبيعة موسيقى ذلك البحر أعنى: بحــر الرَّمــل ذات الوقــع السريع ، والحركة الشديدة .. حيث كان العرب :" يطلقونه على مَن يهــزُّ منكبيــه ، ويُسرع فى حركته"(١).

لعلّ طبيعة موسيقى ذلك البحر هي مــا حــدت بالشــاعر إلــى أن يؤثرهــا ويختارها وزناً لتجاربه فى هذا الدِّيوان – ذلك الذى قسّمه خماسيات – حيث تناســب تلك الموسيقى – ما تقوم عليه قصائد ذلك الديوان – من مقطوعــات .. تعــالج كــلُّ مقطوعة منها مضموناً بعينه .. حيث غدت كلُّ مقطوعة :" خماسية" منهــا بمثابــة خاطرة سريعة تناسب موسيقى الرَّمل – بما تقوم عليه من حركة وسرعة.

هذا بجانب قصائد الشاعر الوجدانية التى ضمَّنها ديوانه :" أعاصير وأنسام" ، والتى جاءت تفعيلاتها على أنغام وموسيقى ذلك البحر – بحر الرَّمــل – تلــك التــى بلغت أربع قصائد تقريباً هي : " الجمرة" ، " صمت الطيور " ، " حــائر" ، " البعــث حقيقة" .

ويطيب لى أن أورد من بين هذه القصائد الكثيرة تلك الأبيات مــن قصــيدته ذات العنوان الدَّال المُوحي : " يا قريضى" .. حيث يُناجى فيها قريضه – ذلك الخــلُّ الوفيُّ ، والحبيب الصفي ، كاشفاً عن مُراده وبُغيته منه ، مُهيباً بــه أن يمــلأ الــدُّنيا بهجة وضياء ، ويُعبِّق الأرجاء عبيراً وبهاءً، ويعمُّها سلاماً وأمانا، وأن يغــذو فــى

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور: د/صابر عبد الدايم – صــ ١٠٥ .

الأفهام ، ويسرى فى الأعماق ، وينفذ إلى الوجدان سهلاً زُلالا ، مُتحصّناً بـالأخلاق .. عنها ما مالا .. وأن يبقى بالإيمان عامراً ، وعن وجدانه وفكره مُعبِّراً .. فهـو – أي الشعر– نايه ومزماره ، وصدى صوته ، ومرآته التى ينعكس عليها وجدانـه ، وهو صوت قلبه ، وذوب نفسه .. يقول صان الـدِّين مـن قصـيدته المُوغلـة فـى الوجدانية ، والمُغرقة فى الذاتية : " يا قريضى "– تلك التى نظمها على موسيقى بحر الرَّمل :

يا قريضـى لسـت أبغى　　منـك فـى دنيـاي مجـداً
أو أُرَجِّـى فيـك يومـاً　　أن تُحيـل الـنَّحْسَ سـعداً
يا قريضى قد كحلـتُ الـ　　ـعين طـول العمـر سُـهْداً
كي أُحيـل القـول أنغـا　　مـاً وأنسـاماً وشـهداً
حسـب نفسـى منك وَقْعُ　　مـن رضـاب المُـزْن أنـدى
يا قريضـى كن ضيـاء　　ورياضـاً وظـلالا
وامنـح الدنيا عبيـراً　　وسـلاماً وجمـالاً
واسـر فى الأفهـا　　م والوجـدان سلسـالاً زُلالا
واجعل المنظـوم فى　　ترنيمـه سـحراً حـلالا
هل يكون النظـم شعـراً　　إن عـن الأخـلاق مـالا؟!
يا قريضى كن لوجـدانى　　وفكـرى مسـتجيباً
واجعـل الإيمـان لحنـاً　　يطـرب الكـون الرَّحيبـا
أنـت نـاي الشـاعر البا　　قـى علـى الـدنيا طروبـاً

أو حزينــاً بـث لحنـــاً علَّـمَ الصَّــخر النحيبــا
أنت صــوت القــلب منــ ـه يسمع الصمُّ الوجيبا (١)

ولعلَّ طبيعة موسيقى ذلك البحر .. "بحر الرمــل "- ذات الوقــع الســريع ، والحركة الشديدة .. حيث تعُود تسميته بهذا الاسم إلى : " تشبيهه برمل الحصير يضمُّ بعضه إلى بعض .. وكان العرب يُطلقون هذا الوصف على من يُهز منكبيه ، ويُسرع فى حركته"(٢) .

.. لعل طبيعة موسيقى ذلك البحر هي مــا حــدت بالشــاعر أن يؤثرهــا ، ويختارها وزناً لتجاربه – خلال ديوانه : " الإنسان فى الميزان "- ذلك الذى ناســب بطبيعته فيما تقوم عليه تجاربه – والتى تُعدُّ التجربة المذكورة هنا واحدة منها – مــن مقطوعات: " خماسيات" تُمثِّل كلُّ مقطوعة :" خماسية " منها خاطرة سريعة يُسجلها الشاعر تعالج فكرة بعينها ، وتُجسِّد مضموناً بذاته .

حيث يناسب ذلك الانتقال من فكرة إلى أخرى لدى الشاعر ، ويوافــق تلــك الحركة المشار إليها فى النصِّ السابق ، والتى تتمثل فى هزِّ المنكبين ، والإسراع فى الحركة .. بجانب ما عُرف عن ذلك البحر – بحر الرمل : " بأنه بحر الغناء يُــؤثره المُغنُّون ، والمُلحِّنون " (٣) ، ممَّا قد يُسهِّل حفظ هذه المقطوعات :" الخماسيات" والتى تبدو –فى أكثرها– صالحة للشدو والغناء ، والتغريد بها.

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان–صـــ ٨٥ – والمُزن: المطر ، والنحيب : البكاء ، والوجيب : دقــات القلب .
(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/ صابر عبد الدايم – صـــ ١٠٥
(٣) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/صابر عبد الدايم يونس – صـــ ١٩٦.

ولعلَّ إكثار الشاعر من استخدام موسيقى بحر الرَّمل ، وعزفه كثيراً على قيثارته فى وجدانياته بعامة ، لعلَّ ذلك يتفق مع ما عُرِف عن هذا البحر من كونه: " بحر الرِّقة ، فيجوز نظمه فى الأحزان والأفراح والزهريات ، ولهذا لعب به الأندلسيون كلَّ ملعب ، وأخرجوا منه ضروب الموشحات"(١) .

ثم إنَّ موسيقى الرمل :" خفيفة رشيقة مناسبة ، وفيه رنة تجعله صالحاً للأغراض الترنيمية الرقيقة ، وللتأمل الحزين "(٢) .

ولا يخفى على القارئ الكريم ما تتسم به تلك القصائد المذكورة هنا من سمات الرِّقة والوداعة ، وما يقوم عليه الكثير منها من الشكوى ، والتأمل الحزين ، مما يُناسب موسيقى ذلك البحر الرقيقة المشحونة بالأسى والحزن – مثلما هو بادٍ ومتحقق –بجلاء – فى قصيدتي : " صمت الطيور " ، " حائر " .. وقد أتت الدِّراسة على مضامينهما قبل ذلك.

ثم يأتى بعد ذلك بحر الكامل ، حيث نرى الشاعر يشدو بأنغامه ، ويعزف على قيثارته – خلال وجدانياته فى عشرة قصائد تقريباً هي: " أنغام الحياة أنت" ، أهي القيامة أوشكت؟" ، "حُلم شاعر" ، " حكمة طائر" ، "زفرة" ، " أشواق مغترب" ، " أيتها النفس " ، " مراقى السموِّ" ، " أنت منى ولكن" ، " ورحلت يا أمَّاه " .

ولعلَّ ما تقوم عليه تلك القصائد المذكورة – التى جاءت على وزن الطويل، والتى لا تخرج فى مضمونها العام عن إطار الوجدانيات – من تنوع الأفكار

---

(١) إلياذة هو ميروس : تعريب سليمان البستاني – ١/-٩٣ ط–دار إحياء التراث العربي –بيروت – د.ت ، وينظر: بلاغة الإيقاع فى القصيدة العربية :د/ عبد الباسط عطايا – صـ ٦٢ –طبعة ١٩٩٥م .

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب: د/عبد الله الطيب –١٢٥/١ – طبع دار الفكر – الطبعة الثانية – ١٩٧٠م.

والمضامين ما بين تأمل وشكوى وغربة وحنين وبكاء وأنين .. لعلّ هذا ما يتفق وطبيعة ذلك البحر أعنى : " الكامل" :" فهو من البحور ذائعة الاستعمال ، كثيرة الورود فى الشعر العربي فى القديم والحديث ؛ لاستكمال حركاته ؛ إذ إنَّ البيت الواحد فيه يشتمل على ثلاثين حركة ، وهذا لا شك فى أنه يُعين شاعرنا على إبداء معانيه ، وإبراز أفكاره ، وتجلية مضامينه ، ويُعطيه مساحة كافية لتجسيد أحاسيسه ومشاعره ، والتنفيس عن آهاته وأحزانه ، وتصوير نظراته وتأملاته ..

كما أنه – أي بحر الكامل- : " يصلح لأكثر الموضوعات ، وهو فى الخبر أجودمنه فى الإنشاء ، وأقرب إلى الرِّقة ؛ لذلك يصلح لقصِّ الأخبار ؛ وللمعانى التقريرية " (١) .

ويطيب لى فى هذا الصَّدد أن أُورد تلك الأبيات من قصيدة الشاعر الرقيقة : " أنغام الحياة أنت"- تلك التى نظمها الشاعر على موسيقى بحر الكامل ، والتى يغلب الخبر فيها على الإنشاء ، حيث يتغنى فيها بالشعر ، مُنوِّهاً بعظم أثره ، وبالغ أهميته بالنسبة للشاعر ، فهو الأنس فى الوحشة ، والسعادة فى الشقاء ، بل هو الحياة وروحها ، وبهاؤها ورواؤها ، حيث يقول :

يا شعر أنت مُترجم ... خفقات قلب الشاعر
يا شعر أنت مصور ... حُسن الوجود الباهر
أنت الذى يهب الورى ... لحن الخلود الساحر

---

(١) الشعراء وإنشاد الشعر :د/ على الجندي صـ ١٠٥ –ط دار المعارف – مصر – ١٩٦٣م.

إلى أن يقول من القصيدة ذاتها :

يا شــعر أنت الأنـــس فى دنيـــا الشقـــاء الغامر
أنت الحيـــاة وروحهـــا السَّـــارى بكـــون دائر[(١)]

ثم يأتى بعد ذلك بحر الوافر ، حيث نرى الشاعر يستخدم موسـيقاه- خـلال وجدانياته- فى ثلاث قصائد تقريباً، هي : " سأشدو" ، " أزف الرحيـل" ، " الحـارس اليقظان" .

والتجربتان الأوليان وكما يبدو – من خلال عنوانهما ، وما تُجسـده ، وتـدلُّ عليه أبياتها- رقيقتان .. يغلفهما حزن رقيق ، حيث يُجسِّد الشاعر فى الأولى شعوره بالحزن والألم من تجاهل الناس لشعره ، وعدم تقديرهم لفنِّه فى أيامه ؛ مما دفعه إلى تمزيق ما كتب ، وأبدع من أشعار ، متوقفاً عن الشدو والتغريد بالشعر حيناً، ليعـود بعد ذلك إلى الشدو والتغريد به بعد أن لم يستطع مقاومة الرغبة الداخلية لديه ، والتى تلحُّ عليه فى معاودة التغريد بالشعر – ذلك الذى يمثل الحياة بالنسبة له .. يقول صان الدِّين :

أؤفصح أم أموت بما أعانى وأمضى بين تيار الزمـــــان؟!
وفى قلبى أناشـيد عـذاب وفى وجدانى أبكار المـــــعانى
وأطمر تحت أنقاض الليالى عـــديم الـــذكر مجهـــول المكـــان
كأنىِّ لم أكـن يومـاً سوياً ولـــم أخطـــر بهاتيـــك المغـــانى
ولم يملك جمال الكون حسِّى ولـــم ينـــبض فـــؤادى بالأمـــانى
ولم أرقص على نغم القوافى ولـــم أشـــرب مـــن الفصـــحى بحـــان

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ٢٣ ، ٢٤.

أنا قيثـــــارة قد أغفلتــــــها   يــــد العـــزَّاف إبـــان الأوان
وكم من باهر كالطيف ولَّى   ولم يلمــح سـناه النــاظران
وكم فى القـــاع من دُريتيم   خفـــي لـــم تلامســـه يـــدان
كتمت روائع الأنغام دهــراً   وقيَّدتُ الشــوارد فــى جنــانى
وعشت كما يعيش الغُمْر فدماً   حليف الصــمت معتقــل اللســان
فلم تنبس بأفكـــار شفــاهى   ولم يخطر على طرس بنانى(١)

بينما يُجسد شاعرنا فى التجربة الثانية شكواه الممضَّة مما جدَّ وطرأ على بنى جلدته من سلوكيات شاذة ، وأخلاقيات سقيمة.. ضاقت بها نفــس الشــاعر النبيلــة، وتألمت منها مشاعره الرهيفة .. فراح من ثم يبكى نفسه ، وينعيها ، مُؤذنـــاً بـــأزوف الرَّحيل ، وخفوت سراج عمره ، ونضوب زيت سراجه ، وذهابه فى النهاية عن هذه الحياة الصادمة المتجهمة .. حيث يقول :

أعنِّى أيها الجســم العليـــل   أعنِّـــى أيهـــا القلـــم الكليـــل
وكن طوع الأنامل مُستـجيباً   لفكـــرى أيُّهـــا القلـــم الكســـول
لأُخرج ما بقلبـــى مُستجيـــباً   لفكـــرى أيُّهـــا القلـــم الكســـول
وذا ضوء السراج إلى خفوت   فمـــا فـــى زيتـــه إلا القليـــل
وشمس العمر ترعش فى خطاها   وقـــد أوهـــى أشـــعتها الأصـــيل
سأقفل راجعاً من حيث جئنـــا   ومـــا مـــوت الفتـــى إلا قفـــول

.. إلى أن يقول من القصيدة ذاتها

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٣١ ، ٣٢ .

فأفٍ للحيــاة إذا اكفهــرت وعمِّي فى مجاهلها الســبيل!!
سأرحل يا بنى الدُّنيا وإنِّى لتلك الرحلة الكبرى عجــول
....
وداعاً أيها الناســـوت إنّى سأرحل والفــؤاد بــه غليــل
فلمِ أحمد مقــامى فيك يوماً وهل حُمِدَت لدى حُرٍ كُبُــول
فَعُد للتراب موطــوءاً مهينا كذا كلُ لمعــــدنه يؤول (١)

أما التجربة الثالثة من تلك التجارب التى صب الشاعر قالبها فــى موســيقى بحر الوافر فنراه يُسيطر عليه فيها ، وينتابهى – خلالها – أحاسيس ، ومشاعر قويــة .. حيث يشير فيها إلى ذلك الوازع الدَّاخلي ، والرَّقيب الذاتي – ضميره – الذى يُمثِّل له الوازع والرادع ، والسلطان والحاكم الذى يحيا به على بصيرة وهــدى ونــور .. هذا الضمير قد غذته عقيدة غرَّاء ، وسقاه ري الهُدى ، ورواه نَمير الإيمان .. يقــول صان الدِّين من قصيدته : "الحارس اليقظان" –تلك التى شــخص فيهــا الضــمير ، وجسده فى صورة العقلاء تماماً:

رقيب ضمــن ذاتى لا يحور وقـــــاضٍ لا يميــل ولا يجور
وسلطــان تحكَّم فى كيانى بقسطاس يُقال لـــــــه الضمــير
جليل ، حكمه فى الناس ماضٍ ولا قلـــم يخــــط ولا صـــرير
ولا ســيف يجـــرده كَمِيٌّ ولا ســـوطُ يخيـــف ولا نـــذير
تدين له الجوارح طائعــات وتمضـــى فـــى الحيـــاة بمـــا يشـــير

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صــ ٤١ – ٤٣ . وكُبول: قيود .

يُبصِّرنى طريقى فى الدَّياجى ويعصمنى إذا ارتكس الشعور
غذته عقيدة غرَّاءُ حتى زكا بيتاً وَرَوَّاهُ نمير [١]

ولعل تلك التجارب الثلاثة – فيما يتسم به مضمونها من سمات هنا ، حيث تُجسِّد التجربتان الأوليان – كما رأينا– مشاعر رقيقة يغلفها الحزن الشفيف ، بينما تُجسِّد التجربة الثالثة مشاعر وأحاسيس قوية تستمد قوتها من طبيعة مضمون التجربة فيها .. لعل تلك التجارب الثلاثة – فيما يتسم به مضمونها بتلك السمات – تتفق وطبيعة ذلك البحر ، أعنى :" الوافر" الانسيابية ، بحيث يمكن تطويعه من موقف لآخر – كما رأينا –خلال تلك التجارب المُشار إليها هنا .. حيث يقول عنه العروضيون : " فالوافر ألين البحور ، يشتد إذا شددته ، ويرق إذا رققته "[٢] ، وهو– أي بحر الوافر–: "مسرع النغمات مُتلاحقها مع وقفه قوية ، فسرعان ما يتبعها إسراع وتلاحق ، وهذا يتطلب من الشاعر أن يأتي بمعانيه دفعاً ، كأنه يُخرجها من مضخة لافى انثيال" [٣] .

" وأنساقه – أي ذلك البحر– الإيقاعية ، وتدفُّق مقاطعه ، وانبتاره.. كل ذلك يُرشحه للأداء العاطفي ، سواء أكان ذلك فى الغضب الثائر والحماسة ، أم فى الرِّقة الغزلية ، والحنين .. إنه بحر المعزوفات الحزينة ، بحر هيِّن ، ليِّن رقيق ، عذب النفس ، حلو الصوت ، هادئ الإيقاع ؛ وذلك لطواعية تفاعيله ، وصفائها ، ومن ثم ينهض هذا البحر بإفراز العواطف ، يستوى فى ذلك أن يكون هذا الإفراز ثورة ، أم

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٢٥ ، ٢٦ ، ويحور : يتحول ويهلك ، وبقسطاس : بميزان عدل ، وكمي : جندى شجاع ، وارتكس : انقلب وفسد ، ونمير : عذب صافٍ ، وتفيأ : استظلّ.
(٢) إلياذة هوميروس : تعريب سليمان البستانى– ٩٢/١ .
(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب: د/ عبد الله الطيب : ٣٣٢/١ – ط دار الفكر – الطبعة الثانية – ١٩٧٠م .

رقة ، أم حماسة ، أم حنيناً " [١] .. ولا شك فى أن تلك المشاعر – فى أكثرها – موجودة ومتحققة – خلال التجارب المذكورة هنا" .

وجرياً على عادة الشعراء العرب المعاصرين – فى عدم إكثارهم من النظم على موسيقى بحر الطويل نرى الشاعر ينظم قصيدة واحدة على موسيقى ذلك البحر .. والتى بعنوان " يا شعر" ، مُخالفاً فى الوقت ذاته ما عُرف عن حال وطبيعة ذلك البحر لدى الشعراء العرب القُدامى :" حيث يشيع (بحر الطويل) فى الشعر القديم ، ويشتمل على ثمانية وعشرين مقطعاً .. ومن المُلاحظ أن بحر الطويل يُعطى إمكانيات للسرد ، وللبسط القصصي ، والعرض الدرامي ، ولهذا نجده يكثر فى أشعار السِّير والملاحم واحتواء الأساطير.." ويمكن أن نُرجع ظاهرة قلة نظم الشعراء المُعاصرين على البحر : " الطويل" ، وانهيار نسبة هذا البحر فى العصر الحديث– كما يقول د/إبراهيم أنيس ، حيث قد مضى زمانه ، ولم تَعُد له المنزلة الأولى التى ألفناها فى أشعار القدماء إلى ندرة فن الملاحم ، وفن السِّير الشعرية ، والقصائد الملحمية فى العصر الحديث .." [٢].

ولعلّ ذلك التعليل لتلك الندرة فى استعمال موسيقى ذلك البحر فى العصر الحديث هو ما ينطبق على حال تجارب الشاعر الوجدانية ، ويتفق مع طبيعتها هنا، حيث تبتعد كلّ البُعد عن الملاحِم ، والسِّير ، مما يُناسبه مُوسيقى ، وأنغام ذلك البحر.

---

(١) يراجع فى ذلك : بلاغة الإيقاع فى القصيدة العربية : د/عبد الباسط عطايا – صـ ٦٢- طبعة ١٩٩٥م ، ويُنظر كتاب : العذرية البدوية فى بوح عبد العزيز سعود البابطين الشعري- قراءة نقدية فى آليات الإبداع ومعطياته : د/ صبرى فوزى عبدالله أبو حسين – صـ ٩٦ – مطابع الولاء الحديثة – ٢٠٠٧م.

(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/صابرعبد الدايم – صـ ١٢١ ، ١٢٢ .

كما يبدو للناظر فى وجدانيات شاعرنا صان الدِّين إهماله إيقاع بحر البسيط ، وهجره استعمال تفعيلاته فيها ، مع ما فى تفعيلات ذلك البحر من طول يتيح للشاعر أن يُعبِّر عن الكثير من المعانى ، جارياً فى ذلك على غير المعتاد ، وخارجاً على المألوف فى استعمال موسيقى ذلك البحر فى الشعر العربي .

ويلحظ المُطَالِعُ لوجدانيات الشاعر أيضاً إهماله خلالها لموسيقى بحور : المديد ، والهزج، والسريع والمنسرح والمُضارع ، والمقتضب ، والمجتث ... وتلك بحور تتسم بأنها نادرة الاستعمال ، قليلة الوجود فى الشعر العربي- قديمه ، وحديثه.. مما يجعله – أي الشاعر- جارياً فى ذلك على المعتاد ، وليس خارجاً عن المألوف فى هجره لموسيقى تلك البحور المذكورة ..حيث نرى بحر المديد :" قد استثقل العروضيون لقُدامى موسيقاه"[١] .

وهذا البحر : أعنى : بحر المديد "- فيه صلابة ووحشية وعنف ، وهو- على بساطه نغمه- يعسُر على الناظم ؛ لأنَّ تفعيلاته تتطلب كلمات مقطعة ، وأحسب أن هذا العُسْر قد جعل الشعراء يتحامونه "[٢] .

والدكتور إبراهيم أنيس يُؤكِد هذا الكلام- من خلال إشارته إلى ندرة المنظوم على موسيقى ذلك البحر فى الشعر العربي .. حيث يقول : " هذا البحر اعترف أهل العروض بقلة المنظوم منه "[٣] .

---

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطوُّر د/صابر عبد الدايم يونس – صـ ١١٣ .
(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب :د/ عبد الله الطيب المجذوب : صـ ٧٧ – ط مصطفى البابي الحلبي – القاهرة – ١٩٥٥م .
(٣) موسيقى الشعر :د/ إبراهيم أنيس – صـ ٨٩ ط مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة – الطبعة السادسة- د.ت.

أما بحر السريع فيقول عن موسيقاه العروضيون : " إنَّ موسيقاه فيها اضطراب ، ولا تستريح إليه الآذان إلا بعد مران طويل .. ؛ وذلك لقلة ما نظم منه، والشعراء القُدامى لم يُكثروا من النظم فى الإطار الموسيقي لهذا البحر .. وفى الشعر العربي فى العصر الحديث : " قلَّت نسبة شيوع هذا البحر ، وأصبح شعراؤنا ينفرون منه ، ومن موسيقاه " (١) .

" وبحر المجتث ينظر القدامى إليه نظرة استهجان .. ومن ثم فلم ينظم الشعراء قصائدهم فى هذا القالب النغمي لهذا البحر إلا قليلا " (٢) .

" أما بحر الهزج ففيه مع سذاجته حِدَّة .. "(٣) . وأمَّا بحر المنسرح : " فقد هجره المُحدثون ، وأغلب الظنِّ أنه سينقرض من الشعر فى مستقبل الأيام "(٤) .

وأمَّا بحرُ المُضارع والمقتضب فقد جرى الشاعر فى عدم نظمه على موسيقاهما على سنن أغلب شعراء العرب ، وعادتهم فى ذلك ؛ :" وهذا لعدم ألفة النظم على موسيقاهما ، فالأول يتألف من أربعة أجزاء هي: مفاعيلن فاعلاتن مرتين، والثانى يتألف من أربعة أيضاً مفعولات ، مستفعلن مرتين ، لذا ما جاء من شعر على موسيقاهما فهو قليل ، ومصنوع" (٥) .

---

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/ صابر عبد الدايم يونس – صـ ١٤٦ ، وينظر : موسيقى الشعر : د/ إبراهيم أنيس صـ ١٨٩ – ٢٠٨ .
(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطوير: د/ صابر عبد الدايم يونس – صـ ١٥٢ .
(٣) منهاج البلغاء ، وسراج الأدباء : لحازم القرطاجني –صـ ٢٦٨ – تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة – ط دار الغرب الإسلامي – بيروت – الطبعة الثانية –١٩٨١م.
(٤) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطوّر : د/ صابر عبد الدايم – صـ ١٤١.
(٥) موسيقى الشعر : د/إبراهيم أنيس – صـ ١٨٩ - بتصرف يسير .

" والزجاج يقول عن هذين البحرين : إنهما قليل جداً فى الشعر العربي ، حتى إنه لا تُوجد قصيدة منهما لعربي .. "(١) .

وإلى بحر المجتث : " نظر القُدامى نظرة استهجان ، فلم ينظم الشعراء قصائدهم فى هذا البحر إلا قليلا.. "(٢) .

.. وهكذا وفى ضوء الأقوال السابقة عن البحور المذكورة آنفا- يُمكنني أن أرجع السِرَّفى هجر الشاعر لموسيقى تلك البحور ، حيث رأيناه قد جارى فى ذلك الشعراء العرب القُدامى منهم والمحدثين ، وحذا حذوهم ، ونسج على منوالهم .

وبقي بعد ذلك بحر المتدارك -ذلك الذى هجر الشاعر إيقاعه ،وأهمل موسيقاه .. مع ما عُرف من أمر ذيوعه ، ونبأ شيوعه فى الشعر العربي ، لاسيما فى العصر الحديث :" فإننا حين نتأمَّل دواوين الشعراء المعاصرين نجد أن موسيقى ذلك البحر: (بحر المتدارك) هي الأكثر شيوعاً ، وسيطرة على إيقاع القصائد .. ويمكن أن نقول : إنَّ موسيقى هذا البحر الواثبة تناسب سرعة الإيقاع فى هذا العصر ، وهي أيضاً انعكاس لشدة الانفعال ، وتأجُج العاطفة ، وتوقدها " (٣) .

ولعل عدم نظم الشاعر على موسيقى بحر المتدارك يرجع إلى عدم إلفه إياها، أو عدم ارتياحه لها ، لاسيما وأنه يتسم بالجدّ والرزانة والتعقُّل والتروِّى .. وغير ذلك من الأجواء البعيدة عن طبيعة إيقاع ذلك البحر السَّريع ، وموسيقاه الواثبة ومهما يكن من أمرٍ فستبقى تلك الأقوال غير مطردة ولا ثابتة ، حيث لا تقوم على

---

(١) القصيدة العربية - عروضها فى القديم والحديث : د/ محمد عبد المنعم خفاجي - صـ ٢٠١ - ط المكتبة الأزهرية للتراث - درب الأتراك - الطبعة الأولى - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .
(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/صابر عبد الدايم يونس - صـ ١٥٢ .
(٣) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطوُر: د/ صابر عبد الدايم - صـ ١١٣ .

ضابط ثابت ، ومعيار دائم ، وإنما هي لا تعدو سوى كونها اجتهادات ، ووجهات نظر تقوم على التغليب لا التأكيد .. وليس على الدارس أن يفترض وجودها ، وينتظر تحققها لدى كلِّ شاعر ، وفى أغراض عنده بعينها .. ويضاف إلى ذلك أن الدراسة التى بين أيدينا إنما تتناول جانباً واحداً من بين جوانب إبداع شاعرنا صان الدِّين – ذلكم هو الجانب الوجداني من شعره .. مما يؤكد عدم إطِّرَاد تلك الأحكام ، وأنها لا ترقى لأن تُتَّخذ منها قاعدة ثابتة مطردة .

(ب) رَصْدُ القوافى التى صبَّ الشاعر وجدانياته فى قوالبها ، وعلاقة ذلك بمعانيه ومضامينه .

القافية هي ركن أساس ، ومُكوِّن رئيس ، ولبنة أكيدة فى بُنيان الشعر العربي الخليلي ، فهي قسيمة الوزن فى الإيقاع والموسيقى ، لا سيما عند الشعراء المحافظين على الشكل التقليدي الموروث للقصيدة العربية ، حيث يحرصون عليها، ويلتزمون بها ؛ تنبُّهاً منهم ، وإدراكاً لبالغ أهميتها ، وعظيم جدواها ، وجودة مُختتمها ... " فقد قال بعض العرب لبنيه : " أجيدوا القوافي؛ فإنها حوافر الشِّعر ، أي عليها جريانه واطِّراده، وهي مواقفه ، فإن صَحّت استقامت جريته ، وحسنت مواقفه ونهاياته" [1] .

فهي أي القافية :" ذات قيمة جمالية تُعطى الشعر صفة التأثير فى الحس البشري ، وتجعل له ميزة فنية تمنحه قبولاً فى النفس ، كما أنها ذات سلطان يفوق ما لنظائرها فى اللغات الأخرى" [2] .

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني – ت ٦٨٤هـ – – صـ ٢٧١ –تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة – ط دار الكتب الشرقية .

(٢) الزينة فى المصطلحات الإسلامية والعربية : لأبى حاتم الرازي حسين فيض الله – صـ ١٢٣– ط دارالكتاب العربي – القاهرة – ١٩٥٧م.

ثم إن قيمتها –أي القافية – تكمن أيضاً فى أنها :" تشـدُّ الصورة الأدبية الجزئية فى إطار الصورة العامة للقصيدة ، أو المقطوعة شداً مُحكماً وثيقاً ؛ مما يؤكد وحدة الموسيقى فى الصورة ، وتآلفها مع المعانى الجزئية فيها ، والغرض منها"(١) .

ولعله قد بدا– من خلال الأقوال السابقة– أن القافية ليست مجرد حلية لفظية، أو زينة شكلية فى القصيدة دون أن يكون لها أثر النفاذ فى تجسيد ما تتضمنه القصيدة من معانٍ وأفكار مصحوباً ذلك ببعث السرور فى النفس ، وإحداث الإمتاع لها عن طريق تردُّد مقاطعها – أي القافية– بصورة منتظمة يتوقَّع المُتلقِّى مجيئها ، ويترقب إتيانها .. حيث يبعث أمر تكرارها :" السرور فى النفس ، وينقل الفكرة إلى العقل ، ويزين الشعر ، ويخلق جواً من التأمُّل الخيالي ؛ فيسهل على المرء أن يُحِسَّ بمعانى الشعر ، وكأنها تتحرك أمام ناظريه فى جوٍ من الجلال الشعري.."(٢) .

" وإن تكرارها :(أي القافية) يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية ، فهي :(أي القافية) بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع تردُّدها ، ويستمتع بمثل هذا التردُّد الذى يطرق الآذان فى فترات زمنية منتظمة ، وبعدد مُعيَّن من مقاطع ذات نظام خاص يسمَّى بالوزن "(٣) .

ولا شك فى أن هذه الأهمية البالغة للقافية تدفع الشعراء الأصلاء إلى الالتزام فى إبداعهم ؛ حرصاً منهم على إضفاء سمات الرونق والبهاء والحُسن والرّواء والبراعة والإثارة على قصائدهم ، ومن ثم يقبل عليها المُتلقُّون ، ويتعايشون معها

---

(١) النقد الأدبي الحديث : د/ محمد غنيمى هلال – صـ ٤٩٦.
(٢) مدخل إلى تحليل النص الأدبي :د/عبد القادر أبو شريفة حسين لافى – صـ ٨– ط دار الفكر للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٩٩٠م .
(٣) موسيقى الشعر :د/إبراهيم أنيس – صـ ٢٤٦.

بقلوبهم ووجداناتهم ، حيث تضمنُ القافية الجيدة المتمكنة للقصيدة الخلود والبقــاء .. وشاعرنا صان الدِّين هو واحدُ من شعراء الأزهر الشريف الجادين الأصــلاء الــذين أدركوا ذلك ؛ فتشبثوا من ثم بالتراث العربي الزاهر الخالد ، وانطلقوا فى إبداعهم من قيمه وثوابته .. حيث رايناه يلتزم فى كُلِّ تجاربه : " قصائده الوجدانية " بوزن واحــدٍ ، لم يتعداه إلى غيره من الشعر الحُرِّ الذى لا يتقيَّد بوزن ولا قافية .. صــاباً بــذلك وجدانياته جميعا فى قوالب الأوزان الخليلية ، مُحافظاً فى ذلك على عمــود الشــعر العربي الخليلي الموروث ، وأيضاً رأيناه يلتزم بالقافية المُوحَّدة فى الكثير من تجاربه الوجدانية ، باستثناء بعض تجاربه التى نوّع فيها ، وجدَّد تنويعاً وتجديداً ينطلق أيضاً – من خلال التراث العربي ، فلم يكن صان الدِّين فى تنويعه القوافى ، وإتيانــه بهــا على شكل الخماسيات – كما سنرى– لم يكن فى ذلك مُتمرِّداً على التراث ، ولا تأثراً على ثوابته ، ولا خارجاً عن تقاليده .. وإنما كان متأثراً بالأندلسيين فى موشــحاتهم ، وبالمدارس الرومانسية فى الشعر العربي مُتمثلة فى : المهجر ، والديوان ، وأبولُّو .

وبعد حصرى لوجدانيات شاعرنا صان الدِّين تبيَّن لى استخدامه فــى قوافيــه خلالها من بين حروف الهجاء ثمانية حروف ، بجانب قوافيه المُتنوَّعة التــى ســيأتى الحديث عنها لاحقاً– بإذن الله تعالى ، وبتوفيقه –سبحانه .

وقد جاءت هذه الحروف : " القوافى" المستعملة فى وجدانيات صــان الــدِّين مرتبة على النحو التالي :

أولاً: جاء حرف الراء فى المرتبة الأولى ، حيث جعله الشاعر روَّياً للقافية فى ســت قصائد تقريباً ، هي : " أنغام الحياة أنت" ، "والحارس اليقظان " ، "أهــي القيامــة أوشكت" ؟ ، "حكمة طائر " .

ثانياً: جاء حرف الميم فى المرتبة الثانية ، حيث جعله الشاعر روياً للقافية - خلال وجدانياته فى ثلاث قصائد تقريباً ، هي : " يا شعر" ، "حائر" ، " أيتها النفس" .

ثالثاً: جاء حرف النون فى المرتبة الثالثة ، حيث جعله الشاعر روياًللقافية -خلال وجدانياته- فى قصيدتين تقريباً.. هما :" سأشدو" ، "حلم شاعر" .

رابعاً: جاءت بعد ذلك حروف : الدَّال والقاف والهاء والواو واللام بنسب مُماثلة ، جعل الشاعر كلُّ حرف منها رويَّاً لقصيدة واحدة - خلال وجدانياته - حيث جاءت على روي الدَّال قصيدة الشاعر الوجدانية : " أشواق مغترب" ، وجاءت على روي القاف قصيدته الوجدانية :" ورحلتِ يا أُمَّاه" ، بينما جاءت على روي الهاء قصيدته الوجدانية ": زفرة" ، وجاءت على روي اللام قصيدته الوجدانية :" أزف الرَّحيل" ، فى حين جاءت على روي الواو قصيدته الوجدانية :" الحنين إلى أرض الكنانة" .

وبهذا يكون الشاعر قد جمع فى قوافيه -خلال وجدانياته - بين الحروف الشائعة المألوفة فى الاستعمال العربي من مثل : الرَّاء ، واللام ، والميم ، والنون ، والدّال .. ، وبين الحروف المتوسطة الشيوع ، من مثل حرف : القاف هنا ، وبين الحروف النادرة - فى مجيئها رويَّاً من مثل : الواو هنا" (١) .

---

(١) ينظر فى ذلك التقسيم لحروف الهجاء فى مجيئها روياً بين الشيوع والتوسُّط والقلة والندرة فى : موسيقى الشعر :د/ إبراهيم أنيس - صـ ٢٤٨ - الطبعة الخامسة -١٩٨١م .

ولعلَّ إهمال الشاعر لبقية حروف الهجاء ، وعدم استعمالها فى قوافيه هنا .. لعلَّ ذلك راجعُ إلى كون تلك الحروف : " كريهة ، بشعة ، تصدم الآذان ، وتغشى النفس ، وتخدش الحاسة الفنية " (١) .

والذى يطالع قوافى شاعرنا صان الدِّين – خلال وجدانياته – يبدو له – بجانب ذلك– ما تحقَّق فيها من سمات التمكُّن والثبات ؛ وذلك لصدورها عن نفس مطبوعة صادقة ، ومن ثم فلا نجد فيها – أي القافية – خلال الكثير الهائل من وجدانيات الشاعر أثراً للاجتلاب ، و التكلُّف ، والقلق فى صياغتها..

ويطيب لى الآن أن أنتقي من بين وجدانيات الشاعر بعض التجارب التى أقف من خلالها على سمات وخصائص القافية فيها ، مُجليًّا مدى كون القافية جيدة متمكنة ثابتة مُستقرة فى مواضعها ، استدعتها ألفاظ البيت ، وافتضاها مضمونه .. فجاءت من ثم –بما تدلُّ عليه من تلك السمات والخصائص– ملائمة للجو النفسي والشعوري المُسيطرين على الشاعر – خلال وجدانياته .

حيث نلتقى فى هذا الصدد بتلك الطائفة من نماذج الشاعر التى تتسم فيها قوافى وجدانياته بتلك السمات من القُوّة والجودة والتمكُّن والثبات والاستقرار والاستدعاء من قِبل الفكرة والمضمون .

فها هو ذا شاعرنا صان الدِّين فى قصيدته التأملية :" الإنسان مُحيَّر" – يُنادى فيها الإنسان – ذلك المخلوق الذى حار الفكر فى كنهه ، مُهيباً به أن يُفصح عن طبيعته . . ألِى أي جنسٍ من المخلوقات يميل وينتمى؟ .. ألِى المُؤنس الأليف؟ أم

(١) الشعراء وإنشاد الشعر :د/ على الجندي – صـ ١٢٠ – ط دار المعارف– ١٩٩٩ م.

إلى المُوحش المُخيف ؟ ألِى الحَمَل الوديع ؟ أم إلى المفترس الفظيع ؟ أم أنه مزيج من هذه الأجناس جميعاً .. حيث يقول :

أيُّها الإنسان أفصِح فيك حار الدّهر فِكرُ
يا ترى هل أنت قط مُؤنسٌ أم أنت نمر؟!
أنت عصفور وديع ساجع أم أنت صقرُ؟!
أم من الأجناس طراً فيك يا مجهول قدر؟!
أيها المخلوق فى نطق ووعي أنت سِرُّ (١)

والذى ينظر فى قوافى تلك الأبيات يبدو له ما تتسم به من سمات التمكُّن والثبات والاستدعاء والاستقرار ، وسلامتها من ثم من الضعف والقلق والاجتلاب والتكلُّف .. حيث كانت مما استدعاها المعنى ، واقتضاها المضمون ، لاسيما بعد أن رشح الشاعر لها ، وأومأ بها ، ودلَّ عليها ، وجعل المُتلقِّى يتوقع مجيئها ، ويتصوَّر طبيعتها قبل الوصول إليها .. حيث نراه يرشح للقافية فى البيت الأول : وهي كلمة : " فكر" بتعبيره قبلها بكلمة : " حار" ، فالذى يحار عادة هو العقل والفكر ، ونراه : يُقدِّم على القافية فى البيتين : الثانى والثالث ما يُرشح لها ، ويومئ بها ، ويدلُّ عليها، حيث نراه يرشح للقافية الواردة فى البيت الثانى ، وهي كلمة : " نمر" – بتعبيره قبلها بكلمتي : " قط مؤنس" المطابقتين للقافية ، والمُقابلتين لها فى المعنى ، وكلمة : " صقر" – تلك التى جعلها الشاعر قافية للبيت الثالث نراه – أي الشاعر – يُرشح لها ، ويومئ بها–من خلال تعبيره قبلها : بكلمتي :"عصفور وديع" .. حيث كان ما قبل القافية هنا مسُوقاً إليها ، ومُنبئاً عنها ، وكلمة : " قَدْر" التى بمعنى : " حظ ونصيب "

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٧.

الواردة فى البيت قبل الأخير قد حظيت بقدر كبير من التمكُّن والثبات – كما نـــرى – حيث تَرِدُ فى ثنايا تساؤلات الشاعر الكثيرة عن طبيعة الإنسان – ذلك المخلوق الذى حارت فى كنهه الأفكار .. فهو _ أي الشاعر – بعد أن عدَّد الأجناس المتقابلـــة التـــى مرَّ ذكرها فى البيتين الثانى والثالث راح يتساءل هنا مُخاطباً الإنسان –ذلك المخلـــوق الذى حيَّر الأفكار ، وأتعب العقول : أم مِن تلك الأجناس جميعاً فيك أيها الإنسان حظ ونصيب من الجِبلاَّت والطباع .

ثم تأتى قافية البيت الخامس والأخير من هذه الخماسية فنراها تتســـم –بمـــا اتسمت به نظائرها فى تلك الأبيات مـــن ســـمات الـــتمكُّن ، والثبـــات والاســـتدعاء والاستقرار ، بعيدة فى ذلك عن القلق والاجتلاب .. حيث نزلت –كأخواتها– فى تلكم الخماسية فى مكانها ، فبدت من ثم فيه ثابتة ، وأتت راســـخة ، وجـــاءت كـــالموعود المنتظر .. فمعلوم أن القصيدة هنا تحمل ذلك العنوان : " الإنسان مُحيَّرُ" ، والتجربـــة تدور –فيما تدور – هنا حول كون عالم الإنسان وخلقه وطبيعته – مهما قيل عنه من أقوال ، وقدَّم بشأنه الفلاسفة والمُفكِّرون من نظريات فسيبقى ذلك العالم مُغلَّفاً بالخفاء ، مشوباً بالغموض ، مُحاطاً بالغطاء .. وهذا المعنى هو ما أدته وجســـدته وأبرزتـــه وأكدته القافية الواردة فى هذا البيت الأخير من تلك الخماسية المذكورة ، حيث عبَّـــر فيها الشاعر بتلك الكلمة الدالة المُشعَّة:" سِرُ" والتى كانت أقوى وأبلـــغ مختـــتم لتلـــك المقطوعة : أيها المخلوق فى نطق ووعي أنت سرٌّ .

ومن بين النماذج الكثيرة للقافية الجيدة المُتمكنة فى وجدانيات الشاعر ما جاء فى قوله من قصيدته الوجدانية المفعمة بالشكوى والألم إزاء ما جَدَّ وطرأ على الحياة والمجتمع فى أيامه من عادات سقيمة ، وسلوكيات مريضة تصطدم معها نفسه الرقيقة ، وتتألم منها ذاته الرهيفة .. حيث يُمعن فى الأبيات التالية فـــى تجســـيد مـــا يلفّـــه ويُسيطر عليه من مشاعر الضيق واليأس والتشاؤم والإحباط .. لدرجة أنـــه يســـتوى

عنده الشيء ونقيضه فى هذه الحياة بعد أن استحالت فى ناظريه سواداً ، وغدت قتاماً .. يقول صان الدِّين :

هذى الحياة نعيمها وشقاؤها أين اختفى عن ناظري بهاؤها؟!
سيان عندى حلوها ومريرها إرواءها فى مهجتى إظماؤها!!
أنسامها لفحُ السموم يُمضُّنى وصباحها فى ناظري مساؤها(١)

فكلمة :" بهاؤها" تبدو –كما نرى– ملائمة لمضمون التجربة هنا ، حيث استدعتها ألفاظ البيت ، واقتضاها مضمونه ، حيث تردُ القافية هنا بمعرض سؤال الشاعر الدال على الأسى والحسرة والضياع والحيرة : أين اختفى عن ناظري بهاؤها ؟..فالنضرة والبهاء والبهجة والرِّواء قد غابت عن ناظريه .. فلم يعد ينظر للحياة سوى تلك النظرة العابسة القاتمة المُتجهِّمة.

أما قافية البيتين الثانى والثالث من هذه الأبيات فقد بدتا مُتمكنتين مستقرتين ثابتتين ذلولتين .. ما جاء قبلها من كلمات كان دالاً عليهما ، ومُومئاً بهما ، ومشوقاً إليهما ، حيث رَشَّح الشاعر لهما – كما نرى– من خلال مجيئه –بما يطابقهما فى المعنى .. فكلمة :" إظماؤها" رشَّح لها ، وأومأ بها تعبيره قبلها بالكلمة المُطابقة لها :" إرواؤها" .. وكلمة :" مساؤها" الواردة فى قافية البيت الثالث رشَّح لها الشاعر ، وأومأبها ، ودلّ عليها بذكره قبلها الكلمة المطابقة لها: " صباحها" ، فجاءت من ثم كالشيء الموعود المنتظر ، والأمر المَرْجو المرتقب .

والحال ذاته متحقق فى الكثير الهائل من قوافى وجدانيات شاعرنا صان الدِّين .. حيث تتسم – كما ذكرت– بالتمكن والاستقرار والثبات ، وتَسلم بالضرورة من

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٦.

التكلف والقلق والاجتلاب .. حيث يمكننا الوقوف على تلك السمات للقـوافى الجيـدة المُتمكِّنة – من خلال قول الشاعر من قصيدته الوجدانية : "الحنين إلى أرض الكنانة" – تلك التى أبدعها من وحي الغربة والحنين ، حيث يُناجى مصر ، ويُنادى ربوعها ، باثاً بين يديها ما ينتابه ، وتفيض به نفسه من مشاعر الحُبّ الدَّائم ، والحنين الدَّائب ، والشوق الفائض– إزاء مصر الحبيبة، وربوعها العزيزة الغالية :

تَعُجُّ بقلبى حـرور الجـوى ويهفو بروحى حنـين النَّـوى
فأبكى ولكن بغيـر دمـوع وأظمأ لكن بـدون ارتـوى
كأنـى فطيـم قبيـل الأوان جفته المراضـع حتـى ذوى
فيا مصر إنى غريب الديـار مشـوق الفـؤاد مريـد الهـوى
وأنت الرِّواء لـذاك الغليـل وأنت الدَّواء لهـذا الـدّوى(١)

وأيضاً من خلال قول الشاعر فى معرض الشكوى والألم – إزاء مـا يـرى ويُشاهد فى مجتمعه من غرائب ومتناقضـات ، ومسـاوئ ومثالـب فـى الأخـلاق والأعراف ، مما تتألم وتحزن منه نفس الشاعر الرقيقة ، وتُصدم به مشاعره الرهيفة .. حيث نراه يتساءل – خلال الأبيـات التاليـة ، مُتحسِّـراً إزاء تـدنِّى الأخـلاق ، وإنزوائها من بين الأحياء ، مُتشوِّقاً فى الوقت ذاته إلى تلك الأخلاق الكريمة ، والشيم العالية التى ضاعت فى دنيا الناس فى عصره :

أين أخـلاق لـها عِطر كأنفـاس الزهـور؟!
تجعل الإنسـان يحـيا فـى أمـان وحُبـور
ليس يخشى حيث يسـعى مـن أحابيـل وزور

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٦١ ، ٦٢ .

لهف نفسى لم يعد منهـــا سـوى النـــزر اليســـير!!
فى انزواءٍ عن غبار الـــز يـــغ فى عصـــر الشرور(١)

وكذلك من خلال قول الشاعر ينتقد ذلك المسلك المعيب –فيما يطلق عليه المتصوفة الزائفة ذكراً لله سبحانه ، مُجلِّياً وجه الصواب ، وواقفـاً على المسلك الصحيح فى الذكر والتسبيح :

ليســت الأذكـارُ مزمـــاراً ولهـــــواً بـــــالطُّبُول
لا ولا استعراض هزّ العطـ ف فـــى عـــرض الســـبيل
أو رطـــون دون معنـــى فـــى صُـــراخ وعويـــل
إنمـــا الأذكـــار معنـــا هـــا خشـــوع للجليـــل
واكتســـاب الرزق بالمجـ هود فـــى المسعى النبيل (٢)

ونطالع أيضاً تلك القوافي الجيدة- من خلال قول الشاعر يتأمل فيما أودعـه الله سبحانه فى ملكوته الواسع الفسيح من مظاهر العظمة ، ومعالم الجمـال ، حيـث رأيناه يُقيم أبياته التالية – ومنها قوافيه خلالها- على التطابق والتقابـل الواقـع بـين مجالى الطبيعة الكونية ، مما يُحدث تناغماً وتناسقاً فى الكون ينطق بطلاقة قـدرة الله سبحانه ، وبديع وحسن صنعه :

من بهــــاء الله كان الحُسـ ـــن فـــى هـــذا الوجـــود
أينمـــا وجهـــت عينـــى فـــى هبـــوط أو صُـــعُود

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٤٩ .
(٢)ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٥٩ .

فى ريـــاضٍ أو بحـــار فـــى وهـــاد فـــى نجـــود
فى صبـــاح فى مســـاءٍ فـــى ســـكونٍ فـــى رُعُـــودِ
لا أرى إلا جمـــــــالاً فى طريـــف أو تليـــد (١)

وأختتم تلك الطائفة من أشعار صان الدِّين الوجدانية والتى تتسم فيها القافية بالجودة والتمكُّن بقوله يتأمل عالم :"حواء" – ذلك العالم البعيد الأغوار ، غير المُتناهى الأسرار ..ها هو ذا شاعرنا يحاول جُهده أن يسبر أغوار ذلك العالم العميق، ويستكنه بعض أسراره –من خلال مخاطبته للمرأة – تلك التى حار فى كنهها الرجال، والتى هي عالم مليء بالألغاز ، حافل بالأسرار :

أنـــت يـــا حـــواء لُغـــز مالـــه فـــى العقـــل حـــلُّ
يا تـــرى هل أنـــت شـــيطان يـــــدنيانا يحـــــل؟!
أم مـــلاك منه فـــوق الـــ أرض أنســـــام وظـــــلُّ
عنـــد سُخـــطٍ أنـــت وعـــرُ فـــى رضـــاءٍ أنـــت سَـــهلُ
أي عمـــــلاق مهـــــيب حيـــن يدنـــو منـــك طِفلُ(٢)

وهكذا يبدو للقارئ الكريم ماتتسم به قوافى شاعرنا صان الدِّين –خلال النماذج المذكورة هنا – من سمات الجودة والتمكُّن والثبات والاستقرار ــ قد استدعتها ألفاظ البيت الذى تَرِدُ فيه ، واقتضته معانيه استدعاءً تاماً واقتضاءً شديداً ، حيث كان ما قبلها – فى أكثر الأحيان مسوقاً إليها ، ولم تكن هي مسوقة إليه .. كما رأينا خلال تلك الطباقات التى تتوفر عليها بعض التجارب المذكورة هنا .

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ١٢٧ .
(٢) ديوان : الإنسان فى الميزان : صـ ٦٧ .

ولعل تلك السمات ترجع إلى أن تلك القوافى ؛ إنما صدرت من نفس مطبوعة ، ونبعت من مشاعر صادقة أحسها الشاعر بذاته ، وعاناها بنفسه ، ولم لا؟ وهذه التجارب جميعاً تجارب وجدانية مسيسة بوجدان الشاعر ، ولصيقة بكيانه، ومن ثم فلا يجد المُتلقِّى فى الكثير الهائل ، والجمهرة العظيمة من قوافى الشاعر- خلال وجدانياته أثراً للاجتلاب والاستدعاء ، ولا يشتم رائحة للتكلّف والقلق ، حيث يُمكن أن يُطلق عليها القوافى الذَّلُلُ المتمكنة- تلك التى يقصد بها : " أن يُبنى البيت من أوله إلى آخره ، فإذا خُتم بها البيت نزلت فى مكانها متمكنة قد رسخت فى مكانها" (١) .

وقد عناها : أي القافية المتمكنة المرزوقي وفسَّرها بقوله: " شدة اقتضاء اللفظ والمعنى للقافية ، حتى لا منافرة بينهما "(٢) ..وزادها المرزوقي تفسيراً وإيضاحاً بقوله يوصى الشعراء بما يجب أن ينزلوا عليه فى صنع قوافيهم ؛ حتى تكون آسرة جيدة متمكنة :" وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المُنتظر ، يتشوفها المعنى بحقِّه ، واللفظ بقسطه ، وإلا كانت قلقة فى مَقرِّها ، مُجتلبة لِمُستغنٍ عنها " (٣) .

ولعلَّ فيما ذكر من نماذج للقافية هنا ما ينبئ عن طبيعة بقية قوافى وجدانيات صان الدِّين ، حيث اتسمت فى الكثير الهائل منها بأنها قوافٍ مستقرة ثابتة متمكنة جاءت فى أغلب الأحيان كالموعود به المُنتظر ، تستدعيها ألفاظ البيت، ويقتضيها

---

(١) شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة : للأستاذ/محمد الطاهر بن عاشور – صـ ٨٠، ٨١ ، طبع الدار العربية للكتاب بليبيا وتونس -١٩٧٨م .

(٢) مقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة: ٩/١ - تحقيق أ/عبد السلام هارون – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة – ١٩٥١م .

(٣) مقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة : ١١/١ .

مضمونه ؛ فبدت من ثم سمْحة طيِّعة ذلولة غير نـافرة ولا حوشـية ولا قلقـة فـى موضعها ، ولا مجتلبة فى مقَرِّها ، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها .

والمتأمل فى قوافى الشاعر –خلال وجدانياته – يبدو له كثرة وذيوع النـوع المُطلق فيها ، وغلبته على النوع المُقَيَّد .. حيث تستأثر القوافى المطلقة بجُـلِّ نتـاج الشاعر – خلال وجدانياته تقريباً ؛ جرياً فى ذلك على عادة الشعراء العـرب – فـى إكثارهم من القوافى المُطلقة ، وإقلالهم من المُقيَّدة .. على نحو ما يؤكِّـده اسـتقراء الباحثين فى قوافى الشعر العربي ، ويشير إليه د/إبراهيم أنيس ، حيث يقول : " وهذا النوع الثانى : (يقصد القافية المُقيَّدة)– قليل الشيوع فى الشـعر العربـي ، ولا يكـاد يجاوز ١٠% ، وهو فى شعر الجاهلية أقلّ من الشعر العباسي " (١) .

" ولعلَّ هذا راجعُ إلى أن القافية المُطلقة أوضح فى السـمع ، وأشـدّ أسـراً للأذن؛ لأن الروي فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل فى الإنشاد ، وتشبه حينئـذٍ حرف المدّ ، ومن المقرر فى علم الأصوات أن حروف المدّ أوضح فى السـمع مـن الحروف الأخرى" (٢) .

باستثناء قصيدتين تقريباً جاءت فيهما القافية مُقيَّدة .. همـا :" أهـي القيامـة أوشكت؟" ، " صمت الطيور" .. ولعل طبيعة التجربة فى هاتين القصـيدتين ، ومـا يسيطر على الشاعر– خلالهما –من مشاعر الضيق والحزن والأسى والألم ، والقيـد والشجَى .. لعل ذلك مما يناسبه تلك القافية المُقيدة .. يبدو لنا ذلك من خـلال قـول الشاعر من قصيدته الأولى يتساءل فى دهشة وذهول :

(١) موسيقى الشعر :د/إبراهيم أنيس : صـ ١٥٨ – ط مكتبة الانجلو المصـرية – الطبعـة الثانيـة – ١٩٦٥ .

(٢) موسيقى الشعر : د/ حسنى عبد الجليل – صـ ٢٨١ – ط الهيئة العامة للكتاب – ١٩٨١م .

أترى المطامِعُ فى بنى الإنسا ن حجَّـــــرت المشــــــاعر؟!
هل أجـدبت تلك النفـــو س وأظلمــت فيــــها البصــائر؟!
لو أنفقوا فى الخير معشــا ر المبــــدَّد فـــى الـــذخائر
لغــــدا يبـاب الأرض يـذ خـــر بالثمـــار وكُـــلّ ناضـــر
ولـــراح سُكّـــان البسيـــ ـــطة ينعمـــون بكـــلِّ وافــــر
لكـــن وواســــفاه كـــلٍّ فـــى طريـــق الشـــرِّ ســـادر!!
أهـــي القيـــامة أوشكت أم أنّ ذا إرجـــافُ هــــاذر؟!
إن كان ذا أوذاك فالإنســـا ن يخبــط فـــى ديــاجـــــر (١)

وقوله من قصيدته الثانية يسأل الطيور عن سبب صمتها وتوقفها عن الشـدو والتغريد ، مُتخذاً من الطيور معادلاً موضوعياً لذاته المثخنة بآلام ، وأوجاع الغربـة والضياع ، ونفسه المصدُومة من واقع الحياة المُتجهم المُستشرى فى الفساد .. حيـث عنى بالطيور هنا نفسه ، وأراد بها ذاته :

لِم لم تُغنِّـــى يا طيـــور لـــم لا تطيـــرى فـــى البكـــور؟!
مالى أراك قـد انطـــويـــ ت فـــلا رفيـــف ولا ظهـــور؟!
وركنـت للصمـت الحزيـــ ـــن وأنّة القلـــــب الحسـير؟!
إنِّـــى عهـــدتك تصدحيـــ ن بكــــل ألحـــان الســـرور!
وترفرفيـــن علـــى الخما ئـــل والجـــداول والجســـور!
وتغازليـــن مع الصَّبـــا ح فتّـــــان الزهــــــور!

(١) ديوان: أعاصير وأنسام – صـــ ٣٧، ٣٨ .

وتبادليـــن الشمــس فى ســـــبحاتها كـــأس الحبــــور!
حتــى يواريـــها المســا ء وراء مســـــدول الســــتور!
فتحلِّقين على المروج الســ ســـاجيات إلـــى الوكـــور!
حيــث الــوداعة والأمـــا ن ودفـء مضـــجعك الـــوثير!
فإذا احتــواك العُــشُّ نِمــ ت كنومـــة الطفـــل الغريـــر!
مـــاذا دهـــاك فصــر ت داميـــة المـــدامع والشـــعور؟!
وتحـــوَّل المَـــرَحُ الــ جميــــلُ إلــى أنيــنٍ أو زفــير؟!(١)

فصمت الطيور – ذلك الذى رمز به الشاعر إلى صمته هو – قيـد وسـكون وتوقف عن الحركة – ناسبه القافية المُقيدة هنا– كما نرى– ولم يُناسبه القافية المُطلقة التى من شأنها أن تُجسِّد الفرح والمرح والانطلاق والدَّعة.

ثانياً : أصداء الموسيقى الداخلية ، ومظاهرها فى وجدانيات الشاعر :

تُعَدُّ الموسيقى الداخلية بالنسبة للقصيدة الجناح الآخر الذى تنهض به – مـع جناحها الذى يتمثل فى الموسيقى الخارجية .. ويُقصد بذلك النوع مـن الموسـيقى : أعنى الموسيقى الداخلية : " مجموعة الخصائص النغمية التى تحفل بها قصيدة مـا ، وهي التى تمنحها روحاً تأثيرية تشدُّ المُتلقِّى ، وتبدو فى الإيقاع الباطن الذى نحسـه ولا نراه ، والكامن فى تعادل النغم عن طريق موسيقى الحرف ، والكلمة ، والـنظم، والأسلوب"(٢) .

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) عود على بدء .. دراسة فى إيقاع الشعر :د/ شفيق عبد الرازق أبو سعده –صـ ٢٣ – الطبعة الثانية – د.ت .

وتتجلَّى تلك الموسيقى فى : " اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم فى الحروف والحركات ، وكأن للشاعر أُذناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كُلَّ شكلة وحرف وحركة بوضوح تام .. وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء"(١) .

وذلك اللون من الموسيقى يغدو ذا قيمة كبيرة ، وأثرٍ محورى فى إبراز وتجسيد ما يموج بوجدان الشاعر ، ويعتلج بصدره من أحاسيس ومشاعر متباينة أحسَّها بنفسه ، وعاناها بذاته ، وما يسيطر عليه من انفعالات مختلفة من مثل : الهدوء ، والرِّضا ، والغضب ، والتعجب ، والفرح ، والحزن، والتفاؤل ، والكآبة .. وغير ذلك من الانفعالات المتباينة التى يستطيع الشاعر – من خلال موسيقاه الداخلية، وما تقوم عليه تلك الموسيقى من مظاهر – أن يجذب إليه نفوس المُتلقِّين فيحسُّون من ثم بما يُحس به ، ويشعرون بما يشعر به .. حيث يجعلهم يقبلون نحو التجربة ، ويقفون على طبيعتها وسماتها ، وذلك من خلال ما تقوم عليه تلك الموسيقى من التعبير بكلمات دالة ، وتراكيب مُعبِّرة ، وأيضاً من خلال استعمال حروف بعينها ذات سمات وخصائص صوتية وموسيقية خاصة ، وتكرار لحروف بذاتها ، وإكثار من حروف المدّ والتنوين .. وغير ذلك من مُكوّنات ومظاهر ذلك اللون من الموسيقى ، والذى من شأنه أن يُكسب التجربة بُعداً تأثيرياً يسرى أعماقه فى نفوس المُتلقِّين .

" فالموسيقى الدَّاخلية هي التى تُكسب النصَّ بُعداً تأثيراً ، وتشد إليه السامع والقارئ ، وهي تتمثل فى : الإيقاع الباطن الذى تحسه ولا تراهُ ، تدركه ولا تستطيع أن تقبض عليه ، ويكمن فى تعادل النغم عن طريق مدَّات الحروف حيناً ، وعن طريق تكرارها حيناً ، وعن طريق استعمال حروف مهموسة ، أو مجهورة تتساوى

(١) فى النقد الأدبي : د/ شوقى ضيف – صـ ٩٧ – ط دار المعارف – الطبعة السابعة – ١٩٨٨م .

مع الإطار الموسيقي العام للقصيدة، لكن على الشاعر ألا يقصر غايته على نغم قيثارته بدون أن يتجاوب هذا النغم مع حركة النفس فى انفعالها الجياش ، وتعانق الفكرة الشاعرية مع رنين القيثارة الموسيقية للقصيدة ، وإلا تحولت الإيقاعات الداخلية إلى نوع من الحلية الصوتية – سرعان ما ينطفئ بريقها ، ويجمد صداها ، ويفرُّ الشعر من بين يديك "(١) .

" وهذه الموسيقى الداخلية الخافتة هي المقياس الدقيق الذى نستطيع من خلاله أن نتفهَّم روح الشاعر ، ونُدرك أصالته ، ونتعرَّف على عناصر فنِّه ، وأنها أثر لكل العناصر الفنية المُجتمعة فى شعر الشاعر من عاطفة ، وفكرة ، ولفظ ، وخيال ، وصُورة"(٢).

والناظر فى وجدانيات شاعرنا صان الدِّين يلحظ أنه عُني بإيقاعه الدَّاخلي – خلالها– عناية فائقة .. حيث رأيناه يضمن العديد من تجاربه الوجدانية الكثير والكثير من الألفاظ والمفردات الدَّالة المعبِّرة عن انفعالاته ، المُجسِّدة –فى صدق عن مشاعره .. بجانب استعماله لحروف بذاتها ، وتكراره لحروف بعينها ، وإكثاره من حروف المدّ والتنوين ، وتزيينه مطالعه بتلك الزينة اللفظية ، وتحليته إياهابتلك الحلية البديعية الموسيقية التى تُعرف بالتصريع ، بجانب استعماله للطباق والترصيع .. إلى غير ذلك مما يُعَدُّ من مظاهر وروافد الموسيقى الداخلية – خلال تجارب صان الدِّين – مما ستقف عليه الدراسة ، وتوضحه الآن.

---

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/ صابر عبد الديام يونس : صـ ٣١ ، ويُنظر : التجديد الموسيقي فى الشعر العربي:د/ رجاء عيد – صـ ١٤ –ط– منشأة المعارف –الإسكندرية – ١٩٨٧م.

(٢) النقد التطبيقي والموازنات :د/ محمد الصادق عفيفي – صـ ٢٥٢ – الناشر – مؤسسة الخانجى – مصر – ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

فلنا أن نقف على مدى اعتناء شاعرنا صـان الـدِّين بموسـيقاه الداخليـة ، ومظاهر ذلك الاعتناء- من خلال قوله من قصيدته التى بعنوان :" حـائر" ، حيـث يُجسِّد لنا ما يلفُّه ويُسيطر عليه من مشاعر الحسرة والحيرة ، والقلق والحزن إزاء ما يحيا فيه من واقع مائل يموجُ بالنقائض والسلبيات ، ويفعم بالعجائب والمتناقضـات – مما تصطدم معه نفس الشاعر ، ولا تنسـجم إزاءه مشـاعره النبيلـة ، وأحاسيسـه الرهيفة:

يا أولـى الألبـاب إنِّى ... حـائر قـد نـدَّ حِلمـى
واختفـت عنـى طريقى ... فـى غيابـات الخضـمِّ
أين شـرقى أين غربـى ... والسـوافى الهـوج تعمـى؟!
خبِّرونـى كيـف أخطـو ... فـى ضـباب تحـت غـيم ؟!
فـوق أشـواك وصخـر ... فـى طريـق العـيش تـدمى
ضـاع أمنـى وائتنـاسى ... بـين غـيلان ورُقـم
إننـى أحـيا غـريباً ... وسـط أقرانـى وقـومى
أغتـدى فيهـم وأمُسى ... فـوق جمـر النـار رغمـى
راحـل عنهـم بحـسِّى ... حـاضر فيهم بجسـمى(١)

فقد تحققت خلال هذه الأبيات –كمانرى- موسيقى داخلية عذبة نتجـت عـن حُسن انتقاء الشاعر لألفاظه ومفرداته وتراكيبه وملاءمتها لحالته الشعورية والنفسـية وانسجامها معها هنا ، من مثل : حائر ، اختفت – غيابات – الخضـم – السـوافى- الهوج – ضباب – غيم – أشواك – صخر- تُدمى – غريباً..

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٨ ، ٥٩.

كما تآزرت حروف المدّ –تلك التى كثرت فى هذه التجربة كثرة ملحوظة – فى تحقق تلك الموسيقى الداخلية ، وأسهمت فى الوقت ذاته فى إبراز وتجسيد الحالة التى هو عليها الشاعر هنا ، حيث تشمله وتتملكه مشاعر الحسرة والحيرة والقلق والضيق إزاء واقعه المائل المائج بالمتناقضات والغرائب – مما تصطدم به نفس الشاعر الرهيفة ، ولا تنسجم معه مشاعره الرقيقة ، من مثل : يا – الألباب – حائر – حلمى– عنِّى – طريقى – غيابات – شرقى – غربى – السوافى – الهوج – تُعمى – خبِّرونى – أخطو – ضباب – أشواك –تُدمى – ضاع – أمسى – ائتناسى – غيلان – أقرانى – قومى– أغتدى – أُمسى – النار – رغمى – راحل – بحسِّى– حاضر – بجسمى .. وفى إكثار الشاعر من استعمال حروف المَدِّ تلك الكثرة المُفرطة – بجانب ما لحق ببعض تلك الكلمات من تنوين ما يلائم أحاسيسه الحزينة تلك ، ويُناسب طبيعة نفسه الحَيْرى المصدومة.. حيث يُعطى ذلك المدّ لإيقاع الكلمات بطئاً وهدوءً .. وهذا من شأنه أن يُعطي للشاعر مساحة كافية يُمكِّنه من خلالها أن يُنفِّس عن آهاته وأناته وزفراته المترسبة فى أعماقه المستقرة فى كيانه ووجدانه .. بجانب ما يمكن أن تُحدثه تلك الحروف – أعنى حروف المدِّ ، وما لحق ببعض الكلمات هنا من تنوين – من إيقاع موسيقى داخلي آسرٍ ، يسُّر النفوس ، ويؤنسها .

ثم كان للنظم –هو الآخر – إيقاعه المؤثر ، وموسيقاه الرائقة –خلال تلك التجربة .. حيث وفق الشاعر فى اختيار تراكيبه خلالها ، فجاءت دالة مُعبِّرة عن مضمون التجربة ، مُجسِّدة وموائمة لحالة الشاعر النفسية والشعورية هنا ، حيث تجسِّد تلك الأساليب ما يلفه ويشمله ويُسيطر عليه من مشاعر حزينة ، وأحاسيس واجمة ناتجة عن إحساسه بالقلق النفسي والغربة والضياع – وهو ماثل بين أهله وذويه .. فلنا أن نتأمل أسلوب النداء ، وماذا يمكن أن يُجسِّده ، ويدلُّ عليه من القلق والحيرة المُسيطرين على الشاعر هنا ، حيث يقول :

يا أولى الألباب إنى حائر . فهو لا ينادى أي أناسٍ ، وإنما ينادى أصحاب العقول الراجحة منهم ؛ كي يسهموا فى إزاحة ما يشتمله من حيرة وضياع..

ولنا أن ننظر فى أسلوب الاستفهام الذى كرَّره الشاعر مرتين ؛ إمعاناً منه فى تجسيد ما ينتابه من إحساس بالغربة ، وشعور بالضياع : أين شرقى؟! أين غربى؟!، وأيضاً لنا أن ننظر فى قوله يتساءل مُتعجِّباً مذهولاً :

خبِّرونى كيف أخطو فى ضباب تحت غيم ؟!

ثم ما أبلغ ذلك التركيب فى تجسيد حالة الشاعر الحائرة القلقة !! وما يتملكها هنا من إحساس بالوحشة والحسرة ، والضياع والغربة ، حيث يقول :

ضاع أمنى وائتناسى بين غيلان ورُقم

وغير ذلك مما يمكن أن يُعَدَّ من روافد الموسيقى الداخلية ومظاهرها فى هذه التجربة ، ممَّا كان له أثر كبير فى إبراز ما يسيطر على الشاعر ، ويلفُّه ، ويشمله هنا من إحساس ممضٍ بالغربة والوحشة والضياع .

بالإضافة إلى الطباق والمقابلة الواردين فى البيتين الأخيرين من تلك الأبيات، حيث طابق الشاعر – كما نرى – بين كلمتي :" أغتدى " ، و "أُمسى" فى البيت قبل الأخير ، وقابل أيضاً بين كلمات :" راحِلُ عنهم بحسى " ، وكلمات : "حاضر فيهم بجسمى " .. حيث كان لتلك الوسائل جميعاً الأثر الكبير فى إبراز ما يسيطر على الشاعر هنا من أحاسيس الغربة والحيرة والضياع ، وفى الوقت ذاته هي – أي هذه الأجزاء المتساوية – لا يخفى ما تُحدثه فى التجربة هنا من نغم عذب ، وتُضفيه عليها من إيقاع آسر .

ومن التجارب التى يبدو فيها تحقق الموسيقى الداخلية –بجلاء– خلال وجدانيات صان الدِّين – ما جاء فى قوله يُجسِّد ما ينتابه ، ويلحّ عليه من مشاعر

الحُبّ الفائض ، والحنين الدَّائم ، والتعلق الدَّائب إزاء مصر الحبيبة ، وربوعها الغالية، حيث يُناديها الشاعر فى الأبيات التالية نداء المُحِبِّ العاشق ، والصَبِّ المُتهالك ، والوجد المُتفانى فى حب مصر كثيرة العُشاق ، مُجسِّداً ، ومُؤكداً ماذا تُمثِّل له مصر ؟، وماذا يُحققه له الرُّجوع إليها ، والمثول فى ربوعها ؟ .. حيث تتوق نفسه وتهفو إلى شربة ماءٍ من نيلها ، تروى ظمأه ، وتذهب بغُلّة شوقه ، وتطفئ أوار حُبِّه ، وجذوة حنينه ، مُمنِّياً نفسه ، ومُؤمِّلاً إياها بتحقق تلك الرَّغبة المُلحَّة فى الأوبة الحميدة إلى ثرى وطنه العزيز ، حيث يخشى أن يدركه الموت قبل أن يئوب من غربته ، ويحتضن ثرى وطنه .. مُؤكداً أن ابن مصر لا يطيب نفساً ، ولا يستريح بدناً إذا ما دُفِن فى غير ثرى مصر الحبيبة .. ولكن كيف الوصول إليها ، وبين الشاعر وبينها حواجز منيعة ، ومسافات جدّ بعيدة:

فيا مصر إنى غريب الديا	**ر مشوق الفؤاد مريد الهوى**
وأنت الرواء لذلك الغليـ	**ل وأنت الدَّواءُ لهذا الدوى**
ويا مصر كيف إليك السبيـ	**ل ودونك قيد وبيد قوى؟!**
ومن لى بشربة ماءٍ روي	**من النِّيل تُطفىء حر الجوى؟!**
أعلِّل نفسى بعودٍ حميد	**إذا ما زمان البعاد انطوى**
وأخشى المنيَّة قبل الإيا	**ب إذا نجم عمرى غداة هوى**
وهل يستريح ابن مصر بأرض	**سوى أرض مصر إذا ما ثوى؟!**[1]

وتفيض هذه الأبيات – كما نرى– بمظاهر الموسيقى الداخلية .. حيث تتعدد روافدها ، وتتنوع مجاليها ما بين موسيقى الحرف ، وموسيقى الكلمة ، وموسيقى

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٦١ ، ٦٢.

النظم .. وتلك المُكوِّنات للموسيقى الداخلية تنبع جميعاً من كون تلك التجربة تتضمن ألفاظاً ، ومفردات دالة مُوحية أحسن الشاعر اختيارها ، ووُفق في التعبير بها ، فجاءت من ثم مُنسجمة مع حالته النفسية والشعورية ، حيث تُجسِّد ما يلف الشاعر ، ويشتمله ، وتنتابه ، وتفيض به نفسه من مشاعر الحُبّ والحنين ، والتعلُّق الدائب ، والشوق الدَّفين إزاء وطنه الحبيب ، وربوعه العزيزة الغالية ..

وهذه الكلمات الدَّالة ، والتراكيب البليغة لا شك في أنها تدخل ضمن تلك المظاهر للموسيقى والإيقاع الدَّاخليين ، أعنى : موسيقى الحرف ، والكلمة ، والنظم، بل إنها – أي تلك المظاهر تتكون من تلك الألفاظ والتراكيب البليغة التى تتوفر عليها التجربة هنا .

أما عن موسيقى الحرف: " تلك التى يُقصد بها النغم الصوتي الذى يُحدثه الحرف ، وعلاقة هذا النغم بالتيار الشعوري والنفسي فى مسار النص الشعري .. ومن المعروف أن لكل حرف مخرجاً صوتياً ، ولكل حرف صفات ، ومخارج الحروف وصفاتها بينها وبين دلالة الكلمة علاقة شعورية وفنية لا يتعمد الشاعر إظهارها ، بل يتجسِّد التوافق النغمي ، والانسجام اللفظي تجسيداً فطرياً لدى الشاعر الموهوب المُتمكن من أدواته اللغوية والفنية ، وصاحب الموهبة الحقيقية .." (١) .

أما عن ذلك اللون من الموسيقى الداخلية – أعنى : موسيقى الحرف ، فيتمثل خلال تلك الأبيات فى تلك المَدَّات التى تشيع وتذيع فى كلماتها هنا ، من مثل : يا، غريب ، الدِّيار – مَشُوق – الفؤاد – مريد – الرِّواء – الغليل – الدَّواء – هذا – يا – السبيل – دونك – وبيد – النِّيل – حميد – البعاد – الإياب – يستريح .. بالإضافة إلى التنوين الكائن فى قوله فى تلك الأبيات : قيدٌ وبيدٌ ، وقوله : بعَوْدٍ حميدٍ ، وما

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور :د/صابر عبد الدايم يونس – صـ ٣٢ .

يمكن أن يُحدثه حروف المدّ والتنوين هنا من نغمٍ داخلى عذب ماتع ، وإيقاع رائق آسرٍ .

وموسيقى الكلمة ، أو : ما يسمونه بالجرْس اللفظي ، والذى له صلة أكيدة بالموسيقى الداخلية ، والذى يعد من الخصائص التى تُميّز اللغة العربية .. (١) .

ذلك اللون من الموسيقى الداخلية يتمثل – خلال الأبيات المذكورة– فى تلك الكلمات المذكورة هنا ، وما تتسم به من الدّقة والإيحاء ؛ تناسباً وتوافقاً مع حالة الشاعر النفسية والشعورية .

وموسيقى النظم والأسلوب حيث : " إنَّ للعبارة نسقاً خاصاً ، وهذا النسق الخاص من التأليف له ضرورته الفنية فى صياغة الشعر – والجانب الإيقاعي فيه يُعَدُّ من ألزم الجوانب المؤثرة أو المُنفِّرة" (٢) .

وذلك اللون من الموسيقى –أعنى موسيقى النظم والأسلوب– فيمكننا الوقوف عليه هنا – من خلال تلك العبارات الدَّالة ، والتراكيب المُعبِّرة التى تفيض بها التجربة هنا من مثل : غريب الدّيار – مشوق الفؤاد – مريد الهوى – أنت الرِّواء – أنت الدَّواء – حرّ الجوى – زمان البعاد .. بجانب ما تضمنته تلك الأبيات من أساليب بليغة من شأنها أن تبرز المضمون ، وتُجسِّد إحساس الشاعر وشعوره بالغربة والحنين الفائضين المُلحين عليه هنا ، من مثل : أسلوب النداء الوارد فى قول الشاعر : فيا مصر .. يا مصر ، والذى يُكرِّره مرتين هنا ، وما يمكن أن يدلّ عليه من إبراز وتجسيد وتأكيد ما ينتابه من قلق وحيرة شديدين ناتجين عن غربته وبعاده عن وطنه .

---

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور :د/ صابر عبد الدايم – صـ ٣٩، ٤٠ – بتصرف .
(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : صابر عبد الدايم يونس – صـ ٤٨ .

وأيضاً من مثل أسلوب الاستفهام الذى يلحُّ الشاعر على استعماله ، ويُكثِّف بها تجربته هنا ، حيث رأيناه يتساءل ، مُجسِّداً صعوبة الوصول إلى مصر الحبيبة، وتعذُّر المثول فى جنباتها العزيزة الغالية :

ويا مصر كيف إليك السبيــ ل ودونك قيد وبيد قوى؟!

ويتساءل صان الدِّين مرة ثانية ، خلال تجربته تلك ، مُجسِّداً شدة شوقه ، وبالغ توقه لأن يروي ظمأه ، ويُطفئ غُلَّة شوقه بشربة ماءٍ روي من نيلها الخالد :

ومن لى بشربة ماءٍ روي من النيل تطفئ حرَّ الجوى؟!

ثم هو ذا صان الدِّين يتساءل ثالثة- خلال تجربته تلك – نافياً عن ابن مصر الراحة والهناءة إذا هو دُفن فى أرض غيرها :

وهل يستريح ابن مصر بأرض سوى أرض مصر إذا ما ثوى؟

مُجسِّداً من خلال ذلك الاستفهام الدَّال على النفي هنا حُبَّه الشديد لمصر الحبيبة وتعلُّقه الكبير بربوعها العزيزة وثراها الغالى .

ولا يخفى ما يقوم عليه البيتان الأولان من أجزاء متساوية من شأنها أن تكسبهما نغماً موسيقياً عذباً ، وإيقاعاً داخلياً آسراً من شأنه أن يأسر النفوس ، ويأخذ بالألباب – على نحو ما يبدو متحققاً –خلال قول صان الدِّين:

فيا مصر إنى غريب الديا ر مشوق الفؤاد مريد الهوى
وأنت الرواء لذلك الغليــ ل وأنت الدَّواءُ لهذا الدوى

فقد قسَّم الشاعر هذين البيتين – كما نرى – أقساماً متساوية تقريباً ، متساوقة متناغمة فيما بينها .. حيث هذه الأجزاء : غريب الديار – مشوق الفؤاد – مريد الهوى – وأنت الرِّواء – وأنت الدواء – لذلك الغليل – لهذا الدَّوى .. وكلها تراكيب تؤكد وتجسِّد مدى حُب الشاعر لمصر ، وحنينه الدائم ، وتعلُّقه الشديد إزاء ربوعها

العزيزة الغالية .. حيث بدا خلال هذين البيتين فى صورة المُحبّ العاشق ، والصَّبّ المُتهالك ، والوجد المتفانى فى حُبِّ مصر .

وتقسيم الشاعر بيتيه هذين أجزاء متساوية يمكن أن يُطلق عليه حسن التقسيم أو الترصيع .. ويُقصد به :" أن يتوخَّى الشاعر حيناً تغيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه " (١) .

وحُسن التقسيم أو الترصيع فى البيت يتمثل فى قيامه على الأنغام الرائقة المُؤثرة التى تضفى عليه بهاءً ، وجاذبية واستمالة ، ونغماً ، وتطريباً .. وهو – أي حسن التقسيم ، أو الترصيع يتحقق إذا أراد : " الشاعر تقسيم البيت إلى أقسام ، بحيث تتفق ماطع الأقسام فى الحرف الأخير والوزن تقريباً ، وهو قريب الشبه بالسجع ، غير أنه يختص بالشعر" (٢) .

والبيتان المذكوران هنا- بما يقومان عليه من أقسام متساوية ، وأجزاء متساوقة ، وتراكيب متناغمة- يفيضان – كما نرى- بموسيقى داخلية عذبة رائقة .. حيث قسَّم الشاعر البيت الأول ثلاثة أقسام متساوية – كما رأينا – ، وقسَّم البيت الثانى أيضاً ثلاثة أقسام ، بحيث يتساوى كل قسم أو جزء منها فى الشطرة الأولى مع ما يماثله فى الشطرة الثانية ، مما أضفى على البيتين نغماً عذباً ، وإيقاعاً آسرا، وبجانب ذلك الأثر الشكلي الذى أحدثه الترصيع ، أو حُسن التقسيم هنا يأتى أثره فى إبراز وتجسيد المضمون – خلال تلك التجربة .. حيث تؤكد تلك الأجزاء المتساوية، والتراكيب المتساوقة جميعاً بالغ حُبِّ الشاعر لمصر ، وشدة تعلقه بربوعها ،

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب :د/ أحمد أحمد بدوي : صـ ٣٣٤ – ط نهضة مصر للطباعة والنشر – الفجالة – القاهرة –١٩٧٩م.

(٢) عناصر الإبداع الفني فى شعر الأعشى : د/ عباس بيومى عجلان : صـ ٢٢٩١ – ط دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ١٩٨٩م .

وضرورة الحياة فى ظلِّها ، فهي أي مصر : الرَّيُّ لظمأه ، والشفاء لدَّائه .. يبدو هذا من خلال تلك الأجزاء التى تقوم على التساوى والتطابق فى الوقت ذاته ، حيث طابق الشاعر –كما نرى– بين الروَّاء ، وبين الغليل ، وطابق أيضاً بين الدَّواء ، وبين الدَّوى ، مما يسم تلك الظاهرة البديعية بسمة الجودة والحُسن ، حيث استدعاها المعنى ، واقتضاها المضمون ، فبدت منسجمة مع الجوِّ العام للتجربة هنا.

وممَّا يتحقق فيه الترصيع أو حُسن التقسيم – خلال وجدانيات صان الدِّين أيضاً ما جاء فى قوله من قصيدته الشاكية ذات النبرة الصادقة ، والعاطفة المُفعمة ، والإحساس الجيَّاش : " زفرة" .. حيث يُجسِّد فى الأبيات التالية ، ما يلفُّه ، ويستبدُّ به، ويسيطر عليه من مشاعر الضيق واليأس والتشاؤم والإحباط ، فيتساوى– من ثم فى ناظريه نعيم الحياة وشقاؤها ، وحلوها ومُرُّها ، وإرواؤها وإظماؤها ، وأنسامها وأقياظها ، وإصباحها وإمساؤها:

هذى الحياة نعيمها وشقاؤها　　　أين اختفى عن ناظري بهاؤها؟!
سيَّان عندى حلوها ومريرها　　　إرواؤها فى مهجتى إظماؤها !!
أنسامها لفح السموم يُمضنى　　　وصباحها فى ناظري مساؤها (١)

ويبدو الترصيع أو حُسن التقسيم مُتحققاً فى تلك الأبيات – من خلال هذه الكلمات التى تتفق غالباً فى الحرف الأخير والوزن : نعيمها – شقاؤها – بهاؤها – حلوها – مريرها – إرواؤها – إظماؤها – صباحها – مساؤها .. حيث لا يخفى ما تُحدثه تلك الكلمات المتساوية فى أغلب الأحيان فى الحرف الأخير والوزن من نغم وإيقاع داخليين آسرين يسر النفوس ، ويُمتِّع الآذان ، ويأخذ بالألباب .. بجانب ما بين هذه الكلمات من تضاد من شأنه أن يبرز المضمون ، ويُجلِّيه ويُؤكده هنا ، حيث

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٥٦.

يؤكِّد الشاعر – من خلال تلك الكلمات المتساوية المتناغمة المتفقة فى أغلب النهايات – ما يلفُّه ويشمله من شعور بالإحباط والضيق واليأس والتشاؤم ، مما يجعل أجـواء الحياة المختلفة ، وأحوالها المتباينة تتساوى فى ناظريه .. نعيمها كشـقائها ، حلوهـا كمريرها ، إرواؤها كإظمائها ، صباحها كمسائها .. ولا يخفى ما يشوب العاطفة هنـا من شائبة المرض .. حيث بالغ الشاعر هنا فى إظهار ضيقه ، وتجهُّمه ، وأمعن فـى تصوير إحباطه ، وتشاؤمه .

وبجانب الترصيع أو حسن التقسيم ، والذى يُعدُّ رافداً من روافـد الموسـيقى الداخلية فى وجدانيات الشاعر يأتى التصريع الذى يُراد به :" أن يستوى آخـر جـزء من صدر البيت ، وآخر جزء فى عَجُزه وزناً ورويا وإعراباً.. وهـو محمـود فـى المطلع ، إلا أنه إذا كثر فى القصيدة دلّ على التكلُّف" (١) .

وبجانب ما ورد ذكره قبل قليل من نماذج للترصيع أو حسن التقسيم – خلال وجدانيات صان الدِّين نلتقى هنا بالكثير الهائل ، والجمهـرة الغفيـرة مـن مطـالع وجدانيات الشاعر – تلك التى يبدو فيها حرصه الشديد على تلك الظـاهرة الصـوتية الرائقة ، والنغمة الموسيقية الأخاذة ، والحلية البديعية الأكيدة ، والتزامـه بهـا فـى الكثرة الكاثرة من مطالع وجدانياته ؛ حرصاً منه على تزيين تلك المطالع بتلك النغمة الموسيقية الساحرة التى يُحدثها التصريع ، وإضفاء مزيد من الإيقاع والنغم الداخليين الآسرين المؤثرين فى النفس على تلك المطالع .. فمما هو معلوم أن التصريع :" نوع آخر من أنواع المناسبة بين مقاطع الكلام يجعل له وقعاً موسيقياً طيِّباً فـى الـنفس ؛

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب : ط/ أحمد أحمد بدوي – صـ ٣٧٠ .

ولذا ولع بـــه الشعراء ، وأغرموا بتزيين مطالع أشعارهم بهـــذه النغمـــة الموســـيقية الأخَّاذة "[١] .

ومن بين تلك المواضع التى حرص فيها الشاعر على الالتزام بتلك الظـــاهرة الموسيقية الأخاذة ذات النغم العذب ، والإيقاع الآسر ، والتى يُــزيِّن بهـــا مطالعـــه ، ويُثرى بها تجاربه ، ويُضاعف بها إيقاعه ما جاء فى قوله من قصيدته " يا شـــعر"- تلك التى تغنَّى فيها بشعره ، وزها- من خلالها- بفنِّه :

تَردَّدْ بأسماع الزمان رخيما ورفرف على وجه الحياة نسيما[٢]

وفى مستهل قصيدته التى بعنوان : " الحارس اليقظان" يقول الشـــاعر عـــن الضمير :

رقيب ضمن ذاتى لا يحور وقاضٍ لا يميل ولا يجُور [٣]

ويستهل الشاعر قصيدته :" سأشدو" بقوله :

أؤفصح أم أموت بما أعانى وأمضى بين تيار الزمان؟![٤]

ويقول صان الدِّين فى مستهل قصيدته الشاكية :" أزف الرحيل" :

أعنى أيُّها الجسم العليـــــل أعنِّى أيُّها الفكر الكليل [٥]

وفى مستهل قصيدته الشاكية ذات العاطفة القوية المتجهِّمة :" زفـــرة" يقـــول الشاعر :

هذى الحياة نعيمها وشقاؤها أين اختفى عن ناظري بهاؤها؟!

(١) دراسات لغوية صوتية بلاغية : د/عبد الجواد محمد طبق -صـــ ١٥٣-الطبعة الثانيـــة-١٤١٧هـــ ١٩٩٧م.
(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٢١ .
(٣)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٢٥ .
(٤)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٣١.
(٥)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٤١.

وفى واحدة من تجارب الشاعر الوجدانية التى أبدعها مـــن وحـــي الغربـــة والحنين والتى بعنوان : " الحنين إلى أرض الكنانة" ، والتى يستهلها الشاعر بتجســـيد ما يفيض به فؤاده ، ويعتلج بصدره من مشاعر الحُب والحنين إزاء وطنـــه الغـــالى العزيز .. حيث يقول :

تعجُّ بقلبى حَرُورُ الجـــوى ويهفو بروحى حنين النَّوى[1]

وفى مستهل قصيدته :" أشواق مغترب" –تلك التى أبدعها هي الأخرى – من وحي الغربة والحنين –يقول صان الدِّين :

يا قادماً من أرض مصر بلادى حياك قلب فى الجوانح صاد![2]

وفى مفتتح واحدة من قصائد الشاعر فى التأمل فى النفس الإنســـانية يقـــول مناجياً إياها :

يا أيها السِرُّ الخفيُّ المُبهمُ يا أيها الغورُ السحيق المُظلمُ[3]

وفى قصيدة ثالثة للشاعر فى الغربة والحنين رأيناه يحـــرص علـــى تـــزيين مطلعها بالتصريع .. حيث يدعو لروح أمِّه – تلك التى ذهبت ، وهـــو بعيـــد عنهـــا غريب :

طيرى بآفاق الضياء وَحَلِّقى وإلى رُبا الفردوس خفِّى واسبقى![4]

.. وغير ذلك من المطالع الكثيرة التى حرص الشاعر علـــى تزيينهـــا بتلـــك الحلية الموسيقية الأخاذة : " التصريع" ، لا سيما فى ديوانه أعاصير وأنسام – ذلـــك الذى بناه على قوافى مُوحَّدة .. بخلاف ديوانه : " الإنسان فى الميزان " – ذلك الذى بناه الشاعر على شكل خماسيات .. تختلف فيها القافية من خماسية لأخرى .. مما لا

---

(١)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٦١.
(٢)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٦٣ .
(٣)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٩١.
(٤)ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ١٨٨ .

يناسبه استعمال تلك الحلية البديعية الصوتية الموسيقية الأخَّاذة : " التصريع" .. مما تبدو معه تلك الظاهرة – أعنى ظاهرة :" التصريع" أحد المصادر الأكيدة ، والروافد الرئيسة التى أسهمت بدور ملحوظ فى بناء وتكوين الموسيقى الداخلية – خلال وجدانيات الشاعر .

ثالثاً: من مظاهر التجديد والتنويع فى قوافى الشاعر– خلال وجدانياته

الناظر فى وجدانيات شاعرنا صان يبدو له مجئ بعضها مُوحَّدة القافية من أول بيت وحتى آخر بيت فى القصيدة .. ومجئ البعض الآخر من تلك الوجدانيات مُنوَّعة القافية .. ؛ قصداً فى ذلك إلى الإمتاع والإثارة ، حيث لا يخفى ما يُحدثه ذلك التنويع فى القافية من الجِدّة والطرافة ، وبعث النشاط والحيوية فى نفوس المُتلقِّين ، وطرد الملل والرتابة ، ودفع السآمة عنهم .. بجانب ما تقوم عليه طبيعة تلك التجارب الوجدانية التى تنوَّعت فيها القافية ، وتعدَّدت على شكل خماسيات داخل القصيدة الواحدة .. حيث تُمثِّل كلٌّ مقطوعة :" خماسية " منها خاطرة من خواطر الشاعر ، وتعالج كل واحدة منها فكرة بعينها قد تستقلٌّ فى معناها– مثلما هو الحال فى تجارب الشاعر الواردة فى ديوانه : " الإنسان فى الميزان"– ذلك الذى بَنَى قوافى قصائده فيه على نظام الخماسيات ، حيث جعل لكُلِّ خماسية منها قافية تختلف عن الأخرى ، وغدت كلٌّ خماسية منها ، أو أكثر تعالج فكرة متكاملة على نحو ما سيبدو لنا– خلال تلك النماذج التالية من وجدانيات صان الدِّين – فى ديوانه سالف الذكر ..

فها هو ذا شاعرنا يقول من قصيدته المتأمِّلة " شعوذة ودجل" ينتقد مسلك بعض الناس – من ضعاف النفوس ، زائفى العقيدة – فى انسياقهم وراء ادعاءات العرَّافين ، وتهويماتهم ، وتخرُّصاتهم بالباطل علمهم الغيب ، مُقرِّراً ، ومُؤكداً أن الغيب لله وحده سبحانه ، لم يطلعه على أحد من خلقه:

قُلـــت للعـــــرَّاف فى جوّ التجلِّـــــــى والبخـــــور
والتهـــاويل التـــى قـــد خـــدَّرت وعـــي الحضـــور
كيـــف تـــدرى ما تـــوارى طـــي غيـــب عـــن بصـــير ؟!
قـــال : إنّ الجـــنَّ يأتيـــ نـــى بأنبـــاء الـــدُّهور
قلت : إنَّ الجـــنَّ مثلـــى عَـــيَّ عـــن كشـــف المصـــير
فانبـــرى لى ذو فتـــون مـــن مريديـــه يقـــول:
إنَّ علم الشيـــخ سِـــرُّ لـــيس تدريـــه عقـــول
كـــم وكـــم مـــن مُعضـــلات منـــه وافتهـــا الحلـــول
عنـــده للغيـــب كشـــف إنَّـــه شـــيخُ جليـــل
قلـــتُ : فـــض الله فـــا ك أيهُّـــا الغِـــرُّ الجهـــولُ!!
مـــا نبـــيٌ أو رســـولُ خـــاض فـــى علـــم بغيـــب
إنَّ مـــا بثـــوه وحـــي عنـــه نـــور الحـــق يُنبـــى
أيُّهَـــا الإنســـان حكِّـــم فـــى القضـــايا شـــرع ربِّـــى
إنـــه الينبـــوع يـــروى مـــن نميـــر كـــلَّ قلـــب
لا تكـــن فـــى العيـــش غِرَّاً لعبـــة فى كـــفِّ خبٍّ (١)

وهكذا يُنوِّع الشاعر فى قوافيه –خلال خماسياته تلـك ، فنـراه يـأتى بكـل خماسية منها على قافية موحَّدة تختلف عما بعدها ، مُنتقلاً فى خماسياته المـذكورة ، من قافية الرَّاء إلى قافية اللام ، ثم إلى قافية الباء ، مُتناولاً فى كل خماسية من تلـك الخماسيات فكرة جزئية تُسهم مع غيرها ، وتنضمّ إلى التى بعدها ، مُسهمة فى إبراز

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٣٣ ،والخبُّ : الخداع .

وإتمام المشهد الكلي المُتمثل فى المضمون العام للتجربة هنا .. حيث تُرسى تلك الأبيات ، وتُقرِّر وتُؤكِّد تلك الحقيقة الدامغة التى تنطق بأن الغيب لله وحده سبحانه لم يطلعه على أحد ، وأن ما يتقوَّل به المتقوِّلون ، ويرجف به المُرجِفون ، ويتخَرص به الخرَّاصُون من ادعاء بعضهم لعلم الغيب إنما هو أكاذيب ، وأوهام ، وأراجيف ، وهذيان يهيب الشاعر بمُتلقِّيه أن ينتبهوا إليها ، وأن لا ينخدعوا بها فتنطلى عليهم ، فيقعون من ثم فى أسرها ، وشباكها .. على نحو ما يبدو فى قول الشاعر – فى مختتم خماسيته الثالثة ينصح مُتلقِّيه ، ويهيب به :

لا تكن فى العيش غِرّاً   لعبــــة فى كــــفِّ خبِّ

وهذا الحال نفسه مُتحقق فى قصيدته الوجدانية المتأملة فى عالم النفس والإنسان ، والغوص وراء أسرارهما ، واستكناه حقيقتهما ، وسبر أغوارهما .. حيث يُقسِّم الشاعر قصيدته المتأملة تلك خماسيات .. كلُّ خماسية منها على قافية تختلف عن التى قبلها والتى بعدها .. وأيضاً كل خماسية منها تتناول فكرة جزئية تخصُّ جانباً بعينه ، وتكمل زاوية بذاتها بين جنبات وزوايا المضمون العام الذى تعالجه التجربة هنا .

فى قديــــم وحديــــث   خــاض بحــر الــنفس رهــط

بعضـــهم آب وبعــض   فــى ضــلال الــوهم شــطواْ

كــان أوفــى الكــلِّ باعاً   فــى تقصــيه(أرســطو)

هل أماط الســـتر عنهــا   أو بـــدا اللـــيمِّ شــطٌّ؟!

كلُّ مـا قالــوه عنهـــا   فى مدى الأزمان خلــط

يا خبيــر النفـــس قُل لى   مُفصــحاً فــى غيــر عُســر

إنه فى لُغـــزها قـــد   حـــار وجـــدانى وفكـــرى

هل لهـــا كنهُ وأوصـــاف ... علـــــى الإدراك تجـــرى
هل لها فى الجســـم حرز ... أو مقـــرُ عنـــه نـــدرى؟!
هــل هـــي الـــرُّوح التى فى ... نـــابض الأجســـام تســـرى؟!

....

ذلــك استفهـــام عقـــل ... عـــاش فـــى تيـــهٍ وجهـــل
علَّنى فى علمـــك النفَّـــا ... ذ ألفِـــــى مــــا يُجلَّـــــى
يا عليم النفـــس فى حلـــم ... أجبنـــــى أو فقـــل لـــــى:
كيـــف تـــدرى طب شيء ... غـــاب عـــن حـــس وعَقْـــلِ؟
كيـــف بالأحكـــام تخمينا ... علــــى المحجـــوب تُـــدْلى؟

....

فريـــة كبـــرى ووهـــم ... فـــى عقـــول قـــد تجسَّـــم
إنه خَلْطُ مضــــى يهــذى ... بـــــه حــــــاك تكلَّـــــم
ذاك ما سمّوْهُ علـــم النفـــ ... س زوراً دون معلـــــــــم
للعلـــوم الحـــق قانـــون ... وثيـــق الضـــبط مُحْكـــمْ
إن نفس المـــرء مثل الر ... روح سِـــرُ ليـــس يُعْلَمْ (١)

حيث يُرسى الشاعر، ويُقرر – من خلال خماسياته تلـــك – كيـــف أن الـــنفس الإنسانية تبقى فى النهاية – مهما خاض فى بحرها رهطُ من العلماء ، ومهمـــا قـــالوه عنها ، ووضعوه بشأنها من نظريات ليس إلاَّ حديثاً بالظنون مُرَجَّمُ .. حيث تبقى سِراً

---

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان : صـــ ٦٠، ٦١ .

ليس يُعْلَمُ ، وغيباً ليس يُدرك ، وبحراً عميقاً ، وغوراً سحيقاً ، ونفقاً مُظلماً ، وغِطاءً مُحْكَماً ، وفى النهاية أمراً لدُنيا اختص الله سبحانه به .

وفى واحدة من وجدانيات الشاعر فى المرأة نراه يُقسِّمها – مثلما هو الحال فى بقية قصائد ديوانه : " الإنسان فى الميزان" – إلى خماسيات.. كلٌّ واحدة منها على قافية تختلف عن الأخرى ، وتتناول كل خماسية منها فكرة تختلف عن الأخرى، وتتناول كل خماسية منها فكرة جزئية تدور جميعا– فيما تدور حول تأكيد ما للمرأة – ذلك المخلوق الضعيف – من سحر، وسطوة ، ونفوذ ، وتأثير، وسلطان إزاء قلوب الرِّجال جميعاً .. حيث يقول :

من عيون الغيد سحر — وانتشاء كالمدام
وحديث شيِّق من — غير صوت أو كلام
تجعل الصنديد يحيا — بفؤاد مُستهام
من دلال أو صدود — أو حنان وابتسام
ولهذا كان غض الطَّرْ — ف درعاً من سهام
روضت حواء طبع الجا — مح الجلف العنيف
كان ليثاً فى يديها — صار كالهِرِّ الأليف
طيِّعاً مُستسلما ما — بال ذى القلب الرهيف؟!
لفتة أو بسمة أو — همسة مثل الحفيف
تجعل الجبار ربَّ السـ — ـيف فى درك الضعيف
وسواء فى انعطاف — نحو حواء الرجال
من شباب وشيوخ — يستبى الكلّ الجمال

إنَّ ميَــل القلــب فى الإنـــ ســــان يذكيـــــه الكـــــلال
أي سحــــر فيـــك يا حوا ء وشَّــــــاه الـــــدَّلال
أنـــتِ ســـــرُ ليس يدرى كنهــه المخبـــوء بال(١)

ولاشك فى أن هذا التنويع فى القوافى لدى شاعرنا صان الدِّين ليس يجيده أي شاعر .. حيث إنَّ ذلك سبيل المُجيدين من الشعراء ، المتمكنين منهم ، والمُســتولين على زمام اللغة ، المتمرسين بأساليبها ، الموفورى الحظ من مفرداتها وتراكيبهــا .. حيث يُحوِّل الشاعر – خلال قوافيه المتغيرة تلك – مجرى خواطره ، ويُغيِّــر مســار أفكاره ، مستدعياً إياه ذلك أن يُعبِّر فى كل فكرة بمفردات جديدة .. وهو – أي ذلــك التنويع فى القوافى – مذلّة للشاعر الضعيف الضّحْل الثقافة ، القليل الحظِّ من مفردات وتراكيب لغتنا الجميلة : " فإنَّ القافية التى تتغير بعد كل ثلاثة أبيات أو أربعة تقطــع تسلسل الأفكار ، وتضطر الشاعر إلى أن يُحوِّل مجرى خواطره بين حــين وآخــر– تبعاً للقافية المتغيرة"(٢) .

وهو _أي الشاعر – فى تنويعه لقوافيه هنا لم يكن ثائراً ، ولا متمرِّداً علــى التراث العربي الخالد ، ولا خارجاً عن الالتزام بقيمه وثوابته وتقاليــده وضــوابطه ، حيث كان شبيهاً فى ذلك بالعباسيين ، ومتأثراً بنهجهم فى ذلك التنويع ، وسائراً فيــه على درب شعراء مدرسة الديوان وأبولُّو ، ولم يكن من ثم بدعاً فى ذلك التنويع فــى قوافيه .. وهو – أي شاعرنا– كان متأثراً – أيضاً– فى تنويعه فى قوافيــه– خــلال وجدانياته هنا– بتجديد الوجدانيين فى قصائدهم فى مجال الموسيقى : " والــذى كــان نتيجة مباشرة لربطهم (أي الشعراء الوجدانيين " الرُّومانسيين ") بين الشعر، وفنــي

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صـ ٧١ .
(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب: د/ عبد الله الطيب ، ٢٠/١ – طبع دار الفكر – الطبعــة الثانيــة – ١٩٧٠م .

الموسيقى والغناء ، وقد تجلَّى هذا التجديد فى بُعدهم عن الشكل العمودي للقصيدة ، واستخدام الأشكال المقطعية والتوشيحية التى تتعدد فيها القوافى ، طبقاً للنموِّ فى التجربة الشعرية فى القصيدة " (١) .

وقد لجأ الرومانسيون كثيراً إلى القصيدة المقطعية التى تتشكل من عدَّة مقاطع، وقد يتكون المقطع من بيتين أو أربعة أو خمسة .. ومع كل مقطع تتغير القافية التى قد تكون أيضاً داخلية وخارجية ، ولا شك أنَّ تنويع القافية يُلوِّن الموسيقى، ويجعلها بالضرورة تابعة للمعنى الجزئي الذى يُعبِّر عنه الشاعر فى كل مقطع"(٢) .

.. وهكذا لا يتبعد الشاعر فى تنويعه فى قوافيه هنا عن نهج هؤلاء الشعراء الوجدانيين ، ولا يخرج عن طريقتهم فى التنويع والتجديد إلى ما يُعرف بالشعر الحُرِّ – ذلك الذى لا يتقيد الشاعر فيه بوزن ثابت .. حيث التحرر من الأوزان ، والوصول إلى أكثر من وزن فى القصيدة الواحدة .. شاعرنا فى هذا الشأن لم يُوافق الوجدانيين فى التحرُّر من الأوزان تماماً ، حيث لم أعثر– خلال وجدانياته تقريباً – على قصيدة واحدة تحرَّر فيها من الوزن والقافية ، حيث خلت وجدانيات صان الدِّين من ذلك اللون المعروف بالشعر الحُرِّ الذى لا يتقيد فيه الشاعر بنظام مُعيَّن فى ترتيب قوافى القصيدة.

ومن مظاهر التنويع والتجديد فى الإطار الموسيقي للقافية – خلال وجدانيات شاعرنا صان الدِّين أيضاً وجود ما يُعرف بالتدوير – ذلك الذى يُطلق على

(١) القصيدة الرومانسية فى مصر ١٩٣٢-١٩٥٢م –د/ يسرى العزب – صـ ١٠.
(٢) جماليات القصيدة المعاصرة : د/ طه وادى –صـ ٢٧٥ – ط- دار المعارف – الطبعة الثانية – ١٩٨٩م .

البيت الشعري إذا ما : " اشترك شطراه فى كلمة واحدة ، بأن يكــون بعضــها فــى الشطر الأول ، وبعضها فى الشطر الثانى.."[١] .

ولهذا التدوير فى الموسيقى والإيقاع فى أثناء الإنشاد معنى دلالي ، ومغــزى بلاغي يتفق عادة وحالة الشاعر النفسية والشعورية ، وينسجم معها .. فهــو :" لــون من الحرية يلتمسه الشاعر الذى كان مُقيَّداً بأسلوب الشطرين ، حيث الشطر الأول ذو طول مُعيَّن لا ينبغى أن يزيد ، فكأن الشاعر يطيلُه بالتدوير .."[٢] .

وتُجلِّى نازك الملائكة ما للتدوير من فائدة وقيمة فنية فى القصيدة فتقــول : " وللتدوير فى نظرنا فائدة شعرية ، وليس مجرد اضطراب يلجأ إليه الشاعر ؛ ذلك أنه يُسبغ على البيت غنائية وليونة ؛ لأنه يمدُّه ، ويطيل نغماته " [٣] .

ويبدو التدوير – ذلك المظهر من مظاهر التجديد فى الشكل الموســيقي فــى القافية– خلال وجدانيات صان الدِّين .. يبدو ذلك اللون متحققاً فى مواضع كثيرة فــى تلك الوجدانيات .. منها ما جاء فى قول الشاعر من قصيدته ذات المشاعر المتدفقة ، والأحاسيس المفعمة :" أنغام الحياة أنت " – تلك التى أبدعها فــى التغنِّــى بشــعره ، مُصوراً كيف أن الشدو بالشعر ، والتغريد به إنما يمثل الحياة بالنسبة لــه .. حيــث يغدو فى ناظريه المُترجم لخفقاته الذى يملأ دنياه شدواً وسروراً ، وأُنساً وحُبُــورا .. حيث يقول :

(١) قضايا الشعر المعاصر : نازك الملائكة : صــ ١١٢ – ط دار القلم للملايين – الطبعة الحادية عشرة– ٢٠٠٠م ،وينظر موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/ صابر عبد الدايم : صــ ٢٢١ .
(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/ صابر عبد الدايم – صــ ٢٢٣ .
(٣) قضايا الشعر المعاصر : د/ نازك الملائكة –صــ ١١٢.

يا شــعر أنــت مُترجم خفقـــات قلــب الشـــاعر
يا شـــعر أنــت مصــور حُســـن الوجــود البـــاهر
أنت الذى يهــب الــورى لحن الخلـــــود الســاحر
ويغوص بالشـــعراء فى بحــــر المعـــانى الزاخـــر
لولاك ما زهـــت الرِّيـــا ض بســـــندسٍ وأزاهـــــر
كلاًّ ولا شــدت الطيـــو ر مـــع الصـــباح البـــاكر
أبداً ولا حَلّـــتِ الســـما ء بـــــدرِّها المُتنــــاثر
بك أجتلى الماضي السحيـ ـــق وخافيـــات الحاضــر
وأجـــوب آفاق الوجـــو د على جنـــاحي طـــائر

.. إلى أن يقول الشاعر من القصيدة ذاتها :

يا شــعر أنت الأنــس فى دنيا الشـــقاء الغـــامر
أنت الحياة وروحهــا الســ ـسارى بكـــون دائــــر[١]

ومن هذه المواضع التى تحققت فيها تلك الظاهرة –أعنى ظاهرة التــدوير – خلال وجدانيات الشاعر أيضاً ما جاء فى قوله يُجسِّد ما يلفُّــه ، ويُســيطر عليــه ، ويُؤلمه من مشاعر الشكوى والألم والحزن والقلق إزاء ما آلت إليه طباع بنى عصره ، حيث تبدَّلت أوضاعهم ، وانقلبت موازينهم ، وهوت إلــى الحضــيض أخلاقهــم ، وقست قلوبهم ، وتحجَّرت مشاعرهم ، وأجدبت أحاسيسهم .. فانعكس ذلك على الحياة من حولهم ، مُجسِّداً فى الوقت ذاته تمنِّيه صـــلاح حـــالهم ، وترقيـــق مشـــاعرهم ،

(١) ديوان : أعاصير وأنسام : صـ ٢٣ ، ٢٤ .

وتسخيرهم فى الخير ملكاتهم حيث يغدو ظهر البسيطة بالثمار يزخر ، وينعم سُكانها بالخصب وكلِّ ناضر.. ها هو ذا شاعرنا يُشير إلى تلك المعانى ، حيث يتساءل مُتعجباً ومُنكراً، فيقول:

أتُرى المطامع فى بنى الإنسا ن حجَّرت المشاعر؟!
هل أجدبت تلك النفو س وأظلمت فيها البصائر؟!
لو أنفقوا فى الخير معشا ر المُبدَّدِ فى الذخائر
لغدا يباب الأرض يز خر بالثمار وكلِّ ناضر
ولَرَّاح سُكَّانُ البسيـ طة ينعمون بكلِّ وافر(١)

وفى موضع ثالث من بين وجدانيات الشاعر ، ومن وحي تجربة الغربة والحنين –تلك التى تفيض بالمشاعر الهتَّانة ، وتمتلأ بالأحاسيس المُتدفقة .. حيث يُجسِّد الشاعر طبيعة حياته –فى أثناء غربته ، وبعاده عن أُمِّه وبلاده ، وما يُقاسيه من قيود النَّوى ، وأغلال البعاد .. فقد كبلته الحياة بقيودها ، وأحكمت عليه الغربة وثاقها ، فأخذ الشوق والحنين منه مأخذه ، وكاد الوجد يقتل نفسه ، لولا عزاؤه وتسلِّيه بذلك اللقاء المأمول ، والموعد المُرتقب– ذلك الذى يجمع بينه ، وبين أُمِّه، لكن ومن أسف ! ، وا حزناه ! ، فقد أجهز نبأ رحيل أُمِّه على هذا الأمل ، وقضى عليه فلم يلتقيا .. يقول صان الدِّين : وقد توجَّه بالحديث إلى أُمِّه يدعو لها بالخير ، ويُصوِّر بين يديها ما ينتابهما من مشاعر وأحاسيس من وحي غربته ، وبعاده عنها :

يهنيك يا أم الخصال الزاكيا ت الخلد فى هذا النعيم المُطلق!
قد كنت يا أمَّاه تشكين الجوى لوحيدك النائى بواد مغلق

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ٣٧ .

وتصارعين الدَّاء فى غلوا ... ئه وتغالبين يــد الحمـــام المُحـدق
أملاً يداعب منك قلباً ذواياً ... ويمدُّ جــدب الــروُّح فيـك بِريِّــق
علّ الغريب يعود فى إبـــا ... نـــه ويُمرِّغ الخدين عنــد المفــرق
فتشيمنى عيناك بين الحاضريـ ... ـن لــدى الــوداع بطرفهــا المغــوروورق
والله يعلم ما بقلبك من أسى ... مُتـــأجج بــين الحنايـــا مُوبـــق
ووحيدك النائى تُكبِّلُهُ الحيا ... ة بحكمهـــا مـــن فـــوق جمـــر مُحــرِق
يهفو إليك فؤاده مُسترحماً ... كجـــريح طيـــر بالحبائـــل مُوثـــق
لكنه والوجدُ يعصر نفســ ... ــه يحيا على أمل اللقـــاء الشــيّق
ويخال أعوام النوى قد أدبرت ... فمضى يحـــث مـــن الليـــالى مـــا بقـــى
لكن ووا حزناه بادرت المنو ... ن فطوَّحـــت منـــى بفـــضِّ الزِّئبـــق
فرحلتِ يا أمَّاه ظماى مهجة ... عن هــــذه الحياة ولمَّا نلتق!! (١)

والناظر فى تلك المواضع يجدها تتوفر على التدوير ، حيث اشتركت أغلــب أشطر أبياتها فى كلمة واحدة – كما نرى– ولعلَّ ذلك راجع إلى طبيعة تلك التجــارب التى بصددها الشاعر هنا ، حيث تفيض جميعاً بالأحاسـيس المفعمــة ، والمشــاعر الحَارة المُتدفقة التى من شأنها أن يتدفق سيلها ، ويتتابع تدفُّقها علــى نفــس وقلــب الشاعر .. فهو –أي شاعرنا صان الدِّين يُفضى فى تجربته الأولى إلى شعره – خِلِّــه الوفي ، وصديقه الصفي ، وخفقه قلبه ، وذوب نفسه – بهــذه الأحاســيس الفيَّاضــة المُفعمة بالصدق ، والتى خبرها الشاعر ، وعاناها ، وذاقها بنفسه – تلك التى تنهمر،

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام صـــ ١٨٩ ، ١٩٠ .

وتتدفق ،وتتسارع على كيانه ووجدانه تدفّق الحياة ، وإقبالها عليه ، مُتمثلة فى شدوه بفنِّه ، وتغريده بشعره .

والحال ذاته من تدفق الأحاسيس والمشاعر، وانهمارها ، وتزاحمها ، وتتابعها نجده مُتحققاً فى التجربة الثانية .. حيث تتسم فيها عاطفة الشاعر بالجيشان والتدفّق ، وكونها حارة مُفعمة هي أثر من آثار إحساس الشاعر الأليم بالغربة والضياع ، وشكواه المُمضة إزاء مجتمع انزوت وتراجعت بين أبنائه الشيم والأخلاق ، فاستبدت بهم الأطماع ، وقست منهم القلوب ، وتحجَّرت فيهم المشاعر، وأجدبت نفوسهم من الخير ، وأظلمت فيها البصائر ، وشاعرنا يُجسِّد هنا أمله الكبير فى أوبة أبناء الزمان إلى الخير والصَّواب ، وأنهم إذ يرققون مشاعرهم ، وينيرون بصائرهم بعمل الخير فإن ذلك سبيل إلى أن يعمَّ الأرض والأنام الخصب والنماء ؛ مما تبدو معه أحاسيس الشاعر هنا حارة متدفقة ، ومشاعره مفعمة صادقة .

والتجربة الثالثة من تلك التجارب التى تحقَّق فيها التدوير لا تقل بحال فى الصدق والحرارة والجيشان والتدفُّق عن التجربتين السابقتين عليها .. حيث تستمد تلك التجربة من وحي الغربة والحنين – ذلك الموقف الذى ذاقه الشاعر ، وخبره بنفسه ، وعاناه بذاته ، وممَّا ضاعف من إحساس الشاعر هنا بألم الغربة ، ووجع البعاد موت والدته وهو عنها غريب بعيد .. وهذا لا شك فى أنه يُلقى فى أعماقه بسيلٍ من مشاعر الحُبّ والحنين ، والوفاء ، والإكبار ، والإعزاز ، والتبجيل والتقدير نحو وطنه ، ووالدته هنا ..

.. وهكذا نرى هذه الأحاسيس وتلك المشاعر – فى فورتها وحرارتها وتدفقها وتتابعها – خلال تلك التجارب المذكورة هنا من شأنها أن تدفع الشاعر دفعاً، وتأخذ به أخذاً إلى أن يجتاز الشطر الأول فى البيت المُدوَّر – خلال تلك النماذج المذكورة ،

ولا يتوقف إلا فى نهاية الشطر الثانى من البيت – كما رأينا – مُشركاً فى ذلك معه مُتلقِّى تلك التجارب فى تلك المشاعر المتدفقة ، والأحاسيس المُطرَّدة ، حيث يدفعهم فى صنيعه هذا إلى أن يقاسموه ويشاركوه فيما يعتمل بنفسه، ويختلج بصدره من مشاعر وأحاسيس حارة صادقة قوية متدفقة هنا .

رابعاً: من المآخذ على موسيقى الشاعر – خلال وجدانياته:

لم تسلم بعض قوافى شاعرنا صان الدِّين –خلال وجدانياته – من الوقوع فى بعض العيوب والمآخذ التى أشار إليها العروضيون ، ودرجوا ، وتعارفوا عليها فى كتبهم .. ومن هذه العيوب ، والمآخذ التى وقع فيها الشاعر – خلال وجدانياته– عيب الإيطاء ، والذى يقصد به : " إعادة كلمة الروي بلفظها ومعناها قبل مرور سبعة أبيات على استخدامها ، فإذا أُعيدت كلمة الرَّوي بلفظها ، مع اختلاف فى المعنى لم يكن ذلك إيطاءً" [١] .

وهو –أي الإيطاء : " إعادة لفظ الروَّيِّ بعينه فى بيتين فى القصيدة نحو فضل وفضل، وعلم وعلم ، وما أشبه ذلك ، وهو عند العرب عيب لا يشكون فيه ، ولا يختلفون .. واستقبحت العرب الإيطاء ؛ لأنه دال على عي الشاعر ، وقلة مادته .. حتى يضطر إلى إعادة القافية بلفظها ، ومعناها"[٢] .

---

(١) موسيقى الشعر قديمة وحديثه :د/ عبد الرضا على – صـ ١٨١ – ط دار الشروق للنشر والتوزيع – عمّان – ١٩٩٧م .

(٢) كتاب القوافى : لأبى الحسن على بن عثمان الإربلي ٦٠٢-٦٧٠هـ – دراسة وتحقيق : د/ عبد المحسن فرج القحطانى – صـ ١٨٢ – الناشر – الشركة العربية للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

هذا إذا أُعيدت كلمة الرويِّ ، وكُرِّرت بلفظها ومعناها قبل مرور سبعة أبيات فى القصيدة .. على نحو ما ذكره علماء العروض وأشاروا إليه فى كتبهم(١) .

حيث يُحدث هذا التكرار فى نفوس المتلقين ، سأماً وملالة ، فإن دلَّت كلمة الروي على معنى لم يكن فى الأخرى ، أو جاءت بقصد التلذذ أو الاستعذاب .. حينئذٍ لا يُعَدُّ هذا عيباً لدى العروضيين .

ويتحقق ذلك اللون المعيب من الإيطاء فى موضع واحدٍ – خلال وجدانيات الشاعر .. وقد ورد فى قصيدته المتأملة : " مراقى السُّموِّ" ، حيث يقول فيها مناجياً الخالق سبحانه ، راجياً منه العون والمدد ، والنجاة من كدر العيش ، وقلق الحياة ، مُتبرئاً من الحول والطول إلا إليه سبحانه :

يا خالقى مما أردت لحكمة ... يا عالماً بحقيقتى وسرائرى
ما قوتى ما حيلتى وتهافت الـ ... صلصال يضرب فى كيانى الحائر
لكن بروح منك يا نور الوجو ... د أمدُّ فى لجج الفتون معابرى
وأشق فى وعر الحياة مسالكى ... وأجوب آفاق الضياء الباهر
وبها أقيم النفس فى نهج الهدى ... وأردها عن كل نهج جائر
ربَّاه إنى حائر متغرِّب ... أبغى النجاة من الفتون الغامر!
وأفر من عيش تكدّر ورد ... ه يا رب خذ بيد الغريب الحائر!(٢)

---

(١) ينظر : ميزان الذهب فى صناعة شعر العرب : السيد أحمد الهاشمي – صـ ١٢٤ – ط مؤسسة خليفة للطباعة– د.ت .

(٢) ديوان : أعاصير وأنسام – صـ ١٠٢ .

فقد أعاد الشاعر –خلال تلك الأبيات– كما نرى – كلمة الرَّوي : " الحـــائر" الواردة فى البيتين : الثانى والأخير منها ، مُكرِّراً إياها بلفظها ومعناهـــا دون ســـبعة أبيات .. مما يُعَدُّ عيباً ينال من مقدرة الشاعر الفنية ، حيث يدلُّ ذلك علـــى ضـــحالة ثقافته ، وقلة محصوله اللغوي هنا .

هذا ويُلحظ مجئ بعض الأبيات هنا مُدوَّرة .. حيث يناســـب ذلـــك المظهـــر الموسيقي – أعنى التدوير – ما تقوم عليه التجربة هنا من التدفُّق والاطّراد والجيشان .. فهي أي التجربة هنا – تقوم على اجتهاد الشاعر فى إبداء وسكب مشاعره المفعمة الصادقة فى التوبة والإنابة والإقبال على رحاب ربِّه ، حيث يناجيه –سبحانه– راجياً منه العون والمدد ، والخلاص والنجاة مما يثقل كاهله ، ويُمثِّل بالنسبة له قيداً ثقـــيلاً ، وسجناً كثيفاً ، حيث بدنه – برغباته ، ونزواته ، وما قد يحول ذلك بينه وبين الارتقاء فى مراقى السموِّ ، ومراتب الكمال ، فهو –أي الشاعر هنا بصـــدد تجســـيد مشـــاعر متدفقة يتدفق سيلها على وجدانه وكيانه .. حيث يدور فى داخله صراع عنيف بـــين جسده بنزواته وأهوائه ، وبين روحه – فى سموهـــا وارتقائها ، وتحليقهـــا .. ممـــا يناسب ذلك الشكل الموسيقي المعروف بالتدوير .

ووقع الشاعر فى بعض وجدانياته ، فيما أطلق عليه العروضيون التضـــمين، والذي يُقصد به: " ألا تستقل الكلمة التى هي القافية بالمعنى حتى تكون موصولة بمـــا فى أول البيت الثانى " (١) .

وقع الشاعر فى التضمين ، حيث رأينا قواقي بعض أبياته – خلال وجدانياته – موصولة فى معناها ، مرتبطة فى مضمونها بما بعدها من أبيات ، غيـــر مســـتقلة بذاتها .. وكان له ما يُسوِّغ ويبرر فى الوقوع فى التضمين ، مما يُخرجه عن كونـــه

---

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د/ صابر عبد الدايم يونس –صـــ ٢٠٥ .

شيئاً معيباً هنا .. حيث رأينا الشاعر يستخدم التضمين فى تجارب تقوم على الحكي والقصِّ والحوار والسَّرد .. مما يستدعى أن تأخذ الأبيات- خلالها- بحجز بعضها البعض ، حيث توجد بينها صلة حميمة ، وعلاقة عضوية أكيدة .. على نحو ما يبدو متحققاً- خلال قصيدتين للشاعر تقومان- فيما تقومان -على السرد والحوار ، مما يُحدث ويُوجد بين الأبيات علاقة عضوية ، وصلة حميمية .

الأولى بعنوان : " حكمة طائر" ، وقد أقامها الشاعر على حوار طريف دار بينه ، وبين طائر جعله ينطق بالحُكمة ، ويتفوهُ بالفلسفة .. حيث يتأملان معاً حقيقة الحياة ، وطبيعة الأحياء .. يقول صان الدِّين – فى أبيات يأخذ أحدها بتلاليب الآخر .. فلا يكتمل مضمون البيت الواحد فيها إلا بما بعده :

قد قلت للعصفور وهو يرف بيـ ... ـن جداول رقراقة وأزاهر
فوق المروج الممرعات الفيح يشـ ... ـدو للحياة وللصباح الناضر
ويُردِّد الأنغام ساحرة الصَّدى ... من فوق عرش الأيك عفو الخاطر
يهنيك يا عصفور عيش ناعم ... لك فيه ما يهوى خيال الشاعر!!
إن الفضاء مسخر لك فى مدى الأفـ ... ـق المدبج بالضياء الباهر
والروض مِلكك والغصون المثـ ... ـقلات الحانيات على الغدير الزاخر
والظِلّ والماء النمير وبسمة الإ ... صباح فى بهو الوجود الساحر
تغدو به وتروح حُراً آمناً ... كالحلم كالطيف الجميل العابر

.. إلى أن يقول من القصيدة ذاتها :

فأجابنى العصفور فى سمت الحكيـ ... ـم وفى إشارة فيلسوف ساخر
ورنا إلي وفى وميض عيو ... نه عبرات راثٍ وابتسامة ماكر:

ويح ابن آدم فى نضــارة عيــ شه يخطو كخطوات الضرير العاثر؟!
يجتــاز درب حيـــاته مترنِّــحاً بجبلـــةٍ حيــرى وعـــزم خـــائر
يشــقى ويسـعد بالوهــوم كأنــ نه فى رشــده يحيـا بفكـر قاصـر

.. إلى أن يقول :

يا ويحه من جاهـــل مُتعـــــالم كلف بسفساف الأمور مكـــابر!!

....

ثم استدار الفيلســــوف مُولِّيــاً متحصنــاً منِّــى بغُضنٍ آخر(١)

والثانية بعنوان " شعوذة ودجل" – تلك القصيدة المتأملة ، والتى تقوم– فيمـا تقوم –على حوار عقده الشاعر مع نفر– ممن اعتقدوا فى نبوءة العرَّافين ، وصـحة ما تذهب إليه النجوم والأفلاك .. مُجتهداً– قدره – فى سوق الأدلة والبـراهين التـى تُجلِّى ، وتُقرِّر تلك الحقيقة الدَامعة ، والتى تنطق بأنَّ الغيب لله –سبحانه– وحده ، قد استأثر به دون غيره ،حيث يقول :

قُلـــت للعـــــرَّاف فى جو و التجلِّـــــى والبخـــــور
والتهـــاويل التـــى قــد خـــدَّرت وعـــي الحضـــور
كيـــف تـــدرى ما تـــوارى طـــي غيـب عــن بصـير ؟!
قـــال : إنّ الجـــنَّ يأتيـــ نـــى بأنبـــاء الـــدُّهور
قلت : إنَّ الجــــنَّ مثلـــى عَـــيَّ عــن كشــف المصـير
فانبـــرى لى ذو فتـــون مـــن مريديـــه يقـــول:

---

(١) ديوان : أعاصير وأنسام – صـــ ٤٥ ، ٤٦ .

إنَّ علم الشيـــــخ سِــــــرُّ ... لـــــيس تدريــــــه عقــــول
كـــم وكـــم مـــن مُعضــــلات ... منــــه وافتهـــا الحلــــول
عنــــده للغيـــب كشـــف ... إنَّــــه شـــيخُ جليــــل
قلـــتُ : فـــض الله فــــا ... ك أيها الغِرُّ الجهـــولُ![(١)]

فطبيعة هاتين التجربتين ، وما يقومان عليه هنا من حوار وســرد ، وقــص وحكي- مما يُقربهما من الشعر القصصي ، ومن ثم يجعل التضمين غير معيــب ولا مُشين .. حيث يقتضى ذلك اللَّون من الشعر وجود ذلك التضمين ، ويستدعى الإتيــان به : " ففى الشعر القصصي يكون التضمين مطلباً فنياً يقتضيه سياق القصة الشــعرية ، كما ورد فى كثير من النماذج الشعرية فى العصر الحديث عند شـعراء المهجـر ، وشعراء مدرسة أبولُّو ، وفى شعر أحمد زكى أبو شادى ، ولم يعُـدْ البيـت وحـدة القصيدة كما كان قديماً ، وإنما فى ظل الصورة الكلية الممتـدة ، وفــى ظـلِّ تــوفّر الوحدة العضوية فى الشعر القصصي والتمثيلي يُصبح التضمين مطلباً فنياً ، ولا يعـد عيباً كما قال القدماء" [(٢)] .

وأستطيع بفضل الله وبتوفيقه سبحانه أن أشير فى هذا الصدد إلى أنــه تكــاد تسلم قوافى وجدانيات شاعرنا صان الدِّين بعد ذلك من العيوب التى تواضــع عليهــا العروضيون ، واتفقت كلمتهم حولها .. حيث تكاد تنحصر تلك العيوب فى التــى ورد ذكرها هنا تقريباً .

(١) ديوان : الإنسان فى الميزان – صــ ٣٣.
(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور :د/ صابر عبد الدايم يونس – صــ ٢٠٦.

خاتمة الدِّراسة

الحمد لله يُعين من يستعين به ، ويُرشد من يستهدى به ، ويُوفِّق من يُحسن التوكّل عليه ، واللجوء إليه –سبحانه ، والصلاة والسلام على من تهفوا القلوب ، وترنوا الأفئدة إليه ، المُحبِّ للكلمة الشاعرة ، المنطلقة من الصدق ، والداعية إلى الخير ، والحاثة على الحقِّ .. سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أعلام الهدى ، ونجوم الهداية ، ورضي الله عن السائرين على دربه ، والمُقتفين لأثره إلى يوم الدِّين ..

وبعد

فقد مَنَّ الله سبحانه عليَّ ، ووفَّقنى وألهمنى فى أن أختار ذلك الجانب الشعري الطريف بين جوانب إبداع صان الدِّين .. وهو الجانب الوجداني –للدراسة هنا ، حيث عالجت تلكم الصفحات السابقة بالدَّرس والتوضيح والتحليل جزئياته ، وتناولت مفرداته .. وقد اقتضت طبيعة الدراسة هنا أن تقع فى فصلين رئيسين ، يسبقهما مقدمة ، وتمهيد ، ويعقبهما خاتمة ، فثبت بمصادر الدراسة ، ومراجعها ..

وقد استُهِلّت تلكم الدراسة بمقدمة جلَّت ملامحها ، وأضاءت جوانبها ، وكشفت عن معالمها ، ثم ثنّت الدراسة بتمهيد ألقى الأضواء على صاحب الوجدانيات، وإبداعه.. مُروراً بالحديث عن مولده ، ونشأته ، وثقافته وشاعريته ، ونتاجه ، وإبداعاته .. وأخيراً مذهبه الأدبي .. ووفاته .. حيث جاء عنوان التمهيد لتلك الدراسة : الشاعر محمد عبد الرحمن صان الدِّين سيرة حياة ، ورحلة إبداع .

ثم انطلقت الدراسة بعد ذلك إلى الحديث عن وجدانيات شاعرنا صان الدِّين .. فاتَّجهت فى البداية إلى استكناه أعماق تلك الوجدانيات ، وسبر أغوارها ،

واستجلاء حقائقها ، والتحليق- من خلال ذلك فى آفاقها الموضوعية ، وأبعادها الفكرية .. حيث الفصل الأول من الدراسة ، والذى يحمل عنوان : الأبعاد الفكرية لتجارب صان الدِّين الوجدانية ، والذى تنضوى تحته الآفاق – "المباحث الآتية" – المبحث الأول : التأمل فى شعر صان الدِّين ، المبحث الثانى : الشكوى والألم فى شعره ، المبحث الثالث : الغربة والحنين فى شعره ، المبحث الرابع : الطبيعة وتشكيل الإحساس الوجداني "الرومانسي " فى شعره.

واتجهت الدراسة بعد ذلك إلى الغوص فى أعماق تلك الوجدانيات ، واستكناه أسرارها، وسماتها الفنية .. حيث الفصل الثانى الذى حمل عنوان : السمات الفنية لتجارب صان الدِّين الوجدانية .. وقد انطلقت تلك السمات الفنية من خلال المباحث التالية : الأول : بناء القصيدة الوجدانية فى شعر صان الدِّين ، الثانى : المعجم الشعري فى القصيدة الوجدانية لدى صان الدِّين ، الثالث : من خصائص التراكيب فى أساليب الشاعر – خلال تجاربه الوجدانية ، الرابع : من الظواهر البديعية فى الأسلوب – خلال تجارب الشاعر الوجدانية . الخامس : الصورة الفنية – خلال تجارب الشاعر الوجدانية .السادس : عاطفة الشاعر – خلال تجاربه الوجدانية . السابع : الموسيقى الشعرية – خلال تجارب الشاعر الوجدانية .

وإذا كان آن للقلم أن يُسجِّل هنا بعضاً من الملحوظات التى لحظتها فى أثناء تناولى مفردات وجزئيات تلكم الدراسة الماتعة ، وما تخلَّلها من رحلة ماتعة جُبتُ خلالها ذلك الجانب الطريف من بين جوانب إبداع شاعرنا صان الدِّين ، وهو الجانب الوجداني فى شعره .. إذا كان للقلم أن يُسجِّل هنا طرفاً من الملحوظات بشأن تلكم الدراسة فإننى أقول مُستعيناً بربِّي جلَّ وعزَّ ، مُتبرئاً من الحول والطول إلا إليه سبحانة.. قد أسفرت تلكم الدراسة عن طائفة من النتائج والملحوظات التى يتمثل أغلبها فيما يلى:

أولاً: شملت التجربة الوجدانية لدى شاعرنا صان الدِّين أبعاداً عِدَّة ، وانطلقت من آفاق متنوعة ، حيث انطلقت وجدانيات الشاعر – من خلال تأملاته فى عوالم النفس الإنسانية ، والحياة والأحياء ، والطبيعة ، والمرأة تلك التى حلَّقت نظرته إليها، وارتقت فى سماء الطُهر والفضيلة ، وانطلقت بعيدا ، وسمت ، وارتفعت، ونأت عن العواطف الرخيصة ، والمشاعر المُبتذلة ، والأحاسيس المُتدنية .. وأيضاً- من خلال شكواه ، وتألُّمه – إزاء ما جدَّ ، وطرأ على أبناء زمانه من عادات ذميمة ، وسلوكيات شاذة ، وطباع سقيمة اصطدمت معها نفس الشاعر النبيلة ، وتألمت منها مشاعره الرهيفة .. وانطلقت تجارب الشاعر الوجدانية كذلك من وحي الغربة بنوعيها – المجازية " النفسية" – تلك التى يشعر بوجعها المُقيم بين أهله ، ويحسُّ بلذعها الثاوى فى قومه .. والحقيقية " المكانية" – تلك التى يصاحبها الحنين إلى الأهل والوطان فى حال البعد عنها والاغتراب .. كما انطلقت وجدانيات الشاعر – من خلال توظيفه لمظاهر الطبيعة ، والاتكاء عليها فى تشكيل وتجسيد ما يُحس ويشعر به من أحاسيس متباينة ينتاوب عليه فيها الفرح والهناءة والسرور والحزن والكآبة والضيق – مثلما بدا لنا خلال تلك التجارب التى تناولتها صفحات هذا المبحث بالدراسة والتحليل .. حيث رأينا الشاعر يُسقط حالته الشعورية والنفسية على مظاهر الطبيعة ، ويُشركها معه فى أحاسيسه ومشاعره .. فرأيناها –أي مظاهر الطبيعة- من ثم تتفاعل وتتجاوب معه .

ثانياً: اتسم معجم الشاعر – خلال وجدانياته – وفى الكثير الهائل منها بسمات القُرب والوضوح والدِّقة والإيحاء ، وخلا وسلم – فى معظمه – من الغرابة والغموض والخفاء والتعقيد .. وقد انعكس ذلك الوضوح فى المعجم الشعري- لدى صان الدِّين –على أفكاره ومعانيه- خلال وجدانياته ، حيث اتسمت هي الأخرى –

أعنى أفكار الشاعر ، ومضامينه بقُرب المأتى ، ووضوح المأخذ ، وابتعدت بالضرورة عن الغرابة والتعقيد ، والابهام والغموض.

ثالثاً: توفَّر معجم الشاعر – خلال وجدانياته على الكثير من الألفاظ والمفردات التى تتصل بعالم الطبيعة ، لاسيما فى تجاربه التى أشرك فيها الطبيعة – بمظاهرها المتنوعة فى تجسيد مشاعره ، وأحاسيسه المختلفة ، متأثراً فى ذلك بالشعراء الرومانسيين– فى معجمهم الشعري المعهود الحافل بالألفاظ والمفردات المستمدة من عالم الطبيعة.

رابعاً: انعكست شخصية الشاعر ذات الثقافة الأزهرية الأصيلة المتعمقة التى استمدها من نبع القرآن الكريم الفائض الهتَّان ، وبيان النبي عليه الصلاة والسلام الرائق الخلاّب ، وتشرُّبه فى رحاب الأزهر الشريف– منذ حداثة سِنِّه– حلاوة وطلاوة لغة القرآن الكريم ، وتمرُّسه بأساليب البديع والبيان ، وامتلاكه من ثم ناصية القول ، وزمام الكلام .. انعكست تلك الشخصية – بما تحمله من تلك السمات على أساليب الشاعر– خلال وجدانياته ، حيث كانت صدى ، وانعكاساً لشخصيته التى تتسم بالصراحة والوضوح والجدّ والالتزام ، فبدت أساليبه من ثم–فى الكثير الهائل منها – تجمع بين الصحة ، والسلامة اللغوية ، والجزالة ، والرصانة الأسلوبية ، والمتانة ، والدقة ، والإيحائية .. حيث وافقت التقاليد الموروثة للصياغة العربية ، وسلمت أساليب الشاعر – خلال وجدانياته كذلك –من الغموض والتعقيد ، وبرئت من الخفاء والتعمية ، حيث تتجلَّى فيها – كما ذكرت– شخصية صان الدِّين المُسلمة الملتزمة الأزهرية ذات الوضوح والجدّ والشفافية .

خامساً: زاوج الشاعر – خلال وجدانياته– بين استعمال الأساليب الخبرية والإنشائية ، وقد بدا من خلال دراسة تلك الأساليب مدى موافقتها ومواءمتها لما تَرِدِ للتعبير عنه من أفكار ، وما تؤدِّيه من مضامين ، كلُ حسب طبيعته ووظيفته .

سادساً: عُني الشاعر بعتبات ومُكونات وجدانياته من عناوين ومطالع وحُسن تخلُص وخواتيم .. حيث بدا حرصه الشديد على اختيار عناوينها ، وانتقاء كلماتها، وتزيين مطالعها بتلك الحِلية والنغمة الموسيقية البديعة " التصريع" – فى أكثر الأحايين– خلال وجدانياته ، واتسمت انتقالاته وخواتيم وجدانياته كذلك بسمات الحُسن والجودة والبراعة .

سابعاً: اقتصد الشاعر بعض الشئ فى توشية أساليبه ، وتزيينها ببعضٍ من المُحسِّنات البديعية من طباق ومقابلة .. وغيرها ، فجاءت أساليبه الموشاة بالبديع قليلة بعض الشيء ،ولعلَّ هذا يُعَدُ مؤشراً إلى طبع الشاعر السَّمح ، واتسامه بالصِّدق، وبُعده عن التكلُّف ، وأنَّ ما جاء من أساليبه مُوشىً بُحلَى البديع إنما هو من النوع الذى استدعاه المعنى ، واقتضاه المضمون .. حيث يجمع الشاعر فيه بين الإفادة والحُسْن .

ثامناً: اتكأ الشاعر فى أداء مضامينه ، وتجسيد أحاسيسه ، وتصوير انفعالاته –خلال وجدانياته –على لونين من التصوير ... أحدهما : التصوير الجزئي– الذى يتمثل فى التشبيهات ، والاستعارات ، والكنايات .. والآخر : التصوير الكُلي– الذى يتمثل فى: تلك اللوحات الكلية التى تتألف من عدة صور جزئية متآخية منسجمة ، والتى استوحاها الشاعر من مجالى عِدّة هي : النفس الإنسانية ، والمرأة ، والطبيعة ، حيث لا تخرج صور الشاعر الكلية عن كونها تُجسِّد تأملاته فى النفس الإنسانية ، والمرأة ، واستبطان بعض حقائقهما الجمّة الغزيرة ، وسبر أغوار عالمهما اللامتناهى

الأسرار ، والطبيعة – تلك التى يستجلى الشاعر– من خلال بعض لوحاته فيها – معالم قدرة الله عزَّ وجل ، وتكشف عن بديع صنعه سبحانه ، أو تلك التى يُوظف الشاعر عناصرها فى تجسيد ما ينتابه ويسيطر عليه من مشاعر متباينة ، وأحاسيس مُختلفة .. مُسقطاً تلك المشاعر عليها، ومُشركاً مظاهر الطبيعة فيها ، ومُغرقاً فى مجاليها ، وفاراً إليها ، ومُلْقياً نفسه بين أحضانها ، متخذاً منها أماً رءوماً ، وملاذاً آمناً يجد فيه الدَّعة والهناءة والطمأنينة والسكينة ، بعيداً فى ذلك عن زيف المدينة ، وضجيج المجتمعات ، مُشبهاً فى ذلك كُلِّه الشعراء الرومانسيين ، ومُتأثراً بطرائقهم فى التعبير ، والمضمون .

تاسعاً: اتكأ الشاعر قليلا فى تجسيد أحاسيسه ، وتصوير انفعالاته على الرمز .. حيث رأيناه يستعمله فى واحدة من وجدانياته ذات النبرة الحزينة الجيَّاشة، والإحساس الصادق المُفعم ، هي قصيدته الرامزة : " صمت الطيور" ، حيث يُشرك معه –خلالها– مظاهر الطبيعة– مُتمثلة فى الطير هنا– فى أحاسيسه ومشاعره ، مُتخذاً من صمتها مُعادلاً موضوعياً لذاته المرهفة المُثخنة ، ونفسه المُعنَّاة المُثقلة بآلام الوحشة والتجاهل والحرمان ، المُترعة بأحزان الغربة والصدام إزاء الواقع المائج بالمفاسد والشرور ، ساكباً مشاعره الحزينة المُنكسرة ، وخالعاً إياها على تلك الطيور الصامتة ، ومُتحدثاً بلسانها ، حيث توقَّف عن الشدو والتغريد بالشعر – حيناً– هو الآخر– مثلما هو الحال عند الشعراء الرومانسيين– فى تعاملهم مع الطبيعة ، وامتزاجهم واتحادهم بها .. وتحقُّق ما يُعرف بالمشاركة الوجدانية بين الشاعر ، وبين مظاهر الطبيعة .

عاشراً: تحققت الوحدة العضوية – بمفهومها الحرفي الدقيق – فى القليل النادر من وجدانيات الشاعر –وهي تلك التى تنحو منحى قصصياً ، وتنزع نزوعاً دراميا ، حيث انتفت تلك الوحدة العضوية عن الجمهرة العُظمى من وجدانيات صان

الدِّين – تلك التى تقوم على الغنائية ، وتُوغل فى الوجدانية ، وتُغرق فى الذاتية .. حيث تأتى على دفعات وموجات يتلو بعضها بعضاً ، وليس انفعالاً واحدا يُراعى فيه التتابع والتنامى والتسلسل المنطقي ؛ مما يناسبه ذلك اللون من الوحدة ، ويلائم طبيعته .. فى حين تحققت الوحدة الموضوعية فى الجُلّ الأعظم ، والكثير الهائل من وجدانياته.

حادى عشر : اتسمت عاطفة الشاعر – خلال وجدانياته – بسمات القوة، والصِدق ، والحرارة ، والانفعال والتدفُّق ، والجيشان .. ؛ ومردُّ ذلك إلى صدور تلك التجارب الوجدانية عن إحساس صادق ، ومعاناة حقيقية لدى الشاعر – إزاء مواقف حياتية ذاقها وأحس وشعر بها ، بعيداً فى ذلك عن التكلُّف والتصنُّع .

ثانى عشر : اتسمت عاطفة الشاعر – خلال وجدانياته أيضاً بسمات السموّ والشرف ، لاسيما تجاربه التى أبدعها فى المرأة ، حيث تمتزج فيها مشاعر الحُبِّ لها ، والتعلُّق بها ، بمشاعر الاحترام والتقدير لكيانها ، وإبداء مشاعر الحُب والرضا والسعادة والهناءة إزاء المرأة – فى حال إبائها وتصوُّنها وتمنعها وتحصنها بسياج الفضيلة الحصين ، وارتدائها ثياب العفة الوقور ، وفى المقابل إبداء مشاعر البغض والسُّخط والنفور إزاء المرأة فى حال تبرُّجها وسفورها ، وتخلِّيها بذلك عن العفاف والحجاب ..

وشاعرنا يبغى للمرأة –خلال تلك المشاعر المتباينة إزاءها– أن تكون عالية المكان .. بعيدة عن التبذُّل والامتهان ؛ مما يضفى على مشاعره إزاءها هنا صفات الصحة والسموِّ والشرف والرِّفعة ، فتغدو من ثم تجاربه من ذلك النوع المثالي السامي النبيل ، ومن الأدب العالى الرفيع الذى يبغى الطهر ، وينشد الفضيلة .

ثالث عشر : لم تسلم بعض عواطف الشاعر – خلال وجدانياته –لاسيما فى بعض تجاربه التى أبدى فيها شكواه وتألمه مما جدَّ وطرأ على أبناء زمانه من عادات سقيمة ، وسلوكيات مرضة تصطدم معها نفس الشاعر المُرهفة النبيلة .. لم تسلم بعض عواطف الشاعر فى ذلك الشأن من أن تتسم بسمة المرض والسلبية ، حيث يُصاحب الشاعر– خلال ذلك النوع من التجارب أحياناً– إحساس بالإحباط واليأس والتشاؤم والضيق والتجهّم والعُبُوس .. وغير ذلك من المشاعر التى تغرس فى نفوس المُتلقِّين شعوراً سلبياً ، لا إيجابياً .

رابع عشر : انعكس حُبّ الشاعر الشديد للتراث العربي ، واعتزازه الكبير بقيمه وتمسُّكه بتقاليده الموروثة على شكل قوالب وجدانياته ، لاسيما أوزانه تلك التى حافظ فيها على عمود الشعر العربي الموروث ، وضمَّنها تفعيلات الشعر الخليلي المعهود .

خامس عشر : زاوج الشاعر فى قوافيه بين القوافى المُوحَّدة ، والقوافى المُنوَّعة ، مُجدِّداً بذلك فى قوافيه ، ومُنوِّعاً فيها ، مُتأثراً فى ذلك بالشعراء الرُّومانسيين فى إبداعهم على شكل المقطوعات.

سادس عشر : اتسمت قوافى الشاعر فى الكثير الهائل منها بسمات الجودة والتمكّن ، والثبات والاستقرار فى مواضعها ، وسلمت بالضرورة من التكلُّف والقلق والاجتلاب ، حيث كانت فى الكثير الهائل ، والجُلّ الأعظم منها– مما استدعتها ألفاظ البيت الذى تَرِد فيه ، واقتضته معانيه استدعاءً تاماً ، واقتضاءً شديدا، حيث كان ما قبلها عادة مسوقاً إليها .. فغدت قوافى شاعرنا من ثم مُوافقة لحالته النفسية ، والشعورية المسيطرة عليه –خلال وجدانياته.

وفى النهاية .. فلله سبحانه الحمد والمِنّة ، ومنه جل وعزّ الفضل والنعمة ، أحمده عزّ وتقدَّس على توفيقه لى فى إتمام تلك الدراسة ، والوصول بها إلى تلك الصورة المُنشودة التى أرجو من ربِّى سبحانه رجاءً صادقاً أن تكون قد أعطت تصُّوراً دقيقاً عن الوجدانيات ، وصاحبها ، وأن تكون قد جلَّت فى تؤدة وأناة ، وتريث ، وتمهُّل –ذلكم العالم الوجداني فى شعر صان الدِّين ، سواء من حيث الوقوف على أبعاده الفكرية ، وسماته الفنية .. وإننى لا أدَّعى فى ذلك المقام الكمال .. إذ الكمال لله وحده ، وحسبى أننى قد اجتهت قدر مافى الوُسع والإمكان ،راجياً من ربّى سبحانه أن يُتوِّج هذا العمل بالتوفيق والقبول والنجاح ، وأن يجنبه الزلل والعُثار والخذلان .. وأن ينفع به ويُفيد الباحثين من مُحبِّى العربية المُخلصين ، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم ، فهو سبحانه أرجى مأمول ، وأكرم مسئول : ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ سورة الحديد من الآية (٢٩)

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾سورة هود من الآية (٨٨)

الباحث .

ثبت بمصادر الدِّراسة ، ومراجعها

- القرآن الكريم –كلام الله رب العالمين.

١) أبعاد التجربة الشعرية فى شعر:د/صابر عبد الدايم – تأليف :د/ صادق على حبيب –ط :دار الأرقم للطباعة والنشر – الزقازيق – ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

٢) الاتجاهات الأدبية والنقدية فى الشعر العربي المعاصر فى المنظور النقدي :د/محمود محمد لبده – ط دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

٣) اتجاهات الشعر العربي فى القرن الثانى الهجري : د/ محمد مصطفى هدارة – ط دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٣م.

٤) الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر :د/ عبد القادر القط – ط مكتبة الشباب – الطبعة السابعة – د.ت .

٥) أثر النقد الانجليزي فى النقاد الرومانسيين فى مصر : د/جيهان السادات – ط دار المعارف – ١٩٩٢م .

٦) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق :د/صابر عبد الدايم يونس – ط دار الشروق ، ٢٠٠٢م .

٧) الأدب الصوفي – اتجاهاته وخصائصه :د/صابر عبد الدايم يونس – ط – دار المعارف –الطبعة الرابعة – ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م .

٨) أدب المهجر – دراسة تأصيلية تحليلية لأبعاد التجربة التأملية فى الأدب المهجري : د/ صابر عبد الدايم يونس –ط دار المعارف – الطبعة الأولى – ١٩٩٣م .

٩) أساليب البيان والصورة القرآنية – دراسة تحليلية لعلم البيان : د/ محمد إبراهيم شادى – ط دار والى الإسلامية- ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .
١٠) أسس النقد الأدبي عند العرب : د/ أحمد أحمد بدوي – ط مكتبة نهضة مصر – بالفجالة – الطبعة الثانية – ١٩٦٠م .
١١) الأصول الفنية للأدب : د/ عبد الحميد حسين – ط مكتبة الانجلو المصرية – د.ت .
١٢) أصول النقد : أحمد الشايب – ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ – ط مكتبة النهضة المصرية – د.ت .
١٣) إلياذة هوميروس : تعريب سليمان البستاني –ط دار إحياء التراث العربي – بيروت – د.ت .
١٤) الإيضاح فى علوم البلاغة : للقزويني – ط مكتبة ومطبعة محمد على صبيح.
١٥) البديع من المعانى والألفاظ :د/ عبد العظيم المطعني – ط- مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الأولى- ٢٠٠٢م.
١٦) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة : الشيخ عبد المتعال الصعيدي – ط مكتبة الآداب – ١٤٢٠هـ- ١٩٨١م.
١٧) بلاغة الإيقاع فى القصيدة العربية : د/ عبد الباسط عطايا – طبعة- ١٩٩٥م.
١٨) البناء الفني للصورة الأدبية فى الشعر: د/ على على صبح –الناشر المكتبة الأزهرية للتراث – ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .
١٩) البناء فى شعر عمر أبو ريشة – رسالة ماجستير للباحث : محمد خالد عواد ، مخطوطة فى مكتبة كلية الآداب والعلوم – جامعة الشرق الأوسط .

٢٠) بناء القصيدة فى النقد العربي القديم فى ضوء النقد الحديث : د/ يوسف حسين بكّار – ط دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الثانية – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

٢١) البيان النبوي :د/ محمد رجب البيومي – ط دار الوفاء – المنصورة – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٢٢) تأملات نقدية فى قصيدة : أين الطريق إليك ؟ إبداع :د/ صابر عبد الدايم يونس – عرض وتحليل :د/حسن عطية أحمد طاحون – ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م

٢٣) التجديد الموسيقي فى الشعر العربي :د/ رجاء عيد – ط– منشأة المعارف – الإسكندرية – ١٩٨٧م .

٢٤) التجربة الإبداعية فى ضوء النقد الحديث – دراسات وقضايا – :د/ صابر عبد الدايم يونس – الطبعة الأولى ٢٠٠٨م – الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م .

٢٥) التجربة الشعرية بين النظرية النقدية والتطبيق النصِّي :د/ ناجى فؤاد بدوي – ط دار الأرقم بالزقازيق – الطبعة الأولى – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م .

٢٦) التحرير الأدبي :د/ حسين على محمد – ط مكتبة العبيكان – الطبعة الخامسة– ١٣٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

٢٧) التصوير الشعري : رؤية نقدية لبلاغتنا العربية : د/ عدنان حسين قاسم – ط مكتبة الفلاح – الكويت – الطبعة الأولى– ١٩٨٨م .

٢٨) تطور الأدب الحديث فى مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب العالمية الثانية : د/ أحمد هيكل – ط دار المعارف – الطبعة الخامسة – ١٩٨٧م .

٢٩) تطور الشعر العربي الحديث فى مصر من ١٩٠٠– ١٩٥٠:د/ماهر حسن فهمى – ط مكتبة نهضة مصر – الفجالة – ١٩٥٨م.

٣٠) جماليات القصيدة المعاصرة :د/طـــه وادى –ط – دار المعـــارف – الطبعـــة الثانية – ١٩٨٩م.
٣١) جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع : تأليف /أحمد بن إبـــراهيم بـــن مصطفى الهاشمي – ضبط وتدقيق وتوثيق :د/يوسف الصميلي – نشر المكتبـــة العصرية – بيروت – بدون تاريخ .
٣٢) حافظ وشوقى :د/طه حسين – ط مكتبة الأنجلو المصرية –د.ت .
٣٣) الحنين والغربة فى الشعر العربي الحديث :د/ماهر حســن فهمـــى – ط دار القلم – الكويت – الطبعة الثانية –١٩٨١م .
٣٤) خزانة الأدب وغاية الأرب : لتقي الدِّين أبى بكر بن حجَّة الحموي – شـــرح عصام شعيتو – ط– دار ابن حزم – الطبعة الأولى– ١٤٣٣هـــ– ٢٠١٢م .
٣٥) دراسات لغوية صوتية بلاغية :د/عبد الجواد محمد طبق – الطبعة الثانيـــة – ١٤١٧هـــ– ١٩٩٧م .
٣٦) دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني – مطبعة مكتبة الخانجي – ١٩٨٤م
٣٧) ديوان أبى شادى – أنين ورنين – مطبعة التعاون – الطبعة الأولى– ١٩٣٣م ، وديوانه : الشُعلة – مطبعة التعاون – الطبعة الأولى –١٩٣٣م .
٣٨) ديوان أبى فراس الحمداني – ط دار صادر – بيروت – د.ت .
٣٩) ديوان : أعاصير وأنسام : شعر محمد عبد الرحمن صان الدِّين – ط الهيئـــة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨م .
٤٠) ديوان : الإنسان فى الميزان – خماسيات شعرية – شعر محمد عبد الـــرحمن صان الدِّين – ط دار المعلمي للنشر – الرياض ١٤١٣هـــ– ١٩٩٣م .
٤١) رسائل الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون – ط مكتبة الخـــانجى – بـــدون تاريخ.

٤٢) رسائل القاضى الفاضل- دراسة تحليلية : د/ محمد عبد الـرحمن عطـالله – تقديم: د/محمد زغلول سلام – الناشر- دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ٢٠٠٠م .
٤٣) الرمز والرمزية :د/ محمد فتوح أحمد – ط دار المعارف – الطبعة الثالثة – ١٩٩٤م .
٤٤) الرومانتيكية :د/ محمد غنيمى هلال – ط نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – د.ت .
٤٥) زهرة التفاسير : الإمام أبو زهرة – ط دار الفكر – د.ت .
٤٦) الزينة فى المصطلحات الإسلامية والعربية : أبو حاتم الرازى – حسين فيض الله – ط دار الكتاب العربي – القاهرة ١٩٥٧م .
٤٧) الشاعر محمد عبده عزّام – مجلة الثقافة- العدد : مائة واثنان وسبعون – ١٩٤٢م .
٤٨) شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة :أ/ محمد الطاهر بن عاشور – طبع الدار العربية للكتاب – ليبيا – وتونس- ١٩٧٨م .
٤٩) شعراء الجاهلية بين الأوطان وبلاط الملوك :د/ محمد أحمد سلامة – ط دار الطباعة المحمدية – القاهرة – الطبعة الأولى –١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
٥٠) الشعراء وإنشاد الشعر :د/على الجندي- ط دار المعارف – مصر – ١٩٦٣م
٥١) شعر ابن حبوس – دراسة فنية – رسالة دكتوراه – للباحث / عبد الحافظ إبراهيم- مكتبة كلية الآداب – جامعة القاهرة .
٥٢) الشعر العربي المعاصر – روائعه ، ومدخل لقراءته : د/ الطاهر أحمد مكي – ط دار المعارف – القاهرة – ١٩٨٦م .
٥٣) شعر محمود حسن إسماعيل – دراسة فنية :د/محمد على هدية- ط مكتبة مدبولى – ١٩٨٤م .

٥٤) الشعر والشعراء : ابن قتيبة – طبعة دار المعارف- ١٩٨٣م .

٥٥) شعراء ودواوين :أ/ أحمد مصطفى حافظ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٠م .

٥٦) صحيح مسلم : الإمام : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى – ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٥٧) الصورة الفنية عند النابغة الذبياني : خالد محمد الزاوى – ط الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان – دار نوبار للطباعة – الطبعة الأولى- ١٩٩٢م .

٥٨) الصورة الفنية فى شعر أبى تمام :د/ عبد القادر الرُّباعى- ط الأردن – ١٩٨٠م.

٥٩) الصورة والبناء الشعري :د/ محمد حسن عبد الله – ط دار المعارف – القاهرة-١٩٨١م .

٦٠) الطبيعة الرومانسية فى الشعر العربي الحديث :د/ أحمد عوين – تقديم :د/ سعيد حسين منصور – الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر – الطبعة الأولى – ٢٠٠١م .

٦١) العذرية البدوية فى بوح عبد العزيز سعود البابطين الشعري – قراءة نقدية فى آليات الإبداع ومعطياته : د/ صبري فوزى أبو حسين – مطابع الولاء الحديثة- ٢٠٠٧م .

٦٢) عضوية الخيال فى العمل الشعري : رؤية تحليلة نقدية : د/ عبد اللطيف محمد الحديدي – ط مكتبة المدينة – الأردن – الطبعة الأولى – ١٩٩٧م .

٦٣) عضوية الموسيقى فى النص الشعري :د / عبد الفتاح صالح نافع – ط مكتبة المنار – الأردن- ١٩٨٥م .

٦٤) علم المعانى : د/ درويش الجندي – ط دار نهضة مصر للطبع والنشر – د.ت .
٦٥) العمدة : لابن رشيق – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – ط دار الطلائع للنشر والتوزيع – القاهرة – الطبعة الأولى– ٢٠٠٠ م .
٦٦) عناصر الإبداع الفني فى شعر الأعشى : د/ عباس بيومي عجلان – ط دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية– ١٩٨٩م .
٦٧) عن بناء القصيدة الحديثة : د/ على عشرى زايد – الناشر مكتبة الشباب – ط دار الفصحى للطباعة والنشر– ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
٦٨) العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي :د/ محمد فكرى الجزار – ط الهيئة العامة للكتاب – ٢٠٠٦م .
٦٩) عود على بدء: دراسة فى إيقاع الشعر : د/ شفيق عبد الرازق أبو سعدة – الطبعة الثانية –د.ت .
٧٠) عيار الشعر : محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي – ط دار الكتب العلمية – الطبعة الثانية ٢٠٠٥م.
٧١) فصول فى الشعر ونقده :د/ شوقى ضيف – ط دار المعارف – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٨٨م .
٧٢) فى الأدب الحديث : أ/ عمر الدسوقى – ملتزم الطبع والنشر – دار الفكر العربي – د.ت .
٧٣) فى الأدب والنقد : د/ محمد مندور – طبعة نهضة مصر – ١٩٨٨م .
٧٤) فى محيط النقد الأدبي : د/ إبراهيم أبو الخشب – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – د.ت .
٧٥) فى ميزان النقد الأدبي : د/ طه مصطفى أبو كريشة – ط المليجي – ١٩٨٦م .

٧٦) فى النقد الأدبي :د/ شوقى ضيف – ط دار المعارف مصر – الطبعة الرابعة – د.ت .

٧٧) فى النقد الأدبي : د/ عبد العزيز عتيق – ط دار النهضة العربية – بيروت – ١٩٧٢م .

٧٨) فى النقد الأدبي الحديث : د/محمد عبد السلام صقر – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى –١٤٢٠هـ – ١٩٩١م .

٧٩) فى النقد الأدبي عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري : د/ محمد طاهر درويش– ط مكتبة الشباب– ١٩٧٨م.

٨٠) القاموس المحيط : مجد الدِّين الفيروزبادي – ط مطبعة السعادة – بمصر – د.ت .

٨١) قراءات فى مناهج الدراسات الأدبية : د/ حسين الواد – ط سراس للنشر – تونس – الطبعة الأولى – ١٩٨٥م .

٨٢) القصيدة الرومانسية فى مصر ٩٣٢– ١٩٥٢ :د/يسرى العزب – ط– الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٦م .

٨٣) القصيدة العربية – عروضها فى القديم والحديث : د/محمد عبد المنعم خفاجى –ط المكتبة الأزهرية للتراث د.ت .

٨٤) قضايا الشعر المعاصر : نازك الملائكة – ط دار القلم للملايين – الطبعة الحادية عشرة – ٢٠٠٠م .

٨٥) كتاب شوارد وسوانح : بقلم الشاعر / محمد عبد الرحمن صان الدِّين – تصدير د/ محمد عبد المنعم خفاجى – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٩م .

٨٦) كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر : لأبى هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) – تحقيق :د/ على محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٩هـ – ١٩٨٦م .
٨٧) كتاب القوافى : لأبى الحسن على بن عثمان الإربلي –دراسة وتحقيق :د/ عبد المحسن فرج القحطاني – الناشر – الشركة العربية للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .
٨٨) لسان العرب : جمال الدين بن منظور : ط دار المعارف – د.ت ، ط دار الحديث – القاهرة ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م .
٨٩) مجلة الأزهر : الأعداد : جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ– فبراير ومارس ١٩٨٦م ، صفر ١٤٠٨هـ – أكتوبر ١٩٨٧م ، ذو القعدة ١٤١٤هـ – ابريل ١٩٩٤م – شوال ١٤١٤هـ – مارس ١٩٩٤م ، شوال ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م ، المحرم ١٤١٩هـ – مايو ١٩٩٨م ، شوال ١٤٠٥هـ – يونيو ويوليو ١٩٨٥م ، شوال ١٤٠٨هـ – مايو ويونيو ١٩٩٨م ، جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ – فبراير ومارس ١٩٨٦م.
٩٠) مجلة أبولو – المجموعة الكاملة – المجلد الأول – دراسة وتحقيق د/ عبد العزيز شرف ، د/محمد عبد المنعم خفاجى – ط ٢٠٠٣م .
٩١) مجلة عالم الكتاب – عدد يناير – ١٩٨٩م .
٩٢) مجلة القافلة – عدد إبريل ١٩٨٨م .
٩٣) محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة : د/ صابر عبد الدايم يونس – ط دار المعارف – د.ت .
٩٤) مختار الصحاح : محمد بن أبى بكر عبد القادر الرازي – ط المطبعة الأميرية – ١٩٣٢م .

٩٥) مدخل إلى دراسة العنوان فى الشعر السعودي :د/ عبد الله بن سليم الرشيد – ط نادى القصيم الأدبي – بريدة – الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ .

٩٦) المُرشد إلى فهم أشعار العرب : د/ عبد الله الطيب – ط مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٥٥م ، ط دار الفكر – الطبعة الثانية ١٩٧٠م .

٩٧) مروان بن أبي حفصة – شاعريته وشعره : د/ محمد عارف محمود حسين – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م .

٩٨) المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير : للرافعي – تأليف العالم العلامة / أحمد بن محمد المقري الفيومي – ط المطبعة الأميرية بالقاهرة – د.ت .

٩٩) المعجم الشعري عند حافظ إبراهيم – أ/ أحمد طاهر حسين – مجلة فصول – ١٩٨٣م .

١٠٠) مقدمة فى النقد الأدبي :د/على جواد الطاهر – ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٧٩م .

١٠١) مقدمة المرزوقي لشرح ديوان الحماسة – تحقيق أ/ عبد السلام هارون – طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥١م.

١٠٢) من أساليب العربية : التعجب والمدح والذمّ :د/ إمام حسن الجبوري –ط مطبعة الأمانة – الطبعة الثانية – ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

١٠٣) مناهج البحث الأدبي – دراسة تحليلية تطبيقية :د/ سعد ظلام – ط مكتبة نهضة الشرق – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

١٠٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني – تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة – ط دار الغرب الإسلامي ، ط دار الكتب الشرقية – الطبعة الثانية – ١٩٨١م .

١٠٥) موسيقى الشعر :د/ إبراهيم أنيس – ط مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٦٥م ، الطبعة الخامسة ١٩٦٥ م – الطبعة السادسة – د.ت .

١٠٦) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطوُّر : د/صابر عبد الدايم – ط مكتبة الخانجى – القاهرة – الطبعة الثانية ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م ، ط دار الكتاب الحديث- ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م .
١٠٧) موسيقى الشعر: د/ حسنى عبد الجليل – ط الهيئة العامة للكتاب – ١٩٨٦م .
١٠٨) موسيقى الشعر قديمه وحديثه :د/ عبد الرضا علي- ط دار الشروق للنشر والتوزيع – عمَّان – ١٩٩٧م .
١٠٩) ميزان الذهب فى صناعة شعر العرب: السيد أحمد الهاشمي – ط مؤسسة خليفة للطباعة –د.ت.
١١٠) نظرية الشعر فى النقد العربي القديم : د/ عبد الفتاح عثمان – ط مكتبة الشباب بالمنيرة – ١٩٨١م.
١١١) النقد الأدبي الحديث :د/ محمد غنيمى هلال – ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – ١٩٩٧م .
١١٢) النقد الأدبي فى آثار أعلامه :د/ حسين الحاج – ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – ١٩٩٦م .
١١٣) النقد الأدبي فى مذاهبه وقضاياه :د/ على عبد الفتاح على عفيفي – طبعة- ١٩٨٧م .
١١٤) النقد التطبيقي والمُوازنات : د/ محمد الصادق عفيفي – الناشر مؤسسة الخانجي – مصر – ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .
١١٥)الوساطة بين المتنبى وخصومه : للقاضى على عبد العزيز الجرجاني – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوي – ط المكتبة العصرية – بيروت – د.ت .